جمال الغيطانى

رسالة البصائر فى المصائر

رواية



دار الشروق

إهـــــــــداء٢٠٠٨
دار الكتب و الوثائق القومية
القاهرة

رسالة البصائر في المصائر

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٨

رقم الإيداع ٢٢١٩١/٢٠٠٧
ISBN. 978-977-09-21812-6

٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

جمال الغيطاني

رسالة البصائر في المصائر

رواية

دار الشروق

﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا
وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾

صدق الله العظيم

المحتويات

مُستهل

يوما ما، لحظة ما، في موضع ما، لاتعيه الآن ذاكرتي المجهدة المثقلة، وقعت عيناي على هذه العبارة، لافتة؟ ربما في كتاب لا أدرى عنوانه الآن؟ ربما في مدخل مسجد قديم، أو على جدار لبيت عتيق، أو حفر على مسند مقعد بال؟

ربما . .

لكنني أرددها دائما، وأخطها على وريقاتي عند خلوتي، أزين كلماتها وأموِّج حروفها، حقا . . ما شاء الله كان، وإلا هل يمكن لنا تبديل ما جرى، ما كان؟ وإن جاز التحرز للآتي، وأخذ الحوطة مع تحسّب المفاجآت والمجهول، ومالا ندريه فسبحان من تنزَّه عن تأثير الزمان، وتعالى من هو كل يوم في شأن.

فيا أهل الوقت الذي لا نعرف من أمره شيئا، يا أهل أزمنة لن نبلغها، ستقصر عنها أعمارنا، يا من ستسعون في دهر خلا منا، ومن أثارنا، وما يمكن أن يشير إلينا. يا من ستسعون في دنيا لن نتنفس هواءها، لن نبصر مباهجها، لن نعرف ملذاتها، يا من لم تعرفوا ما عرفناه، ولم تشهدوا ما عشناه، ولم تعاينوا ما عايناه، اعلموا أن ما مر بنا ثقيل، وأن ما عرفناه مضن، وما قاسيناه صعب مر. هذه السبعينيات من زماننا الكَدِر عقد انقلاب أحوال، وأمور

غريبة، وبلايا ثقيلة، وتحولات شملت جل القوم، كذا ما تلاها، وقد عاينت ذلك، قاسيته، تضاعف همي، ناء وقتي بما عرفته.

يا من ستقع أبصاركم على تدويني، اعلموا أن انشغالي بالمصائر قديم، موغل في مكنوني، عندما كنت صبيا، غضا بعد، لا أعي وقع مرور الأزمنة، ولا يطرقني هاجس الموت أو الفوت، كنت أتطلع إلى أقراني، سائلا نفسي:

ـ أين سيكون كل منهم بعد عشر سنوات، أو بعد عشرين؟

وقتئذ كان العمر يبدو وكأنه ممتد أبدًا، والآتي بلا حد. والنظر شاخص إلى الآتي، إلى المقبل، أما وقد مررنا بما مررنا به، وعرفنا ما عرفناه، وتبدلت أمور ظننا لن تبيد أبدا، وصار المتبقي ـ يقينا ـ أقل مما مضى، صرت أمعن النظر فيما جرى، أكثر من التطلع إلى ما سيجيء.

مرة حلقت راكبًا طائرة صغيرة، مروحية، فوق جبال آسيا الصغرى، جبال لم تطأها قدم، وخيوط نحيلة من المياه ما هي إلا بدايات أنهار متدفقة هادرة، أطلت النظر إلى مرتفعات كردستان المكسوة بالثلوج اثنى عشر شهرا، خطر لي، عندما كنت صغيرا ألعب في هذه الحارة القديمة من قاهرتنا القصية العتيقة، هل تخيلت وقتئذ أنني بالغ هذه الفضاءات يوما؟ أو غيرها من بقاع قصية وصلت إليها، وجلت فيها؟ لو أطلعني ثقة على ما سيكون لما صدقت، كانت حدود العالم عندي وقتئذ لا تتجاوز مائة ذراع، والوصول إلى الميدان القريب يبدو مغامرة غير مأمونة، مجهولة العواقب ولكن.. ما شاء الله كان.

عندما أستعيد وجوها عرفتها في الحارة في الحي القديم، في مدرستي الابتدائية، الثانوية، تتبعي الشعاب التي سلكت، والطرق التي أدت، أتعجب، غير أنني أنثني قائلاً: «لكل وجهة هو موليها».

لكن مع حلول السبعينيات التي قدر لي أن أمر بها، أن أشهدها، لاحت المنعطفات المفاجئة، والمنحنيات الحادة، والانقلابات العاكسة، مما بدّل وغيّر، حتى البديهيات انكفأت.

هنا.. خطر لي أن أقيد ما أعرفه، ما عاينته عن قرب، أو ما ألممت به عن بعد، أن أثبت شيئا من أخبار قوم دنوت منهم، وأحوال بعض من سمعت حديث ثقات عنهم، أقدمت والله بدافع مني لم يطالبني بذلك صحب أو إخوان، لم أسع بُغية كسب أو شهرة، إنما شرعت والقلب فيه ما فيه، وعندي أمل وتوق إلى تبدل الأحوال في عودة الأمور إلى أصولها، واتصال المصابّ بينابيعها، والأشياء إلى طبائعها، يقويني يقيني بتبدل الأحوال، فما من شيء باق أبدا، وكما تبدلت مصائر في الخضم، وفنيت أعمار في اللّجة، وانقضت أوقات قبل الأوان، وهوت أغصان كان ممكنا أن تورق، وأتلفت أرحام كان ممكنا أن تفيض على البشرية بمدد، كما جرى ذلك، يمكن مع الصيرورة اعتدال الأحوال، حتى وإن لم أشهد ذلك في وقتي! آمل يا من لم تفدوا بعد إلى عالمنا هذا أن تبلغكم صُحفي، واعلموا أنني قصصت طرفا من بعض، فلست ألملم المحيط، لم أتبع منهجا مسبقا ولم ألتزم أسلوبا معينا، وربما رأى المتعجل، تباعد الحلقات، وتنائي

الضفاف، أقول عندئذ: أمعن البصر، إنما أردت الإخبار عن بعض من عرفت، ليس بينهم ملك أو رئيس، أو صاحب سلطان. ممن تقلبت بهم الأحوال فجأة، ربما بدا كل منهم قصيا عن الآخر، ربما تقاطعت أحوال بعضهم، أو تماست مصائرهم فى لمح خاطف مارق، لكن هذا ليس بالأساس، إنما رمت الإنباء عن جوهر وقت، لن يصلكم منه إلا عناوين مقتضبة، وآثار خفية لا تبين لكنها فاعلة.

اعلموا أننى آثرت الحيدة، ألا أتدخل فى العموم، لا أجاهر إلا إذا لزم التنويه، وغمض القصد، واستبهم الأمر، وإنى لطامع فى العفو عند كل تقصير يلوح، أو عند أى موضع يكمن فيه سوء فطنة، فلن يشفع لمن كان مثلى، إلا الاطلاع على أحوال نالت منى، وأقْصت قدرا من عمرى، ونبل نواياى، حتى وإن حادت عن قصدها الآمال، وعذرى أن الإنسان، جوّاب، وثاب!

أبدأ بحكاية حارس الأثر

. . هو عاشور بن مهدى النعمانى، حارس قبة قلاوون وخفيرها، ينادونه منذ القدم «عم عاشور»، حتى أولئك الذين يبدون أكبر منه سنا، هادئ، راسخ الحركات، مقتصد اللفظ، وافر الشيبة، يميل إلى بدانة، أسمر اللون، غامقه، بطيء الخطو، خفى النظر، يرتدى معطفا فوق جلباب صوفى فى الشتاء، ومعطفا من قماش خفيف في الصيف، على رأسه طاقية، فى الشتاء وخلال الأيام الباردة التى تهب فيها رياح مثيرة للأتربة، والقشعريرة، يلف شالا حول رقبته، عندئذ تنأى نظراته، وتبدو قادمة من بعيد.

اعتاد القوم حضوره الدائم، نادرا ما يبتعد عن القبة، إذا مشى فإلى بائع الشاى الواقف بجوار سبيل محمد على باشا المواجه لجامع الناصر محمد بن قلاوون، الملاصق للقبة، يقعد فوق الدكة الخشبية، يرشف الشاى، عيناه متجهتان دائما إلى مدخل القبة، حتى إذا لمح زائرا أجنبيا أو مفتشا من رجال مصلحة الآثار، أو غريبا أيا كان، يدع ما بيده، ويتجه مسرعا.

حاضر، موجود، لا يغيب عن المكان، يراه الساعون أول النهار، أو القافلون قبل المغيب، أطفال الحى اعتادوا رؤيته حتى شبوا وتفرقوا إلى الجامعات، أو المهن المختلفة، بعضهم تزوّج وانتقل إلى أحياء بعيدة، إذ يرجع أحدهم لزيارة أسرته، أو يمر مرورا عابرا يقبل عليه متهللا، فلكم أثار حضوره ذكريات نائية، واستدعى من الماضى المندثر صورا شتى، وحنينا ضافيا عند من شبوا، وابتعدوا، أو أخذتهم السبل.

عُرف بابتسامته وهدوئه وصوته الذى لا تتغير درجته، وانتقال الألفة منه إلى محدثه، حتى لتطيب الوقفة معه، غير أن ما اشتهر به ملازمته للمكان، حتى ليُرى عند الفجر قاعدا أمام البوابة المغلقة وحيدا تماما، فى هذه المنطقة من شارع المعز، والتى يسودها الظلام والوحشة بعد نزول الليل، فما من بيوت مسكونة قريبة، ما من محال تجارية، يتجاور البيمارستان بمسجد المنصور وقبته، ومسجد الناصر، وجامع برقوق، هذه المسافة من الشارع وحدة متضامة من زمن عتيق مندثر، تجاهد البلى، وعاشور حارسها، يراه الساعون إلى صلاة الفجر فى مسجد سيد الشهداء مولانا الحسين، يحيونه ولكنهم لا يتوقفون معه، كأن خشية تدركهم، تبدو وحدته مخيفة، ولزومه المحل غريبا، حتى قيل إنه يؤاخى جنّية خفية، إنه يتقن سبع لغات، وقيل أكثر، مع أنه يخط اسمه موقعا بصعوبة، وهذا ليس غريبا هنا فى منطقة يقصدها الأجانب من كل صوب، خالطهم زمنا، بعضهم عابر، يكتفى بطلّة موجزة، وآخرون يجيئون للمكث أوقاتا طويلة، يبقى الواحد منهم

ساعات أمام ركن قصى داخل القبة، منمنم مزخرف، أو أمام مربع من الرخام الملون، أو لوحة خط، أو حشوة خشبية، أو عمود سامق، يغيب أحدهم سنين ويرجع، أول ما يقصد السؤال عن عم عاشور، يسارع إلى لقائه، لكم تلقّى من خطابات أرسلت إليه من بقاع شتى، كان ينتظر قدوم من يفهم اللغة حتى يقرأ له المكتوب، إنه يتكلم بالألسنة الأجنبية، لكنه لا يقرأ.

عم عاشور قديم الحضور والإقامة، له بالناس صحبة أكيدة، ومحبة، وعندهم له ود مقيم حتى وإن لم تتصل الجسور المتينة، فمع ما يصدر عنه من ود، لم يكن من السهل مخالطته، مع أنه لم يصد مخلوقا، ولم يبد الجفوة، ولم يصدر عنه اللفظ القبيح إلا مرة واحدة، وإنى لمورد تفاصيلها بعد حين.

وعندما دخلت سنة ألف وتسعمائة وست وسبعين، كان قد أمضى عمرا بأكمله وأتم الخدمة، أنهى المدة، وجب عليه أن يمضى مخليا مكانه لآخر يقوم بعمله، إلا أن رجال المصلحة القدامى سعوا وتوسطوا، وكتبوا لمن بيده الأمر، حتى نجحوا فى استصدار قرارا بمد خدمته بعد سن الستين، فما من أحد يعرف القبة ومكنوناتها ويحافظ عليها مثله، ثم إنه شبه مقيم بها، وما من مكان آخر له، منذ الأربعينيات رتب له المرحوم العلامة حسن عبد الوهاب سكنا فى بيت عتيق قريب من البيوت التى ضمتها مصلحة الآثار منذ الثلاثينيات عندما كانت تعرف بلجنة حفظ الآثار العربية، بيت مواجه للقبة، على شمال السالك إلى ميدان بيت القاضى، يُعرف بمنزل محب الدين، آخر من امتلكه قبل اعتباره أثرا عاما يجب المحافظة عليه جميل الواجهة، رقيقها، متعدد

الغرف والقاعات، لم يشغل منه إلا حجرة واحدة، إلا أنه لم يهمل الباقى، داوم على تنظيف الأركان القصية والمداخل، وإزالة أعشاش العنكبوت، وما تخلفه الطيور فوق المشربيات، يكنسه مرة كل يوم، يمسح بلاط المبنى كله صباح كل جمعة، تتصدر حجرته مصطبة حجرية فوقها مرتبة وأغطية، أما ملابسه فمصفوفة فى قُفة بالية عتيقة، حال لون خوصها، إنها القفة التى حملها أبوه عند نزوله مصر أول مرة، رفض أن يدق مسامير فى الجدار يعلق عليها جلابيبه ومعطفيه الشتوى والصيفى، حتى لا يؤذى الأثر، لتلك القفة عنده معزَّة، إنها من رائحة الوالد، بل إنها كل ما خلفه له، لسبب ما لم يبح به قط، ربما لجهله به، أو بقصد الكتمان، طفش الأب من بلدته النائية مصطحبا وحيده، نزلا مدنا لم يسمعا عنها، وخرجا من قرى فى عز الليل، واقتربا من بلاد صغيرة والغروب مكتمل، وهجًّا منها قبل انبلاج الفجر، حن عليهما أغراب، وتجاهلهما ذوو قربى، كان والده يخشى الآخرين، ينأى عن المجالسة، يردد دائما أن الاقتصار عبادة، لم يثق ولم يأمن إلا لشخص واحد، من عطف عليه، وأمنً له لقمة العيش، من ألحقه بخدمة القبة والمسجد، وداراه فيهما، حسن أفندى عبد الوهاب الطيب المتواضع المتبحر فى علمه، من يصغى إليه كبار العلماء، أجانب ومصريين فى رهبة واحترام، عليه رحمة الله، كان عند الوالد دراية بنحت الأحجار القديمة، قيل إنه كان يعلِّم الصبية الصغار فى أقاصى الصعيد، تعب لطول هجاجه، وانتهى به تغربه إلى حسن عبد الوهاب، رجاه أن يلحقه بمكان قريب من مثوى الحسين الحبيب، وعندما استقر فى قبة قلاوون رضى وهدأ، بعد

أن أمضى زمنا لا يحتويه موضع، قضاه نقالا، فى هجاج خفى الأسباب، ومما ردده عم عاشور دائما أن والده لم يفته أداء فرض واحد فى مسجد الحسين، ومهما بلغ انهماكه واستغراقه فعند اقتراب موعد الصلاة يدع ما فى يده، يتجه فورا إلى الضريح، فى الفجر يسلك الطرق الخاوية، ميدان بيت القاضى، شارع بيت المال، إذ يلوح المسجد عند المنعطف أمام مدرسة خان جعفر، يلبى، يمد الخطى منشرح الصدر، رضىّ البال، لم يفارق ابنه عاشور قط، يده فى يده دائما، حتى عند ذَهابه، لشراء طعام الإفطار، كان يخشى من شىء لم يفصح قط عنه، لكنه لم يهدأ إلا بقربه من ضريح الإمام الشهيد، هما فى أمن مما يتهددهما ما بقيا بقربه، مرة واحدة كان يفارق فيها ابنه، مرة لا غير، إذ إنه وهب جهده صباح كل جمعة لتنظيف ميضأة مسجد الحسين، ونفض الغبار عن العتبات المؤدية إليه، كان لا يصحب ولده، يتركه قاعدا، بجوار الضريح، يوصى عليه الشيخ الضرير، حارس المكتبة القرآنية ثم يمضى لتأدية الخدمة.

لم يتخلف قط، لم يرحل إلى أى جهة أخرى، حتى جرى ما جرى ذات نهار لم يكن على بال أو فى خاطر، لا ينساه عم عاشور أبدا، طلع الوالد إلى المئذنة العتيقة، كان عليه أن يثبت أحجارا جديدة بعد تسويتها وصقلها، وفى عتمة غير غميقة مد يديه، طالت يده حية كانت تلبد هناك، صرخ:

- «أه يابوى».

لم يحط منطقا بعدها، لم يلحقه أحد، لم يوقف سريان السم

داخله أحد، لم يلحقه ترياق ولا علاج، وعندما سكن جسده متيبسا مزرقا، هامدا بعد طول تغرب وخشية، بدأت وحدة عم عاشور، واكتمل يتمه، حار، لم يدر إلى أين يولى؟ وأين يقصد، وأى باب يطرق؟ لكنّ حسن أفندى عبد الوهاب أمّن له بقاءه، وعلى يديه استقر أمره، وجرى رزقه، تعهده العالم الأثرى الطيب ـ عليه رحمة الله ـ ورعاه، أما عاشور فلزمه، وتعلم منه، وأخذ عنه ما يستعصى على الحصر، استمر بالقبة، أصبحت حدود دنياه وخلاصة معرفته، يجول بها نهارا، ويفتش أركانها ليلا، ينقب عما يشوب نظافتها، لا يطيق عقب سيجارة ملقى، حتى إذا توافد المغيب، وغمر الشارع ضباب شفقى، ولاح المارة كأنهم يسعون عبر أزمنة خفية ولا يقطعون مكانا، حركتهم على حدود المادة المحسوسة، تبدأ وحدته الليلية، يغلق البوابة الضخمة المطعمة بالنحاس، التى عبرت عصورا وحقبا، يبقى بمفرده داخل هذا التكوين الهائل من المعمار، يفترش الأرض وراء البوابة مباشرة، يأتنس بأصوات الطريق، وقع خطى، اقتراب مارة ثم ابتعادهم، يميز بينها خطوات عسكرى الدورية، خطى بطيئة، أخرى حثيثة، خطى مقدمة تعرف إلى أين تسعى، أخرى وجلة مترددة، بعضها اعتادها، أحيانا يتوقف البعض على مقربة، يتبادلون حوارا، إما محتدما اقتضى تمهلا، فوقفة، أو هامسا قبل مواصلة السير، لا يخطر ببال العابرين أن وراء هذا الباب خلف حجب العتمة تلك، من يصغى، ويحذر، ويتأهب، ويأتنس بمن لا يعرف، ولكم سمع، ولكم أصغى مستوفزا، متنبئا، لا يبدل رقدته إذا ما ابتعد الحديث عن القبة والمسجد، أتقن أصوات الطريق والمكان،

اقتضى الأمر زمنا حتى يتعرف على همسات القبة، وهسهسات الأركان القصية، وطقطقات الأخشاب، لم يدرك إلا مصادر قلة منها، كذا منابعها، مساربها، مساراتها، وظل البعض مستعصيا عليه، غير مبرر، هذه الفتحات، تلك الثقوب، الكسور فى الزجاج المعشق، مرور الهواء هنا غيره هناك، وصدى الصوت القادم من بعيد لا يتشابه إذا ما تكرر، للصيف أصوات، وللشتاء أصداء، للحر ضجيج وللبرد كمون وخواء، وغرابة أصواته وأصداء لياليه، أما إيقاع المطر فلا يتشابه، الرخة غير الهطلة، أما السيل فمغاير تماما، أضر القطر بالمبنى ما كان خافتا رفيعا، أما الزواحف والفئران والعرس والقطط فلكل منها مجمل وتفصيل، ربما يرجع جمود ملامح عم عاشور إلى هذه الفترة المبكرة من عمره، والتى كان ينفرد خلالها بالتكوين كله، يتوحد به، ليس بالمكان المبهم فقط، إنما بزمنه الخالى، يلملم نفسه فى العتمة ويحوم مهومًا عند حواف العصور النائية، كأن هجاجه الطويل انتقل إلى الأزمنة، على مقربة منه يرقد السلطان منصور منشئ القبة، وابنه الناصر، وشقيقه خليل، يعرف من حسن أفندى عبد الوهاب أن الناصر محمد كان به عرج، فيوشك أن يلمح ذلك، فى بقايا الرقدة الأبدية، أو فى الظلال التى تجوب الفراغ بعد اكتمال الليل، حتى بعد انتقاله إلى بيت محب الدين الذى خصصه له حسن عبد الوهاب ـ رحمه ـ الله لم ينأ عن القبة، كان يقوم فى عميق الليالى، يتطلع من نوافذ البيت الضيقة المغطاة بخشب الخرط الدقيق إلى القبة، إلى هيئتها الليلية المهيبة الغامضة، إلى توحدها وانفصالها عن العتمة فى الوقت عينه،

يطيل النظر ثم ينثنى إلى مرقده، أو ينزل ليتجه إلى قعدته أمام الباب، وكأن أمرا خفيا صدر إليه.

لم يكن يثق، ولم يتخل عن صمته، أو اقتصاده فى الكلام إلا عند مواجهة من عطف عليهما، من جرى على يديه رزق والده، ثم هو من بعده، العالم العلامة: حسن أفندى، صاحب المؤلفات الجامعة، والكتب النادرة، بعضها نفد حتى ليعد أندر من المخطوطات، يدعو له فى خلوته الليلية، وفى خضم مشغوليته.

عندما سأله عبده المزملاتى فى حمام السلطان المجاور، عما إذا كان يخشى العفاريت والجن، جاوبه قائلا: إن العفاريت الحقيقيين هم بنو آدم ثم قال: إن الجن لا يؤذى مؤمنا، وإن مولانا الحسين يحمى المنطقة، وإنه وصل ما انقطع برحيل والده، فلم يتخلف عن المضى إلى الضريح صباح كل جمعة لكنس جنباته، وتنظيف الميضأة، وأضاف من عنده تقديم الماء إلى الظامئين من قُصَّاد المولى الحبيب.

غير أن تاجرا للفحم يقع دكانه على مقربة، وصاحب متجر يبيع أدوات المقاهى. أكد أن عاشور يأتنس بالجن فى المبنى، وأنه يحب واحدة من الجن بعد أن تمثلت له بشرا سويا، وإنها تتجلى له بعد صلاة العشاء، وتمضى الليل معه حتى ما قبل أذان الفجر، عند ظهورها تتبدل القبة المعتمة حدائق غناء، أما الأعمدة الرخامية الهائلة فتنقلب أشجارا تصدح بينها الأطيار والعصافير، وما لا تقدر مخيلة على تصوره، أما الزوايا المهجورة والمنحنيات والفراغات، فتتحول إلى ممرات مفروشة بالسوسن، وترتدى الجدران كسوة من يشب وعقيق، أما السقف فمن فيروز خالص،

هذه الجنّية ترتد بكرا كل أسبوع، وعليه أن يفتضها من جديد، لذا يتهيأ بذهابه إلى الحمام عصر الخميس، ليزيح عن جسده ما علق به، حتى يلقاها نقيا، ليليق بعروس دائمة التجدد، أكد تاجر أصله أعجمى متخصص فى التنباك أنه يكتنز عطايا من الذهب، خبأها فى مكان مستور.

يبدو أن ما أشيع عنه لقى من صدقه، إذ جاءه موظف حكومى نحيل يسكن ناحية الخرنفش، رجاه التوسط عند أهل بيته من الجن حتى تعد له عملا يقوى به أمره على أداء واجباته تجاه امرأته، أدركه وهن، وأم البنين لا تطلب، تستحى، لكنه لا يقدر على مواجهتها، كل ما لجأ إليه من وصفات ودهون ومعاجين لم يصلح عطبه. كذا جاءته شابة جميلة، ممتلئة قليلا، طلبت التدخل من امرأته الجنّية ليتبدل حظها المائل، تزوجت مرتين ولم تعمر، أخشى ما تخشاه أن يتم طلاقها فى المرة الثالثة، مع أنها كاملة، لاينقصها شىء كامرأة تعرف واجباتها تماما، والنساء يغرن منها.

جاءه آخر من حى القلعة، رجاه أن يوسط جنّيته لتوقف موت أولاده، أن يمده بحجاب منها، أنجب ستة رحلوا كلهم، أطولهم عمرا لم يتم العامين، رجاه بحرارة، بل إنه انحنى ليقبل يده.

أصغى إلى ما طلب منه، قابلهم بصمت حائر، النفى لا يجدى، يزيد اليقين ثباتا، كذا الصمت، يتطلع إليهم ساكن التعابير، حتى ظن بعض من لجأوا إليه أن به مسا، أو أن أمراً من الجن صدر إليه يحرم عليه المجاوبة.

يقعد صامتا، متوحدا، فوق حجر قديم، عاقدا يديه أمام

صدره، إنها هيئته التى اعتادها المارة وأهالى الناحية، بعضهم يحييه بسرعة، وآخرون يحيدون ليصافحوه، جيرانه الأقربون نهاريون فقط، أصحاب المتاجر القليلة الواقعة فى جزء من الجهة المقابلة، أو على جانبى الطريق المؤدى إلى ميدان بيت القاضى، أقرب منزل مسكون قرب مدخل حارة الخرنفش.

أحيانا يتنقل إلى الرصيف المقابل، يرفع بصره إلى الواجهات الشماء السامقة للقبة، والمساجد المتجاورة، يطيب له تأملها ومداومة النظر إليها. أوقات يرصد الظلال، يركز الذهن والنظر لإدراك حركتها وتحولها، تلك لحظات قال عنها وتحدث للمرحوم حسن أفندى عبد الوهاب لا يدرك فيها الزمن، ولا ينتبه إلى أقرب الناس، حتى لو وقف على رأسه زاعقا، أما إذا تعكرت خلوته بتلك الواجهات فهذا أمر فيه الكدر كله.

كان عم عاشور قليل اللفظ، مقتصد الكلمات، يصغى طويلا ويتحدث قليلا، إلا عند شرحه لتفاصيل القبة، يتدفق، يدركه انفعال فيشد به محدثه، أو يأخذ بذراعه ليسدد البصر هنا أو هناك، وهذا لم يكن ليبدأ إلا إذا لمح اهتماما حقيقيا ورغبة أكيدة فى الفهم، حتى قيل إن رؤية القبة بصحبة عم عاشور شىء، والفرجة بدونه شىء آخر، عالم إنجليزى شهير تخصص فى العمارة الإسلامية، هو العلامة «كريزويل»، قال عنه: عاشور لسان الحجر، لكل نقش عنده معنى، مغزى ظاهر، وآخر باطن، فالخطوط لم تتقاطع مصادفة والدوائر لم تكتمل عبثا، ينبه إلى الصمت القديم، والضوء الملون، إلى اتصال مركز القبة السامق

بمنتصف مدفن السلطان وأولاده، اعتاد الوقوف بمفرده فترات طويلة شاخصا إلى الارتفاع الساحق، إلى النوافذ المغطاة بالجص والزجاج الملون قرب المنتهى، منها تنفذ حزم الضوء وتتقاطع عند توسط الشمس للسماء، أما الفتحات الثمانى فيتسلل الضوء منها مائلا، تتلاقى أطرافه عند خشب الضريح المرمرى ثم يتراجع منسحبا خفية، لعم عاشور تفاسير شتى لحركة الضوء، لامتزاج ألوان الطيف وتفرقها، ينبه الزائرين إلى أن الأمر ليس مصادفة، يؤكد أن القبة فى الصباح غيرها عند الظهر، أما القبة ساعة الغروب فتكون مغايرة، حتى إذا ما اكتمل الليل بدلت تبديلا.

احترمه علماء المصلحة القدامى، ألم يصحب حسن عبد الوهاب، وكريزويل الإنجليزى، وفييت الفرنسى، إلا أن معظم هؤلاء مضوا، إما بالتقاعد الحتمى، أو السفر إلى البلاد العربية، أو بالرحيل الأبدى، رحمة الله عليهم أجمعين، جاء شبان حديثو الخبرة، شاحبو التجربة، لو تزوج لأنجب من يتجاوزونهم عمرا، يبدأون الشرح، كأنهم يعيدون باللفظ ما قرأوه فى الكتب أو ملفات المصلحة، يصغى معتصما بصمته، لا يتدخل إلا عند سماعه الخطأ الفادح، يُسر به ولا يبديه علانية حتى لا يحرج المتحدث إذا كان يصحب ضيفا غريبا، بعضهم يصغى، يحرص على الاستيعاب، وأغلبهم يبدى اللامبالاة، بل الجفوة، أمثال هؤلاء لا يخطو معهم خطوة، إنما يرقبهم من بعيد، وبعد انصرافهم يسترد قعدته، عند مدخل القبة شاخصا إلى الواجهة الجصية أندلسية النمنمة، ولتلك عنده منزلة خاصة وهوى.

فى رقاده الليلى يستعيدها جزءا جزءا، أحيانا يطيل الوقوف أمام الضريح المحاط بمقصورة من الخشب المخروط، ينتهى الشاهد بعمامة رخامية مستطيلة، تتوسطها ريشة مشرعة، يصغى كأنه يحاول رصد دبيب العدم.

وقفاته وسكناته تلك، رسخت عند البعض إلى حد اليقين صلاته بالجن، لكن لم ير أحد منه شذوذا، أو تصرفات غير محمودة، ويخرج من القبة إلى بيت محب الدين عند الغروب، وقد يوسع خطاه قاصدا مسجد الإمام الحسين، لا يلحظه أحد عند رواحه ومجيئه كالظل الذى يغطى الطريق ثم ينحسر غير مرئى فلا يُدرك غيابه إلا بعد تمامه، يظهر أحيانا أمام القبة، كأنه يولد من الظل، لمظهره عتاقة الموقع، يبدو من زمن مغاير مع أن الأوان واحد، والوقت لازم، لا يذكر أحد أنه خاض مشاجرة أو اشتبك فى عراك، إلا أن عبده المزملاتى وآخرين، لاينسون أبدا ما جرى منه فى ذلك اليوم البعيد.

حدث أن جاء رجل يرتدى الملابس البلدية، مستطيل الوجه، كث الحاجبين، هذا ما تبقى منه عند عم عاشور خلال السنوات التالية، سلم وقعد إلى جواره، غير مبال بالتراب، قال إنه سمع عن عاشور، لكنه لم يكتف، إنما تابعه عن بعد وعن قرب، حتى إنه يعرف عنه أمورا شتى!

هنا ابتسم الرجل، إلا أن عم عاشور بدا غير منتبه، غير مهتم، قال الرجل: إنه سيدخل إلى الموضوع مباشرة.

بدون لف أو دوران، يعرض عليه مائة جنيه، ورقة واحدة، سيدفعها إليه بمجرد سماعه لفظ القبول، إنه يثق به، ما يطلبه

باختصار، حشوة من الرخام الملون، مساحتها خمسون سنتيمترا مربعا لا غير، إنها فى الركن الشمالى، موقعها معتم، وجودها مساو لغيابها، واكتشاف اختفائها صعب، ومع ذلك سيتم تركيب بديل لها، الزخارف هى هى، الرخام هو هو، مستحيل اكتشاف التغيير، كل المطلوب منه غض النظر عن دخول رجلين بعد الغروب، عملهما سيتم بسرعة وصمت، فى وقت وجيز، إنهما خبراء فى فك الرخام، لن يشعر أحد، لن يدرى إنسان، ها. . ما رأيك؟ جرى ذلك فى أواخر الأربعينيات ذات شتاء، بدا وجه عم عاشور فى الضوء الرمادى غامضا، غير موح بما يدور داخله أثناء الإصغاء، إلا أنه ردد بعد انتهاء الرجل:

ـ مائة جنيه. . مائة جنيه؟

أكد الرجل:

ـ نعم والمبلغ فى جيبى الآن.

على مهل استدار عم عاشور، بدت سمرته وكأنها قدت من ظلال القبة، رفع يديه، لم توح هيئته بما أقدم عليه بعد لحظات، إذ أطبق براحتيه على عنق الرجل، قام واقفا ليتمكن، تبدلت معالمه، تقلصت، بدا قاسيا، ذا حضور مفاجئ، مغاير لما كان يبدو عليه دائما، كأن آخر حل محله، زعق مرددا:

ـ ياكفرة. . يا كفرة.

جحظت عينا الرجل، تدلى لسانه، وتباعدت ثناياه، انفرط عقد ملامحه، ولولا مرور ثلاثة من تجار الخيش بالخرنفش، وبائع

عصير السوبيا لاكتمل الموت، أحاطوا بعاشور، صاحوا به أن يخزى الشيطان، أن يذكر اللّه، بذلوا ما عندهم من جهد وقدرة، حتى عندما توسلوا إليه، لم يفلحوا، ولكن عندما قال أحدهم:

ـ وحياة أبوك يا شيخ.

عندئذ التفت إليهم متعبا، متخليا عن حنقه، مشمئزا، لم يدر أحد كيف اختفى الرجل الذى ولى هاربا وكأن أرضا انشقت وبلعته.

قال عم عاشور فيما بعد إن ما حيره، كيف عرفوا أن ما يؤثر فيه هو ذكر والده، التوسل بسيرته عنده، مع أنه لم يتحدث إلى أحدهم، لم يسع إلى متاجرهم، تردد. . هل يبلغ الشرطة؟ لكنه لا يعرف الرجل، غير أنه أفضى بما جرى إلى حسن أفندى عبد الوهاب، أثنى عليه، أوصاه باليقظة، هذا يعنى أن القبة منظورة والعيون عليها، لكنه نصحه بالتروى فى المرات القادمة، لو قتل الرجل لراح على نفسه، إنه لا يريد أبدا أن يراه فى السجن.

أومأ برأسه مرات، ما يقوله حسن أفندى لا يُناقش.

غير أنها ليست المرة الأولى التى بلغ فيها هياجه المدى، بعد سنوات عديدة من هذه الواقعة، فى نهاية الخمسينيات، فوجئ المارة وأهالى الحى الذى تزايد زحامه، وقامت فيه عمارة جديدة عند مدخل الخرنفش، الوقت قرب حلول العصر، ارتفع صوت هائل، غاضب من داخل الممر المؤدى إلى القبة والمسجد، يصاحبه صراخ امرأة، فوجئوا بعم عاشور يدفع رجلا أجنبيا أمامه، يمسك

به بيده اليسرى وقد لوى ذراعه خلف ظهره ورفعها حتى توشك أن تدنو من رقبته، أما يده اليمنى فتنهال بالصفع على القفا الذى انحسر عنه القميص، أما ما أذهل القوم، فرؤية الأجنبى بدون بنطلون، نصفه الأسفل عار تماما، حتى لاحظ البعض أن عضوه بدون ختان، خلفهما تعدو امرأة تصرخ بلغة غير مفهومة، بينما يداها تحاولان إحكام قميصها المفكوك.

والحكاية أنهما جاءا كغيرهما من الأجانب الذين يقصدون القبة للزيارة، رافقهما داخلها، وعندما أنهيا جولتهما أبديا الرغبة فى الصعود إلى المئذنة، وافق على مضض، صحبهما إلى الفناء الخلفى الذى يبدأ منه السلم المؤدى إلى سطح القبة، ومن هناك تبدأ قاعدة المئذنة حيث الدرجات الضيقة الملتوية التى تصل إلى الشرفة الأولى، كان عم عاشور قد تقدم فى السن، صارت حركته أبطأ، وبدأ الشيب فى فوديه ومقدمة شعره، طلوع هذه الدرجات كلها يكلفه من أمره تعبا وكدا، قال إنه سينتظرهما عند بداية الدرج، وشرح لهما الوصول إلى داخل المئذنة، ويبدو أن هذا عين ما أراده الأجنبى، إذ هز رأسه مرات شاكرا، وأسرع يتقدم صاحبته بعد أن أخرج ورقة فئة الخمسين قرشا دسها بسرعة فى يد عم عاشور، اختفيا، ولكن بقى عنده ما يريب، هذه اللهفة التى بدت عليه، وإظهاره النقود، عم عاشور هادئ دائما، وهدوءه هذا يطال ردود فعله، لكنه عندما استعاد آخر نظرة رآها فى عينى المرأة توجهت بها إلى الرجل، غلى الدم فى عروقه، صعد السلم وثبا، وعندما وصل سطح القبة المشرف على أفق المدينة كان

يلهث، إلا أنه لم يعبأ، قرب الشرفة الدائرية الأولى للمئذنة رآهما، كان الرجل يتأهب منحنيا، بينما قعدت المرأة بين ساقيه النحيلتين العاريتين وكأنها تتأهب لحلبه!

فى المئذنه يا أولاد الكلب.. فى المئذنة..!

هذا ما ظل يردده طوال دفعه الرجل عبر الطريق المؤدى إلى ميدان بيت القاضى، وما سمعه منه أصحاب وعمال دكاكين الموازين، وعبده الحلاق، وجنود نقطة المطافئ، والعابرون الشتى، لم يتوقف ولم يكف إلا داخل القسم.

فيما عدا هاتين الواقعتين، لم ير منفعلا، ولم ينطق بسباب، لم يخض مشاجرة، لم يُر إلا ساعيا بين بيت محب الدين والقبة، أو متجها إلى ضريح الإمام الشهيد، ظهر الجمعة، بعد الصلاة يتناول غداءه من الطحال المقلى فى مطعم قديم يقع فى مواجهة فندق الكلوب العصرى، لم ينقطع عن عادته الأسبوعية تلك إلا مرة واحدة فى بداية الخمسينيات، عندما امتنع عن الزاد أسبوعا كاملا إثر رحيل العالم العلامة حسن أفندى عبد الوهاب، أسبوع قضاه متواريا، قاعدا وراء الباب الرئيسى للقبة، ذاهلا لا يجيب على أحد، لا يهتز منه طرف، حتى عندما جاء عالم الآثار الإنجليزى، وقف أمامه، لم يبد عليه أنه لاحظه، من عينيه تطل دمعات، ويبدو أن العالم الأجنبى أدرك مقدار حزنه، ربت على كتفه، وابتعد، خشى عبده المزملاتى عليه، فرجاه أن يبكى، أن يلطم، أن يصرخ، ولكن استمرار الصمت مخيف، فمن الحزن ما قتل، بعض أبناء المنطقة لم يدركوا أمره، فسروا صمته وسعيه

الهادئ وبقاءه أمام القبة جامدا، صامتا حزينا بأن مسا أصابه من امرأته الجنّية التى يخاويها.

فى تلك الفترة بدأ اهتمام أم خيرية به، هى امرأة دمياطية، بيضاء، فارهة، ممتلئة، تقطن غرفة فى حارة الصالحية القريبة، برقعها لا يخفى ملاحة وجهها، خاصة عينيها المكحولتين المدثرتين بالأنوثة، أو دعتهما كل ما تضج به من فورة، وما تخفيه الثياب من فتنة ورغبة تقترب من الأربعين، وحيدة، فردانية مثله، ترملت فجأة، كان زوجها يبيع الكشرى أمام مدرسة خان جعفر للصبية، شوهدت تقف معه، وتجيئه بأطباق، وأحيانا براد الشاى، تقعد إلى جواره أمام القبة، لم يستمر ترددها عليه، انقطعت فجأة، يؤكد عبده المزملاتى أن الرجل زاهد فى النساء، ربما بتأثير الجنّية التى تزوجته، يقول إنه شاهد بنفسه ذكره، يفوق التصور فى طوله، ما يقارب نصف المتر، ومما يروى فى المنطقة أن امرأة أجنبية جميلة جدا، جاءت إلى القبة بمفردها للفرجة، صحبها، فمنذ حادثة الأجنبى ورفيقته لا يدع أى إنسان مهما كان يتجول بعيدا عنه، ويبدو أن حالة من الشبق المتفجر اجتاحت المرأة داخل فراغ القبة الذى يفيض بالموت والعدم، بدأت بإمساك يده، ثم دنت منه، ومالت برأسها على صدره، قالت بالعربية الركيكية:

- حبيبى!

إلا أنه دفعها، وابتعد خارجا.

المؤكد أنه لم تُشاهد أى امرأة داخلة إلى بيت محب الدين، إذ يمضى فى مطالع النهارات إلى القبة حاملا المفاتيح الضخمة، كان

بعض أصحاب الدكاكين يتابعونه صامتين، تساءل بعضهم عن حقيقة عمره، أكد بعضهم أنه محال إلى التقاعد منذ زمن، ولأسباب عديدة اعتبروه خارج اللوائح، قدامى مفتشى المصلحة يتباركون به، بعضهم يستمد معلومات معينة خاصة بآثار المنطقة، عدد من الباحثين أصغوا إليه، واستوعبوا ونقلوا عنه.

سنوات عديدة مضت على مجىء هذا الرجل الذى عرض عليه مائة جنيه فى الزمن القديم، أمور تجل عن الحصر تغيرت، حتى القبة والمسجد، إذ جرت ترميمات عديدة، وأقيم حاجز حجرى يمنع تدفق مياه الأمطار والمجارى إلى الجدران، أُغلق المدخل المؤدى إلى السطح والمئذنة، ونشرت الصحف التحقيقات عن ارتفاع منسوب المياه الجوفية مما يهدد المبانى القديمة فى المنطقة، أقلق هذا عم عاشور، وصار يسأل المفتشين فى كل مرة يجيئون فيها، وهل صحيح أن منسوب المياه إذا انخفض سيهدد أيضا سلامة البناء؟ صار لا يكف عن الطواف، ينحنى مدققا النظر، يضرب الحجر بقبضته كأنه يختبر أمرا ما، غير أن ما لحظه البعض خاصة من القدامى الذين اعتادوا رؤيته منذ زمن بعيد، نحوله، بطء خطواته، وارتفاع صوت تنفسه، وتثاقل نطقه، وامتزاج سواد عينيه ببياضهما، أصبح - أيضا - يتغاضى عن صحبة الزائرين، بل إنه لم يعد يفارق مكانه عند المدخل إلا لحظة دخول رجل وامرأة إلى القبة وانفرادهما، أما معظم وقته فكان يقضيه شاخصا إلى الواجهة الأندلسية.

سنوات عديدة تقع ما بين مجىءالرجل الغريب الذى عرض

عليه مائة جنيه رشوة فى زمن كان فيه الجنيه جنيها بحق، ومجىء هذا الشاب فى صباح باكر، إنه ممتلئ قليلا، يرتدى قميصا وبنطلونا، يدخن سيجارة، قدم نفسه قائلا إنه محمد حلاوة، ابن حلاوة بائع الكهرمان.

«أعرف أبوك، رحمه الله، عدسه لا يُنسى، لم آكل مثله».

بدا الشاب مسرورا مع أنهم حذروه منه، أشار إلى الرصيف المقابل حيث سبيل خسرو باشا، قال:

ـ «كنت أقف إلى جواره، أغسل الأطباق فى الجردل..».

تطلع عم عاشور إلى حيث أشار، لامس ذقنه بأطراف أصابعه، هازا رأسه، ارتد إلى صمته، كأنه نسى وجود الشاب، غير أن هذا تجاهل الشرود والانصراف عنه، استمر يتحدث وكأن ما بينهما متصل، لم ينقطع قال إنه يجىء بلقمة حلوة، رزق من السماء، مكسب كبير لن يكلفه جهدا.

توقف لحظات ليرى رد الفعل، ولما رأى صمت عم عاشور، استمر قائلا: إن زوار القبة من الأجانب كثيرون، هؤلاء يحتاجون إلى تغيير ما معهم من دولارات، أو استرلينى، ما عليه إلا أن يأخذ ما معهم من عملة، ويقدم إليهم الجنيهات، يعنى بيع وشراء، وله نسبة يتسلمها منه مساء كل يوم، طبعا.. ليس هناك مكان هادئ وبعيد عن العيون مثل داخل القبة.

كف الشاب، تركزت نظراته على يدى عم عاشور، كأنه يعد العدة، ربما حذره أحد منهما، إلا أن اليدين بقيتا هامدتين،

استمر، قال إنه سيبدأ من الغد، سيجيئه بخمسمائة جنيه ليبدأ العمل، أما الأسعار فسيبلغه بها صباح وظهر كل يوم، وإذا حدث طارئ مفاجئ ارتفاع أو انخفاض، سيسارع إليه، السوق متقلبة، قال إنه قريب هنا فى خان الخليلى، عند مدخل السوق من ناحية الصاغة، وإذا فوجئ بمبلغ كبير يمكنه فى دقيقة أن يأتى إليه، المهم أن يعرف من الآن كيف يميز بين الورقة الصحيحة والزائفة . . خاصة فئة المائة .

متمهلا يستدير، يتأهب الشاب، للرجل تصرفات غريبة، حذروه منها، بقاؤه وقتا طويلا بمفرده داخل القبة التى ما هى إلا مدفن هائل، معاشرته الجن، إلا أن ملامحه بقيت هادئة، ويداه مبسوطتان، نائيتان، وبقدرما شعر الشاب براحة، بقدر ما رغب فى الضحك، عندما نطق عاشور متسائلا . .

ـ «والبوليس؟» .

حاشيـة ١

لماذا؟

لماذا قبل عم عاشور أن يقترب على مهل من الأجانب الذين كثر ترددهم على القبة فى السنوات الأخيرة، ويقول همسا بالإنجليزية:

ـ «تغيرّ دولار؟».

حيرّنى هذا، خاصة أن الرجل أوشك على أن يوفى المدة، بعد عمر طويل آثر فيه الصرامة مما كان مبعث حكايات تبدو أحيانا غير واقعية؟

هل كان فى حاجة؟

أبدا. .

أقول هذا وأنا على ثقة، سكنه لا يدفع مقابله قرشا، ما يتقاضاه يكفى وزيادة، هل أدركه ما جرى فى الواقع الأعم من متغيرات؟ لكن. . كيف وقد كان يبدو فى معزل عما

يحيطه، يصغى إلى أفدح الأنباء فلا يعلق، ويسمع ترديد جيرانه لأجل الحوادث فلا يأبه، لا يبدو عليه الاهتمام، لماذا صار يقترب من الأجانب وفى ملامحه ما ينم عن طلب الهبة، وهذا ما لم يقبله قط من قبل. يغض الطرف عن دخول الذكور والإناث، لا يتبعهم، ولا يستثيره غيابهم بالداخل، وإذا تبعهم فلمسافة قصيرة عبر المدخل، وليسألهم عما إذا كانوا راغبين فى تغيير العملة؟

حيرنى هذا، ولولا أنى شهدت الرجل عن قرب لما صدقت، فلم أذكر شيئا فقط على سبيل المبالغة، بل إن كل ما قلته عن مشاهدة، وما لم أحضره ولم أعاينه نقلته عن ثقات، وربما حذفت بعضه طلبا للإيجاز.

لكن..

مالى أبتعد، مالى أمعن فى حيرتى، ألم أرقب بعينى ما جرى لذلك الطبيب؟! ذلك أنى سكنت زمنا فى بيت قريب من وسط المدينة، أول شارع الجيش، حيث تنتهى القاهرة القديمة، وتبدأ مبانى القرن التاسع عشر المطلة على ميدان العتبة الخضراء، وإن كانت تلك ماضية إلى زوال، وكان أول ما اختفى منها مبنى دار الأوبرا الجميل، الهامس القديم المكنون، والذى احترق عام ألف وتسعمائة وواحد وسبعين، التهمة حريق مدبر وبكاه من لا حصر لهم، ومكانه الآن جراح متعدد الطوابق، وإنى لمخبر، محدث عن سائر هذه المبانى فى رسالة أفردها لموضوعى الزوال والبقاء، فالمجال يضيق الآن.

كان سكنى يتوارى فى طريق ضيق متفرع من شارع الجيش، كنت فى الطابق الثالث، أما هو فكان يشغل شقتين متواجهتين فى الطابق الأول، اتخذهما عيادة لاستقبال مرضاه، لم نلتق إلا مصادفة عند صعودى أو نزولى، هو طويل القامة، نحيل جدا، وسمعت أنه كان لاعبا ماهرا فى فريق كرة السلة الجامعى، ابن أسرة رقيقة الحال، شقى والده طويلا حتى أتم تعليمه وتخرج طبيبا، افتتح هذه العيادة بعد عامين من إنهاء دراسته، وجعل قيمة الكشف نصف جنيه فقط، وهذا أقل من أى طبيب فى المنطقة، قال أكثر من مرة إنه نشأ فقيرا، ولولا كد والديه لما أمكنه إتمام تعليمه، يعمل أبوه كاتبا عند أحد تجار حقائب السفر فى الدرب الجديد المتفرع من سوق الموسكى، لم يمض وقت طويل حتى اشتهر أمره فى الموسكى، والعتبة، وباب الشعرية، وصار المرضى يجيئون إليه من مناطق نائية؛ لما عرف عنه من حسن مقابلة، ولسان حلو، وقدرة على وصف العلاج السديد، وتقدير لأحوال الخلق، حتى إنه كان يعيد قيمة الكشف إلى من يشعر بوهن قدرته، ورقة حالته، بل كان يقدم الدواء مجانا إلى أمثال هؤلاء، وكان يصر قائلا إنها العينات المجانية التى ترسلها إليه شركات الأدوية، لم يُعرف عنه أنه تأخر قط عن تلبية أى حالة عاجلة طارئة ليلا أو نهارا، هكذا أدركته، وسمعت عنه، حتى قال لى من أثق به إن ثمة فرصة أتيحت له لافتتاح عيادة بالدقى، فى عمارة حديثة شاهقة يمكن للواقف بشرفاتها أن يرى النيل، لكنه أبى مفارقة المنطقة القديمة، والناس الذين اعتاد عليهم كما قال.

متى بدأ اهتمامه بالأراضى الفضاء، والعقارات؟

الحق أننى لا أدرى على وجه التحديد، لكن كل ما لاحظته وقع بعد هدم هذا البيت، إذ كان يقوم عقار قديم من طابقين، تحته مصنع للحلوى الطحينية، جاء عمال صعايدة يوما ورفعوا معاول الهدم، حتى تمت تسويته بالأرض خلال أسبوعين لا غير، ثم أحيطت المساحة الفارغة بسور قصير من الطوب الأحمر، وعُلقت لافتة تقول إن الأرض ملك لسيدة ذكرت اسمها وعنوانها بكوبرى القبة، لكن لم تتضمن اللافتة أى رغبة للبيع أو التصرف فيها، بقيت الأرض خالية ما يقرب من عام، أوى إليها بعض المشردين، وامرأة عجوز كومت فى أحد الأركان عددا كبيرا من صناديق الكرتون الفارغة، ولافتات من قماش كانت معلقة خلال الانتخابات النيابية، أما تجار الموز الذين يقفون بعرباتهم قرب سوق البضاعة المستوردة، فاتخذوا من الركن المقابل ما يشبه المخزن للموز الأخضر، وغطوه بمشمع قديم، كما اعتاد صاحب المصبغة البلدية المجاورة إلقاء صناديق المصبغة الفارغة، وبدأ بعض أبناء الشارع يلقون القمامة فى الخرابة كما أطلق البعض على المساحة الخالية.

لكن قرب انتهاء العام الأول المنقضى على هدم البيت، ظهر سمسار نوبى يسكن فندق البرلمان القديم بميدان العتبة منذ عدة سنوات، ويجلس عند مدخله؛ حيث يستقبل عملاءه، أولئك الراغبين فى البيع أو الباحثين عن قطعة أرض أو مسكن للإيجار، ونظير أجر معين يدفعه لإدارة الفندق علق لافتة صغيرة.

«سمسار أراضى وعقارات، شقق للتمليك، للإيجار، دكاكين وخلافه».

شوهد النوبى فى شارعنا الضيق، كان يصحبه أحد أبناء السيدة مالكة الأرض، وفى اليوم التالى قيل إن الطبيب، ابن الحى، اتصل بالمرأة، وعرض شراء الأرض، ثم شوهد فى الأيام التالية يقف إلى جوار النوبى، ويدوران فى المساحة الفسيحة.

بُدلت اللافتة بأخرى تحمل اسمه، وتعلن عن إنشاء برج السعادة، مكاتب، شقق فاخرة، تشطيب فاخر، واجهات ألمونيوم، حمامات سخن وبارد، أرضيات مفروشة بالموكيت، الاتصال بالطبيب مباشرة، كتب رقم التليفون، أما الوسطاء فيمتنعون.

أزيل الموز، والقمامة، والفوارغ، أما المرأة العجوز فرحلت منذ مدة إلى حيث لا يدرى أحد، ثم ظهرت آلات المقاولة، أدوات حفر، وماكينات صغيرة، وآلة لشفط المياه الجوفية التى ظهرت بمجرد بدء الحفر خضراء قاتمة، جاء رجل صعيدى، كوّم عبوات الأسمنت الخام على هيئة جدران، وبسط ألواحا خشبية كسقف، وعلق ملاءة من قماش لتحجب عيون المارة عن الداخل عنه وعن امرأته الشابة التى تحمل طفلا رضيعا، لم تتأخر أعمال البناء طويلا، إنما بدأت فور شفط المياه الجوفية، وتكسية الأرض بمادة سوداء تمنع رشحها، قامت بذلك شركة مختصة.

فى هذه الفترة اعتدت رؤية الطبيب، يقعد نهارا فوق مقعد بدون مسند، يتابع ما يتم، أو يصدر تعليمات لهذا أو ذاك، وبين

الحين والحين يقوم ليمر هنا أو هناك، ويمسك الدعائمَ الخشبية بيده، كأنه يختبر متانتها، ثم يُسمع صوته مرتفعا، صاخبا لأول مرة، وكان يزعق مهددا أحد العمال بسبب إهمال ما، ثم أصبح عاديا رؤيته جالسا وإلى جواره النوبى، وثالثهما أحد الراغبين فى الاستئجار، أو مقاول البياض، أو الكهرباء، أو متعهد أعمال السباكة، ومما قيل إن الطبيب أسفر مبديا مهارة غير عادية، فهو يشرف على كل كبيرة وصغيرة، الخامات يذهب ليشتريها بنفسه، وحساب المقاولين يناقشه آخر النهار، مستعينا بآلة حاسبة صغيرة، وكان إذ يجادلهم يرفع صوته، ويلفظ جملا فى صيغ استفهامية، أو استنكارية، ويناديهم بما اعتاد العمال أن ينادوا بعضهم البعض، كأن يقول:

ـ «افهمنى يا حلاوة».

أو:

ـ «اسمع يا عسل . . ».

وأحيانا كانت مناقشاته تحتد حتى ليُسمع صوته فى الطوابق العليا، برغم ضجيج التليفزيونات، والمقهى، وأصوات السيارات والشارع القريب، أما فى الصباح فكان يقعد لاستقبال الراغبين القادمين بصحبة النوبى، قعدته المفضلة صارت إلى هذا الرجل النحيل الأسمر الذى لا يفارق معطفه صيفا أو شتاء، وثق به وأعطاه سره، وعندما جاءه التمورجى الذى يعمل معه منذ سنوات، وأخبره برغبة أحد الأثرياء من بلدته فى استئجار شقة، طلب منه أن يتكلم فى ذلك مع النوبى، لم يشكُ التمورجى فقط

منه، إنما كل من عمل في هذه العمارة التي قامت خلال أقل من عام واحد منذ دق أساساتها، شكوا إصراره على مناقشة كل شيء بنفسه ومراجعته الفواتير بدلا من المرة عشر، واشتراطه استخدام آلات معينة، أصبح من المعتاد أن يقضي ساعات النهار كلها في الشارع، وعندما بدأت أعمال البياض وتشطيب العمارة بدّل ملابسه، ارتدى الجلباب وطاقية بيضاء، صغيرة مخرمة، في نهاية اليوم عند اتجاهه إلى العيادة يبدو مرهقا متعبا، لم يعد يقضي أوقاتا طويلة في الفحص، ضاعف من قيمة الكشف، أصبح جنيها، اعتذر للخلق بسبب ارتفاع الأسعار، قال لبعض المقربين: إن بناء العمارة كلفه الكثير، وإنه من الأفضل للمرء شراء قطعة أرض وتركها مدة، ثم بيعها، الأسعار تتضاعف، أما البناء فيقتضي جهدا ومتابعة، اعتاد الناس مجيء النوبي، ظهوره في العيادة المزدحمة، اتجاهه إلى غرفة الطبيب، كان يدخل في أي وقت، ويقضي ما شاء من وقت، ثم ينصرف متمهلا، غير مبال بضيق الذين طال انتظارهم، ومما تردد أن النوبي أتى بفرصة نادرة، قطعة أرض بناحية العباسية، وعلى الطريق الرئيسي، تُباع لظروف استثنائية، وأن الطبيب اشتراها بالفعل، وأنه يتفاوض حول مساحة أخرى بمدينة نصر، وأن كلاما يجرى حول مخزن أخشاب كبير بشبرا، بل أكد البعض أنه اشترى مصنعا للحلوى الطحينية أوشك صاحبه على الإفلاس بسبب دين ثقيل، كل يوم صار يخرج بصحبة النوبي، ويقال إنه هو الذي أشار عليه بضرورة الحج إلى الأراضي المقدسة، حتى يناديه الخلق يا «حاج» وهذا ما صار بالفعل، انقطع عن فحص المرضى، لكنه لم يغلق العيادة،

إذ بدأ شاب يتردد عليها، أحد الخريجين الجدد، ظهر أثناء سفره لتأدية الفريضة، ظن الناس أنه يشغل الموقع الشاغر لفترة، لكنه استمر بعد عودته، لم يعد صاحبنا يظهر فى العيادة إلا نادرا، وإذا شوهد فآخر الليل، ويمضى محييا هذا أو ذاك، ويناديه الجيران:

ـ «تفضّل يا حاج . .».

فيلتفت بقوامه الذى امتلأ محييا، ثم يمضى بخطاه التى صارت أبطأ، أما أنفاسه فأصبحت تُسمع خلال لفظه الكلمات، يجلس تحت العمارة فوق دكة مستطيلة، أحيانا يعلو صوته محتدا، وقسمه بالأيمان المغلظة، ومرة كاد يشتبك بالأيدى مع ثلاثة قيل إنهم من كبار تجار الفاكهة بسوق روض الفرج، ومرة أخرى سحب الطبنجة وصوبها تجاه اثنين من تجار خان الخليلى، مما حدا بالنوبى أن يزعق:

ـ «اذكر الله يا حاج . .».

عاد هادئا، واستؤنف الحديث فيما يشبه الهمس . .

انقطع تماما عن العيادة، تعاقب عليها شبان من الخريجين الجدد غير أنه ردد دائما عزمه على ألا يتركها أبدا، إنها أساس كل ما جاءه من خير، وهذا ما كان عليه الحال عند انتقالى من مسكنى إلى منطقة أخرى، وفيما بعد رأيت صورته فى الجريدة يقص شريطا إيذانا بافتتاح مصنع للبسكويت المحلى بالشيكولاته، وكان يرتدى جلبابا أبيض، وطاقية بيضاء، وتحيط وجهه لحية كثة، وإلى جواره بعض من أصحاب النفوذ والجاه، وكان الإعلان يحتل

صفحة كاملة، هذا ما عرفته عنه، وآخر عهدى به، فلم تقع عليه عيناى إلا فى الإعلانات، ولكننى أحطت علما بما جرى لشاب آخر، وألممت بتفاصيله، وإنى لقاصه عليكم . .

هذا ما جرى للشاب
الذى أصبح فندقيًا

. . وهو الذى لو سئل أثناء دراسته فى الجامعة عما إذا كان يرغب العمل فى الفندقة لأبى واستنكر، كان مولده عام ألف وتسعمائة وستة وخمسين، وعندما بدأ الهجوم الثلاثى على مدينة بورسعيد الخالدة، أو الصامدة، كما وصفت فى ذلك الزمان المندثر، كان المتبقى على مجيئه إلى الحياة الدنيا ثلاثة أسابيع، تستعيد أمه تلك الأيام، غياب أبيه فى مكتبه، وقضاءه الليل بطوله فيه، وتلبية للظرف الاستثنائى، تذكر ولدها جنينا يتقلب فى رحمها، سعادتها إذ تشعر بتمدده، بتقلبه داخلها، كأنه يتعجل خروجا قبل الأوان، كانت تسند ظهرها إلى الوسادة فى ليالى العتمة الإجبارية، تسأل، ولد هو أم بنت؟

كيف سيكون؟ ترسم الخطط، وتصوغ المشاريع، وعندما وفد وأصغت إلى صرخته الأولى، كانت البلاد كلها فى تأجج واستنفار، الأيام تنبض، وجميل الأغانى يتردد، وسائر ما يهز الأرواح ويدمج الخصوصيات فى العموميات.

كان طفلا ذكيا مليحا سليم الخلقة، فى وجهه قبول، عيناه واسعتان، وشعره طويل ناعم غزير، حرصت أن تقصه بانتظام حتى لا يشبه البنات، ملامحه تصونها مجموعة صور صف بعضها على مقربة من فراش الوالدين، كان الأب ميسور الحال بمقاييس الزمن القديم، لم تتأخر ترقياته عن موعدها، كذا علاواته السنوية، الدرجات التى ارتقاها بانتظام أفضت به إلى منصب وكيل وزارة مساعد فى نفس السنة التى حصل فيها ابنه على الثانوية العامة، كان الأب رجلا حشما مستقيما، عُرف عنه إخلاصه لوظيفته وصده الحازم لعروض بالرشوة، أما قطعة الأرض التى ورثها عن الراحلة أمه فقد أتاح له إيجارها السنوى يسرا ضئيلا مكنه من قضاء أسبوعين كل صيف بصحبة أسرته فى رأس البر، إنه متواضع مؤد للواجبات، يحضر الجنائز، ويجامل فى أفراح صحبه، وعنده طول بال على تفهيم الطالب، لطيف المزاج، به وسامة، حلو الصورة قليل الغذاء جدا، انتقل بعض مما عنده إلى ابنه، بالأخص شعوره العميق بالمسئولية، وضرورة إنجازها على أحسن صورة، فى الأسابيع التى تسبق الامتحانات يشتد نحول الولد، يطول سهره، وتطالبه الأم بضرورة الأكل حتى يذهب يبسه، وعندما اجتاز المرحلة الثانوية متفوقا، هدأ فؤاد أمه، واطمأن أبوه إلى إمكانية تحقق رغبته التى لم يبح بهاقط، إذ ودّوتمنى أن يعيش حتى يرى ابنه من رجال الخارجية، يمثل بلاده فى الخارج، فى لحظات خلوه بنفسه كثيرا ماردد تلك العبارة ولم يطلع عليها أحدا: «ابنى يمثل بلاده فى الخارج». لهذا عندما فاز بالقبول فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ابتهج، وسقى

العاملين فى الإدارة شرابا حلوا، وبدا له ما ظنه يوما بعيدا وقد صار قريبا، أربع سنوات ويتخرج ابنه، يلتحق بالخارجية، يبدأ السلم من أوله، سكرتير ثالث، فثان، فأول، قنصل ثم وزير مفوض. . ثم سفير، هل من المعقول أن يعيش حتى يرى صوره فى الصحف الأجنبية بعد تقديم أوارق اعتماده لرئيس دولة ما فى هذا العالم، معقول، ليس ذلك على من بيده الأمور ببعيد، ولكن إن شعر بدنو الأجل، واقترابه من تخوم الأبد قبل تحقيق هذا، سيوصى ولده بتذكره فى ذلك اليوم، عند ارتدائه ملابس التشريفة ومضيه إلى مقر الحكم، قصر ملكى أو جمهورى، أن يقرأ له الفاتحة، وأن يتذكر والده الذى كان يتمنى رؤية هذه اللحظة ولو عبر صورة، فى اليوم الأول للدراسة الجامعية صحبه، دعا له بعد أن افترقا، وحن إلى امرأته وإلى بثها الكلم الطيب، فاشترى لها عطرا طيبا، هى من أنجبت له هذا الابن الصالح الذى سيمثل بلاده يوما.

جرى ذلك قبل عبور الجيش المصرى قناة السويس بسنة كاملة، وقبل مجىء العزيز «هنرى كيسنجر» أول مرة إلى القاهرة المعزية فى زيارة وصفت بأنها هامة وضرورية. وقبل فك الاشتباكين الأول والثانى، وقبل قدوم «ريتشارد نيكسون» فى زيارة قيل إنها تاريخية.

وعندما دنت السنوات الجامعية وأوشكت، كانت أمور عديدة قد تبدلت، وظروف ظنها الكثيرون أنها ثوابت، بدأت تستدير وتدبر، درس الابن على أساتذة منهم أجلاء، أتقن علوم

الاقتصاد، والسياسة، خط صفحات تجل عن الحصر، واستوعب ما قيل له، وكان فى بذل الجهد غير ضنين، استحق ثناء شيوخه فى العلم، أثنوا عليه ورضوا وأشار أحدهم إلى ما ينتظره، وأشاد آخر بسعة أفقه وتفتح مداركه، وقوة أمله.

إثر تخرجه شغل به والده، إلام سيصير أمره، خاصة أن الظرف معسر، والواقع فيه جدوبة بادية، وحدث فى ليلة خريفية أن التقى فى مقهى بناحية شارع عماد الدين بصاحب له، مدة خدمته تماثل مدته، ودرجته مساوية لدرجته، إلا أنه يتميز عنه بعمله طوال مدته فى المؤسسة الرئاسية، وقد بدأ قبل الثورة فى القصور الملكية، وتدرج حتى أصبح وكيلا مساعدا للوزارة، واختص عمله بأمور ربما تبدو غريبة، إذ كان مسئولا مسئولية مباشرة عن أوانى الطعام والشراب الخاصة بالقصر، يشرف على إخراجها عندمد الولائم، أو إقامة الموائد، فى المناسبات، وللضيوف الأجانب، وتلك مسئولية لا تُسند إلا لذى أمانة، فجل هذه الأوانى من الفضة، وبعضها من الذهب الخالص، ومنها ذو القيمة التاريخية التى لا تقدر بثمن، كان يشرف على تخزينها وترتيبها، وإخراج المطلوب منها، وإعادته، أما اختصاصه الثانى فيتعلق بالجنائز، فعند وفاة عظيم أو كبير، يتصل هو بالحانوتية، كانوا كلهم يعرفونه، ويخشونه، ويلبون طلباته، كذلك أصحاب محلات الفراشة، ومن هنا خرجت كل الجنائز فى مدة وظيفته مهيبة، لائقة، لاينقص ترتيباتها شىء، ولا يمكن رصد أدنى عيب، وثق الجميع به، واشتهر عنه وذاع أن عضو مجلس قيادة

الثورة زكريا محيى الدين، أثناء توليه لفترة أمورا تنظيمية ، كان يردد دائما أنه إذا رأى توقيعه على مذكرة ما، فإنه يؤشر فقط واثقا من سلامة المتبع، وكان لهذا الرجل بنتان، كلتاهما فى الجامعة، أنجبهما متأخرا، ولأنه لم يتبق أمامه إلا عامان فى الخدمة، ولأن ظروف الحياة تضغطه، ولأن ما سيتقاضاه من راتب تقاعدى لن يتأثر، ولأن هذا الراتب لن يكفى نفقات البيت بعد خروجه من الخدمة، أحال نفسه إلى التقاعد، وكان يوم تسليمه مكتبه وعهدته مشهودا، إذ دمعت العيون تأسفا عليه، مضى ليلتحق بشركة سياحية صاحبها واحد من معارفه، وكان الراتب الجديد مغريا، فتيسر حاله قليلا.

إنه لا يلقى صاحبه هذا إلا عند مجيئه إلى ذلك المقهى الذى يرتاده ، إذ يضيق بالبقاء فى البيت، أو الحملقة إلى جهاز التليفزيون، وتكرار قراءة الصحف، لكم دهش وارتاع عندما علم أن صاحبه أحال نفسه إلى التقاعد، لم يفكر فى ذلك قط، خيل إليه دائما أنه لو ترك الوظيفة سيضل، إن تبديل الحال أمر صعب عنده، خاصة أنه موظف عمومى مثالى، لم يشوه ملف خدمته ورقة إنذار أو تقرير ضده.

فى تلك الليلة الخريفية أفضى إلى صاحبه بما يشغله من أمر ولده، منذ أسابيع ظهرت النتيجة، الولد ناجح ومتفوق والحمد لله، لكم كان بوده أن يلتحق بالخارجية، بالسلك الديبلوماسى، أن يمثل بلاده فى الخارج، لكن يبدو أن الأمر ليس سهلا، والسكك المؤدية إليه وعرة، لا يعرف الدروب المفضية إليها، أو

السبل المؤدية إلى بداياتها، ما يقضه ويقلقه، انقضاء مدة طويلة قبل حصول الولد على وظيفة، وقد سمع ما أزعجه عن وفرة فى خريجى هذه الكلية بالذات التى عُدت عند التحاق ابنه بها مرموقة وذات مستقبل بهى، إن ما يضيق به الانتظار بلا عمل، ثم الالتحاق بوظيفة حكومية، فى الأغلب الأعم لاصلة لها ولا علاقة بما أتم دراسته وتحصيله، كان بشكايته همه يمهد كى يسأل صاحبه عن إمكانية توسط أحد المسئولين السابقين لقبول ابنه فى الخارجية، أى مسئول ممن خدم معهم، إن تقاعُد أمثال هؤلاء لا يُنهى ولا يقطع صلاتهم بمن هم فى مواقع المسئولية الآن، من خدمته الحكومية الطويلة عرف أن الكبير للكبير، حتى وإن تقاعد أحدهما، غير أن صاحبه لم يمهله، طقطق بأصابعه، مصمص شفتيه مبديا عدم الموافقة، قال إن البلد يتغير، والزمن يتبدل، والعاقل يجب ألا يفكر فى الوظائف الرسمية قليلة الرواتب، شحيحة الموارد، وإذا كان ولابد، فليلتحق بوظيفة تمكنه من توفير ساعات عمل حر، وهنا أعرب الوالد عن قلة حيلته، وعسر دُربته، ونُدرة معارفه من ذوى النفوذ، من أين له هذا العمل؟ صمت صاحبه مقدار لحظة ثم تساءل، أهو الذى رأيته بصحبتك منذ سنة؟ أجاب الوالد باسطًا كفيه وهل عندى غيره؟ قال الرجل إن طول العشرة يقتضى منه الإقدام على الخدمة، وإنه من ناحيته سوف يسعى، أبدى الوالد امتنانا وإن حاش ضيقا وحزنا، ألم يتمن طوال عمره التحاق ابنه بالخارجية؟ أن يراه ممثلا لبلاده فى الخارج؟ هكذا رغب، هكذا دبر، لكن غيره قدّر، ذلك أن غيبة صاحبه عنه لم تطل، اتصل به، قال إن ثمة فرصة شحيحة لن

تتكرر، وإن نية ابنه فيما يبدو ويلوح نقية صافية، وللنية فى قضاء الحاجات سلطان عظيم، وإن عنده القبول، لهذا دنت تلك الفرصة وبدت، وبعد هذه الديباجة، أفضى بالمهم فقال، إن جمعا من معارفه يشرفون على إدارة فندق حديث، شُيد على أطراف المدينة، تكلف ملايين الجنيهات، وأُسندت إدارته إلى شركة عالمية، وإن ثمة منصبا خاليا يمكن أن يشغله الابن، يعد بالنسبة لمن كان فى مثل عمره مغنما، إذ سيصبح مسئولا عن جلب الزبائن، وتنشيط الحركة، وهذاما يعرف فى لغة الفندقة بالتسويق والمبيعات، أى إنه سيصبح مديرا، وتلك مهام وعرة، لا يتولاها إلا خريج جامعة أجنبية، ولا يصل إليها أحد إلا بعد ارتقاء طويل، أما عن المرتب الشهرى فكم يظن؟ كم يعتقد.. هه.. فليخمن، ثلاثمائه جنيه، إلى جانب المكافآت والحوافز، قال الأب لابنه فى نفس الليلة إن هذا يقارب مرتب وزير، أين ذلك من المرتب الحكومى وقدره خمسة وأربعون جنيها؟ أما عن الوظيفة نفسها، فلا يمكن الحصول عليها إلا لمن كان من الواصلين وذوى القربى، وإن هذا لمن طالعه الحسن، قال ما قاله مضمرا أسى، فلكم ود أن يعمل ابنه بالسلك السياسى، حتى يمثل بلاده يوما ما فى الخارج، لم يبد كآبته عندما تحمس الابن وأظهر قوى الرغبة، الراتب كبير ولن يصل إلى مثله إذا التحق بالوظائف الرسمية إلا عند دنوه من التقاعد، ولماذا ينأى؟ أليس والده ماثلا أمامه؟ ألم يصغ مرارا إلى رغبات صحبه؟ حلمهم العمل فى أحد هذه المشروعات الجديدة سخية العطاء، البنوك الأجنبية، الفنادق الكبرى، شركات المقاولات، السياحة، أو السفر إلى بلد نفطى،

فرصة كحلم تواتيه، لم يسع، لم يكلف نفسه عنتا، أما عن الرغبة في استكمال الدراسة العليا فيمكنه تحقيقها، خاصة أن هذا الراتب سيتيح له أمنا وهدوءا، وما سينقص فسحة من الوقت، يمكنه توفيرها، لم يهن حماسه حتى بعد أن تأكد له إثر بدء تردده على الفندق أن ما قاله صاحب والده فيه عظيم مبالغة، وتزيد، لم يشر أحدمن قريب أو بعيد إلى توليه إدارة المبيعات أو التسويق أو ما شابه ذلك، بل إنه لم يدرك تماما كنه ما سيقوم به، أو نوعية ماسوف يسند إليه، حتى بعد لقائه بالمدير الأجنبى ممثل الشركة الأمريكية التى تدير الفندق، نحيل، قصير، صارم الحضور، مزموم الشفتين، لا تشى ملامحه بأية إمكانية على التبسط والابتسام، كل ما فاه به أنه طلب منه أن يردد دائما على مسمع النزلاء والمترددين نوعية المؤهل الذى يحمله وتخصصه فى العلوم السياسية. أما لقاؤه بالمدير المصرى فاستغرق زمنا أطول، أبدى ودا وترحيبا، وإن لم يرتح إلى ضحكته المفاجئة المغتصبة قسرا، والتى تحوى سخرية لا تخفى، قال إن هيئته أعجبت المدير الخواجه، هذا مهم جدا، هنا اقترب منه، دقق فى ملامح وجهه ثم قال إن عينيه فريدتان بين من رأى من الرجال، لكن ما ينقصه عناية خاصة بهندامه، غير أن هذا ممكن، سيصرف له مبلغا يستقطع منه فيما بعد، ليشترى قمصانا وأربطة عنق وأحذية، سيحدد له ألوانها وأوصافها، وسيصرف له مبلغا آخر ليشترى به ملابس داخلية ملونة، وتلك سيختارها هو كما يرغب، ولما لمح دهشته وعجبه، قال: إن القمصان ستكون شفافة، وستبرز ما تحتها، ومما يستحب أن يكون ثمة تناسق بين ماهو يخفى وما

يظهر، عندئذ ضحك هذه الضحكة التى يصاحبها خروج رذاذ من لعابه، طلب منه أن يتخذ أوضاعا مختلفة أثناء وقوفه، كأن يقدم ساقا ويؤخر الأخرى، أن يعقد يديه أمام صدره، أن ينحنى قليلا أو يتراجع، أبدى المدير رضا وراحة، بنفس الضحكة توجه إليه قائلا: أرجو ألا يخطفك مخرجو السينما، أنت تبدو كأنك قادم من هوليوود. بدا جادا فجأة وطلب منه أن يصغى تماما إلى كل حرف، وأن يتنبه إلى كل معنى، يجب ألا يُخضع أى أمر للصدفة، طريقة مشيه، انحناءاته، لفتاته، مخاطباته للقوم، إمساكه لسماعة الهاتف، عبور القاعات، وقوفه بالممرات، كذا ابتساماته وانحناءاته، استقباله القادمين عند المدخل، لكل مدخل مظهر وتصرف، كل شىء بقدر، بحساب، المجاملة يظهرها فى الوقت المناسب، ولمن يستحق، يجب أن يعرف قدر من تجب محاباته أولا، وأن يبدى الجهامة عند الضرورة ولكن فى غير إفراط، وليعلم أن العميل على صح دائما وإن أخطأ، وليضع فى ذهنه أن تعامله مع القادمين أو المقيمين عابر، واتصاله بهم مؤقت، ليعلم أنه يجب ألا يطأ الفندق إلا مبتسما مهما مر به لا يظهر كدرا أو ضيقا، عليه أن يردد إذا طال الحوار بينه وبين أى نزيل أنه حاصل على شهادة عليا فى العلوم السياسية، بعد انصرافه أدهشه ترديد المدير المصرى لما ذكره المدير الأجنبى، وكدر ارتياحه ضيق بذلك الرجل، وكلما استعاد ضحكته أوشك على اضطراب، دارى ما عنده، ولم يبح بشىء من ذلك لوالده صباح يوم يوافق مرور عام كامل على ذهاب رئيس البلاد إلى ديار العدو سعيا للصلح، ارتدى هندامه الأتم، عقد ربطة عنقه حتى يكتمل المنظر

ويستوفى القاعدة، بدا بهيا، يفيض شبابا وحيوية، طويلا، متسقا فى العموم، حتى إن أمه دعت أن يقيه خالقه شر العيون وأولاد الحرام، وأن ييسر أمره، وأن يوقف له أولاد الحلال، وأن يبعد عنه كل أذى، فهو لباب عمرها الأتم.

صحبه المدير المصرى إلى المكان المحدد له: الممر المؤدى إلى المطعم الرئيسى، سيتحرك متمهلا بين المرآة القديمة التى تم شراؤها من أحد القصور القديمة، وتمثال عار، امرأة ترفع شعلة لا تضىء، سيقضى وقته هنا فى الفترات السابقه واللاحقة على مواعيد الغداء والعشاء إذ لا إفطار فى المطعم الرئيسى، عليه أن يروح ويجىء على مهل، حتى إذا بدا رواد يبادر مبتسما، يبسط يده مرحبا، يتقدم منحنيا، مبديا الاحترام اللائق، ثم يسأل عما إذا كان الحجز قد تم مسبقا؟ فإذا جاء الرد نعم، يتقدمهم حتى باب المطعم، هنا تنتهى مهمته، ويبدأ المشرف على المطعم عمله، فى يومه الأول هذا بدا خفيفا، مستبشرا، معظم من أنهوا دراستهم معه لم يبدأوا العمل بعد، بعضهم هنأه ومنهم من حاول أن يخفى حسدا، غير أن واحدا، لا . . بل اثنين، أبديا دهشة، ما علاقة هذا بما درسه وتعلمه، خاصة أنه من المتعمقين، المستوعبين جيدا لما درسوه، لو أنه صبر قليلا يمكنه أن يصبح معيدا، من أعضاء هيئة التدريس، إن ترتيبه يسمح بذلك، أبدى عدم موافقة، بل جاهر باستهزاء، الانتظار ربما يطول أويقصر، كم سيتقاضى إذا أصبح معيدا؟ غير أنه عندما خلا بنفسه أدركته حيرة، كأنه مقدم على سفر لا يعرف غايته، لا يدرى نقطة الوصول، أو المسافة التى سيقطعها، كأنه

كان يتأهب ليقطع طريقا بعينه، وفجأة تتبدل المرئيات والموجودات فإذا بالدرب مغاير، وما قصد إليه ينأى عنه، لو أن الأمر بيده كله لانتظر، غير أنه عاد ليقول لمحدثه. إنه سوف يجد الوقت الكافى كى يتم البحث العلمى، وإنه سيلتحق بالدراسات العلياخلال أول العام، مهنته الجديدة تبدو مريحة، عائدها مجز سيتيح له التفرغ بهدوء بال، وطمأنينة زائدة فى يومه الأول هذا حرص على التزام المسافة المحددة له، لم يتجاوزها حتى بمقدمة حذائه، بالضبط ما بين المرآة والتمثال، الفراغ فيه رائحة المفروشات الجديدة، وكساء الجدران، وروائح أخرى منها ما يمت إلى عطور شتى «أو أطعمة مطهوّة، التزم الأوضاع التى نصحوه بها، كان متنبها إلى كل خطوة، أو إيماءه، حريصا على مقدار الانحناءة، تأمل التمثال الرخامى فى ثيابه وحركته، دقق فى تفاصيل جسد المرأة شبه العارى المتشح بغلالة رقيقة أبرز النحات البارع تفاصيل تموجاتها مع أن الحجر واحد، حتى استدارة حلمتى النهدين بدتا جليتين كالعلامة، إنها المرة الأولى التى يتأمل فيها تمثالا عن قرب، ولطول وحدته أوشك على مخاطبته همسا، عند الثانية بدا رجل بدين تصحبه امرأة نحيلة، سمراء، غزيرة الشعر، فسيحة النظرات، ترتدى ثوبا أخضر يشى بعظمتى ترقوتها، تقدم منهما، أبطأ الخطى فى منتصف المسافة عندما انتبه إلى إسراعه قليلا، مثبتا النظر تجاه الرجل لا المرأة، انحنى، بالضبط كما قيل له، وبدا له استفساره عما إذا كان البك قد حجز مقدما أمرا مضحكا، المناضد كلها خالية، لكن لابد من النطق بما أمر به حتى لو بدا الأمر غير منطقى، تقدمهما حتى مدخل المطعم الفسيح المسدلة عليه ستائر

خفيفة لونها وردى، وراءها تماما حاجز من الخشب الخرط، عربى الطراز، عاد إلى الممر وبه أنس، مصدره ذلك الحوار السريع، القصير مع الرجل، لن ينسى ملامحه أبدا، كذلك المرأة، إنهما أول من تعامل معهما، غير أن ركودا يعاوده، إن وقتا طويلا ينقضى هنا، الحيز ضيق، خطواته أحصاها مرات، إحدى عشرة لو أفسح، وستة عشر لو ضيق، عند بداية المساء جاء رجل يمسك بمفتاح غرفته، مقيم إذن، كان بمفرده، وعندما تبعه لاحظ قفاه، وصلعته، وخيل إليه أنه ينوء بهم ما، جاء ـ أيضا ـ ثلاثة يرتدون ملابس شركة طيران أجنبية، يتحدثون الألمانية، لكن عند مخاطبته تكلموا بالإنجليزية، بعد منتصف الليل ولج البيت، الوالدان فى الانتظار، لم يهجعا، فى ملامحهما بشر وقلق، استفسرا عن الأحوال، ولماذا التأخير؟ كان متعبا وعنده توق إلى النوم، قال إن الأمور تمضى ولا بأس، أما التأخير فعادى، ما من ساعات عمل محددة حتى الآن، الفندق جديد، مازال بعد فى مراحله الأولى، وسوق المنافسة شديدة؛ لذا لابد من التفانى، وبذل أقصى المجهود، هكذا قال المدير، فى اليوم التالى قالت الأم إن الولد كان مرهقا، وشخيره يُسمع خارج حجرته حتى إنها قلقت عليه فأطلت مرتين، هذا ليس من عاداته، قال الأب إن لكل عمل ظروفه، ثم حاد بالحديث فقال إنه يفرح عند خروجه، ويتابعه من النافذة حتى يختفى عند الناصية، وإنه يدعو له، هذه اللحظات عاش ينتظرها منذ عشرين سنة وأكثر؛ إذ جاء اليوم الذى يدخل إلى جيبه قرش نتاج مجهوده، إنه مازال يذكر اليوم الأول الذى صحبه فيه إلى المدرسة، يراه كأنه بالأمس، بعد أن فارقه فى فناء

المدرسة، بعد أن أوصى عليه المدرسات، نظر إليه من بعيد، فرآه وحيدا، صغيرا، فحن ورق وأوشك على العودة إليه يومها، سأل نفسه، بعد كم من السنين يمكنه الاعتماد على نفسه؟ وهل سيعيش حتى اليوم، الذى يراه يخرج فيه إلى عمله؟ إنه يحمد الله أنه رأى هذا اليوم، ويحمد الله أنه ألحقه بتلك المدرسة الأجنبية، فإتقانه اللغة سبب مهم لحصوله على تلك الوظيفة التى يتمناها الكثيرون، صمت هنا، لم يقل لامرأته إنه تحمل مصاريف هذه المدرسة لكى يتقن ابنهما لغة أجنبية ويمكنه الالتحاق بالسلك السياسى.

حقًا. . ما كان أجدره بتمثيل بلاده فى الخارج، لكن من أين له بالطريق إلى الخارجية؟ الأيام صعبة، والفرص محدودة، ثم إنه سمع عن شباب بدأ وا دون ابنه بكثير فى بعض الفنادق ومع الزمن ارتقوا وصاروا مديرين كباراً تنشر الصحف صورهم.

بعد أيام قليلة أرسل المدير المصرى فى طلبه، أبدى ودا واثنى عليه وضحك مرتين، هذه الضحكة التى ينفر من سماعها، قال إن الفندق مازال فى البداية، وإن جهدا يبذل الآن فى اتجاهات عديدة، الشركات السياحية، وكالات السفر، ليس فى مصر وحدها، إنما فى الخارج أيضا، أيضا فى اتجاه أهل الفن، ونجوم الرياضة، ورجال الإعلام خاصة.

سأله عما إذا كان يعرف أحد العاملين بالإذاعة أو التليفزيون أو الصحف، إذن. . لا تربطه علاقة، هذا مؤسف، إن تردد ممثل واحد هنا يمكن أن يفتح الباب أمام الآخرين، أما إذا اختار أحد

المخرجين الفندق موقعا لأى فيلم سينمائى، أو حلقات تليفزيونية، فهذا نجاح جدير بأن يجعل، عليه أن يبحث فى معارفه، فى زملائه بالكلية حتى لو دعا أحدهم إلى العشاء هنا فسيتحمل الفندق المصاريف، سكت لحظات، ثم بدا كأنه يتخلى عن لهجته الرئاسية ليبث شكوى، أو ليفضى بهم يثقله، إن المدير الأجنبى يضغط عليه يطالبه بتنشيط المبيعات، مع أن هذه ليست مسئوليته، لكنه مضطر إلى العمل فى كل الاتجاهات، المدير الأجنبى يلمح دائما إلى كسل المصريين، وتقاعسهم، وفى كل حوار معه يذكر ملايين الدولارات التى أنفقت. وأن العائد يجب أن يكون سريعًا، هل تدرى كم مليونا تم استثمارها هنا؟ تطلع صامتًا مبديا جهله بالأمر، قال المدير بتأن، ستة عشر، نصفها بالعملة المحلية، طبعا أصحاب المال لايريدون استرداد ما دفعوه فقط، إنما الربح أيضا. طلب منه ألا يهمل الأمر، أسفر فجأة عن ضحكته المصحوبة بالرذاذ، قال إن الزحام سيعود عليهم جميعا بالخير، ثم قال إن الحركة فى المطعم قليلة، لهذا يطلب منه القيام بعمل قد يبدو غريبًا.

قام من جلسته، دار حول مكتبه، على مهل مشى حوله، قال إن الظروف ربما اضطرته إلى القيام بأعمال ربما تبدو له غريبة، أهم شىء أن يلقى بنفسه فى خضم العمل، أن يفكر فى الكسب، الفرص بلا حد، المهم الثانى أن ينسى ما تلقاه فى الجامعة، هذا كله كلام كتب، ما يجب أن يذكره عنوان مؤهله لا غير، العمل الذى سيخبره به رحب به المدير، بل هنأه عليه، قال بصراحة إنه

لم يتصور وجود من يفكر هكذا هنا، الأمر ببساطه أنه سيجلس وقت الغـذاء والعشاء فى المطعم الرئيسى، بالضبط كأى مقيم، سيتناول الوجبات مجانا، كما ستقدم له كافة أصول الخدمة، الغرض أن يبدو المطعم مزدحمًا، خاصة عندما يوجد عدد قليل جدًا. إن المناضد الخالية توحى بعدم الثقة، طبعا لن يتم إشغال المناضد كلها، ستوضع لافتات هنا وهناك تشير إلى حجزها مقدمًا.

خرج من مكتب المدير وعنده من الدهشة قدر غير يسير، تزايد يقينه أنه يؤدى دوراً ما، وأنه يجب أن يستنفر شخصا آخر ليخرج من بين ثناياه ويقوم عنه، يشب ما بينه وبينه نفار، هذا ما بدأ يدركه مع تكرار حركته ما بين التمثال الرخامى والمرآة القديمة، مع كر أيامه مد خطاه، تجاوز المسافة المحددة له خلسة بخطوة أو خطوتين، لكنه سرعان ما يستدير مسرعا خوفًا من المدير الأجنبى، ظهوره مفاجئ، من حيث لا يتوقع أحد، بوجهه عبوس مقيم، وفى طلته غضب مقيت، يخشونه كلهم، ويتردد همسا أنه يبغض البلاد وأهلها، إنما جاء لارتفاع راتبه، لايخرج إلا نادرا، ولم يحاول الاتصال أو المزاورة، لا صحب له. مرة واحدة غادرإلى المطار عنده سفره إلى قبرص لحضور اجتماع ممثلى الشركة فى الشرق، فى الليل يتجرع خمرا ويأوى إلى سكنه، لا يجرؤ أحد على إزعاجه أو اللجوء إليه عند وقوع مشكل.

تلقى المهمة الجديدة كأنه يتلقى أمراً مفروغًا منه، ما يصدر هنا لا مجال لرده، هذا ما وعاه جيدًا، ما عليه إلا الامتثال والتنفيذ،

بل إنه أبدى تحمسا وارتياحا، فهذا يعنى ابتعاده عن الممر، تلك المرآة والتمثال الذى ضاق به، ملامحه التى حفظها، وحدق فى جزئياتها وتفاصيلها، كان التغيير الوحيد ظهور القادمين إلى المطعم وهم قلة، يتقدم الرجال مرحبًا، يتبع النساء، وعندما ابتسمت إحداهن انحنى ، كانت تصحب رجلا يمتلك توكيلا للسيارات، ابتسامتها لم تكن عابرة قط، لم تستغرق إلا ثوان، بل ربما أجزاء من الثانية، غير أن ما تحفل به علق عنده فاستعادها مرارا، وانتظرها ولكنها لم تأت، لم تلح مرة أخرى، فأورثته حنينًا، ما دهش له جرأة بعضهن جسارة لفتاتهن وإيماءاتهن، يعرفن التوقيت الملائم لتسديد النظرة، لتشييع الرسالة، وهى جد موجزة. جد ضامرة، ما يجب الانتباه إليه بقاؤه متلقيا على الدوام، غض البصر عن أى معنى يصل إليه، له جذر أو متوهم، لو انتبه أحد هؤلاء ربما لحقه أذى عظيم، قد لا يتوقف عند فصله، وخسران راتبه الذى تسلمه أول مرة وعده على مرأى من والده الذى بدا غير مصدق وأمه الداعية له أبدا بنأى الحساد عنه، غير أن يقينا استقر عنده أنه يؤدى دورا لم يعد له ولم يتأهب، بعد أن تحمس لعمله الجديد، ضجر منه، عليه البقاء حتى انصراف آخر الزبائن بصحبة اثنين من العاملين، لا معرفة سابقة تربطه بهما، وهذا مما عاناه قعاده وقتا إلى من لا تربطه بهم حميمة أو وثيق صلة، واضطراره الكلام فى مواضيع شتى لا رابطة بينها ولا دافع عنده لخوضها، مبرزا ابتسامته، ماحيا من ملامحه كافة ما ينم عن نفور أو ضيق، لم يكن قادراً على التمكن من الطعام وتذوقه، فالتعليمات تقضى بتناوله على مهل حتى لا يشغل المدة كلها، ما

بين اللقمة واللقمة مسافة زمنية، حتى إذا ما بدأ المضغ وجب عليه أن يبدو نهما شرها، تواقا إلى المزيد، أن يشير بيده، أن ينطق ما يشي باعجابه، بأن الطهو متقن والأصناف رائعة، منذ قدومه إلى الفندق يشعر أنه غادر ذاته فى مكان ما وزمن ما، وأنه سيبدأ تأدية الدور، والحذار الحذارأن يهن، أو يتوقف، لو كف سيلحقه أذى، الليلة جرى ما أثار انتباهه، إذ التقى به المدير المصرى عند مكتب الاستقبال صافحه مبديا رضاءه، أثنى عليه، قال إن الزبائن فى تزايد. والأمور تمضى إلى الأفضل، قال إنه بمناسبة شم النسيم سيقيم حفل إفطار فى الصباح الباكر حول حمام السباحة، طبعًا فيه البصل والليمون والملانة الخضراء، أما الفسيخ والسردين فسيقدم فى وجبة الغداء، وهنا أطلق ضحكتين متتابعتين، ومال إلى الأمام كأنه روى نكتة أو فاه بنادرة، قال إنه تم دعوة عدد من نجوم المجتمع وأهل الفن، حفل سيكون له مردود كبير، قال إن رئيسًا لتحرير صحيفة كبرى نزل اعتباراً من اليوم لمدة أسبوع، هذا حدث لايستهان به الآن. قال إنه تم إدراج الفندق فى قوائم عدد من الشركات السياحية وأول فوج سيبدأ إقامته الأسبوع القادم، لكن ما يجب التركيز عليه هم السياح العرب و. . والأثرياء الجدد، توقف المدير قليلا، قال مبتسما: والثريات!. غمز بعينه، بعد انصرافه استعاد إيقاع الكلمة، ملامح المدير عند نطقه وعدم إتباعها بضحكته المقيتة، الثريات؟ هل شكاه أحد الرواد؟ صحيح أنه يحدق طويلا فى الملامح فى الوجوه، خاصة بعد بقائه فترات طويلة فى المطعم، بدلا من رؤيته الناس بسرعة فى الممر، عرف النظر المتأنى، والطواف بعيدا، ثم الكر مرة أخرى بعينه على وجه

أعجبه، أو ملامح جذبته، خلسة كان يرقب إيماءات النساء ونظرات الرجال، كيفية المضغ عند كل منهم، أفواه مضمومةأثناء الأكل، أخرى ثابتة، وشفاه متحركةمهتزة، ممدودة إلى الأمام، وأفواه مزمومة، وأخرى يبدو مضغها كالتقبيل، وأوداج تنتفخ بالألسنة المدفوعة جانبا لاستخلاص بقايامن بين الأسنان وثنايا الفم، عيون تتأوه عند تحلقها حول الأطباق، وأخرى تبدو مشوقة حانية، فى إحدى الليالى أوشك على الضحك، رجل ألمانى كان يمضغ بسرعة ينقل الطعام من جانب إلى جانب، وإذ يزدرد الطعام يمد رأسه كله إلى الأمام، يتقوس حاجباه، وبعد اكتمال البلع يومئ مرتين، لايتشابه إنسان بآخر، خفية كان يتفرج، وبسرعة يدقق، حرصا دائما على جمود ملامحه، فى أمسية أدركه خوف، إذ رصد انبعاث إشارات من منضدة قريبة، الرجل يدير ظهره، أما المرأة الحسناء فكانت تواجهه بملامحها، لم تكف عن اتخاذ أوضاع بشفتيها ذات معنى ودلالات عدة، أما عينيها فكانتا تتأودان، تنكمشان وتتمطيان اتجاهه، أشدما يخشاه تلك الإيماءات الخفية، ماذا كان يقصد مدير الفندق؟

هل يقصد . . بسرعة استبعد الخاطر، لكن لم يستطع رده، عاوده ليلا عند انصرافه متأخرا ، تقله عربة العاملين، لا يتحدث إلى أحد، يولى وجهه شطر الطريق يتابع مروق المرئيات، فى هذه اللحظات يبدأ استرداد ما حجبه، ما واراه من ذاته، أحيانا إذ يتأكد أنه بمنأى عن العيون، يحرق عضلات وجهه، يفتحهما، كأنه ينفض قناعا خفيا علق به، فى عتمة الليل ترددت المعانى التى لم

يلمحها وقت نطق المدير، وفى مواجهة ما أدركه بدا هشا، حائرا، متعبا، وعنده رغبة فى الإفضاء إلى أبيه وبسط همه أمامه، لكنه كتم، حتى بعد ثلاثة أيام، بعد تأكده مما خطر له، التقى المدير به، قال إنه يتنبأ له بمستقبل باهر، وكررما رواه من قبل عن بدئه الرحلة من أول السلم، من أدناه، ارتقاه درجة، درجة حتى وصل ، أصبح مديرا، وهذا منصب رفيع، لا يمكن الوصول إليه فى علم الفندقة بسهولة، فما البال إذا كانت الشركة أجنبية والتنافس بين جنسيات شتى.

توجه بالخطاب مباشرة إليه، دافعا مقدمة أصبعه صوب صدره «أما أنت. أنت عندك من المؤهلات ما يمكنك من التقدم بسرعة، لا أقصد طبعا ما حصلت عليه من الجامعة، انس هذا بالذات، المهم مؤهلاتك، أنت، طولك، وسامتك».

غمز بعينه.

«وسيكون لك معجبات يجئن إلى الفندق خصيصا لرؤيتك، المهم.. أن تقف فى المكان المناسب حتى لا تحرمهن من رؤيتك!». انصرف مسرعًا، لم يتم ما بدأه، لكنه لمح وصرح، لم يعد ثمة مجال للحيرة ، واضح ما يهدف إليه، آوى إلى فراشه منهمكا، انتبه إلى انقطاعه عن قراءة صحف الصباح منذ فترة، كم يوما؟ لا يدرى بالضبط لكن أيام دراسته تبدو نائية كأن سنين انقضت وليست شهورا معدودات، فما أبعد الشقة، وأنأى المسافة، يتصل به بعض من زملاء دراسته، أحدهم هنأه، قال لابد أن وساطة قوية تمت، استفسر عن المرتب والحوافز، أخبره ثالث عن انتظاره

التعيين في الحكومة، البعض يبحث عن فرصة للسفر إلى الخليج، لكن يقال إن الفرص هناك ضئيلة الآن والآلاف يستعدون للعودة، أحدهم أقلع مهاجرا إلى فيينا، قال إنه سيبدأ من جديد، وكأن ما انقضى لم يكن، سيبيع صحفا أو يعمل خادما في مطعم، ولعله يوما يصبح مثل أولئك الذين يقرأ عنهم، ويتابع تحركاتهم، ويضرب بهم المثل على النجاح، صاحب قديم ميسور أخبره أنه سيتم دراسته في باريس، إنه سيعد رسالة علمية هناك، قد يعود وقد لا يعود، أمر في علم الغيب، أصغى إليه وعنده غيرة وأسى، هذا ما وده وتمناه، أن يصبح معيدا، أو دارسا في الجامعة ، أن يسافر إلى بلد ما، إن في شرق أو في غرب ليتم درسه وتحصيله، لكنه يرقب دبيب شرخ في البنية، وخللا في ترتيب النظام، تغير يجرى، يشمل كل ما حوله، إنه غير قادر على تحديد ملامحه بدقة، يشعر به ولا يعقله، يثقله دبيبه ولا يدركه، يثق من سريانه حوله وفيه ولا يراه، كان يعد نفسه لأمر، وإذا به مشمول بآخر، لكم ود إتمام الدرس، تحقيق ما تمناه والده، أن يقدم أوراق اعتماده يوما إلى رئيس دولة أجنبية ممثلا بلاده، لو أنه سافر كصاحبه هذا، لو التحق بجامعة أوروبية لكن ظروف والده المحدقة لا تفي بالغرض، عندما وضع بين يديه راتبه كاملا دمع الرجل تأثرا، قال إنه تمنى التحاق ولده بالسلك السياسى، لكن ما يعزيه ضخامة المرتب، أعاده إلى ابنه داعيا له بالتوفيق، مرددا، لا يدرى أحد أين يكمن الخير؟ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم، والخيرة فيما اختاره الله، وما شابه ذلك، وما أدرك معه الابن أن الراتب الكبير لم ينه ولم يجهز على أمنية والده القديمة، هو - أيضا - لم يكن

مرتاحا وإن أبدى غير ذلك حتى لايسبب ضيقا لوالديه، حملق بعينيه المفتوحتين فى ظلام الغرفة، وإدراك حاد عنده أن الخطط حادث، وأن ما حصله في سنوات طوال يتسرب على مهل، ليس المناهج، والنظريات والعلوم، والقضايا، إنما ـ أيضا ـ الدأب والمثابرة والترتيب وما يمكن أن يحقق ذاته، يعى تبدد عناصر القضية الأصلية، وهذا موجع، مهما بدت المغريات الحسية، ثمة أمور مستحدثة تحل، بدءا من طبيعة الوقفة، والانحناءة واصطناع البسمة فى غير موضعها، وتوجيه الشكر لمن لايستحقه، وتجاهل الإهانة ولو كانت ضارية، وإغلاق بعض خزائن إنسانيته، وتبديل محتوى طال الحفاظ عليه، والتدرب على إقصاء نفوره من شخوص غرباء عنه، أما ما يجهله، ما يكمن فى انتظاره، فلا يعلم عنه شيئا، مضبب، مغيب عن ناظره، وهذا كئيب.

للمرة الثالثة يتغير موقع عمله، للمطعم الرئيسى رواده الآن، والحجز مقدما صار ضرورة لا وهما، سفارات بدأت تقيم حفلاتها، وأفواج سياحية تعبر لمدة ليلتين أو ثلاث وشركات طيران تأوى أطقم طائراتها بانتظام، تجار كبار لهم أسماء راسخه فى السوق يجيئون، أحدهم يتردد يوميا، لا يجئ بمفرده أبدا، دائما فى جمع وصحبة، أحيانا يصحب فنانة معروفة، أو لاعب كرة شهيرا، المدير أحاطه باهتمامه، وخصه برعايته، لم يكن فى حاجة إلى زمن ليدرك نشاطات جديدة يقترب منها المدير، يمارسها علنا، فبمجرد وصول مجموعة من السائحين، يجتمع بأحدهم، يعرض عليه تغيير ما معهم من عملة، يشرح مضار

التغيير الرسمى والحر، إنه يقيم علاقات وثيقة مع عدد من تجار التحف فى خان الخليلى، أحيانا يصحب بعض الأجانب الذين يفيضون بثرائهم، وفى الأغلب الأعم يرسل مجموعات السائحين مع من يثق به، وله فى كل جهة مقدار معلوم، هذا بعض مما ألم به مصادفة أما ما خفى فلا يدريه بعد، إنه فى المطعم الفسيح الآن، حيث تقدم الوجبات السريعة، مزدحم، مفتوح طوال الساعات الأربع والعشرين، فى المساء يجيء شبان وفتيات لا يرى مثلهم فى الشوارع، يرتدون ثيابا تحاكى أحدث ما نشرته المجلات الأجنبية، بنطلونات واسعة من القطن، وقمصان بدون أكمام، وحلل كاكية ذات جيوب مختلفة الأحجام، يأكلون الشطائر، يجرعون علب البيرة المستوردة، ينفقون فى غير حرص، يتنادون . . هاى، أعمارهم تقارب عمره، برغم ذلك ينوء فى مواجهتهم بسنين لا تحصى لم يعشها فكأنه كهل بلغ من العمر عتيا، لماذا؟ يسأل نفسه كثيرا وهو قائم على خدماتهم، يدون ما يطلبونه، ويبادل بعضهم الحوارات السريعة الخاطفة، ربما لأنه لم يمر بما يمرون به، من وفرة مال سهل، وخلوهم، ألم يكن النجاح آخر العام بمثابة الشاغل الأكبر؟ وفى الأيام الصيفية يقرأ ليزيد معلوماته وحصيلته، أين راح هذا كله؟ أحيانا يستعيد صوت أبيه عندما كان يلج غرفته فيراه مشغولا بكتاب أو مجلة فيدعو له ويثنى عليه، يبدو له هذا غريبا الآن، وكأنه جرى لشخص آخر، أوفى مكان وزمان لا يمتان إليه بأدنى صلة، تدهشه جرأة الفتيات، يبادلنه الضحكات، إحداهن صافحته وضغطت يده بشراهة بادية، غير أن الشبان المصاحبين لهن أشد انتباها وغيرة من الرجال

الوقورين، الممتلئين المصاحبين للنساء مرتديات ملابس السهرة مرتفعة الثمن، التى تشى رقتها بالملابس الداخلية الشفافة مما يوجع خيالاته التى لم ترو بعد ولم يشف غليلها، هنا الزحام مسل، والوقت ينقضى بسرعة، ما يرهقه، اضطراره محاورة هؤلاء الشبان، خاصة عندما يدخل بعضهم فى نقاشات عبثية، وتبادل قفشات، والتلفظ بجمل ذات إيماءات، وطبقا لما أوصى به المدير لابد من مجاوبتهم ومسايرتهم، ألاّ يتغلب على أحدهم لفظا، ألاّ يبدى تعاليا، ألاّ يرتدى ساعة ثمينة، أو خاتما ذا قيمة، فهو مغلوب دائما، ولكن فى غير ذلة، أقل ذكاء حتى وإن فاق محاوره، يجب أن يبدو طبيعيا طول الوقت، يفيض نشاطا، لا يبالغ، لا ينقص، إن ساعات الوقوف طويلة، لكن عليه إخفاء إرهاقه، ألاّ يختلس جلوسا ولو دقيقتين، المدير الأجنبى لا يتهاون أبدا، كذا المصرى، إلا أن تعبه توارى، ومعكراته خفت بعد ظهورها، هكذا فجأة انبثقت فى المكان، بوغت بوميضها فأوشك أن يغشى بحضورها الأنثوى الذى شع فطغى، وامتد فغطى، لم يكن بمفرده هو الذى تعلق بصره بها، إنما كل من وجدها هذه الليلة، صالت بنظراتها هنا وهناك، ثم أخذت طريقها باتجاهه هو، بدأت تعبر الصالة متمهلة، تحيد متثنية متأودة عند اعتراض منضدة لسريانها، كأنها فى عرض مستمر لا ينتهى، عنقها المطواع وصدرها الأشم، وطلائع فخذين أتمين، الجانب الآخر منهما ردفان مكتملان، محفوفان بما لايزيد أو ينقص، أما قوامها فمتأجج وثاب، وكأنها تعرف دربها صوبه، ابتسم، ارتبك، انسحب من كافة الأصول والقواعد، وعندما استقرت أمامه،

عندما انتهت إليه، انحنى هربا من عينيها مغالبا خفق قلبه وخدر حواسه، شمله حضورها، ودثره، فأرجفه وهدهده معا، فأرسل عنده مباسم وبشارات، واستنفر شوقا إلى مجهول أتم لا يلوح منه قبس، تقدمها إلى منضدة خالية تنتظم مقاعد ثلاثة، جلست فكأنها شبت، أسفرت فتحة الثوب الجانبية عن لحظة اتصال الساق بالفخذ، ريان، ممتلئ، باظ، لعاب رغبته يسيل داخله، يجاهد ليكتم، مرة أخرى ينحنى اتقاء لعينيها البديعتين النهاشتين، عليه أن ينسحب، أن يتراجع صوب مكان وقوفه، إن سؤالها عما ترغب أكله أو شربه ليس مهمته، لكنه استفسر بصوت خافت، وتراجع ليبلغ زميله رغبتها فى زجاجة بيرة، كيف جرى له ما جرى؟ مع أنه يرى كل ليلة ربما من تفوقها جمالا، تفوقها؟ كيف؟ ربما فى الملامح، لكن تلك حضورها مشبوب، وإشعاعاتها أزلية أبدية، أما جسدها فمنفلت فار من حدود الثياب المتوارية منه، موحية بعديم قدرتها على لمه، لم يكف عن الطواف حولها، والتسلل من بعيد بالنظر إلى منطقة وجودها، متسائلا عمن جئن ليجلسن معها، إحداهن سمراء، نحيلة، جعداء الشعر، تدخن سيجارة فى أثر الأخرى بدون توقف، الأخرى طويلة فى إفراط أسبانية الملامح، ربما ألمانية، أو من إحدى الدول الإسكندنافية، أما هى فمن تكون؟ كيف يمكنه أن يعرف بدون أن يلفت النظر؟ اطمأن إلى نزولها الفندق، مفتاح الغرفة أمامها، وعندما دنا ميعاد ذهابه بدت باقية، حذراً اقترب، هل خصته بنظرة؟ هل أومأت؟ لا يقدر على نفى أو إثبات، فى هذه الليلة غادر الفندق على كره لأول مرة، ود المكث فترة أطول، فى تلك الليلة أرق، رأسه

كوعاء ماء مغلى، حتى رائحتها تميزت، فى الزحام علقت به، وعندما أعياه التقلّب، وخشى طلوع النهار عليه مستيقظا، أنهك باستعداء خطوها وتجريدها، وتمرير يديه على النافرين الصلبين وتقبيل جهاتها، قبض ذكره بيده، أراح نفسه بنفسه كما تعتاد منذ سنين حتى يهدئ حاله ويروق باله، ويواتيه خدر النعاس، كثيرا ما أنهى توتره باستدعاء جسد لفت انتباهه، أو وضع اتخذته إحدى زميلاته عند جلوسها وانحسار الثوب عن بضاضة وفتوة، أو تأثير ملاصقة عابرة دبرتها المصادفة بأنثى قدر لها أن تقف أمامه أو أنس صمتا منها، أو إطاله التحديق إلى صورة ممثلة شبه عارية.

فى اليوم التالى غادر البيت قبل موعده، قبّل أمه بحماس، وأوصاها أن تقبّل أباه نيابة عنه، بدا شرحا، خفيفا، راغبا فى السعى، هذا الضيق الذى اعتاده عند التوجه إلى الفندق تبدد، يود الإسراع، خطاه أفسح، حريص على حركاته، فكأنها ترقبه خفية طوال سعيه، سيبدأ موعد الغداء عند وصوله، مع بدء نوبته، سيمكنه الاطمئنان عما إذا كانت مقيمة بعد؟ لا يدرى ما يريده بالضبط، لكن مجرد رؤيتها بعث عنده نهضة على مهل، فى حذر، سيحاول أن يعرف عنها، إنه فى توق إلى رؤيتها، هذا المدد الحيوى الذى يبعث أزيزا خفيا فى أوصاله عند خطوها، عبورها، عند تثنيها، بعد استقرارها قاعدة يستمر الضجيج الخفى المنبعث عن طلعها النضيد الأخاذ يؤجج مشاعر طال كتمانها، وهنا لابد من إشارة عابرة إلى خجل لازمه طويلا، وخفقات قلب فتى لم يضمنها قولا أو بوحا.

عندما رآها تهل، وأخفى تمايل داخله وقمع ظاهـره حتى لا تشى ملامحه بخباياه، فيما بعد لاحظ أن اتجاهه ناحيتها كان أسرع، وخطوه أخف، وابتسامته أرحب، أما يده الممدودة فتفيض مودة، وعندما أزاح المقعد قليلا إلى الوراء لتتمكن من القعاد، استنشق عبيرها بقوة، وأنشب نظرته عند قاعدة عنقها وبداية وادى ظهرها العارى المنبعث منه زغب ذهبى خفيف يتألق عبر الضوء، اليوم لم تطل وحدتها، جاء من يجهله، من لا يعرفه، من لم يره من قبل هنا، مصرى ممتلئ، حول معصمه سوار ذهبى، تقدمه إلى حيث تجلس، ركز البصر على مصافحته لها، هل يتعرف بها لأول مرة، يبدو متحفظا كأنه لم يرها من قبل، لم يطل جلوسهما، اكتفيا بشرب العصير، ثم بسقت قامتها متأهبة للانصراف بصحبته، اقتفاهما حتى خرجا، فأوحش داخله وتعجل الغد.

تقريبا، فى الموعد نفسه جاءت، فى التوقيت عينه يتوقع انبثاقها أحيانا بصحبة هذه السمراء الجعداء، لكن مكثها معها لا يطول، تخطر مرات إلى الهاتف، تتحدث بهدوء، تضحك، مرة لاحظ أنها تشير بعصبية، غير أن ما سرى إليه، تلك النظرة التى خصته بها فى الليلة الرابعة لظهورها، تأكد له ما فيها من خصوصية، ابتهج إلى حد التعب، وعند انصرافها بصحبة مدير إحدى الشركات السياحية رمته بطلة جانبية، أوشك أن ينحنى متوددا، غير أنه لاحظ تجهم المدير فكف، إذ يخلو المكان منها يود الانفراد بنفسه بسرعة، وقبل نومه يلتهب باستعادتها، باستجلاب حضورها بمخيلته، أما تلك النظرة فأينعت عنده غرسا، وسقت

أحلاما مبهمة، خلال الأسبوع الأول المنقضى على ظهورها لم يكن بقادر على تحديد مصدر كل تفصيلة مما عرفه أو نما إلى علمه، أحاديثه مع بعض زملائه التى حرص على أن تبدو عابرة غير ذات غرض، خاصة مع موظف الاستقبال الشاب الهادئ، الذى يجاوره أحيانا فى عربة الفندق، إضافة إلى قول من هنا وقول من هناك، الحوارات السريعة التى تجرى فى الممرات، عند الانتقال من موضع إلى آخر، عرف أنها مقيمة إلى مدى غير معلوم، إنها عاملة بإحدى شركات السياحة الأوروبية، وجودها مع زميلاتها ينشط الحركة، إنهن يقمن فى غرف معلومة، لكنهن ينتقلن من حجرة إلى أخرى، يبدأ التعارف فى الملهى الليلى، أو فى المطعم، أو فى أى مكان آخر، ثم يتولى المدير تدبير الأمور، قال صاحبه موظف الاستقبال إن هذا وضع متعارف عليه فى عدد من الفنادق، خاصة تلك التى تديرها شركات كبرى، تحجب أسماؤها المحظورات، ما سمعه حيره، أدهشه، لكنه عندما التقى بها أمام المصعد ابتسمت بمفردها هى، جاوبها، كان عليه أن يمضى، طبقا للتعليمات ممنوع عليه إطالة الحوار مع النزلاء، خاصة النساء منهن، أو مصاحبتهن، أما الصعود إلى الطوابق العليا فأمر يؤدى إلى تحقيق قد يعقبه فصل، أو شديد عقوبة، هذا ما قيل له عند بداية خدمته، غير أن ما نما إليه أحدث عنده زلزلة، ما يتكشف له لم يتوقعه، بل إنه غريب.

عند هذا الحد كانت الشقة قد اتسعت بينه وبين أيام دراسته، مع انصرافه الليلى، فى صمته، وتأمله الطرق شبه الخالية، والبيوت المدثرة، والعتمة، والنوافذ القليلة المنبعث منها الضوء، خيل إليه

أن من تردد على الكلية شخص آخر، وأن الأيام الطويلة التى قضاها يطلع على النظم والقوانين الممضة، ويخط بيده بنية السياسات، خيل إليه أنها نائية، غريبة عنه، أحقا أجهد النفس ليحقق أمنية والده؟ أحقا تمنى رؤيته دبلوماسيا يرتدى الحلة الكاملة ورباط العنق، ويمثل بلاده فى الخارج؟ لكم أفصح الأب فى جلسة ما بعد العشاء، بل تخيل مرارا ما يرجوه، والبلد التى سيخدم فيها، حتى السطور التى ستخط على بطاقة ولده، تلك الأمنيات، وأحاديث الليل، هل جرت فعلا؟ هل طاف بذهن والده، أو عنده هو يوما ما ذلك المكان الذى يعمل به الآن؟ أى هوة، أى باب شاسع يفصل بين الحدين، يباعد ما بين الخطين؟ كأن أمورا خفية تعمل عملها فتعدل وتبدل، وما ينتظره عند الخطوة التالية ربما يتفق أو يختلف مع النية والعزم، بل إنه الآن يوغل فى النأى عما ألفه وعهده، ما تعايش معه عمرا، وما جرى فيما تلا ذلك رسّخ هذا وقواه وزاد من بعد المسافة بين ما كان وسيكون، ذلك أنه عند وصوله صبيحة ثلاثاء وعبوره المدخل المخصص للعاملين، فوجئ برجل الأمن يقول له إن المدير يطلبه، وأنه استفسر عن وصوله مرتين، خفق، لم يستطع أن يمنع نفسه من السؤال، لكن رجل الأمن بسط يديه، من أين له العلم؟

ابتسم المدير، اقترب منه ممسكا بذراعه، ألم يقل له إن مستقبلا رائعا فى انتظاره؟ إذن.. لا يراد به شر، فى كل مرة يستدعيه المدير يظن أنه أخطأ أو أتى مخالفة، وأن توبيخا ينتظره أو عقوبة، غير أن قلقه لم يول، ماذا يراد به؟ قال الرجل بلهجة ذات إيحاء

ومعنى إن «مائة سبعة وسبعين» معجبة به. «مائة سبعة وسبعين»؟ من هى؟ ضحك المدير ضحكته المبتسرة، حقا لا يعرفها؟.. إنها الحسناء التى يأكلها بعينيه كلما دخلت إلى المطعم.

قال المدير بجدية: إنها تنتظره فى الثالثة تماما، ويمكنه الصعود، ضحك، قائلا: تذكَّرنا وأنت معها.. لا تكسفنا.

دخل المطعم، كأنه يقف على حدود مجهول غامض، لماذا لم تتجه إليه مباشرة؟ صحيح أنها رمقته مرات، لكن لم يصل إليه ما عبر عنه المدير، ماذا تريد منه؟ لهجة المدير لا تخفى مضمونها، بل إنه أوشك أن يغمز بعينيه، الثالثة إلا خمس دقائق جاء أحد زملائه، قال مبتسما إنه سيحل محله، إنه يمكنه الانصراف، كأن الفندق كله يعرف، كأنهم يعرفون أين سيكون بعد دقائق، وعندما توقف أمام المصعد لم يضطر إلى التلفت، فالإذن بالصعود من المدير شخصيا، قال لعامل المصعد بثبات: الطابق الأول، يدارى العامل وجهه، هل يبتسم؟ هل يعرف هو أيضا؟ لا يعنيه الأمر، المهم الآن الثبات، حتى يوفق فيما ينتظره، عندما قال له العامل، مع السلامة، ارتبك لحظات، كأنه يمر بلحظات مشابهة لما يمر به أى عريس يقف مع عروسه فى صالة الاحتفالات قبل صعودهما إلى الغرفة بعد انتهاء الفرح، كل من يتطلع إليهما يتخيل ما سيجرى، أما الأخيلة الشبقة فتجرد العروس، لكن لماذا يتجه بمخيلته تلك الوجهة؟ ربما تريده لأمر آخر، غير أن مجرد جلوسه وحيدا إليها يفتح مغاليق جسده، قبل أن يمد يده ليطرق الباب فكر هل فى الأمر مكيدة؟ تردد، لكنه خطا بقدميه، جاء جاء، عندما

فتح الباب أشرف على تخوم عطر خفيف، الرائحة التى اعتادها عند مرورها، تقف وراء الباب، تطل برأسها باهرة العينين، تبتسم، تقول مرحبة بالإنجليزية، مزيج من ترحيب وتشجيع واستغراب عجيب!

تفضل.

يلج الغرفة فيدخل إلى زمن مغاير، هذا كله جديد عليه، ها هى مكتملة، بديعة الوقفة، هجومية النظرات شتان شتان ما بين رؤية عينيها من بُعد وسط الزحام، والوقوف فى محيط رؤيتها، فى مداهما، شتان أن تنظر بهما إلى جمع، وأن تحتوى بهما فردا، هو بالأخص، من أى نسيج أسود شفاف صيغ هذا الثوب الذى يشى بمفرق الردفين وعتمة ما بين الفخذين الواعدة، ينسدل على نهوض بنيانها، واكتماله، فورانه المتدفق، الضاج، كتفاها العاريتان المستديرتان، انحناءتهما تغرى بالميل بلثمهما، أما نهداها فلا مشد يسندهما، حلمتان مشرعتان، بدأ داخله مس وأزيز، أما ركبتاه فسرى عبرهما خدر وتسيب، كاد ينتفض عندما فوجئ بها تمد يديها لتخلع جاكتته وتفك رباط عنقه، نظراتها تلج عبر مسامه، ود القعاد إذ أوشك إعياء لطيف أن يحطه، وعندما شبت على أطراف قدميها لتتناول المشجب اكتمل بزوغ جسدها، اتضحت التقاسيم، وانجلى السفور، تعلق بالخط اللامرئى الذى يحدد منتصف الظهر ثم يتقوس، ينحنى ليتحول إلى استدارات عجيبة، فكأن ردفيها يشدان فخذيها، مكتملان، صلبان، ملحقان بها، متصلان، منفصلان، ولأنها شبت، فقد انخسف

الرداء الحريرى الشفاف المطرز بخطوط طويلة مذهبة، توارى بعضه فى المفرق الذى يباعدهما ويقربهما ويبرزهما، فى الوقت عينه الذى يفصلهما، فما أكمل التكوين وأبدعه، فجأة استدارت، أوقعته في كمين عينيها، مما أربكه لحظات، غير أن الأزيز تحول إلى صراخ أو عويل متصل دفع إليه بجرأة لم يعهدها عنده، كانت هى اللحظة بأتمها، تختزل كل ما انقضى وتحجب عنه كافة ما يتوقع مجيئه أو حدوثه، أشارت إلى المقعد فأبى، خطت نحوه فاشتد أمره حتى انتبه إلى ما تسفر عنه ثيابه، لكنه لم يبذل الجهد ليدارى، حركتها المحدودة كأنها ركض داخله، تأودها ينشب عنده، تمد يدها بكأس شفاف تشير إلى زجاجة ويسكى، ليس مما يقدمه الفندق . .

ـ كأس؟

يضطر إلى ازدراد ريقه قبل أن يلفظ «لا» بصوت متخثر .

ـ لا تشرب؟

ـ لا . .

ـ مسلم؟

قال إنه لم يعتد الشرب فى الظهيرة، الحقيقة أنه لم يذق الويسكى قط، تقف معرفته عند البيرة التى جرع منها كوبا أو اثنين، وأخفى ذلك عن والده الذى حذره دائما من الخمرة، من الحشيش، من الأقراص المخدرة التى ظهرت وشاعت أخيرا وتنشر الصحف عنها، من النساء والزنا، كان يقول إن مشكلة ستقابله

عند تمثيله بلاده فى الخارج، لا تخلو الحفلات الديبلوماسية من الخمر، ألا يظهر السفراء والقناصل وبأيديهم الكئوس؟ لكنه يقول مستدركا، إنه يمكنه المجاملة بشرب كأس من الليمون أو عصير البرتقال، هكذا يمثل تقاليد بلاده حقا، تقول إنها تشرب فى أى وقت، تضع قطعا صغيرة من الثلج، لا يرى إلا تحرك جسدها، وعندما وضعت ساقا فوق الأخرى نفر وركها المرتوى، فأوشك على الهذيان، ومع هذا كله حاش نفسه عن الاندفاع، بقيت عنده خشية يقظة، ربما عد ذلك تهورا يقتضى العقوبة، وفى لحظة وعى أن ما يأتى منه رد على فعلها هى، وليس استجابة لاضطرامه وفوران حاله هو، أزعجه ذلك.

تقول إنها عرفت اسمه الأول، وعرفت دراسته للعلوم السياسية، لكنها تجهل إلى أى البلاد سافر؟ يقول إنه لم يسافر قط، تبدى دهشة، هى رحلت إلى بلدان عديدة، تسافر منذ سن مبكرة، بلادها فى شمال الدنيا باردة، لا تسطع الشمس إلا أياما قليلة فى الصيف، كافة رسائلها إلى أصدقائها تدور حول شمس مصر، والمناخ الذى لا مثيل له، لكن الزحام شديد، تسأله عن خططه للمستقبل، يقول إنه لا يدرى، تسأله عما إذا كان راضيا فى عمله هذا؟ يقول إنه غير مستقر حتى الآن، لكنه يتمنى أن يلتحق بالسلك الديبلوماسى، تقول لكن المرتبات قليلة، يضحك قائلا إنها تعرف أمورا كثيرة، تقول إنها لم تعرف شيئا بعد، تصمت قليلا، تشرد نظراتها، يحار، إلام سيؤدى هذا الحديث؟ يقفز إلى وعيه تساؤل، ماذا تريد منه؟ هل يتخذ خطوة تجاهها؟ لو أنهما بعيدان عن الفندق، لو أنه لم يأت بتعليمات المدير، لبادر

وأقبل، ربما ما يمر الآن به معتاد عندها، لكن. . هل تقعد هكذا سافرة بجسدها كله؟ بعد إقدامها على خلع جاكتته وفك رباط عنقه؟ إن حضورها الأنثوى يسبب له دوارا، بل أن خاطرا يباغته، هل يمكنه إرضاء هذا الموكب كله؟ تقف حدود تجربته عند التقبيل المختلس وتمرير الكف فى أماكن هادئة على ضفتى النيل، قبلة خاطفة، ينتهى الأمر بتشابك الأصابع، وضغط الأيدى، وتأوه مكتوم، يذكر صوت صاحبته الحذر، آه. . إنك تؤلمنى! تسأل: هل تعرف كل من يتردد على الفندق؟ يقول إنه يعرف بعضهم، إنه مستجد فى العمل هنا. تقول كأنها تحدث شخصا ثالثا غائبا، إنها تكره حياة الفنادق، تلتفت إليه فجأة. .

ـ «تعال». .

ينتفض عابرا المسافة القصيرة التى تفصلهما، يرتمى بكليته صوب جاذبية فلكها، إذ حط عند مشارفها تمدد إعياؤه، وثقل تنفسه حتى خرج منه مايشبه الشخير، ولما كف، شرع فى شهيق شره، بدأ كأنه لن يكف، يجرع عبقها، عطرها الداخلى، تركض دقات قلبه، يود لو زوى فى إسارها، مررت أصابعها خلال شعره. .

ـ برىء . . برىء . .

تفك أزراره، تجرده، إذ يهم، تشير إليه أن يكف، إنها تفضل القيام بذلك، للحظة يخجل من عريه، ما يلقاه غزير، متعدد، لا يدرى بأى الأمور يبدأ، يود لو يأتيها من كافة جهاتها، يدنو من أفقها، يقارب تضاريسها، ضحكاتها قصيرة، سريعة، حانية،

يحوم حول مركزها، كأنه يخشى أن يبدأ فينتهى، وعندما اجتاز تخومها انخلع غير مصدق وجرى بعضه فى بعضه، يدفس أنفه فى إبطها، تحنو، تمرر أناملها فوق ظهره، يبدأ أمره فى السريان من جديد، كأنها وعت ما هو عليه فامتصت زخمه الأول، أما الآن وقد اكتمل استواؤها، فتبدو كمارج من نار، ينبوع لهب، تتصلب، ترتخى، تتقلب فى هجوعها، وتمشى فى ثباتها، يسلم قياده، تطرحه، تدغدغه، لم يقدر على منع أصوات قصيرة من الصدور، تبدو كأنها تستحثه على إتيان المزيد، يدرك أن هذا مما يستثير كوامنها الخبيئة ويقربها من ذراها فيلبى..

كم الساعة الآن؟ لا يدرى، لكنه يوقن أن ما انقضى لما يؤرخ به، تقبله، تمسه مسا هينا، تسوى شعره، تعدل ياقته، لم يعتد ذلك من أنثى، إنه قادر على النظر إلى عينيها غير وجل، إنها راضية، لكن المهم، متى وأين اللقاء التالى؟ تقول برقة وغموض..

ـ بعد.. بعد..

ينصرف من الحجرة، انشطرت حياته إلى قسمين، تشعبت رحلته إلى مرحلتين، إنه مضمخ برائحتها، غاص بوجودها داخله، يود الانصراف، الخلو إلى نفسه، استعادة ما جرى، تمثل ما وقع، قولها إنها تحب صدقه، وبكارته، إنه وسيم، يتخدر إذ يستعيد إشعاعاتها عند القرب، يمضى على مهل، ينزل الدرج بطيئا، مجبرا على العودة إلى المطعم، يعبر الصالة، يوشك أن يتعثر، إذ يفاجأ بالمدير فى مواجهته تماما عند المنحنى المؤدى إلى المطعم.

«ها . . رفعت رأسنا؟».

كأنه عالم بكل التفاصيل، يصافحه، يضغط يده، يقول إنه كتب مذكرة لصرف مكافأة خاصة له، يضيق، غير أنه لا يفصح، يحار إلا أنه لا يبدى، لماذا يكافئونه؟ يخدش ذلك خصوصية ما جرى، لماذا يتعاملون معه وكأنه أدى وظيفة؟ لكن يبدو أنه لم يمض إليها إلا بإذن وتصريح، إن خاطره يغيم، غير أن ما مر به طغى فلم يقدر إلا على استعادته فى هذا المساء ازدحم المطعم، وعلا صخب، ولم يتوقف طويلا عند اهتمام أبدته ابنة تاجر أدوات صحية شهير بدأت التردد منذ أيام مع عدد من صاحباتها، تنفق بسخاء، جاوبها بما تمليه قواعد الخدمة لا غير، عنده قلق، لكنه يفيض حيوية، وكلما استعاد لحظة يسرى تنميل خفيف لطيف عبر ظهره، عندما لاحت عند المدخل كانت بصحبة سويدية شقراء، فارعة، عريضة الكتفين، ذكورية الهيكل والأرداف، لم تصل إلا أول أمس، تجول بعينيها فى القاعة، كأنها لم تلمحه، لم تره، أهذه عادتها فى الليالى المنقضية؟ هل تتجاهله حتى لا توحى بما كان؟ لكن المدير يبدو ملما، جامعا، من واجباته التقدم والابتسام، الانحناء، الإشارة بيده، إلى المنضدة الخالية أو المحجوزة، بعد أن تم جلوسها أومأت، هل تأخر فى الابتعاد عنها؟ هل تردد قليلا؟ لا يدرى، لكنه ود لو تلقى إشارة تخصه، عندما ارتد إلى موقعه عند المدخل اجتهد فى استعادة ملامحها، هل أبدت ابتسامة خفية؟ ربما، لا . . إنه مخطئ كان خطوها أمامه مختلفا، يستعيد ما كان بينهمامنذ ساعة زمن واحدة، من يتصور

كيف مضى الأمر بين هذه الجالسة المتألقة، وبينه هو الذى يستقبل القادمين بلطف، لم تلتفت قط إلى جهته، ود لو يبقى، لو يمكث، لو يجلس إلى منضدة مجاورة، أو يقف فى مواجهتها، فى اليوم الثالث قرر أن ينهى هذا الصمت المحير، أن يقدم على ما يعد مخالفة، ابتسم لها، استفسر عن صحتها غامسا عينيه فى عينيها، التفتت إليه كأنها بوغتت بهذا التبسط، إلا أنها فى اليوم السابع المنقضى على اندماجهما قابلته بعينين تفيضان ترحابا ومودة، قالت بالعربية «انت كويس» خف، وشف، وتبدد كمده المتراكم، إلا أنه عندما لمح اقتراب الرجل الممتلئ، ذى السوار الذهبى حول معصمه، لفه غم، وعند اضطجاعه أرق، تقلب موغلا فى خططه الليلية، قرر الصعود إليها، طرق الباب، دخوله، استفساره عن أسباب تجاهلها له، تقبيله يدها، لكنه عند بدء نوبته فى المطعم، لم يجرؤ على تجاوز المدخل، فى هذا اليوم غابت، لم تظهر فى اليوم التالى، وفى الرابع ضج، لم يستطع المقاومة، تقدم من زميله موظف الاستقبال، قال إن صاحبا له يسأل عن مهندس دانمركى، متخصص فى الطباعة، ينزل فى الغرفة رقم مائة وسبعة وسبعين، بعد تقليب بطاقات الإقامة، قال زميله: الحجرة لا ينزل بها شخص بهذا الاسم، عندئذ بذل جهدا ليحافظ على حيادية ملامحه، من يشغلها إذن؟

عند عودته إلى المطعم تزاوجت عنده الراحة بالضيق، راحة لأنها أوحشت روحه، قل زاده، وتغير لونه حتى لاحظ أبوه فاستفسر عما به، غير أن حاله أوغل فى انعكاس، وأمره أصبح

فى خلف، تباعد عن الأقربين، شح لفظه، وطال شروده، أوشك وكسه على التمام عندما علم أنها تجىء فى الليل المتأخر بعد انصرافه، وأنها تغيب أياما وتظهر بصحبة جديدة، وأن معارفها يعدون الآن بالمئات، وأن رجالا كبارا تنشر أخبارهم فى الصحف يجيئون إليها ويسعون، وينتظرون ظهورها، وبعضهم يصحبها إلى خارج.

الحركة فى المطعم صارت مقيتة، ملامحه يظللها غمام، بالتأكيد فإنه لم يلحظ فى البداية اهتمام هذه السيدة الأمريكية به، لم تكن بصحبة أحد، وحيدة، متأنقة، تجلس إلى منضدة صغيرة، وبين الحين والآخر تدون بعض الملاحظات فى دفتر صغير، أو تنظر إلى مرآة صغيرة، بيضاوية، مزخرفة الحواف، تعدل أطراف شعرها، أو تهز رأسها راضية، تمضغ على مهل، بتأن، وعند بدئها الأكل تسبح عيناها فى شرود عظيم، المطعم مزدحم باستمرار، نسبة الإشغال فى الفندق لا بأس بها، فى تزايد، أما السياح العرب فوصلوا، يجىء بعضهم بصحبة نساء محجبات وأخريات منهن سافرات، وأطفال، يبدى المدير عناية بهم، يقف مع بعضهم، يتبادل الود، أو يحادثهم مقطب الجبين، وعندما أرسل فى طلبه ذات ليلة اشتد فيها الزحام، توالت عليه خواطر شتى وبوارق، قابله جادا، طلب منه مباشرة الصعود إلى أربعمائة وأربعة عشر، ثم قال إنه فى المرة السابقة لم يسأله عما جرى، وكان المفروض أن يجىء من نفسه ليقص عليه أدق التفاصيل، لكنه فى هذه المرة لابد أن يطلعه على كل شىء، أصغى إلى

اللهجة الحازمة، المدير فى عجلة، لا يقترح إنما يأمر، اتجه إلى المصعد، هل بدلت غرفتها؟ ربما، إقامتها طالت، إن حيوية تسرى وإن لم يفارقه شؤم لن يقربها حتى يستفسر عن نفورها، عن تجاهله، سيطلب رؤيتها خارج الفندق، يود ألا يكون لقاؤهما من خلال المدير اللزج، الفضولى، عكارة مترسبة صعب تلاشيها، غير أن دمه نشط فى عروقه عندما طرق الباب، وبدت له رؤى بهيجة، فليعش ما سيمر به، إلا أنه أوشك على التراجع خطوتين عند فتح الباب، من هذه؟ للحظات لم يستطع التعرف عليها، الملامح لتلك السيدة لكن شعرها مسدل، تبتسم الأمريكية العجوز، تدعوه إلى الدخول، رائحة عطر نفاذ، مختلف لكنه سيظل مرتبطا بهذه اللحظات الأولى، غرفة أوسع، تطل على الليل والخلاء واللانهائى، ثلاث حقائب ضخمة متراصة، متجاورة، إحداها معدنية الشكل، وكأنها صنعت من الألومنيوم، سلة فاكهة فوق المنضدة، أصابع الموز مغلفة بورق شفاف، كذا عنقود العنب قاتم اللون، تبسط يدها مرحبة، يقعد فى نفس الموضع الذى لزمه عند دخوله الغرفة رقم مائة سبعة وسبعين.
لكن ما أبعد الشقة، صوتها خشن، فيه بحة، نفس السؤال، والإجابة بالنفى، لا يشرب، تقف أمام المرآة تنثنى متجهة إلى منضدة مزدحمة بالأطباق، كيف لم يلحظها؟ سمك مدخن، شرائح جبن، لحم بارد، سلاطات، تقول إنها ستعد له عشاء خفيفا، ستأكل معه، يومئ موافقا، تناوله الطعام سيؤخر اللحظة التى يتوقعها، تفتح زجاجة مياه معدنية، تصب ملء كوبين، تسأله: هل يفضل الضوء هكذا؟ يهز رأسه، تتطلع حولها، تبدو

متدفقة النشاط، فى صوتها، فى حضورها حيوية كامنة، يستدعى إلى ذهنه الكليل التثنى، التمهل، التأود، انسدال الثوب الدال المدل، نمش يغطى وجه محدثته، كيف لم يره؟ لولا هذا الصدر المتهدل والركبتان البارزتان لما بانت علامات تقدم العمر، ليست طويلة، لكنها عندما استقرت فى مواجهته أبقت رأسها مرفوعا مما أبرز نحول رقبتها وأنسيابيتها وشبها إلى أعلى باستمرار، كأنها واقفة أبدا، تقول إنها جاءت إلى مصر مرتين، وتنوى العودة فى العام المقبل، لكنها المرة الأولى التى تجىء وحيدة، بمفردها، مات زوجها العام الماضى، ابنها يعيش فى سيدنى وابنتها فى أسلو، أما هى فتسكن فى كاليفورنيا، لكنها اعتادت قضاء الشتاء فى جنوب أسبانيا، تمتلك بيتا هناك، قريبا من الطراز العربى، تقوم إلى حقيبة يد سوداء صغيرة، مقبضها ذهبى، تتناول بطاقة خضراء اللون، قرأ عنوانها فى كاليفورنيا ورقم الهاتف، على الوجه الآخر عنوانها فى أسبانيا، قالت إنها زارت بلدانا عديدة فى العالم، كان زوجها يصحبها دائما، عمله اقتضى تنقله بين بلدان شتى، لم يتركها بمفردها قط، خاصة بعد استقلال ابنهما بأمره، ورحيل ابنتها للإقامة مع زوجها النرويجى، إنها لا تفضل البقاء مددا طويلة فى أمريكا، زارت الاتحاد السوفيتى قبل شهور ثلاثة، أول بلد تراه بمفردها، زوجها لم يذهب إليه، قالت إنها تمنت لو صحبها فى لينينجراد، مدينة جميلة، مليئة بالجسور، والنواصى البديعة، أما أعمدة الإضاءة هناك فمتحف متفرق قائم بذاته، كذا القصور العتيقة المطلة على نهر النيفا من خلال خضرة كثيفة، تغمض عينيها، معبرة عن إعجابها، تبدو ملامحها ناطقة،

جذابة، لا تفنى الأنوثة مع تقدم العمر، هكذا فكر وقدر، يبدل جلسته، إنه مصغ، أقل توترا وإن كان حائرا، متى البداية وكيف؟ هى أو هو؟ حتى الآن لم يلتقط إشارة أو إيماءة، يخشى الإقدام، ربما أتى ما يغضبها، أو ما لم تتأهب لقبوله، حتى لو قويت عنده الرغبة فلن يخرجها إلى حيز التصرف والتعبير، عند الأخرى انتفض الدم فى عروقه بمجرد دخوله، أما هذه العجوز التى تفيض حيوية وأسى على زوجها الغارب، فإنها لم تبد علامة حتى الآن، ولم تقدم إلا على حديث طويل، عندما رآها هنا كاد يولى، تقزز من مجرد تخيله إلى جوارها، غير أنه الآن. . ولم يمض من الوقت إلا مقدار يسير يتطلع إليها راغبا، بعثت عنده نشاطا وأنهت خمودا، هل يبدأ تحسس طريقه حذرا؟ لاشك أنها أعمق خبرة وتجربة، بحيث تؤجل الأمر حتى لا تبدو رغبتها مباشرة، فجة غير أن مايعكمه ضيقا، إدراكه التام أنه مقيد، وأنه. . أنه يقوم بمهمة، وأنه قد يلقى الجزاء أو اللوم الذى ربما وصل إل حد العقاب، تنهى صمته بسؤاله عن جهة مولده، يقول إنه ولد فى القاهرة، وعاش بها، تقول لابد أنه يعرف المدينة جيدا، تطلب منه أن يحدثها عن أقسامها، عن أحيائها القديمة خاصة، يتهيأ، لكنها تشير بيدها، ترجو منه الانتظار قليلا، تعود ممسكة بدفتر جيب صغير، يتذكر جلستها أقصى المطعم، تدوينها بعض السطور فى هذا الدفتر، تتطلع إليه بملامح فيها الانتظار لما سيقول، تدون، بين الحين والحين تستفسر عن كلمة، اسم شارع، تطلب منه أن يمليه عليها حرفا، حرفا، تهز رأسها هزات سريعة لم تكن خبرته بالمدينة عميقة، حدثها عن منطقة سكنه، ميدان السكاكينى،

القصر القديم، الظاهر، مسجد الظاهر بيبرس المهجور، عن الأشجار القديمة، والأجانب الذين كانوا يفضلون سكنى المنطقة ثم هجروها، استعاد بعضا من ذكريات والده عن الترام الذى كان يصل إلى الأهرامات، استوقفته بإشارة من يدها سألته عن دراسته، تمهل عند قوله إنه درس العلوم السياسية، أبدت دهشة، إذن عمله فى الفندق إضافى إلى جانب عمله الأساسى، نفى، قال إنه متفرغ تماما، دونت بعض الملاحظات، استغرقت وقتا أطول، قالت، لابد أنه نسى ما تعلمه، فى بساطة أومأ مجيبا، لأول مرة يعترف نطقا وقولا، ولمن؟ لهذه المرأة التى لا يعرفها، المكلف بالجلوس إليها، التى يلتقى بها أول مرة، وربما آخر مرة، خفف عن نفسه ثقلا، ستمضى ولن تلح عليه بالاستفسار، كيف نسى مادرسه، كيف ينظر إلى سنوات دراسته الطويلة؟ يطرق ساهما، نطق بما آل إليه حاله، يبدو أنها لاحظت وجومه، تساءلت هل أثقلت عليه؟ ابتسم مجاملا، أبدا، أبدا، تقوم إلى سلة الفاكهة، تتناول أصبعا من الموز، تقشره، تقدمه إليه، يتساءل أيكون ذلك مقدمة لاقترابها منه؟ صحيح أنها عجوز، لكنها تفيض نشاطا وحيوية، حتى إنه شعر بتعب غريب فى مواجهتها، أدركه مس من كهولة لاتزال نائية عنه، تعود إلى مقعدها، دفترها لا يفارقها، ترفع حاجبيها، تبدو مستغرقة فيما يجهله، يلوح تعجب ودهشة بين ثنايا ملامحها، من أى الأمور؟ لا يدرى تتشاغل بالنظر حولها، هل حانت المغادرة؟ فليجرب، يقف، تومئ شاكرة، ابتسامة محايدة، تطلب منه الانتظار، تمد إليه مظروفا عليه شعار الفندق، يحار، تهز رأسها بما يعنى أنه من

الضروري أن يأخذه، عند الباب أمسكت ذراعه، شبت قليلا، قبلت وجنتيه، قالت إنه لطيف مع السلامة.

في الممر فتح المظروف، ورقة مالية واحدة فئة الخمسين دولارا، ابتسم مدير الفندق، قال إنه يحب الأمانة، هذا ما تم الاتفاق عليه فعلا، لكنه لم يخبره مقدما حتى يستوثق ذمته، قال إن أهم مميزات الفندقي الناجح الأمانة. . الأمانة بالتحديد. . ساعدته على ارتقاء السلم من أوله، حتى وصوله إلى المرتبة التي يحتلها الآن، هل يعلم أنه بدأ عاملا في نظافة الغرف؟ كم من أشياء ثمينة عثر عليها في الحجرات وقام بتسليمها، بعضها مما خف حمله وارتفع ثمنه، كان يمكنه إخفاؤها، لكنها الأمانة ثم الأمانة، إن نصيبه خمسة وعشرون دولارا سوف تسلم إليه في نهاية الشهر إضافة إلى ما سيستجد، إنه وسيم، مكتمل الشكل وفرصه بلا حدود، ضحك، الضحكة ذاتها، قال إنه ليس بغافل عن نظرات الحسان إليه، كل نظرة إعجاب به تبلغه، يحاط بها علما، مرة أخرى هذه الضحكة، لكم يمقتها. .

عندئذ نطق، تساءل، لكن. . لماذا هذه الدولارات؟ قال المدير أخشى أن ترتد غبيا، لأنك أصغيت، لأنك استمعت إلى وحدتها، وإذا طلبتك مرة أخرى ستدفع من جديد، لو تطور الأمر مع شطارتك، سيكون الحساب مختلفا، مفهوم؟ إن وجهه جامد الآن، يقول، هل تعرف الممر الذي بدأت فيه عملك؟ ستقف مرة أخرى عند باب المطعم، بجوار التمثال الرخامي، قابل الداخلين بابتسامة وانحناءة، احذر مصافحتهم، لاتتحرك معهم،

لاتتبعهم، مفهوم؟ أومأ مجيبا، يقول المدير إنه عمل مؤقت تمليه ضرورة معينة، لن يفصح عنها الآن.

فى هذه الليلة رأى عددا أكبر يتجهون إلى المطعم، يختلفون عن رواد المطعم السريع، الرجال يرتدون الملابس الكاملة، وأربطة العنق، أما النساء فيضوين فى بريق متلألىء، الفخامة بادية، والثراء فائض إلا أنه حن إلى المطعم الآخر، حيث الحيوية متدفقة، والفرصة متاحة لتبادل جملة أو جمل، إنه ينحنى، يبتسم، ولكن معظمهم لا يبدو عليهم أنهم يلحظون وجوده حتى كأنه قطعة صماء متممة لهذه القطع الصماء المتناثرة فى الممر، تمثال رخامى، مرآة ثمينة، رأس تمثال محنط بعد تمام صيده وحزه منذ زمن، غير أنه عندما انحنى مبتسما لذلك الشيخ العربى النحيل الملتحف بعباءة سوداء مطرزة حوافها بالقصب، ويغطى رأسه بقماش من مربعات حمراء وبيضاء جاوبه، قال: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، يتبعه ثلاثة على مسافة لا تزيد أوتنقص، عباءاتهم بنية اللون، رمقوه بنظرات صماء، بعد انتهاء العشاء فوجىء بتوقفه أمامه، يمد يده، لم يتح له فرصة للانحناء طبقا للتعليمات، أحاط يده بكف نحيلة معروقة، باردة، لاحظ لحيته المثلثة، وعينيه شبه المكحولتين، المرافقون الثلاثة يحتفظون بنفس المسافة، يبتسمون، يشجعونه بالنظر، اتسعت عينا أوسطهما كأنه ينبهه إلى الحظوة التى نالها، تساءل الشيخ: تعمل هنا؟ أومأ، نعم، ردد الرجل، ماشاء الله، ماشاء الله..

ضرب المدير المكتب بقبضة يده غاضبا، إلى متى سيعلمه أصول الشغل؟ رجل كهذا كان يجب التودد إليه، مخاطبته

بياطويل العمر، طال عمرك، معاليك، هل يعرف ماذا تعنى رتبة شيخ؟

عندما رآه فى اليوم التالى قادما نزل به ضيق، ضغط يده، سأله عما إذا كان يقف هنا كل ليلة؟

ـ «نعم ياطويل العمر» . .

«الله ، الله، ومهذب أيضا . . »

ثم أتبع قوله بلهجة مصرية دارجة . .

ـ «إيه الحلاوة دى؟» . .

ازداد اقترابا منه، مال نحوه حتى أوشك أنفه أن يلامس جبهته، بدأ يسمعه شعرا :

تفاح خدى شقير فيه   مسكى لون زها وازهر

قد بان منه النوى فاضحى   زهرى لون بخد مسعر

ماتزال راحته محيطة بيده، قبل أن ينصرف هز رأسه . .

ـ «الله جميل يحب الجمال» . .

لم يدر كيف يكون الرد، عند استماعه إلى الشعر دار بنظراته، لم يدر أين يوجهها، أو كيف، إن ضيقا ثقيلا تملكه وجثم عليه، خاصة عندما بدأ يتلو هذا الشعر، ضيق ممتزج بكراهية وخوف وقشعريرة تبعث عنده تساؤلا، ماذا يراد به، ماذا ينتظره؟ كل شىء جلى أمامه، غير أنه لم يدر كيف يدفع عنه هذا الخطر اللزج

السقيم، لام نفسه لأن رد فعله لم يبد منذ اللحظة الأولى، لكن مقتضيات العمل، ظروفه . .

فى المكتب بدا المدير قاسيا، غتيتا، ينوى الأذى، تساءل مستنكرا، كيف يمكن رد هدية معاليه؟

توقف لحظة، قال . .

ـ مغفل . . هل تعرف ثمن هذه الساعة؟

أطال النظر إليه . .

ـ أربعة آلاف جنيه، يعنى ستضع حول معصمك سيارة صغيرة . .

جاوب المدير بنظر كظيم، تساءل، ولماذا يهديه الساعة؟ إنه لا يعرف اسمه حتى، يضحك المدير، ضحكة يصغى إليها لأول مرة، مصحوبة بما يشبه الشخير، عيناه صوب السقف إذ يقول، وهل من الضرورى أن يعرف اسمك؟ ترتد ملامحه خشنة، يتجه نحوه متمهلا، كلمة واحدة تتردد داخله تلخص ملامح المدير الذى دنا منه «فاجر» يخرج صوته بطيئا، خافتا، فيه قسوة، اسمع ياولد، هل تذكر مجيئك عندى أول مرة؟ ألم أقل لك إن شرطنا هو الطاعة التامة، هو قبول أى عمل يوكل إليك؟ يوشك أن يبدى اعتراضه، غير أن المدير لوح بيده وكأنه ينهى الحوار، خلاص . . . هذا شغل، شغل سيظل أمره بينى وبينك . . هنا وصل إلى نقطة لا يمكنه مقابلتها بالصمت، أو تجاهل المعنى الكامن السافر، يقول، هل من العمل أن يتقبل مثل هذه الهدية التى لا يمكنه ردها؟

هل من الشـغل أن يقـرص الشـيخ خـده ويبـدى الرضـا؟ هل من العمل أن يغمز له بعينه؟ هل يقبل على نفسه مثل هذا؟

بقـهقـه المدير، يتراجع مـتـمايلا حـتى يسـتند إلى المكتب، إنه يحـملق فى المدير، إن مـا يواجـهـه يتـجـاوز وجـود هذا الرجل الغتيت، إن خيوطا خفية تحدق به، تدنو من مسام . ، تهدده بالنفاذ إلى أبعـد أغـواره، توشك أن تبـدل سنينه كلهـا ومـا سـيـجىء من زمنه! يخيل إليه أن المدير الأجنبى يقف وراء هذا الباب، يصغى، ينتظر النتيجة، وآخرين يجهلهم لم يلتق بهم قط ولن يراهم أبداً بعضهم هنا وآخرون منهم هناك، إن ضيقه يتحول إلى غضب، ومرثية لنفسه، أهذا ما ينتظره؟ ينهى المدير ـ الفاجر ـ قهقهة، ليبدأ هجـومـا سـاخـرا، مـتصـلا، مـشـيرا إليـه بإصـبعـه أحيـانا، الولد شـريف، الولد عـفيف، اسم الله عليـه، هل تريد أن توقف حـال الفندق؟ من أين يجـيىء مـرتبك الذى لا يتـقـاضـاه وزير؟ . . وتكاليف الوجـبات التى تطفـحـهـا بدون مـقـابل، أنت لا تدرى مصلحتك، لا تدرى مصلحة الفندق، ستة عشر مليونا أنفقـهـا أصـحاب هذا المبنى، ويوميا يتصلون به، يضـغطون عليه، بل كل ساعة، يجب عليه أن يضحى، إذا لم يكن من أجل الفندق فمن أجل البلد، إن إغـضـاب مـعـاليه ربما يسىء إلى العلاقات، ثم . . لماذا يخاف؟ هل سيأخذ منه مالا يريد أن يعطيه غصبا؟ أبدا، ثم لماذا يفترض ما يفترض؟ ربما يكتفى معاليه بالمحاورة والملاطفة، ها . . ومن يدرى، ربما يفـاجـأ عند طلوعـه إليـه بالرجل مـرتديا قـمـيصـا نسـائيا، برغم غـضـبه وضـيـقه منه سيقص عليه حكاية

طريفة، حدث أن وصل إلى ليمان طره شاب صغير يفوقك جمالا، أشقر، أنت شعرك أسود، خشى عليه الضابط من عتاة المساجين فوفر له إقامة منفردة وأوصى الحرس بحمايته، ومع مرور الأيام أهمل أمره وصار يروح ويجيء فى السجن، وأمر أحد الضباط بضمه إلى حجرة بالطابق الثانى كان يقيم فيها فتوة العنبر كله، رجل فى حجم معالى الشيخ ثلاث مرات، قاتل، هل تعرف ماذا جرى؟ فوجئ الضباط والجنود أن هذا الشاب الصغير الرقيق هو الرجل، والفتوة الذى يهابه الكل فى موقع الأنثى منه. . فلماذا يخشى؟ لماذا يخاف؟ ثم إن هذا غباء ما بعده غباء، سيقطع على نفسه طريق الترقى والثراء، ليسأله هو الذى بدأ السلم من أوله.

لا يتوقف، يبدو كأنه أعد الحديث من قبل، متصل، متدفق، يتزايد يقينه أنه سقط فى فخ، وأن عليه أن ينجو، الهرب حتمى، الفرار واجب، وإلا ضاع إلى الأبد، ولسبب ما يتذكر وجه أبيه الطيب يود لو يراه الآن، لو يلوذ به، أن يأوى إلى ركنه السديد، هناك فى جلستهما المسائية التى تبدو نائية، بعيدة، حيث لا يمكن لمثل هذا الفاجر أن يصل، أن يطل، أن يلفظ ما يقوله الآن، لكم تبدو أمنية أبيه قصية، كأنها قيلت فى زمن يخص غيره، لا يمت إليه، أن يمثل بلاده فى الخارج، يقول الفاجر إن تصرفه سوف يسيىء إلى العلاقات، إن مرثية تسرى عبره، مرثية لا تؤدى به إلى انكسار. إنما تفجر حنقا وغضبا.

ـ اعتبرنى مستقيلا . .

يضحك، إنها الضحكة المختصرة، الرذاذ المتناثر للحظة تبدو ملامحه طبيعية . .

ـ اسمع . . ألم آمرك بالصعود إلى غرفة هذه البنت . . وطلعت؟ يرقبه صامتا . .

ـ ألم أبعث بك إلى هذه العجوز؟

ماذا يعنى؟ أنه يبسط يديه كأن الأمر مفرغ منه . .

ـ طلوعك عندهما يماثل تماما ذهابك إلى معاليه . . كله شغل . .

يود إنهاء هذا بسرعة، الخروج إلى الطريق . . التوارى، تجنب المرور أمام الفندق، بالقرب من المبنى نفسه .

هل تظن أنك ستنجو منا؟ أنت تفسد ما نبنيه، ستدفع الثمن من عمرك . .

الهواء البارد يلفه، يمشى على قدميه، المنطقة نائية، الضاحية بعيدة يمد الخطى، كأنه يخشى اللحاق به، كأن بعضهم يترصده، ليس مهما ما ينتظره، همه الوصول إلى البيت، رؤية والديه، اللوذ بصمت الغرف، أصغى أبوه ولم يدقق كثيرا لمعرفة التفاصيل، ربما أضمر النية فيما بعد، أما الآن فبدا راغبا فى تهدئة ابنه، حتى إنه ربت كتفه محاولا تخفيف ما بدا عليه من كرب ومشقة، أما الأم فأبدت ارتياحها، وقالت إنها لم ترض عن هذه الوظيفة حتى لو ساوت ثقلها ذهبا، هل تكون نتيجة التعب وسهر الليالى وقوفه فى مطعم؟ فلتغر هذه الوظيفة إذا كانت قد سببت له

ما تراه بعينها وما تشعره بقلبها، طلب منه الأب أن يقوم ليرتاح، إنه عارف بأحوال ابنه، قربه منذ أن كان صبيا، صحبه إلى سائر الجهات، طيلة عمره لم يرفع يده ليعاقبه أو يزجره، يعرف ابنه حمولا، صبورا، على البلايا، ولابد أن مكروها صعبا نزل به، لابد أنه ينوء بما لا يقدر على حمله، على عدم البوح به، لن يلح الآن، يثق أنه ربما سيخرج من غرفته عصرا أو عشية، ليفضى إليه، لينبئه بما جرى، وما جرى جسيم، هكذا تنبئ ملامحه، قسماته المعتمة، فأى أمر وقع؟

استقبل الرجل القبلة، صلى ركعتين، رفع يديه بالدعاء، قبل أن يخلو إلى أم ولده قال: «وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم»، ربما أراد الله أن يمثل بلاده فى الخارج، قال ذلك ثم مضى إلى باب الغرفة، مال مصغيا، الولد نائم فيما يبدو، والأم لم تخف قلقها، بعد الغروب مضت على مهل، نادته نداء خفيا، لم يجب، لم تنصرف إلا بعد اطمئنانها على تردد أنفاسه، فى الليل خيل إليها، بل أوشكت على اليقين من أنه مستيقظ أرق، لكنه لم يجب عندما نادته، أغفت بعد الواحدة صباحا، غير أن الطرق المفاجئ عند الفجر باغتهم أجمعين، هذا لم يقع من قبل، أى زائر هذا؟ يقف الولد عند باب غرفته مجهدا منكوش الشعر، تتطلع أمه إليه، حسها الخفى ينبئها أنه المقصود، ترجوه بعينيها أن يخبرها، أن يبوح، يفضى إليها، وعندما اقتحم الضابط ذو السترة السوداء والنجوم الذهبية الصالة، أومأ إلى الجنود الثلاثة أن ينتشروا فى البيت، أن ينقبوا، أن يفتشوا، أن يقلبوا ما لم يطلع

عليه غريب من قبل، تتطلع الأم إلى ابنها الواجم، المستغرب، لم تلفظ إلا كلمة واحدة بدت كالاستغاثة المرثية . .

ـ «ياخرابى . . ».

الأب يبدو ما يجرى أمامه غريبا، كأنه يسمع بوقوعه ولا يراه، كل ما فاه به أنه نطق باسمه كاملا مقرونا بوظيفته، غير أن الضابط جاوبه مشيرا إلى ولده . .

ـ «انصحه بالاعتراف . . ربما خفف ذلك من العقوبة . . ».

ثم انثنى ملتفتا إليه، غير عابئ بجزع الأب، وتهدم الأم، وروع الابن . .

ـ «بصماتك تملأ الغرفة رقم مائة وسبعة وسبعين . . هناك شهود أيضا . . ». .

وقت ضائع

.. ما خبرته، ما جربته، أن التغير لايُدرك لحظة وقوعه، إنما يبدو وتتضح معالمه بعد تمامه، الجوهر الذى عشته يوما وظننته باقيا أبدا، مفروغا منه، لا يمكن مجادلته أو نقصه، أشهدته منقلبا، تبدل واتخذ وجهة لم تخطر على بال، ولم يتنبأ بها أحد، ما جرى فى زمنى المحدود كان شاملا، مباغتا، أورث من هم مثلى كهولة قبل الأوان، هم مازالوا بعد فى أربعينيات العمر، ولأضرب مثلا وإن بدا فى صيغة تساؤل:

ـ ما الذى درج عليه أقرانى منذ نشأتهم؟

أليس تحصيل العلم؟ النجاح فيه، والتفوق فى مضماره، فى زمنى كانت قيمة الإنسان بما يحصله من علم ومعرفة، كان هذا كافيا لضمان حياة إنسانية، بلا ضيم، أو عوز، ما كان عليه الحيال فى وقتى الأول، لكن ما وقع من تبدل أتى معه بما لم يدر بخلد، إذ صارت القيمة الإنسانية تقاس بما لدى المرء من مال جمعه واكتنزه، ليس مهما كيف أتى به، ولا بأى وسيلة، هذا جوهر

الوقت الذى أدركنى، وحفزنى إلى كتابة هذه الرسالة حتى إذا ما تبدل الأمر يوما، وصار ما اكتوينا به نسيا منسيا، لقى من يأتى بعدنا لمحا مما كان وباد، فالتغير يلحق كل شىء، ما من معنى أو حدث مطلق، فكل أمر نسبى، محكوم بالوقت وقصد المنفعة . .

من تصور يوما أن التغير سيلحق جوهر ما بذلت أرواح من أجله؟ من؟ . .

من شطح به الخيال وقت اضطرام الحرب ليرى من هتك الأرض ودهس بجنازير دباباته الأطفال الصغار، ساعيا آمنا، يجوس الديار؟ أما الذين بذلوا أعمارهم أثناء حربه، فقد أتى حين من الدهر، منع فيه ذكرهم، حرصا على الوئام الذى بدأ، والصكوك التى وقعت . .

من؟

إنى منبئ عن حرب لم أقرأ عنها، لم أسمع بأحداثها، لم يروها لى مخلوق، إنما شهدت لهيبها وخضت غمارها، وكدت أقضى فيها، لو أنى بدلت يوما مكان وقوفى، لو أن عربة ركبتها أبطأت قليلا، لو ارتفعت رأسى مقدار شبر، لو أننى حدت يمينا بدلا من اتجاهى يسارا، لو لزمت هنا ولم ألزم هناك، لما صرت إلى تلك اللحظات التى أخط فيها رسالتى تلك . .

حدث ذات يوم ديسمبرى عام ألف وتسعمائة وتسعة وستين أن اتجهت إلى موقع خارج السويس، خطر لى أن أعرج على مقهى وسط المدينة، مقهى أبو رواش، الواقع أمام محطة السكك

الحديدية التى توقفت القطارات عن الوصول إليها أو الرحيل منها، فوق الرصيف قعدنا، أنا وزميلى ضابط الشئون المعنوية، شاب من دمنهور، برتبة نقيب، خفيض الصوت، أحببت المقهى، إنه الوحيد الذى بقى مفتوحا زمن الحرب، يقوم على خدمة الناس فيه عم خليل، من يصدق أنه تجاوز الثمانين، دائم الطواف، والحركة، لم يكن له أقارب فى أى جهة، اتخذ من المقهى مستقرا ومقاما، بعد الشاى، يشعل الجمرات، يقدم المشروبات، والنرجيلات، يحرص على بقاء المقهى نظيفا؛ لذا لا يقعد، لا يكف عن كنس الأرض ورشها وتنظيف الموائد، وتحذير الرواد من البصق.

فى هذه الأيام لم يكن الناس فى حاجة إلى انقضاء أوقات طويلة ليتعرفوا إلى بعضهم البعض، ما تبقى من الأعمار قاب قوسين أو أدنى، الموت فى كل خطوة، عند أى حركة، مقترن بالأنفاس ذاتها، جاء جندى من قوة المطافئ المرابطة، قعد على مقربة، دعوناه إلى كوب من الشاى، دنا فجلس، صرنا ثلاثة، متجاورين، لا يواجه أى منا الآخر، وإذا تحدث أحدنا مال إلى الأمام قليلا، حكى عن إقامته هنا، وإقامة امرأته وأولاده هناك، عن رحلته الشهرية إليهم، عن العبء الملقى على امرأته..

كان الله فى عونها!

صمت لحظات، لم أنتبه إلى ميل رأسه، فيما بعد قال زميلى إنه ظنه بدء إغفاءة، غير أن ميله البطئ استمر، حتى تكوم أمامنا، كان مظهره ثقيلا هامدا، هذا الغموض البغيض الذى لن تعقبه

قومة، كان لابد من مضى بعض دقائق حتى يكتشف عم خليل تلك النقطة النحيلة، الضامرة كرأس الدَّبُوس، تبعتها نقاط على فترات متقاربة، ثم سال خيط، فى المستشفى قال الطبيب إنها شظية ضئيلة جدا مندفعة من مكان ما، ماذا لو أنى جلست مكانه؟

الغريب أن هذا التساؤل أقض عم خليل الذى لم يكن يجاورنا وقت نفاذ الشظية، لكنه اعتاد الحديث إلى جندى المطافئ هذا، كانا يتحدثان دائما وقت العصارى، يصغى عم خليل إليه، يهز رأسه أو يمصمص بشفتيه أسفا أو تعجبا، ولا يدرى أحد ممن يراهما مضمون الحديث. فيما تلا ذلك من أيام قال الناس إن عم خليل العجوز أوشك على الجنون، كان يبدأ الحديث إلى أى إنسان قائلا:

ـ تصور لو أنى قعدت مكانه؟

فى البداية كانوا يصغون إليه، يستفسرون، لكن مع كر الأيام صاروا يستمعون إليه ضاحكين، وقد يسخر أحدهم منه فيبادره:

ـ ماذا يحدث لو أنك جلست مكانه؟

تلك شظية أدق من رأس الدبوس نفذت إلى موضع مؤثر، سلكت سبيلا لم نطلع عليه، ولم ندر به، فأخرست عمرا ناطقا، أنهت حياة شاء الترتيب الخفى أن نرى حدها على مرأى من أين أتت؟ أى قوة دافعة؟ لم نسمع انفجارا قريبا، لم ندر المصدر، فكيف؟ هذا من المكنونات التى لن نطلع عليها، لكن ما تردد عندى عين ما أقض عم خليل، ماذا لو قعدت مكانه وقد كنت

قريبا دانيا، متأهبا، ماذا لو أنه لم يأت؟ أي مسار كانت تسلكه الشظية؟ أحيانا وبرغم انقضاء الأعوام الطوال، أردد: ماذا جرى لامرأته، لعياله؟ أي مستقر؟

شغلني هذا، كما شغلني ما جرى ظهر ذلك اليوم، عندما كنت أقصد مدينة القنطرة، على الطريق الممتد بين الإسماعيلية والقنطرة، السيارة تمضي في خط متعرج، الضفة الأخرى، مواقع العدو مرتفعة، مطلة نيران الأسلحة الخفيفة تطال وتغطي الطريق، صوت المحرك يغطي أي ضجيج خارجي محتمل، تمر الغرود الرملية، المنحنيات، فجأة.. لمحت جنديا يهرج، كينونته الأولى تحاول التواري عن خطر محدق، محاولة غريزية يرتد عبرها إلى زمنه البدائي، إذ يحاول الوجود الإنساني الوصول إلى مخبأ ليحتمي ليبقى، في اللحظة نفسها لم أر ولم أدرك هذه المعاني كلها، كان ثلاثاء، الواحدة والربع عندما أمرت السائق أن يقف، وعندما حادت العربة واستقرت خارج الطريق المرصوف صحت به أن يجري، أن ينبطح، كنت أفعل ما أصيح به، من الأعالي يتدفق هدير الطائرات، يصهر الصمت المعدني.. يثير الغثيان، يجرح، يشقق السماء الصافية جدا، عرفت الطائرات من الصوت، سكاي هوك، كانت حديثة جدا وقتئذ، رأيت ملامح السائق، كأني أعرفه أول مرة، ترقب، خوف، رحيل محتمل، استفسارات وتصاعد وتيرة، أصابعه مغروسة في الرمل، فوق الأرض بدت العربة بأبوابها التي بقيت مفتوحة لها مظهر ذعر بشري، تتعامد الشمس فوق معدن الطائرتين، تبرقان كنصل

الموس، واحدة إثر الأخرى، هجوم وتغطية، انفجارات القذائف المضادة لا تطالهما، كانتا بعيدتين عن مرمى مدفعيتنا، عندما طغى الانفجار تناثرت الرمال حولنا، فى لحظة بدت الملامح التى تواجهنى وكأنها فقدت الصلة ببعضها، عيناه فى ناحية، ذقنه تدلت، أما شفتاه فانفرجتا متباعدتين، ابتعد الهدير ثم اقترب، استدرنا تجاه الشرق، كان الانفجار على بعد ثلاثين مترا تقريبا، أسرعت، خفيفا، مبتهجا، منفيا من الوقت. عندى بهجة غامضة، وفورة حيوية، إذن نجوت!

تأملت آثار القنبلة الثقيلة، زنة خمسمائة رطل، كأن سكينا هائلة قشطت ضفة الترعة المنحدرة حتى سطح الماء، يلمع الطين الأسود المشطوف، على مسافات تناثرت كتل متفاوتة الحجم، على بعد عشرين مترا ترقد جثث ثلاث، بينهم خبير روسى، شملتهم الدائرة المؤثرة، غطاهم مدى القتل..

حتى مساء هذا اليوم لم أكف عن الحديث، الإنباء بما يجرى لكل من ألتقى به، قبل هجوعى دهمنى تساؤل:

فيما تلا ذلك كنت غير هياب، ما أعيشه منذ وقوع هذا الانفجار أو ما شابه ذلك من مواقف، وقت مضاف، زائد، إذ كان المفروض أن أولى وجهة العدم منذ زمن بعيد.

ما جرى كثير، لو فصلت لأطلت، لكننى أقصر، فما قصدت إلا التمهيد لثلاثة أترجم لهم، عرفتهم زمن الحرب، وتابعتهم بعد تغير الأحوال.

ما جرى للمحارب
الذى تقاعد

. . ما بين نهار وآخر خرج من الخدمة!

تغير وضعه بالكلية بعد ظهور اسمه فى كشوف الضباط، فى النشرة الدورية التى تصدر آخر أيام السنة، على الرغم من توقعه ذلك فإنه بوغت، فالأمر يتم فجأة، ربما لأن صاحبًا له لم ينبئه، لم يلمح له، تقاعده يعنى انتقاله من وضع اعتاده، إلى مجهول لا يعرف أبعاده، من سير معلوم إلى سعى مجهول، من أرض يعرف مواقع الخطا فيها، إلى تضاريس تفاجئه كل لحظة، مفارقة عشرين عاما من الانضباط العسكرى ليس أمرا هينا؛ لهذا بدأ أول يوم خارج الخدمة غريبا. لا يمكنه ارتداء زيه أو المضى إلى الجهات، يطرق الشوارع فى أوقات لم يعتد المشى فيها، إنه يدنو من السادسة والأربعين، يرتد إلى نقطة يجب أن يبدأ عندها من جديد، لكن الشباب يأفل، وفى رقبته عائلة، أما معاشه المقرر فلن يفى ولكن يكفى، الأدهى من ذلك. الفراغ، تذهب البنتان

إلى المدرسة، تمضى امرأته إلى عملها، ويبقى فى البيت! هذا مالا يطيقه وما لا يقره أمام ذاته.

وتعمل امرأته فى إحدى الشركات، ابنته الأولى تقترب من نهاية المدرسة الإعدادية، الصغرى فى الثالثة الابتدائية، شوطهما مازال بعيدا، يقولون إن ذروة العطاء تبدأ من الأربعين إلى الخمسين، عنده دراية وإتقان لعلم الهندسة، له خبرة بما يسمى بفن الاتصالات، كان من المعدودين فى مجاله هذا، شهد حرب السويس وكان حديث التخرج، يافعا بعد، أخضر العمر، إن عاش ما عاش لا ينسى انسحابه من بورسعيد وعبوره بحيرة المنزلة بصحبة الجند فى قوارب الصيادين، فيما تلا ذلك من سنين رأى فظائع شتى، إلا أنه لن ينسى أبدا احتراق الصباح الباكر فى المدينة، اللهب المندلع من البيوت، محيط بها، يمسك سائر الجهات، لهب برتقالى أحيانا، داكن الحمرة حينا آخر، أسود قاتم إذ يغزر الدخان، عاش فيما بعد حروبا ثلاثة، الحرب فى اليمن، كاد يقتل فى صرواح، والحرب التى جرت على ضفتى القناة بعد أن وقعت الواقعة عام ألف وتسعمائة وسبعة وستين، وأخيرا. . . حرب أكتوبر، وطوال خدمته كان مشكور السيرة، مقداما، قلبه جامد على المخاطر، سمعته بين جنوده طيبة، كذا عند الضباط الأقل منه رتبة، ومما تردد عنه بين قادته، موقف عاشه فى خضم آخر ما جرى من حروب، عندما انقطع الاتصال بين قيادة لواء مدرع وسائر الوحدات، وقام بجهد فائق استثنائى، فى تأمين قنوات وسبل اتصال بديلة، ومما اشتهر به ـ أيضا ـ واستحق عليه

نوط الشجاعة قدرته على إفساد التشويش المعادى على وسائل الاتصالات البديلة، فكان ذلك مما سجل له، وكوفئ عليه، ونقله آخرون عنه، فنال الثناء والوسام بحق، أصبح هذا كله بعيدا، ماضيا مندثرا، بعد انقضاء المدة ومروق الفترة حكى ما جرى لامرأته عن أصعب لحظات عمره قاطبة، عندها انقطع الاتصال، وبرغم قربها منه، وإدراكها لما يسره وما يكدره، فإن قسماتها لم تعكس اهتماما، كأن ما يقصه عليها أمر عادى، عندئذ كف ولم يكرر الرواية، سكت ـ أيضا ـ عن كثير، فليس كل ما يمر به الإنسان يمكن توصيله وشرحه للآخرين، حتى الأقربين، خاصة إذا كان الظرف مخالفا للمألوف.

انقضى هذا كله، كأنه يخص غيره، وأحيانا يكتشف أن غميمة نسيان حجبت عن وعيه ما ظن أنه لن يمحى أبدا.

كان بين زملائه وبينه صحبة أكيدة ومحبة، كان من قلة معدودة خلت سيرهم من المكدرات أو المخالفات، باختصار دال نقول إنه كان فى التمام؛ لذا كثر عليه الأسف من زملاء خدمته ورفاق سلاحه زمن الحرب، وأوشك بعضهم أن يذرفوا دموعهم تأثرا بحضرته، قال أحدهم وكان ريفيا متينا، يا أصيل يابن الأصلاء، إلا أنه أظهر الود الجميل عند التوديع ومفارقة المقر بعد أن أتم تسليم عهدته، وعندما خطا بعيدا قال بصوت مختنق تأثرا: آن للمحارب القديم أن يستريح، يكفيه أنه خلف وراءه رجالا هم بحق أعز من عرف، فيهم من يفوقه علما، كما أن ملامح منه وعناصر أودعها فيهم، بقى متماسكا، غير مفصح عن كثير، إلا

أنه عند مواجهته أول أيام تقاعده تهدهد داخله، هانت عليه قعدته فى أوان خروجه اليومى إلى عمله، عزت عليه أيامه القديمة، غص حلقه وطرى دمعه، والغصة لا تواتى من هو على كبر إلا إذا اشتد الأمر، وعظم الخطب، وقل المساعد، هو الآن برتبة عميد، غير أنه لم يمارس مهامها، ولم يتحمل لحظة واحدة تبعاتها، وإذا ذكرت الرتبة فلابد من إضافة لفظ «متقاعد»، خلال الأيام التالية ترسخ شعوره أنه كمن سُحب بساط من تحت قدميه، أو تلاشى جدار كان يتكئ عليه، بعض من يعرفهم بدوا مسرورين فرحين؛ إذ تعنى الإحالة إلى التقاعد تمكنهم البدء فى الأعمال الحرة، حيث آفاق الكسب بلا حد، وإمكانية المغامرة متاحة، أصغى إليهم بدهشة، كأنه بعيد، العطاء بشكل خاص، توظيف ما يعرفه، وتحصيل مالا يعرفه، أمر يستحق عليه التهنئة؟ لم يُلف بمهمة إلا وأنجزها، هذا حق، بقدر ما ينتظره أيام أجازته ليقضى الوقت الأطول بصحبة طفلتيه، بقدر اشتياقه إلى عمله أثناء العطل، كان محبا لما يقوم به، مكثرا من مخاطبة الهيئات العلمية، والمؤسسات المنتجة للأجهزة الجديدة، ما يتم التوصل إليه، لم يخطر بباله مفارقة تخصصه هذا، برغم توقعه الإحالة على التقاعد عند الارتقاء من رتبة إلى أخرى كما جرت العادة منذ سنوات، لم يتخيل مفارقته للسترة الكاكية، والعمل فى مشروع خاص، لم يتصور نفسه واقفا فى السوق يدير توكيلا لسلعة أجنبية، أو مندوبا لدى إحدى الشركات، ردد أقارب امرأته على مسمعه أن من كان فى مثل خبرته يمكنه أن يكسب ذهبا بسهولة، وإذ يلمح امرأته من بعيد يسألها:

ـ هل ينقص شيء؟

تجيب على استحياء . .

ـ لا .

يقول مدركا أنها لم تنطق كل ما عندها . .

ـ أليست مستورة؟

تومئ ، الحمد لله ، عندئذ يقول :

ـ والبنات . . أليس تعليمهما في مدارس اللغات مرضيا؟

تتساءل . .

ـ لكن المستقبل؟

يلوح بيده :

ـ ياستي ، المستقبل بيد مالك الملك . .

غير أن قلقا سرى إليه خلال العامين الأخيرين ، أسعار الحاجات في ارتفاع ، كثيرا ما يصغي دهشا ، مفاجأ بأسعار طفرت وكانت حتى الأمس القريب في المتناول ، اضطر إلى التغاضي عن بعض مما تلمح إليه امرأته على فترات متباعدة ، من ضرورة تبييض البيت ، إذ بهت الطلاء وتقشر في مواضع عدة ، لو استعاضوا عنه بورق الحائط لكان ذلك أفضل ، يستفسر ، كم التكاليف؟ لا تخبره مباشرة ، إنما تقول :

اسأل في السوق ، إذ يمضي يومان أو أكثر تستفسر وتتقصى

عـمـا تم يضطر إلى النزول والسـعى، يفـاجـأ بالتكاليف، يطلب إرجاء الأمر، تسكت على غير رضاء.

فى الأيام التالية لبدء تقاعده، وإن صح المعنى ودق، فى الأيام التى خلت مما ارتبط به عـمرا، لاحظ راحـة فى عـينيهـا وبهـجـة، صـحـيح المعـاش أقل من الراتب، لكنه يأتيـه بداية كل شـهـر بلا جهد، بلا مقابل، إنه يملك وقته كله، يمكنه الالتحاق بعمل مشابه لما حصل عليه بعض صحـبه أو زملائه، أحـوالهم فى رواج الآن منهـم من لديه بدلا من العربة الفـاخـرة اثنتـان، ومن يرحـل هنا أو هناك ولا يستقر إلا أياما معـدودات فى مصر، قالت امرأته إنها تخشى زيارة إحداهن حتى لا تبادلها الزيارة، لا تقدر على إبداء مقابل لكل ما عاينته أو رأته ثم تتطلع إليه متسائلة فى صمتها عما سيفعله فى الأيام القادمة؟ إنه يدركها، يفض رسائلها لكنه غير مجاوب، يضمر حزنا وانكسارا، انتهاء هذا العمر كله لا يبعث أبدا فرحـا أو راحة، أليس المولّى الغارب شباب بأتمه، سنين كدّه، وأيام اندماجه، ولحظات خطر كان ممكنا أن يفنى ويتبدد عبرها، أطياف مجد عاشها تبدو كالوهم الآن، كذا فرص لتحصيل علم جديد ولت، تبددت، فى الأيام الأولى لتقاعده، اعتاد الصحو فى الموعد ذاته، ثم الخروج، إلى أين؟ لا يهم، استعاد متأسيا أياما بعيدة كان الاستيقاظ المبكر فى المعسكرات النائية يجعلهم حالمين بأيام عطلـة شحيحـة مقبلـة يمكنهم النـوم صباحا كما يرغبـون، لا ينتظمون فى طابور الصباح والبرد صرصر، حتى إذا دنت هذه الأيام ونزلت وحلت بدت أيام الكد الأولى زاهية، عـزيزة المنال، فما أغرب، وما أعجب ذلك!

ما يثقله لا يقدر على الإفضاء به إلى الأقربين منه، صباح كل يوم يخرج فى ميعاده، لكنه لا يرتدى السترة وغطاء الرأس، حيث السيارة فى انتظاره لتنقله إلى الوحدة، إنه يخرج متباطئا، يتابع المسرعين فيود لو أن حاله كحالهم، بدأ يُوجد اهتمامات عديدة ليشغل نفسه، ليكون لمشيه هدف، كان يمضى إلى وسط المدينة للفرجة على ثياب جديدة لابنيته، أو لشراء بعض لوازم الدراسة لهما من أقلام رصاص جيدة، وكراسات، وما شابه ذلك، أمور كان يقضيها عرضا أثناء خدمته، أو يوصى بعض صحبه بها، صارت الآن أهدافا يخطط لها، يقطع بها وقته، أما اللجوء إلى المقهى وقضاء الأوقات به فأمر لم يعتده بعد، يضيق به، لم يرتبط بمقهى من قبل، إذ كان فى صراع دائم لامتلاك وقته، حتى إن امرأته نبهته مرات إلى حاجة ابنتيه للقعاد معه، والانفراد به، فيرجئ ذلك إلى أيام العطلات، إنه يقطع الشوارع الآن من بداياتها إلى نهاياتها ثم ينثنى، يمر بما سبق أن مر به، ويرى ما رآه من قبل، يدخل مكتبة، يقلب كتبا، يعاين صحفا ومجلات أجنبية، ينصرف وعنده خجل لأنه لم يشتر، يعود إلى البيت فى مواقيته القديمة، وأحيانا يرجع مبكرا فيلقى نفسه وحيدا، يأوى إلى صمت البيت، يتدثر به، يستعيد انصراف الضباط والجنود من الوحدة، امتداد الصحراء بعد السور، ما يثيره عند مرأى كشك خشبى بعيد، مهجور، وحيد تماما، كان جزءا من منشآت أقامها يوما الإنجليز، يضيق إذا تأخرت امرأته عن موعدها، يقف فى الشرفة منتظرا نزول البنتين من عربة المدرسة.

صار أمره فى شكاية، وحاله إلى انسحاب، آوى إلى صمت يطول، وشرود، غير أن ذلك لم يطل، لم يقدر على تصور نفسه عاطلا هكذا، بطالا، كان غير مقتنع بعد أن نظامه زال، وأن أياما جديدة أتت، وأن تكيفا يجب أن يتم، لم ينف فكرة العمل عن مشروعه للعيش لكن أى عمل؟ تلك هى القضية، إنه مهندس وعنده الخبرة والقدرة، لكن كيف النفاذ إلى السبل وإمساك المسالك والدروب؟ عندما بدأ الأمر يصبح من شواغله، وذات ليلة أثناء جلوسه فى الشرفة منفردا، مصغيا إلى حركة الطريق، أتته امرأته، وقفت عند مدخل الشرفة بعد اطمئنانها إلى اكتمال نوم الطفلتين، آخر مجهود تتمه بعد نهار شاق موزع بين عملها وعودتها، وقضاء الحاجيات من ترتيب طعام، ومراجعة دروس، دائما تقول إنها لو ركنت فقط إلى المدرسة لما تقدمت إحداهما خطوة، مجهودها فى البيت هو الأساس، آن أن يؤدى نصيبه الآن، أن يخفف عنها بعضا مما تقوم به، أضمر النية ولم يقدم على الفعل، فما الأيام الماضية إلا تمهيد لما سيكون فيما بعد، يشبهها باللحظات التى تسبق ملامسة عجلات الطائرات للممر الأرضى، يردد بينه وبين نفسه، أنه لم يتم نزوله بعد.

تقول زوجته برقة:

_ أقعد؟

يقول: ياسلام، ومنذ متى تحتاجين إذنا؟

تدنو، أيقن أنها تخفى أمرا، إنه عليم بملامحها، بتصرفاتها، هذه السنون قربتهما، دنت بكل منهما إلى الآخر، استقرت فوق

المقــعــد المســتــدير بدون مــسند، تميل إلى الأمــام، تدس يديهــا مبسوطتين، متلاصقتين بين ركبتيها :

ـ شوف يا سيدى .

يتأهب للإصغاء، تقول إن خالها اتصل وطلب منها أن تخبره بحاجتهم إليه كمدير لشركة مقاولات، إنه يتمنى قبوله، فالمنصب كـريم، والراتب مـغـر، وبرغم إلحاحـه عليـهـا، فـإنهـا طلبت منه الفرصة، إنها أدرى الناس به، تعرف أنه لن يقبل على أول فرصة إلا إذا وافقته وطابت له، الحق أنه فوجئ لم يقدر أن الأمر سيتم بهذه السرعة، وبالطبع لم يكن فى حاجة إلى ثاقب فهم، ونصاعة إدراك . . ليـفـهـم أن المبـادرة أتت من جانبهـا، وهى السـاعيـة إلى خـالهـا، هذا الرجل الذى سطع نجمه وعـلا قـدره خلال السنوات الأخيرة، إنه متعدد العلاقات، كثير الأسفار، يظهر اسمه من حين إلى حين فى الصحف، إن علاقتهم به ليست حميمة، تقتصر على زيارته فى أيام الأعـيـاد والمواسم، لكنهـا تتـصـل بأسـرته وتداوم، لولا خـالهـا هذا لما قُبلت ابنته الصغرى فى المدرسة، كانـت أصغر من الحـد المقرر بأسـبـوع واحـد، يعنى هذا ضـرورة انتظارها عـامـا آخر، نزل به ضيق وأسى، البُنية ذكـيـة، تفيض حيوية ونشـاطا، ترى أختـهـا الكبـرى تجلس إلى كـراساتهـا فتـأتى بواحـدة بيضـاء الصفـحـات، تمسك قلمـاوتخط أشكالا ودوائر، تقول إنهـا تذاكـر دروسهـا، وفى الصباح تغادر الفراش مبكرة، تساعد شقيقتـهـا فى ترتيب حقيبتها، وعند انصرافها تربت كتفها ويدها، تودعـهـا حتى بداية درجات السلم، تتـابعـهـا وعلى وجـهـهـا ما يوحى بتـمنيـهـا لو

كانت معها، لو تصحبها، لو تمضى معها إلى المدرسة، ترجع كابية الملامح، ينقبض متألما، سبعة أيام سيضيع مقابلها عام كامل، إلا أنه قال لامرأته، هذا ما يقضى به النظام، غير أنها أبدت جزعا، قالت إن هناك استثناءات من حق الناظرة استثناء نسبة من شرط العمر، قالت: أنت ضابط وحاربت أربع حروب، من حقك، اذهب إليها، ألحت عليه وأطالت وأثقلت حتى امتثل، خشى أن يرث ذنبا، أن يجىء يوم يقول فيه، كان ممكنا أن أفعل وتقاعست، ارتدى الزى الرسمى كاملا، ومضى إلى طلب مقابلة الناظرة، كان فى مكتب السكرتيرة آخرون، كان أحدهم يبدو واثقا، يرتدى قميصا أسود، وبنطلونا أسود، يتلفت حوله، يتعجل المقابلة، يحيط معصمه بسوار من ذهب، ويلوح بسلسلة مفاتيح تحمل علامة عربات المرسيدس. ابتسمت السكرتيرة بعد خروج سيدة شقراء تبدو عليها الراحة، وندرة الهم العام، قالت مرحبة إن الهانم فى انتظاره، ردد الرجل أنه فى عجلة وأنه مسافر بعد ساعتين فقط، وعندما اقتربت منه السكرتيرة وقالت بحيادية: تفضل، لم يكن ذو السوار الذهبى قد خرج بعد، هذا يعنى أنه سيقابلها فى حضوره، ضايقه ذلك، دخل حاملا غطاء الرأس، ذا النسر الأشم والسنبلتين بين يديه، رآه مستغرقا فى المقعد الوثير، متمكنا، لامباليا، يتطلع إليه، لا يحيد ببصره عنه، بل.. يتفحصه بوقاحة، تضع الناظرة أمامها زجاجة عطر باريسية، إنها هادئة جدا، ناعمة الصوت، لا يلوح من تعابيرها انفعال محدد، لا تذكر اسما إلا مقرونا بلقب بك، قالت باختصار حاد، تحت أمرك ياسيادة العقيد، تزداد حدة نظرات الرجل ذى السوار

الذهبى، فى نظراته تحد غامض مشوب بازدراء مفتعل، أيقن أنه سيكون موضع تعليق بينهما بعد خروجه، قال باختصار إنه جاء ليستفسر عن فرصة الاستثناءات المتاحة أمام أبناء القوات المسلحة الذين خاضوا العمليات، وأصيبوا، ويحملون الأنواط والأوسمة، كأنه يوحى أنه يستفسر عن وضع عام، وليس عن حالة تخصه هو، غير أنها قالت، آه. . عشان الكتكوتة؟

لم تتح له الاستمرار، قالت إن هذا ألغى منذ عامين، وإنها تود خاصة أن الكتكوتة ينقص عمرها أسبوعا لاغير، لكنها تخضع لرقابة صارمة من الوزير شخصيا.

والله كان بودى!

لم يدر ماذا يمكن قوله؟ خاصة أنها حادت عنه لتسأل ذا السوار عما إذا كان سيتغيب، قال بسرعة، لا أبدا، شوية فى روما، وشوية فى باريس. . تراجع إلى الباب، حيا السكرتيرة ومضى خجلا يلوم نفسه، نادم على مجيئه، مشفق على طفلته، ضغط أسنانه عندما استعاد ابنته وحيويتها، لا تكف عن الحركة، والحديث عن المدرسة وحملها حقيبة شقيقتها، قالت امرأته باختصار إنها ستطلب من خالها التدخل، لم يبد موافقة، لم يبد اعتراضا، غير أن ما جرى فى الأسبوع التالى فاجأه، رن جرس الهاتف، الناظرة نفسها، استفسرت عن صحته، عن أحوال المدام، عن الكتكوتة الصغيرة، ثم قالت إنه يمكنه الحضور بها غدا العاشرة صباحا، يمكنه دفع المصاريف وتسلم الكتب فى نفس اليوم، أصغى دهشا، أجاب باختصار، طلب من امرأته أن تمضى

هى إلى المدرسة، لا يطيق رؤية هذه المرأة، قالت إنها تشاركه مشاعره ورأيه، ولكن لسنوات مقبلة سيضطران إلى التعامل معها، البنتان عندها ومن الأفضل مسايستها، ثم. . ما الذى يربطنا بها؟

غير أنه أصر، ورجاها أن تحصل على أجازة من عملها، وأن تنوب عنه، قال إنه سيصحب البنية صباح بعد غد، وإنه سيتعرف بالمدرسين، لكنه لا يرغب فى رؤية هذه المرأة. .

إذن. . للخال نفوذ، ويد تطول وتنفذ، فى صباح أحد أيام الأسبوع الأول من نوفمبر عام ألف وتسعمائة وثمانية وسبعين، اجتاز الباب الزجاجى الذى يفتح تلقائيا بمجرد الاقتراب منه، أحد هذه المبانى التى ظهرت فى المدينة أخيرا، صماء، معدنية، زجاجية، تحوى أسرارا عديدة، إلى يمين الداخل مكتب استعلامات للمبنى كله، أما حراس الأمن الخصوصيون فيقفون قرب المصاعد، يحيطون خصورهم بأحزمة جلدية تتدلى منها المسدسات، والطلقات النحاسية، قرأ الاسم على اللافتة المستطيلة التى تحمل أسماء الشركات والبنوك والهيئات الاستشارية والمكاتب المتخصصة التى تتخذ من المبنى مقرا لها.

«مقبلكو. . » مجموعة شركات للإنشاءات والمقاولات.

الصمت، الحركة المحسوبة، مساحات الألوان المسطحة الملونة وأضواء مجهولة المصدر، مكتب السكرتيرة فسيح، مقاعد وثيرة، فى أركانه الأربعة أصص لنبات الظل، عندما وقف أمامها خيل إليه أنه محاصر بشكل ما، وأنه مراقب، وأن الرجل ذا القميص

الأسـود والسـوار الذهبى الذى قـابله فى مكتب الناظرة قـابع فى مكان ما هنـا، السكرتيرة نحيلة، طويلة، برغم حرصـهـا على أن تبدو حركاتها وتصرفاتها دقيقة، محسوبة، فإن حضورها كان فجا بدرجة ما، لم يستطع تحديدها بالضبط، عندها مبالغة فى اقتصاد حركاتها، وإيماءاتها، وترتيب التفاتاتها، ونظراتها المفاجئة التى توجهها هنا أو هناك، وميل رأسها عند الإصغاء.

إنه غريب هنا، للمكان طابع غـامض، كأن الفراغ من معدن خفى، الباب المؤدى إلى المكتب جزء من الجدار يصعب تبينه، عندما اجتاز الباب فوجئ به يقف على مسافة خطوة فى انتظاره، أبدى الود والترحيب للتو، إنه ربعة، يتدلى رباط عنقه الأزرق على قميص ناصع البياض، أما الجاكتة فمعلقة إلى مشجب يلى طاولة اجتماعات فى أقصى الغرفة الفسيحة التى يمكنه أن يعدو فيها، أجعد الشعر، يحتفظ بابتسامة هادئة لا تفارقه، يبسط يده داعيا إلى الجلوس، يمد صندوقا مفتوحا يبرز لفائف السيجار الكوبى، غير أنه يعتذر، يعدل وضعه، يواجهه بملامح وقسمات تجاوز عمرها الخامسة والأربعين، تقلبت عبرها ظروف شتى من رحيل إلى صحارى البلاد، وحروب متتالية، وأمسيات هى الآن متداخلة، تبقى من بعضها مجرد لمحات، بوارق، ومضات، واختفت أخرى، إذن . . هذا «مقتبل»، اسمه فى اللافتات المعلقة إلى جدران المبانى التى لم تكتمل بعد، «مقبلكو»، فى هذه اللحظة أدرك أنه لم ير صورته قط تنشر الصحف الإعلانات عن شركاته، لكن ملامحه لم تظهر، لم يرها، إنه أصغر مما توقع،

ربما في الخامسة والثلاثين، لم يتردد اسم مؤسسته إلا منذ وقت قصير، ربما لا يتجاوز العامين، قيل إنه جمع ثروة بعد عمله سنوات في بلد نفطي، يتردد أنه وثيق الصلة بأكبر مقاولي البلد، تردد هذا كله عندما وقعت عيناه عليه أول مرة، بل سأل نفسه، أين كان منذ عشر سنوات؟ ولم يدر لماذا حدد المدة بسنوات عشر؟ قال إنه مسرور جدا لأن رجلا مثله سيتعاون معه، لهجته محايدة، هادئة، لفظ ثلاث أو أربع كلمات بالإنجليزية بعد تردد وحيرة في البحث عن الألفاظ العربية، يوحي بإتقانه الإنجليزية أكثر، جاءت السكرتيرة بصينية عليها كأسان من عصير التفاح المستورد، لم يفته رواحها ومجيئها منطلقة، أثناء جلوسهما دخلت مرتين، اتجهت مباشرة إلى المنضدة المجاورة للمكتب، تناولت أوراقا، في المرة الثانية بدت وكأنها تتأكد من شيء ما، قال مقتبل «باشا» ـ هكذا يذكرون اسمه ـ إنه بإمكانه تسلم العمل من اليوم، الإجراءات بسيطة جدا، قال إنه أصدر تعليماته، لو صادفته أي صعوبات يرجوه الاتصال به، إذا لم يجده ستقوم ليس بكل شيء.

اسمها ليس إذن، عندما حياها أثناء انصرافه لوحت له كأنه على وشك أن يستقل طائرة يقلع بها، وفي الطريق إلى الإدارة لمح صورة يحيطها إطار فضي لمقتبل «باشا» وهو يتسلم شهادة ما في مناسبة ما من شخصية كبيرة، وعندما تسلم قرار التعيين، فوجئ بالمرتب، إنه أكثر مما أخبر به خال امرأته، القرار صادر بخمسمائة جنيه بينما ألمح الخال إلى ثلاثمائة، ليس خمسمائة فقط، إنما إلى جانب ذلك المكافآت والحوافز.

انصرف إلى الشارع دهشا، فرحا، مترددا.

أما الدهشة فلأنه لم يتوقع المرتب، لو أنه استمر بالخدمة، لو وصل إلى رتبة اللواء، فلم يكن ليحصل على ما يوازى ذلك، أما الفرحة فلأن الراتب الجديد سيمكنه من تكوين مدخر ملائم لطفلتيه يقيمهما شر العوز حتى حين إذا ما جرى له مكروه، وإذا ما غيبه القدر عنهما، قبل أن يتما شوطهما، هذا أشد ما يرهبه، لديه الآن مكافأة نهاية الخدمة التى صرفها منذ زمن قريب، وماسيمكنه ادخاره فى الشهور الآتية سيقدر ـ أيضا ـ على مواجهة أمور طال إهمالها، وغض البصر عنها، منها تغيير العربة التى أصبحت عتيقة وتكلفه مالا متزايدا، أما إذا استقر الحال واستمرت الأمور مواتية فربما أصبح ممكنا سفره مع امرأته وطفلتيه فى أجازة لمدة أسبوع أو أسبوعين، يريهن ولو قبسا هينا من الدنيا الفسيحة. أما تردده فمرده ومرجعه هواجس شتى وظنون.

أولها طبيعة العمل الذى سيقوم به، أى جهد سيقدمه مقابل هذا المبلغ الضخم؟ أى قوم سيتعامل معهم؟ إنه منذ الآن مدير لإحدى شركات «مقبلكو» فى الأيام الأولى خفت هواجسه وتوارت قليلا، إن مكتبه مؤثث بعناية، ومقعده دائرى، ولديه خط تليفون مباشر متصل بمكتب مقتبل، ليس بمكتبه هو شخصيا، ولكن بمكتب لميس السكرتيرة، لاحظ إنها متنفذة فى كل شىء، كلمتها مسموعة، وعندها أمر ونهى، كما أنها صاحبة عقد وحل، لها أتباع، وعندما يتصل بها لا تجيبه مباشرة، إنما فتاة أخرى، ناعمة الصوت، تبادر فتقول بالإنجليزية «هنا مكتب

الآنسة لميس. . نعم» حار، أمثل هذه توصف بالسكرتيرة؟ في نهاية الأسبوع الأول أيقن أن جهازا بأكمله يصرّف شئونها، وأن لها اليد الطولى، يعاملها الجميع باحترام وخشية، ما الحكاية إذن؟ ربما بدافع من الرغبة في الاقتراب منها ربما لأنه كان يود الاتصال فعلا، طلب منها أن يتحدث إلى المهندس مقتبل.

قالت بتهكم بين: تقصد مقتبل باشا؟ بتحد قال: لم يعد هناك باشوات منذ زمن طويل، لم تحتد، غير أنها أتت صوتا مغناجا، ساخرا، قالت: «دا انت سيد الباشوات». بعد أن وضع سماعة الهاتف أصغى إلى نفسه، يدرك أهمية هذا الحوار الأول، فطبقا للبداية ستحدد المسارات، يعرف ـ أيضا ـ أن الهاتف مرشح جيد للصوت الإنساني، يكثف كل ملامحه، ويكشف أدق سماته، وما يشعر به، ما رصده من فجاجة حضورها عند رؤيتها أول مرة. . وثق منه بعد حديثه إليها، غير أن ما شغل به، وبدأ يحوم حوله، الرغبة في معرفة حقيقة موقعها، أهي إحدى قريباته؟ أم أنها على علاقة به تتجاوز العمل ولوازمه؟ لم يستطع التوصل إلى حدود مميزة، أو علامات فارقة، أضمر النية على التقصي والوقوف على كنه الأمر، غير أن ما حيره أكثر وقوّى عنده البلبلة. . تلك الشركة التي تولى أمورها، في البداية أقبل على عمله الجديد مبديا الهمة، متأهبا لإظهار المقدرة، مستعدا لتقديم ما يوازي الراتب الضخم، حتى لاينفق على بيته وعياله إلا مالا حلالا، هكذا يكون راضيا، لم ينس أيضا ما لمح إليه مقتبل في لقائهما الوحيد حتى الآن، أن كل جهد بارز أو استثنائي سيقابله

حافز مرض تماما، غير أنه فى نهاية الأسبوع الأول تزايدت حيرته، بل اضطرب أمره خاصة بعد أن فرغ من قراءة عقد تأسيس الشركة، والملفات الخاصة بمجالات نشاطها وأوجه عملها، وجد تساؤلا يلح عليه، محوره، أى نشاط تقوم به هذه الشركة؟ هذه المنشأة التى بدأ يتولى مسئولية إدارتها وتصريف شئونها وتنمية أعمالها ومواردها، ودفعها فى اتجاه الريح، والنأى عن أسباب الخسارة، وعوامل التلف، طبقا لما دون فى العقود التأسيسية فإنه مسئول عن شركة للمقاولات والتجارة، لكن . . أى مقاولات؟ لم يجد أعمال تشييد أو بناء أو هدم، فقط مجرد عمليات استيراد لمواد لارابط بينها أو علاقة، فمن أحجار رخامية، إلى ألواح معدنية، إلى أسياخ حديدية، إلى أجهزة ألكترونية، ومواد غذائية، تلك صفقة ضخمة للشحومات الغذائية، لاحظ مكوثها فى المخازن التابعة ستة شهور متصلة، ثم تصريفها وبيعها فجأة فى يوم واحد، ماذا يعنى هذا؟ لم ينته من قراءة الملفات والوثائق المتاحة إلا وقد عظمت حيرته، إذ لم يلق ما يبصره، وما يدله على سبل شتى تخيل وجودها، وألقى على عاتقة مسئولية طرقها، والخوض فيها بهمة وتفان، وقبل نظره الملفات والدفاتر الحسابية، أرسل فى طلب من ينوب عنه إذا غاب، ومن يدير أمور العمل إذا أخذه شغل، جاء الرجل متهللا، باسما، مكثرا من تقليد إيماءات ونظرات اشتهر بها ممثل كوميدى ممن علا نجمهم ولمع خلال المرحلة، قال إن الجميع يستبشرون بقدومه خيرا وبركة، كان يضحك فجأة ضحكة قصيرة، مضغوطة، ينهيها بغتة، لم يرتح إليه، بل نفر منه، غير أنه كتم ما به من تساؤلات، وحاش أمورا

شتى لم ينطقها، بدأ بالاستفسار عن أحجار الرخام، فقال الرجل: إن الشركة لاقت منافسة لا يمكن مجاراتها، تساءل ممن؟ عندئذ أطرق بنظراته إلى الأرض، ثم تطلع إليه شأن من يعرف أمورا جمة لكنه لا يود الإفضاء بها غير أنه قال بعد هزة من رأسه تنتمي إلى هذا الممثل الكوميدى: ثمة أشياء وخطوات واتفاقيات ربما تبدو عادية لكنها تعد من أدق الأسرار غير المستحب الخوض فيها حتى بين كبار العاملين، هذا ما عودهم عليه مقتبل باشا، لكنه الآن من أهل البيت، ولا يجوز إخفاء شيء عنه.

بدأ أثناء نطقه الكلمات الأخيرة وكأنه يجامل، أكثر مما يقدر حقيقةمفروغا منها، ثم واصل حديثه..

قال إن المنافسة أتت من سيد المقاولين فى مصر، لم يكن الرخام مجال عمله، لكنه سارع إلى تأسيس شركة كبرى وعقد اتفاقيات، ولكن مقتبل باشا ابن سوق، يفهم ويتصرف، توصل إلى اتفاق ورضى بالعمل من الباطن فى مجال الرخام، طبعا هو سيد العارفين بالمصلحة، أوامره لا تناقش، وخططه لا يعرفها أحد، هو الكل فى الكل، والمال ماله، والدار داره، وإذا شاء استغنى عن الجميع فى غمضة عين.. إنه واصل!

لم يغب عنه أنه المقصود، المعنىّ بكل كلمة فاه بها الرجل، بعد انصرافه لام نفسه، كان بإمكانه الرد القاسي فى مواضع عدة، لكنه آثر أن يكون مصغيا، وأن يؤجل ردود الأفعال، ما استوقفه شخصية الرجل نفسه حضوره الثقيل، ألفاظ تطرق سمعه أول مرة، وتعبيرات لم يألفها، وإيماءات غالبة على المعنى الظاهر،

وإيحاءات متضمنة، استعاد سنوات طويلة كان يشرح الأمور الكبيرة بالكلمات القليلة، بأسى تذكر حميمية الصلات بينه وبين ضباطه وجنوده، بينه وبين قادته، خاصة زمن الحرب، وضوح القصد ونصاعة الهدف ونبل الجهد، هذه الليلة عندما كان قابعا فى خندق اتصالات قريب من قناة السويس، كان مسئولا عن تلقى الإشارات والرسائل من دورية قتالية عبرت إلى ما وراء الخطوط، أشد ما خشيه حدوث عطل تنقطع به الاتصالات أو تشويش معاد لا يمكنه إبطاله، برغم بعد المسافة الفاصلة، برغم عدم معرفته لأفراد الدورية، فإنه أيقن أن عمره يتصل بأعمارهم، وأن شهيق أو زفير كل منهم له صدى فى صدره، استعاد قلقه الليلى عليهم، واقترابه منهم على بعد، وراحته عند تلقيه نبأ عودتهم، وإبلاغه التمام، وانصرافه متأثرا بما كان منه مع أنه لم يرهم، ولم يلتق بهم لا عند عبورهم ولا عند رجوعهم، من يمكنه أن يدرك موروثه هذا؟

مقتبل باشا؟ لميس التى يتعقد لغزها، أو هذا الرجل الذى لا يدرى عن ماضيه الحقيقى شيئا، أين ما كان مما هو كائن بالفعل؟ النقلة حادة، والتغير وعر، فكأنه نزل ديارا يجهل ما احتوته، إنه يؤدى دورا ولا يمارس عملا، مضطر هنا أن يكون غير ما هو عليه، يضفى ظلالا على ملامحه، ويلفظ الغريب عن قاموسه، يظهر مالا يضمر، ويبطن خلاف ما يلوح منه، عبر خدمته الطويلة لم يخض قتالا مباشرا، لم يواجه العدو عن قرب، لم يشتبك بالسلاح الأبيض، لم يلتحم، لم يكمن ثم يباغت، ومع ذلك فإن

تعامله عمرا مع أجهزة الاتصال العادية والدقيقة، وتوقعه للإشارات المتداخلة، والنبضات الغامضة، وظهور صوت معاد فجأة وتتبعه المضنى لمواضع الخلل والانقطاع، أكسبه هذا قدرة على التوقع، والتقصى والنفاذ إلى غياهب لا تدرك بالنظر الحسى، يوقن أن هذه اللافتات تخفى أمورا غير مدونة بالورق، إنه يقف على حافة عالم غريب عنه، خلاف ما خبر، وغير ما عهد، لا تستقيم فيه الأمور كما كانت عنده، فى ميراث خدمته العسكرية الطويلة، كانت الحدود ناصعة، صارمة، فاصلة، هنا الصواب وهناك الخطأ وما بينهما منطقة حرام، أما النتائج فلا تحتمل التأويل، الأمر فى النهاية متعلق بأرواح يمكن أن تزهق، وخسائر جسيمة يمكن أن تقع، لكل خطوة حساب معلوم، وتقدير، ونتيجة، لكم كان ساذجا عند مروره بتلك المنشآت من بعيد، يظن أن لكل شىء ترتيبا، العمل لابد له من نتيجة، وللمضاربة عواقب، إما ربح وإما خسارة، يلتئم هذا كله فيما تعرف عليه القوم أنه بنية النظام.

لكن فى طوره الجديد هذا يقف والخطا ما تزال بعد فى بدايتها على ماخضه خضا، وما يتناقض مع محصلة زمانه كله المولى، المتد فى أيامه الخاصة المعاشة، لمدة أسبوعين لم يوقع قرارا، لم يصدر أمرا، تعلل بالرغبة فى التعمق والدراسة، واستكشاف حقيقة الوضعية، إن ما تجمع عنده خلال هذين الأسبوعين لكثير، كتم ما تردد عنده، وأصغى، واستقصى حتى أدرك بعضا وليس الكل، فى لحظات أوشك أن يظهر النفار، عندما أصغى إلى

ضحكة الرجل المقتضبة القصيرة، وهو يحدثه شارحا ظروف صفقة السمن، أكد أن التجربة نجحت وأن الصفقة الثانية آية لاريب فيها، قال إن تغيير تواريخ الصلاحية لم يلفت النظر، ضحك ضحكته التائهة، قال هذه مواد انتهت فى بلادها، غير مسموح بتداولها هناك، ومقتبل باشا يحصل بشطارة على كميات كان يمكن أن تلقى فى البحر، لكن القوم عندنا يهضمون الحديد، ما من شكوى وردت، وما من حالة تسمم جرت، المخزن بالمطرية، رسميا معروف أنه مخزن للخشب، مستودع هائل، ضخم عند أطراف المدينة، هناك يتم طبع تواريخ الصلاحية الجديدة، تلصق البطاقات على العلب المعدنية، السوق تبلع كل شىء.

ابتسم الرجل، قال إنه من الطبيعى أن يقوم بزيارة المخزن، إنه تابع له، كما أنه سيرى هناك كيف يتحول التراب إلى ذهب! لم يعد الرجل متحفظا معه، بل إنه صار يحكى له بسهولة، يقص تفاصيل ما يجرى، ويبدى إعجابه بمقتبل باشا الذى لا يتحرك الآن إلا وحوله ستة من الحرس الخاص، كأنه من الزعماء المرموقين، لم يكن الرجل هو المصدر الوحيد لوقوفه على ما يجرى، تفاصيل عديدة تشكل فى مجموعها كنه الوضع، من الصعب أن يرجع كل منها إلى مصدر محدد، مما أدهشه أن أدق التفاصيل يجرى تداولها كأمور مفروغ منها فى الشركة، وفى الشركات الأخرى لا يذكر اسم مقتبل مجردا، بل لا يذكر إطلاقا فى العموم، إنما يشار إليه بالباشا، أما ميس فيجهل الكثيرون

اسمها، يعرفونها بالهانم، لاحظ أن كثيرا من العقود المبرمة فى بلدان نائية وقعتها لميس، عقد فى مانيلا، آخر فى لاهاى، ورابع فى أثينا، أفلام تصوير، أنواع من الجبن والصلصة، قطع غيار سيارات، مصابيح كهربائية، أصباغ كيماوية، مبيدات حشرية، وآلات للجراحة الطبية، وعندما اتضح له أن ميزانية الشركة التى تولى إدارتها تحقق خسارة سنوية متتابعة، كان عند حد لا يتلقى فيه المفاجأة الأولى، عزم وأضمر النية على وضع تقرير مفصل، مركَّز عن الشركة، عن تنوع نشاطها وعدم تخصصه، ولكن الأهم من ذلك كله، تركيزه على الخسارة الجسيمة التى تحققها الشركة بانتظام منذ تأسيسها، أوشك على الانتهاء من هذا كله، لكنه متردد الآن بعد أن ألم بجوانب الأمر، وأحيط من مصادر شتى بجوهر الأصل والفرع، ما الجدوى مما قام به؟ وهل سيصغى مقتبل إليه؟ إنه الآن حذر، لو بدأ الصدام فربما دبروا له أمرا، خاصة بعد تأكده من وجود ثلاثة بين العاملين معه فى الشركة قضوا مددا متفاوتة فى الليمان نتيجة ارتكابهم جرائم شتى لم يقف عليها بالضبط، وصل إلى حد آثر عنده أن يكتمٍ، ألا يلح وألا يفصح، ما أدركه فظيع، وما استوثق منه مروعٍ، ولكن إلى صمت، وطول تأمل وميل إلى انفراد، وعلى الرغم من أنه اعتاد ألا يخفى أمرا على امرأته، فإنه لم يبح لها بحرف مما وقف عليه، وتكشف له، بل حاول تجنبها، وعدم الخوض فى حوارات مطولة، يخشى أن تدرك من أمره شيئا، ضاق بذلك لأنه اعتاد ألا يخفى عنها أمرا؛ لذا كان يعود متأخرا، مجهدا، متعبا، علل ذلك بضرورة بذل الجهد المضاعف، خاصة أن الأمر مازال فى بدايته،

تتقبل راضية توصيه أن يحاول العودة في اليوم التالي مبكرا ليرى البنتين قبل نومهما، يسألانها عنه، ولماذا يتأخر؟ فتعدهما بوقت أطول يخصصه لهما عندما يفرغ، فتقول الكبرى، إن أيام الجيش أحسن!

لم يفته همة امرأته في ترتيب أمور البيت، تعد العدة لطلاء الجدران، وتلمح إلى ضرورة تغيير بعض الأثاث، يود لو أنه أفضى إليها بما ينوء به، لكنه رأى فيه إزعاجا لها وتشتيتا، فكر في مصارحة خالها، لكنه استبعد ذلك، العلاقة بين الخال ومقتبل وثيقة، ألم يلمح مقتبل نفسه في لقائهما الوحيد إلى صلته به؟ بل قال: إن للخال فضلا عليه وأيادى لن ينساها، فأي خير يكون مع مثل هذا؟ إنه يقضى أوقاتا بمفرده بعد انصرافه من الشركة، خيل إليه أن ثمة من يراقبه، كف عن المضى إلى المقهى الذى عرفه أيام تقاعده، آوى إلى ركن قصى في نادى المحاربين القدماء، بعد صلاته المغرب توجه إلى هاتف من الطراز القديم فوق منضدة مرتفعة القوائم، دس عشرة قروش معدنية في العلبة الصغيرة المجاورة، أدار رقمًا، مما عرف عنه إنه يحفظ الأرقام التى يتعامل معها، لايحتاج إلى تدوينها، حتى إن بعض صحبه من الضباط تندروا بذلك، إذا أدار رقم الهاتف مرة واحدة فإنه ليس بحاجة إلى تسجيل الرقم، ومع ذلك اضطر إلى التمهل لحظات لانتزاع الأرقام من تلافيف ذاكرته، لم يكن قد اتصل بصاحبه هذا إلا مرتين ومنذ عدة سنوات، وكان ذلك في الأعياد للتهنئة، ثم انقطعت الصلة خاصة عندما أحيل الرجل إلى التقاعد قبله بعام أو

أكثر، فى هذا الغروب، مع بدء نزول الليل أيقن أنه بحاجة إلى رؤية هذا الرجل، هو بالذات، عرفه أثناء خدمته فى القطاع الجنوبى من جبهة القناة، كان وقتئذ برتبة عقيد، مسئولا عن مخابرات القتال، إنه من الصعيد، بلدته قريبة من مسقط رأسه، سمعته حسنة، صاحب جلد، ويقال إن اسمه معروف جيدا على الناحية الأخرى من صفوف العدو، وإنه نظم عمليات قتالية أثار بها الرعب بين أفراده، هذا مقطوع به، مؤكد، يذكر لمعة عينيه، وحدة ذكائهما، يستعيد بعضا مما روى عن جرأته الغريبة، حدث أن توجه ليلا إلى موقع قاعدة صاروخية فور علمه بقصفها، مضى والنيران فى أوجها، وطائرات العدو ترمى مشاعل تقلب ظلمة الليل، تصهرها، وعند اقترابه من حد معين صاح به بعض الجند محذرين ألا يتجاوز حدا معينا، ثمة قنابل لم تنفجر بعد، أشار أحدهم إلى قنبلة ضخمة سوداء، قائمة، فى حجم الزير، ذات ألف رطل، قال قائل منهم إنها لم تنفجر بعد، حثهم على التقدم لإزالة ما تهدم، ما انهار، رأى وجلهم وترددهم، تساءل مشيرا إلى قنبلة الألف رطل، ألم تنفجر بعد؟ قيل، لا، تقدم بهدوء، قعد فوقها، أشعل سيجارة، وبدأ ينفث دخانها، وعندما لاحظ دهشتهم برقت عيناه: ماذا تنتظرون؟ هل ننتظر حتى يموت من هم بحاجة إلينا تحت الأنقاض؟ عندئذ أقبلوا يتنافسون، أبرز ما فى وجهه عينان نفاذتان لنظراتهما.

إنه يقعد فى مواجهته، هنا فى هذا الركن القصى من النادى، قال إنه لا يجئ هنا إلا نادرا، اعتاد التردد على مقهى إفرنجى هادئ قريب من البيت، أما معظم وقته فيقضيه فى البيت، يقرأ، منذ عام

بعد تقاعده مباشرة، قرر أن يخوض التجارة، كان لديه مبلغ من المال وضعه فى مشروع لتجارة السيارات، شارك بعض أقاربه، غير أنه فشل، أيقن أنه ليس من أهل ذلك، السوق صعب، وخباياه وعرة، خاصة سوق هذه الأيام العجيبة، صمت لحظات ثم تساءل: أنت.. ماذا فعلت الدنيا بك؟ بوغت، إذ كان يفكر فى مدخل يفضى من خلاله بما ينوء به، لابد أن الرجل أدرك بخبرته وفراسته أنه ما سعى إليه إلا ليخبره أو يطلعه على أمر ذى شأن، قال إنه والله فى ورطة، أخبر عن ظروفه، عن عمله الجديد هذا، غير أن المشكلة تكمن فى هذا العمل ذاته، صاحبه الشاب الذى تشهر الإعلانات اسمه، وتبرزه اللافتات، والصحف والمجلات، الذى لا ينقضى أسبوع إلا ويلتقى بكبير مسئول، صاحب التبرعات الشتى، من لا يظهر أمام عدسات التليفزيون إلا والمسبحة فى يده والورع على ملامحه، هذا الشاب ماهو إلا تاجر كبير ومهرب خطير لأشد أنواع المخدرات، وبعضها دخل البلاد أول مرة على يديه..

هنا لمع فى عينى ضابط المخابرات القديم انتباه حاد، ويقظة زائدة بينما انتهى شرود لازمه منذ بدء الجلسة، تساءل، وكيف عرفت هذا كله؟

قال إنه بدأ بملاحظة، وتقصى أخبار مديرة مكتبه، أو بمعنى أدق مديرة أعماله، أو بوضوح أكثر صاحبة النفوذ كله عليه، منذ رؤيتها أول مرة لم يفته حضورها القوى وأثرها عليه، ونفوذها، ومكانتها، حتى إن الاتصال بها أو مقابلتها يحتاجان إلى ترتيب

حتى من كبار العاملين فى شتى الفروع، شغله أمرها، خاصة بعد اكتشافه وهمية الشركة التى أسندوا إليه إدارتها، بحرص بدأ يستقصى ويستفسر، وبعد انقضاءوقت قصير، أدرك أن الأصول معروفة، والتفاصيل شائعة، المهم أنها لا تعلن، كل يدرى حتى كبار المهندسين المشرفين أو المنفذين لمشروعات البناء، والتى ما أريد بها إلا تغطية جوهر النشاط وحقيقته، أذهله ما أدرك، فمقتبل هذا لم يكن له شأن يذكر إلى ما بعد الحرب بسنة، وفى أيام القتال نفسها والزمن السابق عليها لم يسمع به أحد، لم تكن هناك لافتة ترفع اسمه، أو نشاط معروف له، ما من نفوذ أو ثروة، فانظر إلى أى حد تغيرت الأمور.

ضحك ضابط مخابرات القتال القديم، قال: وانظر إلى أمورنا نحن!

قال إن ما عرفه شائع، شائع، وهذا ما أدهشه. إذ ظن أن الترتيب محكم، والنظام قابض، قال إن سر نفوذ لميس هذه يكمن فى أنها أول سعده، من بدأ ثراؤه على يديها الممسكة حتى الآن بسره، إنها ليست جميلة جدا، غير أنها ذات طلعة، وعندها جرأة، متسقة، فارهة، لها حضور، عندما تعرّف إليها مقتبل كانت تخدم عند إحدى الأسر العتيقة، تدبر أمور البيت القائم قرب الأهرام، تحيطه حديقة فسيحة، لا يعيش فيه إلا رب البيت وامرأته، محامى عجوز، ابنتهما مهاجرة فى أمريكا، ابنهما يدرس فى فرنسا، ورثت لميس ـ وهذا اسم مكتسب حديث ـ الخدمة عن والدها الذى عمل طوال عمره خادما لهذه العائلة، إلى

أن وافاه أجله، وحتى لا تضل البنت أو تضيع بددا، آواها الرجل عنده، تدبر أمورهما، تشرف على امرأة فلاحة تجيء لتنظيف البيت، ورجل نوبى يجيء لطهى الطعام، تعرفت إلى مقتبل وقت عمله بائعا فى متجر للتحف بخان الخليلى، يقال إنه أحبها وأحبته، ويقال، إنه لقى فى ملامحها ما كان يبحث عنه وقتئذ، إذ توحى بأصالة نسب، وانتماء إلى جذور ثرية، فكأنها ابنة باشا قديم صادرت الثورة أملاكه، ردد هذا على مسمعها وصرح به فانتشت لذلك وسرت. كانت تتقن أيضا اللغة الفرنسية، اذ درست فى مدرسة تتبع إرسالية تبشيرية كاثوليكية كانت تقدم العون لبعض الأسر الفقيرة، وقد يكون المحامى العجوز لعب دورا فى إلحاقها بالمدرسة، ما من أمر مؤكد بخصوص ذلك، المهم أن مقتبل عرف طريقه إليها، وحشا رأسها بيقين أنها جديرة بثراء لاحد له، وجاه، ونفوذ، وأن مظهرها فيه جمال وهيبة، توثق أمرهما حتى تمت أول عملية على يديها وكانت البداية. .

تساءل ضابط مخابرات القتال القديم:

ـ كيف تم ذلك؟

عندئذ اقترب بمقعده، واجتهد ألا ينسى تفصيلة، أو تفلت منه شاردة، قال إنها تركت الخدمة فى بيت العجوز، بدا لها السفر مغريا، أن ترحل هناوهناك، وترى الدنيا، كان هذا أحد أحلامها القديمة، بل إنها لم تنظر إلى وضعها كخادمة أو مديرة بيت كما أحبت دائما أن تصف نفسها إلا كوضع مؤقت، وأن حياتها ستتخذ سبلا مختلفة طال الوقت أو قصر، وجدت فيما اقترحه

عليها مقتبل الفرصة، أما الضمانات التى تحدث عنها فهدأت بالها، وطمأنت خواطرها، سافرت إلى باريس، وعندما ودعها فى المطار بدت زاهية، وكأنها اعتادت السفر منذ القدم، متسقة الحركات، دقيقة الإيماءات، شحيحة فى ألفاظها، فى باريس قضت أياما، ومنها طارت إلى آسيا، إلى منطقة يقال إنها تقع بين الهند وباكستان، أو بين أفغانستان وباكستان، لا يدرى على وجه الدقة، هناك تسلمت ما مقداره كيلو جرام واحد، أقل حجما من كيلو سكر، هل تدرى كم قيمة هذا؟ ألف دولار، أما بيعه فيحقق ربحا قدره ستمائة ألف فى الحد الأدنى، المهم. . . أنها أتقنت إخفاءه فى حقيبتها، وعادت مرة أخرى إلى باريس، ومنها طارت إلى القاهرة، حقائبها مكدسة بأزياء الشتاء الجديدة، هذا ما صرحت به عندما استفسر مفتش الجمرك مبتسما مهذبا عما إذا كانت تحمل شيئا يستحق أن تدفع عنه، حياها مادا يده إلى طريق الخروج، خطت راسخة، تدفع عربة الحقائب، وتحمل حقيبة يدها وعروسا جميلة، كتب فوق صندوقها الشفاف أنها تغنى وترقص وتمشى وتبول!

تلك كانت البداية، والمؤكد أنها لصاحب متجر العاديات، إلا أن العملية التالية كانت خالصة لهما، عرف مقتبل طريقه إلى الرأس الكبير، تعامل معه مباشرة، وحتى الآن يخضع له، يستظل به، ولا يعصى له أمرا، سافرت مرات متباعدة حتى لا تثير شكا أو ريبة، غير أنه من الثابت أنها بعد السنة الأولى لم تكن بمفردها،

ويبدو أنها هى التى اجتهدت حتى أقنعت بعضهن، حرصت على اختيارهن ممن لهن ملامح الوقار والجمال، لم يعرف عنهن الأمور المريبة، أو السوابق الغريبة، بعضهن جامعيات، ويبدو أنها تملك قدرا هائلا من السيطرة عليهن، تجهل كل منهم الأخرى، اتسع مجال نشاطها، وعظم شأنها، وقوى أمرها، حتى لتكاد تكون صاحبة الشأن، أما عن كنه علاقتها بمقتبل فأمر فى بعض جوانبه مبهم، من المؤكد أن ما بينهما وثيق، وطيد، لكن الثابت أنها سهلت له ودبرت تعرفه بهذه الممثلة الجميلة المشهورة، إذ يقال إنه مما يقوى رجال الأعمال فى السوق ويثبت أمره أن تكون له علاقة بمشهورة أو ثرية بحيث يذيع أمرهما، وتتناقل الألسنة تفاصيل ما بينهما، وأوصاف الهدايا المغدقة عليها، ورحلاتها السرية، كذا خلواتهما، وما شابه ذلك، أما عن الشركات التى أشهرها وتتبعه فمنها ما يعمل فعلا، ومنها الغطاء المموه، إحداها متخصصة فى استيراد الأدوات الصحية، ولكن نشاطها الحقيقى تهريب أنواع أقل قيمة من المخدرات، بل ثمة إشارات إلى تهريب أمور أخرى، الذهب والماس، وحتى قطع الحلوى، ما يحيره أن جميع هذه الشركات تحقق خسائر على الورق، خلال الأيام الماضية أنهى مراجعة الأوراق والملفات، ودرس الأوضاع فلم يجد إلا الخسارة، لكنه يثق أن ثمة أوراقا أخرى غير متاحة له، سجلات ما، ربما أظهروها له بعد أن يستوثقوا من أمره، إنه فى وضع غريب، عجيب، إنه مسئول عن شركة لا يدرى كنه نشاطها، يجهل ميزانيتها الحقيقية، أما العاملون فكل منهم له وجه معلن

وآخر خفى، يثق أن ما يدور حوله فى الظاهريخالف ما يجرى فى الباطن فماذا يفعل؟

يقول المحارب القديم باختصار دال موجز:

ـ «انج بنفسك قبل التورط استقل . . » .

أطرق مهموما، كدرا، قال:

ـ «استقلت!» .

لماذا نظر المحارب الذى تقاعد
إلى الصغيرات أثناء لعبهن؟

. . تنقضى الأوقات أسرع مما جرى به تقديرها، عند خلوته يستعيد ما كان فتغمره دهشة لوجيز المدة التى بدت أحيانا دهرا ممتدا، عندئذ يسرى فيه حنين وتعبره هدهدة أسيانة، معان غالية ولت، وأحداث دنت خلالها الذات من جوهرها اندثرت، إذ ينتقل إلى التفكير فيما تبقى، تغيم رؤاه إلى حين، ما تبقى أقل مما انقضى، هذا حتمى، مقطوع به، مع إيمانه الأتم أن لكل أجل كتابا، لن يمتد به العمر خمسين أخرى مثل التى انقضت، يثق من ذلك مع عدم وصوله إلى حد الكفر بما قضى به، يؤمن أن الموت فى الخطى الساعية، فى الأنفاس المتعاقبة.

لو انقضى وقته دون مفاجآت ليست فى الحسبان، كأن تصدمه عربة، أو تصعقه كهرباء، أو يسقط فوقه ثقل ما أثناء خطوه فى الطريق، فإنه بالقطع موف الأجل فى العشرين القادمة، هذا إذا تجاوز الستين، صحيح أن والده تجاوزها بثلاث، وجده دنا من

السبعين، لكنهما من سلالة زمن قديم، أما هو، فما أشق تراثه، وأثقل ميراثه، يبدو الآن قريبا، بعيدا، بعد أن فرغ منه، بعد أن أرغم على تركه فتحددت نهاية لما بذل من أجله العمر المنقضى، لكم سعى أحيانا ليقدم عمره طواعية، فى ذرا معايشته للخطر لم يطرقه هاجس الموت كتلك الأيام التى يمتلك فيها وقته.

فكر أحيانا فى تدوين اللحظات التى دنا فيها من انحناءة المصير، عندما شارك فى الثورة، كان ضابطا برتبة ملازم، لم يمض على تخرجه إلا سنة وبضعة شهور، هذه الليلة، هذا المنزل فى كوبرى القبة، قربه الحميمى من صحبه، الشعور بالمشاركة، التوحد، المصحف المفتوح على سورة يس، الأيدى المبسوطة، ترديد القسم.

ليلة الثورة عندما اقتربت اللحظة، استنفاره الجند، وقوفه فى عمق الليل، صوته المرتفع إذ يقول إن الجيش ماض لتطهير البلد من الفساد، من الإقطاع، من الظلم، إنه ماض، فمن شاء الخروج معه ليتقدم خطوة إلى الأمام..

ثوان مرت، ثم بدأ الخطوة، لم يتخلف أحد، فيما عدا جنديا تقدم خطوتين، صار فى مواجهته تماما، عنده ما يرغب الهمس به، انتحى به، قال الجندى إنه سيخرج ولكن هناك احتمال الموت، أليس كذلك؟

أجابه مؤمِّنًا.

قال إنه يرغب فى لقاء ربه طاهرا، أصله احتلم أثناء النوم، يرجو السماح له بالاستحمام، لن يستغرق إلا دقيقتين..

أذن له، أما جاويش السريَّة، من بيده مفتاح السلاحليك، فقال له إنه صاحب عيال، وإنه يرجو إعفاءه، المفتاح هاهو، فإذا حالفهم الحظ رجاهم النظر إليه بعين الرحمة، وإذا جابت الأمور، فسيقول إنه كان يغط فى نوم عميق، وإن المفتاح سرق منه، قال:

ـ ربنا معكم..

أين هذا الجاويش الآن؟ حى أم ميت؟ أين الجندى الذى احتلم؟ لم يرهما فيما تلا ذلك من أيام وليال، أين اللحظات الفاصلة المحملة بملامح يدنو بعضها، وعبثا يحاول تقريب العديد منها، أين؟ لم يعن بتدوين ما مر، لم يكن لديه الوقت، مرة فكر فى تسجيل اللحظات التى اقترب فيها من الموت، حرب عام ألف وتسعمائة وستة وخمسين، وحرب اليمن، وحرب الاستنزاف، ثم حرب ثلاثة وسبعين، لكل لحظة تفردها وغرابتها، يوما سيدوّن ما مر به، ينوى لكنه لا يقدر، يحكى أحيانا عن ضابط صاعقة، واحد من المعدودين، عرفه محاربا، شجاعا، لايهاب، يضج حضوره إذا ظهر فى موضع ما بالمجادلة، والتهيؤ للمنازلة، حارب فى جبال اليمن، عبر سيناء ماشيا، ظامئا، نازل العدو وراء الخطوط أكثر من أربعين مرة، كاد أن يقع فى الأسر غير مرة، لكم مرق بين الشظايا بين اللحظة واللحظة، ثم يقصد القاهرة فى أجازة، وأثناء مشيه فوق الرصيف حادت عربة عن طريقها، خلل ما، دفعها ناحيته، فلم يحط منطقا، أى عقل يستوعب هذا؟ أى مصادفة تستعصى على التفسير؟ أحيانا، منذ تقاعده يرى أن وقته الحالى زائد على الحد، يردد، أنه أنجز المهمة على خير وجه،

خسائره طفيفة، غير أنه لم يقصد. . لم يتهاون، ولم يتنازل، الأمر عنده مرضى، لكن الوضع نسبى، فإذا قيس بالظروف، وتمكن الأحداث من الوقت، فالخطب فادح، والأمر طام، وهذا مما يخرج عن حده، مالا قبل له به، لاقدرة له على تغييره.

إنه الآن بمفرده.

طوال عمره لم يؤد ما كلف به إلا وهو فى جمع ورفقة، فسبحان من يغير الأحوال، ويبدل الظروف تبديلا! . .

إنه فى الخمسين الآن، تجاوزها بشهور، البنات الثلاث تزوجن، الأولى أنجبت فصار جدا، والثانية فى طريقها إلى أن تصبح أما، أما الثالثة فأمرها مقلق، مقض، أما الابن فمغترب الآن، بعيد، بعيد، حتى رسائله شحيحة، لكنه يلتمس له العذر، ابنه مازال فى البداية، يحاول أن يبنى حياته فى بلد بعيد، غريب فيه عن الأهل، عن اللسان، عن الصحب الذين عرفهم هنا، بمجرد تخرجه عزم وصمم على السفر، فوجئ، بوغت، أعد العدة لكى يبقى قربه، إنه الوحيد الذى جاء بعد شقيقاته الثلاث، له معزة، وعليه حرص، ومنذ السنين الأولى رباه على الصحبة، والبعد عن الجفوة، يهفو دائما إلى فترته ما بين التاسعة والثانية عشرة من العمر، إذ يصحبه إلى زيارة الأقارب، إلى النادى، كان يقعد صامتا بين الرجال، لا يستوعب ما يقولون، غير أنه لا يتململ، لا يبدى ضجرا، حتى إذا ما غلبه النعاس، قال:

ـ يا الله يا بدرى!

يتساءل القوم بدهشة:

ـ يناديك باسمك؟

فيقول وبه مس من خيلاء :

ـ إنه صاحب وابن .

لكنه بعيد جدا الآن ، يستعيد ما كان فينفطر بؤبؤ القلب منه ، ويشرف الدمع على تخوم عينيه ، هو من شهد أهوال الحروب ، وعلى مقربة منه استشهد أعزة ، سجى بعضهم بيديه وفات آخرين ، لم تطفر منه دمعة ، إلا أن هذه الأيام البعيدة الغائمة ، تهدهد ما كان منه وترقرق ما تبقى ، ألم تغيم المرئيات عندما ودعه؟ ألم تتميع الموجودات؟ وعند عودته من المطار بدا الكون موحشا ، والبلد قفرا ، الفراغ قد من وحدته أما وقته فبارد ، لم يرجع إلى البيت فى موعده ، قبع وحيدا فى مكتبه ، رابط منفردا بعد أن أذن للضباط والجند بالانصراف ، علق بصره بقمم شجيرات عتيقة ولم يعد ، حاول تصور مراحل رحلة ابنه ، حركة الطائرة فى نقطة ما من الفراغ ، نقطة متغيرة ، متبدلة حتى أوان الوصول ، من ينظر إليه ، من يتطلع ، من يبادله الحديث عرضا ، من يدرى أن لهذا الفتى أبا كان محاربا ، صلدا ، لم تدمه الجروح ، وأوقات الحصار ، والانسحاب مضطرا ، ما آله ذلك الرحيل ، هذا الغياب ، صرف كل من يعمل معه ، اعتاد مواجهة الآخرين بملامح لا تفصح عما بداخله ، يقصى أى أثر قد يتسلل إلى وجهه ، أتاح الخلوة حتى لا يراه أحد ، طرق باب البيت بعد العاشرة ليلا ، الليلة الأولى لاغتراب الابن ، لقى امرأته منتظرة ، ساهدة ، مكلومة ، بادٍ جواها ، أسئلتها قصيرة :

ألم ينس شيئا؟

هل صعد معه؟

ماذا قال؟

أجابها موردا أدق التفاصيل، مرددا من حين إلى حين:

أتقلقين على الرجل؟ ابنك الآن رجل.

تقول حاسرة عن آلامها:

إنه ضناى.

تصمت مرغمة، مصغية، تردد..

هذه حال الدنيا!

فى تلك الليلة، فى الأيام التالية حاد كل منهما عن إيلام الآخر، إلا أنه كان بعد نومها يقوم إلى البقايا، يقلب الكراسات العتيقة، تأمل خط ابنه عندما كان يجاهد ليحكم القبضة على القلم، عضلات يده أضعف من ذلك، الخط أمامه، باق، دال على وقت، غير أن الوقت ذاته ولى، صار عدما، فأين؟ نظر طويلا إلى أول شهادة نجاح حرص على الاحتفاظ بها، الانتقال من الصف الأول إلى الثانى عندما تسلمها فرح فرحا جمّا وصانها فى إطار جميل، فيما بعد لم يبدد كراساته، أو كراسات شقيقاته، وشهادات الانتقال من مرحلة إلى أخرى، الارتقاء من زمن إلى زمن، بعد تسلمه الشهادة الأولى سافر إلى اليمن، ارتقى جبالا وعرة، وارتدى الزى الوطنى، أكل الأرز بقبضة يده، أتقن

لهجات بعض القبائل، اقتضى عمله كضابط للمخابرات رحيلا دائما عبر الشُعب والقرى، واجتاز الوديان، عند كل فرصة يكتب إلى أسرته، يخط رسالة إلى ولده، يطلب من أمه أن تقرأها له، يذكر أيام اليمن فيلوح جانب من الرحلة الشاقة، إنه أحد الذين أمضوا خدمتهم كلها فى التشكيلات المقاتلة، الميدانية، نائيا عن المدن، فى الأطراف القصية، بقى عنده حنين دائم إلى البيت، وها هو يشهد الأيام التى يحن فيها إلى زمن الترقب، والرصد الليلى، ومواجهة الخلاء، أياما يضيق فيها ببقائه الطويل فى البيت، لم تكن أجازاته إلا أياما شحيحة تنقضى بسرعة، دائما حرص على مغادرة البيت والأبناء نيام، كان حمل امرأته ثقيلا، غير أنها لم تقصر، لم تكل، كان عليه أن يقمع حنينه، وميله، حتى لقى نفسه فجأة - وإن توقع الأمر - محالا إلى التقاعد.

أول أيامه فى البيت، أول يوم يفتقد فيه الوجهة، ويغيب عنه القصد، انتبه إلى وجوده مع امرأته لاغير، كأنها أيام اقترانهما الأولى قبل قدوم البنين، غير أن الوضع تبدل، تغير، فما كان مأمولا بعيدا، انقلب موليا؛ لذا بدا البيت الذى تاق عمرا إلى قضاء الأوقات فيه خاويا، اغترب الولد، ومضت كل بنت إلى حياتها، فثقلت حيويته، وخبت نضارته، أما انتهاء الخدمة فميع أرضا طال وقوفه فوقها، أو خطوه، أو اتكاؤه، أرضا طالما رواها بأيامه، سُحبت من تحته بغتة فنزل عليه خواء.

أتم المهمة، والدنيا لا تدوم، ولا تبقى على حال، ألا يحق له

أن يرضى ويهدأ؟ خمسون ولت، لم يلحقه سوء يكدر صفو الخدمة، مع أنه لم يكن هيابا، أو مترددا عند الحسم، أو مؤثرا للسلامة إذا لاح خطر، لم يخنع في مواجهة من هم أعتى، وله في ذلك مواقف شائعة.

كان سدَّادًا، منقادا دائما إلى ما يراه صوابا، ذا رأى وتدبير في كل ما أوكل إليه، كان في الحضور مهيبا، صاحب جسارة وتنفذ، حي النظرات، واضح معالم الوجه، آمر الصوت بطبعه، إذا رآه من يجهل مهمته لا يخطر له إلا أن يكون مقاتلا، أو رأسا في مجاله، ومع صرامته البادية، فإنه سليم الباطن، قليل الشر، كثير المروءة، مناصر للضعيف؛ لذا أحبه جنده، وهابه قادته.

أتم الخدمة، أنهى المهمة، غير أنه لم يستوعب بعد معنى التمام، لم يدرك حقيقة الفوت، وكنه انقضاء العادات إلا مع تباعد مألوفاته، ونأى مكوناته، إنه دهش.

أحقا ولى هذا كله بدون رجعة؟

أحقا حدث؟

كأن الأمر يخص غريبا عنه، أيام التقاعد الأولى ضنكة، في سنين بعيدة، كان ينام متأخرا وعند الفجر يصحو، اعتاد رؤية بدايات النهارات دائما في الخلاء، في الصحارى، حيث ترابط الوحدات، في لحظات استيقاظه الأولى يطوف به مرأى فراش دافئ، وتوشك أن تغلبه رغبة في النوم دقائق أخرى، أو الإغفاء آمنا، بعيدا عن القصف المدفعي، عن الهلاك المحوم في الفضاء، ها هي أيام الفراغ، حيث لا مواعيد تضطره إلى تحديد ساعات

النوم، ولا ضرورة للاستيقاظ المبكر، ولا صحو مفاجئ نتيجة هجوم غير متوقع، مع ذلك فإن ساعات رقاده الآن أقل، يتساءل قبل نومه عما سيفعله غدا، يقلق فجرا، أحيانا تتميع الموجودات، تتداخل، يظن أنه تأخر، أنه أوغل فى النوم وأن دقائق متبقية فقط ليرتدى الزى العسكرى، طوال خدمته حرص ألا يوقظه أحد، دائما آخر من ينام وأول من يستيقظ، يعى فجأة أنه متقاعد، أن يومه فارغ من أى التزام، أن باستطاعته النوم، أن يغفو بدون إزعاج، يغمض عينيه، فلينم، ألم تبدو لحظات كهذه بعيدة المنال؟ ليسترح، الوقت طوعه، غير أنه لا يزداد إلا يقظة، يتأجج صحوه مع بذل المحاولة للنوم، يصعب مضجعه فيقوم، يروح فكره إلى ولده، أهو مستيقظ الآن، أم يغط فى نوم عميق؟

بهدوء يخرج قاصدا الغرفة التى شغلها ولده، المطلة على الطريق، يلصق جبهته بالزجاج، يرقب الحركة فى الشارع، بعد تكرار وقوفه أصبح يعرف الآن، من سيخرج من البيت المقابل فى السادسة إلا ربعا، من سيظهر فى السادسة؟ العربة التى تجىء فى السادسة والنصف تنتظر حتى الثامنة أحيانا، سائقها الأسمر يغفو أحيانا أثناء انتظاره، متى يستيقظ إذن ليجيئ هنا مبكرا؟ لابد أنه ينزل عند الفجر، يذهب إلى جراج المؤسسة ثم يجىء لينتظر البك الذى لا يظهر إلا عند الثامنة، لماذا يقف هذه المدة؟ فى الأمر قسوة، ربما رغبة فى التظاهر حتى يرى الجيران العربة وسائقها.

يشفق على تلاميذ صغار يمشون فى السادسة والنصف، يقفون عند الناصية، فى انتظار عربة المدرسة، تنحنى أجسادهم النحيلة

اتقاء لهبات الهواء البارد، يقضم بعضهم شطائر، بينما يحتفظون بحقائبهم بين سيقانهم ملامسة الأرض.

ما أسرع مرور الأيام، ولت كطيف، بعد أن ضج البيت زمنا بأصوات الأبناء في مثل هذه الساعة، خلا وخوى حتى من الصدى، كان يتابع خروجهم إلى المدرسة راضيا، إذا يمضون تقول امرأته: ياه.. مازال المشوار طويلا، متى أستريح ويستريحون؟ الآن أتمت مهمتها مثله، غير أنها لم تسترح، يأخذها الحنين.

يتابع النظر، في السابعة ينزل مدير محطة الكهرباء من المبنى المواجه، تجيء عربة نقل صغيرة، يركب إلى جوار السائق، إنه منحن يتلفت حوله كثيرا، سافر عامين إلى السعودية، ما بين السابعة والثامنة تتدفق الحركة، موظفة ترتدي فستانا طويلا، وحجابا، تنزل على عجل تحمل طفلة صغيرة، يبدو أنها تمضي بها إلى دار الحضانة، يشفق على الصغيرة، الدنيا برد، امرأة نحيلة تظهر فجأة سريعة الخطى، تتوقف عند الناصية كأنها تكتشف نسيان شيء مهم لا يمكنها المضي بدونه، كأنها على وشك التعثر فجأة في نفس الوضع تقريبا تفتح حقيبة يدها، تقلب محتوياتها دون أن تبرزها، تغلقها، تستأنف السير، يبتسم، يتذكر زميلاً من ضباط الاحتياط، يفتح ظروف الخطابات بعد أن يلصقها، يعود مرات ليتأكد من إغلاق مكتبه، عند الثامنة إلا عشر دقائق تبدو فتاة تحتضن كتبًا، أحيانا تحمل معطفًا أبيض على يدها، كلية الطب، أو الهندسة، بعدها تجيء امرأة ترتدي جلبابًا أسود، تغطي رأسها

بطرحة، متقدمة فى العمر إلا أنها نشيطة تتدفق حيوية، يحيد بعينيه بعيدا، فى مثل هذا الوقت كان عمله يبلغ ذروته.

زمن الحرب، يتصل اليوم باليوم حتى توشك الفوارق أن تنمحى، لكم أمضى ساعات يرصد، يرقب تحركات العدو فى الناحية الأخرى، لزيادة طلعات الطيران مغزى، ظهور نوع معين من العربات له مغزى لكثرة ما جمع من تفاصيل عن القطاع المواجه، كان يعيش أوقاتهم وهو بعيد عنهم، مواعيد تغيير النوبات، الزمن الذى يستغرقه الجندى للصعود إلى كشك الملاحظة، مواقيت تناول الوجبات، تشكيل دوريات الاستطلاع، مرات تردد قائد القطاع على المواقع الأمامية، أما مواقع أكداس الذخيرة، ومخازن المؤونة، ومداخل ومخارج النقاط القوية فكان يعرفها ويرقب أى تغيير أو تبديل يلحقها، أحيانا يحلم بها لانشغاله وطول تركيزه، وعندما وصلت إلى يديه صورة قائد القطاع المواجه علقها فى مكتبه، صار يزيح عنها الستار كلما انفرد، يتأمل ملامحه ـ يستعيد الأساليب التى تصرف بها خلال الاشتباكات الماضية، عصبى؟ هادئ؟ سهل الاستفزاز؟ حريص؟ متهور؟ لكل صفة، لكل تفصيلة أهمية قصوى، مهما بدت ضآلتها.

لطول معايشته كان يدرك بالحس ما لم يقف عليه بالمعلومات، يستشعر دنو الخطر، والأوقات التى يلوح فيها الكُمون، يرصد البدايات الغامضة، اللامرئية حدث أثناء انتقاله مشيا على قدميه من موقع إلى آخر قرب مدينة القنطرة المهجورة وقتئذ أن ارتمى

فجأة منبطحا، جزء من لحظة ودوى انفجار على بعد أمتار، ما الذى دفعه إلى الارتماء فجأة وإلى جذب مرافقه؟ فيما بعد حيره هذا، لكنه لم يقدر على رصد نذر أو مقدمات، إنه لا يفارق النافذة ما يقرب من ساعتين يرقب خلالهما حركة الطريق.

ظلال البيت وموجوداته غامقة مع انتقاله من التحديق فى الضوء إلى الداخل، لمقاعد المائدة حضور صامت غريب، كان يتعجل أيام أجازاته للجلوس هنا، يتصدرها، حوله البنات وشقيقهن، أما امرأته فلا تقعد إلا لتقوم، تحضر ما يحتاجه كل منهم، من رغيف أو ملح أو ملعقة، مع تنافس البنات على الخدمة وقضاء حاجات البيت، لكم أحب تلك اللمة، هذه الجلسة المكنونة..

المقاعد خالية الآن، المرأة حركتها بطيئة، هدوء ثقيل يؤطر ملامحها، لولا مجىء هذه الشغالة فى الشهور الأخيرة لما استطاعت أن تدير أمور البيت، قال ضاحكا لأحد أعزائه المقربين: نساؤنا نال منهم العمر، ونحن نتقاعد فى ذروة عافيتنا، قال صاحبه: تزوج شابة صغيرة. قال: هل سنأخذ من الدنيا أكثر من حقنا؟ ثم قال: إنه كمن يبدأ من جديد، لكنها بداية ما بعد الخمسين، بعد أن شب الأبناء ومضى كل منهم إلى حياته، يحوش نفسه عن زيارة بناته، يود الإصغاء إليهن أثناء طوافه بالشوارع للمشى كما يقول، ولكى يقطع الوقت أيضا، يدنو من بيت كبراهن، قريب، يسرع، يود رؤية حفيده، غير أنه ينثنى قبل الناصية، لا يود مفاجأتها هكذا، ربما يضيق زوجها، يوم الجمعة

يلتئم الشمل عنده، يجئن مع أزواجهن، هذا ما طلبه منهن، ألا يتخلفن عن غداء يوم الجمعة إلا لضرورة، إنه فرصة اللقاء المتبقية، عندما كن في البيت نأى عنهن بالضرورة في المعسكرات، في مواقع القتال المتقدمة، هكذا قضت الواجبات، لكم مضت عليه أيام شداد، مجرد تصوره لقاء الأبناء كأن ذلك سيتم في خلق جديد، أيام توالي غارات الطيران، وضعف القدرة على المواجهة، وعندما صار في الوقت فسحة، كن شببن ومضين، أما الولد فاغترب!

لقاء وحيد، مرة في الأسبوع، لاحظ آخر مرة أن الابنة الصغرى ضلت طريقها إلى صوان الكتب، نسيت مواقع الأشياء في البيت، مع أنها لم تفارقه إلا منذ عام وعدة أسابيع، بعد خروجه تتصل الأم بهن تطمئن خاصة على الحفيد، أهو مستيقظ، أم مازال نائما؟ هل أكل جيدا؟ هل خف الرشح؟

حقا أنهى الخدمة، أتم المهمة، لكن أيمتلك وقته فعلا، أم يمضى به إلى حيث لا يدرى؟ لماذا يشعر أنه ضل؟ إن الجهات اختلطت عليه؟ أما هدفه فمرق منه، رسا عند زمن غريب، مرة في اليمن صحا بعد نوم عميق، للحظات تعلق بصره بسقف المكان، لم يدر شرقه من غربه، بعد وقت أمضاه متمددا بدأ يعي أن هذا ملجأ في الجبل، وأن المدخل ضيق، المرقد صعب وأنه في حرب، في اليمن، وأن دياره نائية، أيامه الآن تشبه لحظة الفقد هذه.

في اليمن شغل بأمره، إنه جنوبي المولد، أول هواء استنشقه في إحدى النجوع «نجع الهلة» بسوهاج، كان والده شيخا مهيبا،

مسموع الكلمة، وافر الحرمة، له القول الفصل عند المنازعات، عرف بعشقه للتواريخ، وما جرى بين العائلات والقبائل فى الزمن القديم، كذا تتبع الأنساب والفروع والأصول، أخذ ذلك عنه، وأغرم به غير أنه لم يسلك طريقة أبيه لاختلاف الظروف، واتباعه طريقا مغايرا؛ ذلك أن والده كان عالما بأحوال العائلات ملما بناس الناحية، إذا ذُكر اسم أمامه يقص ما جرى لصاحبه، ويحكى عن الأقارب، من أقام، ومن رحل، من ذهب ولم يرجع، من اغترب، من رجع بعد غيبة موسرا، من قفل عائدا فلم يعرفه أهله الأقربون، من عاش ومن باد، كان أول سؤال لمحدثه، من أى بلد أنت؟ حتى إذا ما أصغى إلى الإجابة يذكر بعض الأسماء مستفسرا مما يدهش محدثه، ويثير عجبه، أخذ عن والده السؤال، أول ما يبادر به الجنود الجدد، لكن أنى له معرفة والده، وغزير إحاطته؟ مما حكاه والده فى الزمن القديم؟ أن أصول القبيلة التى انحدروا منها فى اليمن، وعند إقامته زمنا، متنقلا فى ربوع البلد، مستطلعا، مدققا، أثناء تجواله استقصى حتى أمكنه بعد جهد جهيد أن يستوثق مكانها، عمل مجهودا كبيرا حتى دنا من مضاربها، بات ما يفصله عن جذر أصله، عن أساس قبيلته ممر جبلى خطر، كان أفرادها على غير وفاق، يجاهرون بالعداء، أوقعوا الرجال فى مكائد شتى، أبدى استعدادا للمضى إليهم، للمفاوضة، تلقى الموافقة فأعد للأمر ودبر ما يلزمه، حتى وصل إلى حد معين، كان عليه أن يركب بغلة، أن يمضى عبر شعاب الجبل صعودا، غير مؤمن إلا بوعد شفهى وصله عبر رسول لا يستوثق أمره تماما، إلا أن فضوله كان عظيما، فمن تلك الوديان

والشعاب والمدقات انطلق قومه فى الزمن السحيق، كيف ولماذا تحركت عندهم دوافع الرحيل؟ كيف تأهبوا له؟ كيف فارقوا مرابعهم تلك؟ على أى صورة مضت الليلة الأولى على درب الاغتراب؟ لماذا رحل من رحل؟ لماذا بقى من بقى؟ فى أى عمر كان جده البعيد عندما ودع ما ودع؟ ربما تبقى هنا من يمت إليه بصلة قربى، عند وصوله سيطيل النظر إلى الملامح، إلى الشبه الخفى، لعل وعسى!

لم يتبق بينه وبين مضاربهم إلا مرحلتان من الطريق، خلّف وراءه أربع مراحل، كان فى بداية النهار، والوصول مقدَّر له عند العصر، بعد عبور المضيق يبلغ أرضهم، إلا أن أمرا بالعودة صدر، أمر لا يقبل المجادلة، صارم، غامض، كإشارات اللاسلكى التى احتوته، لم يكن بوسعه إلا أن يلبى، انثنى، وبدلا من استقبالهم بوجهه أدبر، وبدلا من وصوله أقلع، عند كل منحنى التفت، كأنه واحد من قومه النائين عند رحيلهم فى الزمن القديم، ومثلهم علل النفس بعودة قريبة، أو فرصة تالية، غير أن هذه الفرصة لم تأت قط، ذلك أنه فارق اليمن كلها بعد أسبوع واحد من محاولة اقترابه، نزل القاهرة لمدة ثمان وأربعين ساعة ومنها رحل إلى نخل بوسط سيناء، لم يزر بيته حتى، جرى ذلك قبل بدء حرب يونيو بأيام ستة لا غير، كثيرا ما استعاد تقدم خطاه عبر الجبل، خاصة فى ليالى رقاده قرب قناة السويس، حيث يمكنه الإصغاء إلى تلاطم الموجات المتتابعة.

حكى بعضا مما جرى لامرأته، كانت تصغى فى البداية متقدة الانتباه، مسرورة، لم تعتد منه طوال خدمته أن يحكى عن عمله،

عن ظروفه، وها هو بعد تقاعده يفيض، غير أنه بدأ يلحظ شرودها وإن تظاهرت بالإصغاء، لكن تيه نظراتها لم يكن بمنأى عنه، كف، عاد إلى صمته.

فى يوم جمعة، وبعد الغداء قعد صامتا، فى البيت البنات وأزواجهن، تُرى، أين ولده الآن؟ هذا ما ردده دائما، ابنه الذى كان يخشى خروجه بمفرده إلى الطريق، يسعى الآن فى ديار غربة، التفت، خارج النافذة يبدو نهار رمادى، يترقرق، لا يقدر على احتمال اللحظة، بعد لحظات اعتذر، تعلل بارتباط ضرورى، ربما المرة الأولى منذ سنوات بعيدة، منذ ما قبل دخوله الكلية الحربية، يمضى بلا قصد، بدون وجهة، يمشى للمشى، يحيره هذا، مالم يتكيف معه بعد.

عند خروجه من البيت يبدو سريع الخطى، متعجلا، يضفى على ملامحه جدية، وأحيانا عبوسا، فكأنه ينوى قضاء حاجة لا تحتمل التأخير حتى إذا بعد عن الشارع مقدارا، يخف اندفاعه، ويبطئ خطوه، يتوقف أمام واجهات المحلات، يدقق النظر فى لافتات الأطباء والإعلانات، المبانى التى ظهرت فجأة، متى قامت؟

كأنه يدرك المدينة لأول مرة، لم يعبر طرقاتها إلا فى العربة العسكرية، مناطق بأكملها لم يطرقها، وأحياء جديدة لم يقصدها، وشوارع لا يدرى إلى أين تؤدى، اكتشاف الطرق مشيا جد مختلف عن المرور راكبا، غير أن المشى بدون قصد باعث للكمد، محير، لماذا لا يزور المتاحف؟ لم يدخل المتحف المصرى

إلا مرة واحدة منذ ستة وثلاثين عاما فى رحلة مدرسية، كيف لم يصحب الأبناء إليه، إلى المتحف الإسلامى، إلى الزراعى، إلى القبطى؟

يمكنه الآن زيارة أى متحف، قضاء أى وقت، لكنه بمفرده الابن بعيد، والبنات منغمسات، أما امرأته فتشكو ألم ساقيها، تعتذر بثقل حركتها، بان عليها تقدم العمر، تبدو راغبة فى الخلوة، فى الانفراد، لا تتكلم إلا إذا حاورها، لا تنطق إلا إذا ناداها.

عجيب! أهذه طبيعتها وغابت عنه لقضائه الأوقات فى الخدمة؟ معظم عشرتها اتصلت أسبابها فى أيام الأجازات، لم ير من معالمها إلا ما تسمح به الأيام القليلة.

حرجت ألا تكدره، ألا يعود إلى عمله مهموما، مثقلا بمشاكل البيت، شالت عنه مشاكل الكبير والصغير.

يتوقف أثناء مشيه، يحن إلى رؤيتها، للعودة إلى البيت فى هذه اللحظة، كأنه يكتشف ذلك لأول مرة، أعطى زمنه بأكمله للجيش منذ أول يوم عبر فيه باب التخرج فى الكلية الحربية، طرح الحياة المدنية وراءه تباهى دائما بسنوات خدمته التى قضاها كلها فى التشكيلات الميدانية، زها بالترقية الاستثنائية التى حصل عليها نتيجة البلاء الحسن، والقدوة الجيدة.

هو.. كان قدوة، ولكنهم بغتة أخرجوه عنوة من وقته، من انتظامه، أقصوه قسرا فى ذروة انغماسه، حادوا به غصبا، أرغموه أن يصبح مكيثا فى عنفوانه ولم يهن بعد.

لم يكن حبيسا للمكاتب قط، كان دائما طوافا حواما، وعند زواجه لم يتبدل أمره، لم تشعره امرأته بالهموم، رعت أغصانه، سقت طرحه، حتى إذا فاض عن الحاجة، وفرغ إلى وقته كاملا، سعى إلى الثمر، فإذا به نضج مفارقا الأصول متفرعا إلى دروب شتى.

أحيانا يتوقف أثناء طوافه بالمدينة، تطرقه هواجم تبدو ضئيلة لكنها تستنفر داخله الشجن، يتعجب، كيف لم ينتبه إلى مغزى الأمر عند حدوثه، كيف لم يلتفت فى اللحظة الآنية، حتى ليتوقف فجأة أثناء مشيه، أو يهم إذا كان قاعدا، ويطوف بحدقتيه أسى مكتمل، لا يلوح إلا فى حدقتين خبرتا الأهوال العظام.

كم مرة دنا من الموت؟ ألم يظل مسدسه فى متناول يده زمنا، عند انتقاله، عند هجوعه، إذا نام وضعه تحت وسادته؟ ألم يخطط يوما لأسر ضابط مخابرات العدو فى القطاع الجنوبى؟ وضع كل احتمال بما فى ذلك أسره، لو دنا المحظور كان متأهبا لإخراس نفسه إلى الأبد، يضمر ما عنده من أسرار تتعلق بها حيوات القوم.

ليست المواقف التى تهدد فيها عمره تلك التى تلح عليه، إنما لحظات صغيرة بما احتوته، كانت ضائعة من مناطق الذاكرة المضيئة.

قبل عبور القوات، فى قرية الشط، كان فى موقع مراقبة متقدم، على مقربة قطعة أرض ينحنى فلاح من الناحية على مزروعاتها، كان رجلا تجاوز الخمسين، ومن حركته خمن أنه ينزع

بعض الحشائش الضارة، عندما دوى أول انفجار انتفض واقفا، تلفت حوله بحدة، بعد الانفجار الثانى، راح جاء، راح جاء، كأنه مشدود إلى خيط خفى يجذبه يمينا ويسارا، ثم جرى إلى الحفرة الدائرية فى نهاية «الغيط» يلح عليه الموقف، رواح الرجل ومجيئة اللا إرادى، ثم اندفاعه . .

غير أن لحظة أخرى مثقلة بالدم سرعان ما تدركه، يأخذه روع عند استعادتها، لم يعرفه فى آنيتها .

كان يقود سيارته فى خط متعرج، كانت مدينة الإسماعيلية تتعرض لقصف مدفعى كثيف، اضطر إلى التوقف أمام بيت واجهته خشبية، عند الناصية لمحه، كان يرتدى جلبابا، يركب دراجة، يقودها بأقصى ما لديه من طاقة، هكذا تنبئ حركة ساقية وانحناءته .

فجأة .

شظية لم يرها، لم يدر حجمها أو مصدرها، سبقها انفجار قريب، انبثق الدم غزيرا عند قاعدة الرأس، بدا مظهر الجسد غريباً وقد طارت منه الهامة، لكن ما جعله يحملق، استمرار الساقين فى حركتهما، إمساك اليدين بالدراجة، دوام الانحناءة والاندفاع إلى الأمام، انخفاض ساق وارتفاع أخرى، كم دام؟ ثوانى، جزء من ثانية؟ الغريب أنه لم يرو الواقعة لزملائه، لم يفض بها قط إلا بعد تقاعده، ولزميل خدم معه فى اليمن وأحيل منذ وقت طويل إلى التقاعد، لكنه إذ يستعيدها تدرك أطرافه برودة، مع وعيه الأتم بالأسباب والمنطقيات، لكنه الفرق بين أن يرى، وأن يسمع .

تنتفض الرؤى القديمة، واللحظات المارقة حتى الإحساس بالذنب.. مرة أبلغ عن هروب جندى من أحد مواقع مدفعية الهاون الثقيل، خرج فى أجازة ولم يعد إلى وحدته عند انتهائها، تم إخطار قسم البحث عن الهاربين، والشرطة العسكرية، والشرطة المدنية، والجهات المعتاد إبلاغها عند وقوع مثل هذه الحالات.

مضى أكثر من عام..

طبعا نسى الأمر، فهناك آخرون يختصون بأمور لا يحاط بها علما، لكنه علم من قائد التشكيل ما عجب له، مع أن حيز الدهشة فى الحروب ضيق، ضئيل، لقد عثروا على الجندى، كيف؟ تقع وحدة الهاون على مسافة من الطريق المرصوف، عندما بدأ أجازته كان لابد أن يمشى مسافة عبر مدق ترابى، كان الوقت ليلا عندما حامت طائرات العدو، سقطت قنبلة زنة ألف رطل، كان فى المدى المؤثر للانفجار، قلب القنبلة الهائلة الرمال، انهالت فوقه، طمرته، اختفى تماما، لم يعثر له على أثر، ولم تكن هناك علامة دالة، بعد أكثر من عام جاءت الجرارات لإقامة مصطبة رملية، أثناء الحفر عثروا على المقاتل، استدلوا على الهوية من السلسلة المعدنية التى تحيط بالرقبة وتحمل رقما، نقلوا الرفات، وأصبح الهارب شهيدا..

لكم أشفق على أسرته، على الجندى نفسه، يدركه ذنب بعد انقضاء الأوقات، لكن كيف كان سيعرف؟ كيف؟

يلح قديمه عليه، غير أنه يحوشه عن الآخرين، ما جرى تراث يخصه، وإن ما شهده لن يدركه إلا هو، لا يريد الوصول إلى

لحظات يصغى فيها أزواج بناته إليه تهذبا، مع أن زوج الصغرى ضابط تخرج منذ أربعة أعوام، لكنه لا يقدر على وقف هذا التدفق، كأنه يكتشف بعضا مما مر به أول مرة؛ لذلك تطول فترات صمته، أحيانا كان يلتقى ببعض ممن يعرف، يسألونه عما يفعل؟

يقول إن عنده مشاريع للتجارة . .

إذا ألح محدثه يجيبه . .

ـ تصدير واستيراد . .

مجال فسيح، مطاط كما أن معظم الضباط المتقاعدين اتجهوا إلى هذا النشاط، لماذا التصدير؟ لماذا الاستيراد؟

لا يدرى . .

غير أن ثمة عرضا حقيقيا تم، إذ جاء رجل يمت إليه بقرابة، لقيه فى مقهى فسيح، عتيق، بشارع الألفى، ثم دعاه إلى الغداء بنادى الضباط يشفق على امرأته من دعوة صاحب أو قريب حتى لا يكلفها جهدا لم تعد تحتمل القيام به، كان الرجل تاجرا كبيرا فى المحافظات النائية، عنده واسع دراية ويد طولى فى السوق، عرض عليه أن يضع يده فى يده، أن يتكاتفا ويتوكلا على الكريم، أن يدخل معه فى مشروع لتجارة العربات، عنده مخزن مغلق الآن قرب ميدان المحطة، إذا اتفقا سيرتبه، ويعلق فيه صورا لطرز العربات الحديثة، فقط . . هذا ما يلزم البداية، طبعا سيجيئهم من يعرض بغرض البيع، ولهما العمولة، كما أنه يعرف بعض كبار التجار فى أسيوط، هم قائمون على توكيلات شركات كبرى،

سيأخذ منهم عربات للعرض كأمانة . . الأمل كبير ، وفى الباب متسع .

أصغى إلى الرجل ، النادى حولهما شبه خال ، فراغ المكان يوحى بتداعيات الوحدة ، ثمة بوق نحاسى ملقى قرب المسرح ، بوق صدئ ربما ، لمن؟ لا يدرى ، منضدتان فقط مشغولتان ، متباعدتان ، إلى الأقرب قعدت امرأة تخطت الأربعين ، هذا مؤكد ، ثلاث فتيات ، إحداهن ناهضة ، والأخريان صغيرتان ضامرتان ، وصبى فى الحادية أو الثانية عشرة ، يتناولون طعامهم فى صمت ، أين أبوهم؟ غائب؟ حاضر؟ أم راحل إلى الأبد؟ إذا كان شهيدا فمن هو هل سمع عنه؟ ربما يعرفه ، ربما خدم معه .

المنضدة الأخرى يجلس إليها عجوز جدا ، يمضع متمهلا ، واضح من بروز شفتيه وارتخائهما أن فمه خلو من الأسنان ، ربما كان ضابطا فى العصر الملكى ، بعد عشر سنوات أو خمس عشرة إذا امتد به الأجل سيطعن هكذا ، من يدرى؟

ـ «آه ما رأيك؟» .

يبدو أنه شرد طويلا .

لم يشرع فى التجارة ، ولم تخطر بباله يوما ، كثيرا ما سمع فى السنوات الأخيرة عن زملائه الذين تعجلوا إنهاء خدمتهم ، وتقاعدوا راغبين ، ثم شرعوا ، منهم من نجح وجمع ثروة ، ومنهم من خاب ، التقى بهؤلاء وهؤلاء ، أصغى إلى أحوالهم ، إلى تقلب الظروف بهم ، لكنه لم يتصور نفسه شريكا فى تجارة . .

لكن، ماله يجد نفسه مترددا، حائرا، زمن القتال كان يتخذ أصعب القرارات فى الفترة الوجيزة، زمن احتدام الاشتباك، حيث تتعلق المصائر بقرار، أحيانا لم يكن الوقت يسمح بترف التردد، لم يقدر إلا على المفاضلة واتخاذ الأنسب مع مراعاة القدرات المتاحة، ما يحيط الظرف، لماذا يحار الآن؟ يطيل النظر إلى الرجل المتقدم فى العمر، صارم القسمات، موجز العبارة.

لماذا لا يجرب؟

لكن من أين له الإمكانية؟

ما من عقار، أو رصيد مناسب فى البنك عنده، ورث بيتا فى القرية لكنه لم يقم به إلا أيام نزوله القليلة، قدمه إلى شقيقته قبل وفاتها، كانت أحوالها صعبة، والآن تقيم به ابنتها، كان والده مهيبا، مشكور السيرة من القريب والبعيد، مسموع الكلمة، يُعمل برأيه عند المنازعات وإن لم يكن أغنى القوم، لم يحز ثروة أو أطيانًا، لم يلتق يوما بأحد أبناء البلدة أو الذين عرفوه إلا ورفع يديه إلى السماء ترحمًا على الرجل الذى لن يجىء مثله، القادر على فض المنازعات، وإلزام كل إنسان حده، غريب أمره الآن، بعد كل ما خبره وعرفه فى الحياة الدنيا، يود لو أن والده كان برفقته الآن ليسدى إليه نصحا، يستعيده الآن، بنظراته الهادئة المسددة، قامته النحيلة، ما قوله؟ كيف سينظر؟ كيف سيجيب لو أصغى إلى هذا الرجل؟ مال إلى الأمام قليلا..

كيف سيشارك، ما المطلوب منه بالضبط؟

يحرك الرجل عصاه التى يحيط قمتها براحتيه، يضحك، إنها بداية الثقة، والبوح بما يضمره، فى مقدمة فمه موضع سنتين فارغتين هل لحظهما؟ لم يجزم، يضيق، كيف فاته ذلك؟ يقول الرجل ملامسا صدره براحة يده:

ـ «أنا بمالى، وأنت بعرقك. .».

تبدو هيئته ـ كتاجر ـ جلية، تاجر يساوم، يحاور، يبيع ويشترى، ويتخفى ثم يسفر فى اللحظة المواتية.

ـ «عرقى، وماذا يساوى؟».

يتراجع، يرفع حاجبيه، كأنه يقول، يعنى ألا تفهمنى؟ يميل إلى الأمام مقتربا. .

ـ «عرقك غالى يا سيادة اللواء، يساوى الكثير، الكثير قوى. .».

ـ «بَّصرنى يا حاج. .».

ـ «أنت لواء، ولواء من الأبطال، وعندك معارف وأحباب فى أيديهم كل شىء، قبل الافتتاح سنعلن وننشر فيعرف القريب والبعيد».

ـ «ولكن يا حاج أنا طول عمرى فى الجبل، فى الصحراء. .».

يبتسم الحاج، وإن بدا حذر مشوب بقلق عنده. .

ـ «طول عمرك ضابط مخابرات، أتظن أننى لا أعرف. .».

ـ «مخابرات على إسرائيل ياحاج . . » .

يضحك . .

ـ «وماله ، ما هم فى البلد زى النمل . . » .

يتراجع بهامته قليلا ، كأنه يسمع لأول مرة ، قال ما قاله وكأنه أمر مفروغ منه ، غير قابل للمجادلة ، مستقر منذ أمد ، يطيل النظر إلى الرجل ، إنه وقور ، لشيبته حضور ، كانوا يسمون حرب المخابرات صراع العقول ، بعد نجاح مهمة خطط لها ينتظر كيف سيكون الرد؟ كيف سيتصرف من يقبع فى الجانب الآخر؟ بون شاسع يفصله عن الحاج الآتى من أعماق الصعيد بحثا عن غطاء لا عن شريك سعيا وراء واجهة ، لا يدرى أن الجالس أمامه أصبح صدئا ، من مخلفات زمن عبر وحروب تبدو الآن نائية جدا بكل ما حفلت ، فكأنها جرت فى بلد آخر ، وفى عصر بعيد يجهد المؤرخون أنفسهم ليعرفوا بعضا من ملامحه ، كيف يتصرف؟ يسخر أم يقسو؟ لا ينطق ، بل يطرق ، يسرى حزن خفى نواته ، إلى صلبه ، أليس الرجل منطقيا مع نفسه ، مع الواقع؟ يريده مستخدما عنده ، يبغى شراء هذا التراث كله ، إنه تاجر قديم ، ابن سوق ، ولابد أنما يجرى حوله من تقلبات جعلته يتلمس ما تصور إنه غطاء يمكن الاحتماء به عبر السبل المعوجة ، لا يشبه التجار الجدد ، ما سمعه من العقيد المتقاعد بدا له غريبًا ، بل مقلقًا ، جاءه محتميًا به ولكن من جهة مغايرة ، حكى له عن هذا الشاب الذى تنشر الصحف يوميًا عن نشاط شركاته ، لكنه لم يتصور قط عندما التحق عاملا عنده أن نشاطه الحقيقى محوره أشد أنواع المخدرات

فتكا بالبنية البشرية، وأن الأمر كله بيد عاهرة لها الشأن كله، بدا كأنه يلوذ به، هو متقاعد مثله، غير أن ظنا واهيا عنده، ربما أبقى عمله كضابط مخابرات قديم على صلات يمكن من خلالها تقويم المعوج، تنبيه أصحاب الشأن إلى نشاطات المؤسسة، إلى خطورتها، لم يدر سليم النية، طيب السريرة، أن هذا النفوذ اندثر، فالوضع كله أعوج وما كان ثانويا صار رئيسيا، وما كان محرما صار القياس، لم يخف أمره، وحتى يجتث أى أمل واهٍ عنده قال:

«استقل..».

بوغت عندما أتاه الجواب، قال العقيد مهندس متقاعد:

ـ «استقلت فعلا..».

قام واقفا كأنه على وشك تأدية تحية ما، أثنى وأشاد، هذا دليل على أن اللصوص الجدد لن يمكنهم قهر الشرفاء، المهم هو الثبات، عدم الخضوع لأى ابتزاز، لأى محاولات ترغيب أو ترهيب.

فى لقاء تالٍ، قال العقيد مهندس المتقاعد إنه فى دهشة.

لماذا؟

لأنه ظنهم أقوياء، عندهم قدرة وشدة تنفذ، لكن ما يجرى منهم بعد استقالته يحيره، إنهم يبذلون المحاولة تلو المحاولة، اتصلوا به مباشرة، غير أنه حاد وراوغ، عندئذ سعوا إلى الأقارب، خاصة خال امرأته، جاء بنفسه إلى البيت مع أنه نادرا

ما يزورهم لشدة انشغاله وتعاظم مسئولياته، حَدّث الخال عن ثقة مقتبل «باشا» به والآفاق التى سيطرقها، طلب منه أن يوسّع من أفقه، أن ينسى ما ترسب عنده من هنا أو هناك، الزمن انقلب، كلٌ يسعى إلى مصلحته، إلى تحسين أحواله، فى زيارته الثانية قال الخال إنه لن يمكث طويلا، إنما يطلب منه التفكير فى البنتين، الرحلة الطويلة التى تنتظرهما، متطلباتهما أثناء الدراسة وعند الزواج، ألن يجىء يوم يشرع فى تجهيز كل منهما؟ ليس هذا ببعيد، حتى بعد زواجهما سيكون عليه مساعدتهما، هل يرغب السفر إلى بلد نفطى؛ حيث يصبح هو فى ناحية وهم فى ناحية؟ يرجع فى الأجازات كالغريب، ويا عالم ماذا سيجرى لهم فى غيبته، دخله من هذه الشركة، يعادل ما يمكن أن يحصل عليه من عمله متغربا، لماذا لا يفكر بمنطق الواقع؟

قال إن خال امرأته أوجز ونصح، غير أنه عند الانصراف لمح بوعد خفى، لم يغب عنه، أدركه، بدا وكأنه يحذره من مقتبل ورجاله ومايمكنهم إلحاقه به، لم يخف أنه ينذر ولا يشفق.

قال العقيد مهندس المتقاعد، معلقا بعد أن فرغ من نبأ ما جرى له، برغم هذا كله شعر أنه قوى، أما إلحاحهم عليه فعن ضعف قال إنه محق، فعلا.. إنهم يخشونه، نعم.. لهم نفوذ، إلا أنهم يرتعدون خوفا إلا ما حاد أحدهم أو شذ.

قاطعه، لكنه لم يكن منهم.

رفع يده، قال بهدوء: أيا كان الأمر، فقد دخلت الدائرة ولو بقدر، وعند خروجك أصبحت خطرا عليهم، يجهلون نواياك، لا يعرفون على أى أمور وقفت؛ لذا يسعون إليك.

رجاه أن يتصل به، أن يجيء إليه، أن يطرق بابه فى أى وقت، شد الرجل على يديه. لسبب خفى قلق عليه، ربما لاضطرابه البادى، لتهدل كتفيه، ربما لأنه يود ويتمنى منه الثبات.

بعد أربعة أيام اتصل به، قال إنه لا يدرى كيف عرفوا الطريق إلى أمه، فوجئ بها تطالبه باتباع العقل، بالتفكير فى ابنتيه، فى المستقبل الصعب، فى الظروف، ما كان يكفى الأمس لا يصلح لليوم، ولن يوازى قشرة بصلة غداً، هل يظن نفسه وصيًا، أو مصلحًا للكون؟

قال إنه يظن تدخل امرأته، لم تكلمه مباشرة، إنما دفعت أمه، ، أصغى إلى صوته عبر الهاتف، ترسَّخ قلقه، أدرك الاهتزازة الخفية فى صوته، فى نبراته مراجعة دائمة، لم يتخذ بعد قراره النهائى مع أنه فى خضم اللجة، كان العميد الشهيد الرفاعى يقول لرجاله: عند الخطر يجب اتخاذ قرار، من المهم أن يكون صوابا، سليما، ولكن الأهم ضرورة الحسم، قرار يتبعه الكل، أما التردد فهلاك مبين.

الرجل لم يقر أمره بعد، صحيح أنه جاهز، وأعلن واستقال، لكن الضغوط التى لا تبين، أشد وطأة من الجلية، الواضحة، لا يدرى ما يمكن أن يفعله من أجله، فقط.. المؤازرة، ولكن.. هل تجدى فى هذا العصر؟ إنه منقطع عنه منذ فترة.. ويخشى السؤال عنه فيأتيه مالا يحب سماعه، بعد انصراف الحاج بقى فى الحديقة، مشمولا بالوحدة، حاول رده برقة، إلا أن الرجل لم يخف ضيقه..

«على أى حال فكر ورد على، لكن. . ليس بعد أسبوع. . ».

هنا أوضح حاسما:

ـ «يا حاج، ، لا أسبوع ولا أسبوعين. . أنت لن تنفعنى، وأنا لن أنفعك. . ».

لا يدرى كم بقى ساكنًا بطالاً، يخطو زمنه بطيئًا أرسى هذا عنده ثقلا وكدراً، يمضى إلى الطرقات، ما أبغض المشى بلا هدف، ما أصعب تمام القدرة، امتلاك جل الوقت، مع افتقاد ما يجب عمله، قال لنفسه إنه بعد هذا العمر كله اكتشف جهله بالمدينة، علل مشيه برغبة التعرف إليها، حاول الابتعاد عن منطقة الوسط المطروقة، شارع طلعت حرب، ٢٦ يوليو، قصر النيل، تبدو المنطقة بؤرة تدفق لانهائى، يمضى شرقا حيث بقايا حديقة الأزبكية، الأشجار العتيقة المتبقية، جزر الخضرة النحيلة، عند ميدان العتبة ينتابه يقين أنه ينتقل إلى زمن متبق من قديم غرب وأفل، يتمهل مرغما، زحام، تيه يغمر الملامح، باعة قادمون من الجنوب يواجهون المدينة بافتعال الشطارة، تتوالى الطرقات الخلفية، الضيقة، ما من ملامح معمارية، العتاقة فقط سمة مشتركة، محسوسة، غير منظورة، سوق بأكمله تخصص فى بيع ماكينات الخياطة القديمة، أجزائها، ولوازمها، بالقرب سوق للأغلاق: أقفال المكاتب، البيوت، الأبواب الفخمة، البوابات الصغيرة، تأمل طويلا متجرا يعرض خزائن حديدية ضخمة، قديمة الطراز، حاول أن يتخيل ما احتوته، ما ستضمه، حيره مقهى يعلق إعلانات مضى عليها عشرات السنين، أنواع مختلفة

من السجائر، وزجاجات الويسكى، يبدو شارع كلوت بك رماديا، هرما، مختلط الملامح والواجهات، يعبره القادمون إلى المدينة حديثا، الفنادق البالية، والأرصفة المتآكلة والورش الصغيرة، منطقة وهم وانتظار، وربما ضياع وفقد، يدفع بنفسه عبر الطرقات المتعرجة، يحاول أن يرى، راغبًا فى التواصل، متأهبا لرصد التفصيل.

عندما خرج من شارع باب البحر، رسا فى ميدان باب الشعرية، أوى إلى مقهى فسيح، أنس به، رشف شايا ثقيلا، إلا أنه لم يواصل تدخين النرجيلة، لم يعتدها، جاءه الرجل المتقدم فى العمر، سأله عما إذا كان فى حاجة إلى تمباك أهدأ، كله موجود، هز رأسه شاكرًا، أبدى الرجل عناية وأظهر له ودا، ربما لأنه غريب عن المقهى، وعندما أخرج حافظته الجلدية قال الرجل، خلى يا بك.

قام ساعيا إلى ميدان الظاهر، إلى المسجد القديم المهمل، إلى ميدان السكاكينى، تفحص زخارف القصر العتيق، الرمادى، المثقل بالغبار، واصل إلى ميدان الجيش، فى اليوم التالى انثنى إلى شارع الحسينية، مال إلى ضجيجه الحميمى، لم يستطع رؤيته إلا عابراً، فما من معارف له هنا، إذا أوى إلى مقهى من هذه المقاهى الصغيرة فستقلقه النظرات، انطواؤها على الريبة، على الشكوك، هذا واقع قائم حوله، فى متناوله، لكنه بعيد عنه بالحضور والتكوين، فى أيام متتابعة قصد امتداد الطريق، عبر سور القاهرة القديم، ارتقى درجاته الحجرية، قرأ ما كتبه جند الفرنساوية،

ورأى ما تبقى من كتابة هيروغليفية على الأحجار المنتزعة من مقارها الأولى، المعابد، أهرامات، قصور مندثرة، لاشىء يبقى وما من أمر ثبت على حال، حتى الجماد الذى استعان به القدماء لقهر العدم.

فى تجواله رأى قصوراً عتيقة وقد أصبحت مدارس، أو إدارات حكومية، هل ظن أصحابها يوما أنها ستؤول إلى ما آلت إليه، ما من بناء بقى على حاله، حتى الأهرام، لها قدر معلوم، ويوم آت، فلماذا تتقطع روحه حسرات على زمن عاشه وانقضى؟ ربما لأن المتاح أمام القدر البشرى زمن واحد، والوقت عزيز، تسديده صعب.

عندما جاز مدخل جامع الأقمر أخذ بتواريه، وانكماشه، مدى ما ينطق به رخامه من حزن، وعندما توسط قبة قلاوون تضاءل أمام رهبة المكان وسموقه، وما يحتويه من جهد إنسانى لمغالبة الأبدية، كيف تأخر عن رؤيته هذه الأعوام كلها؟ لام نفسه، لماذا لم يصحب ابنه وبناته لزيارة هذا النصب؟ والله هذا تقصير.

تمتزج مشاعر شتى داخله كما تتداخل الأضواء الملونة التى تنفذ بقدر عبر الزجاج الملون المعشق بالجص، ولده هناك، سافر، اغترب، لم ير هذا كله، أى تقصير؟ لو أنه بصحبته، لأفضى إليه بخواطره، بما يجول عنده، على مهل خطا تجاه المحراب.

فوجئ..

ثمة آخرون فى العتمة، أجنبى وأجنبية، كانا متضامين، متعانقين، تلفهما رغبة مغلية، كأن ماء باردا غمره، أو قبضة

صدمته، لم يدر كيف يتصرف؟ إلا أنه أسرع، لفظ نعوتا قاسية، هنا، أليس للمكان حرمته؟ كان الحارس عجوزا، لوجهه تيه، وغياب. . صاح فيه. .

ـ «ما يجرى بالداخل عيب. . ».

رفع الرجل عينين قديمتين، كأنه لا يراه، صاح مرة أخرى. .

ـ هل رأيت ما يجرى فى داخل القبة؟

قام الرجل متمهلا حتى واجهه تماما فوجئ به يقول. .

ـ « وهل رأيت ما يجرى خارج القبة؟».

عاد إلى صمته، قال أحد المارة وكان يتابع مع آخرين توقفوا:

ـ «سبحان الله! منذ أن جرى له ما جرى ولا يعنيه شىء. . ».

قال آخر:

ـ «تصور. . عمره كله لا يطيق ملامسة أحد لجدران القبة».

قال ثالث:

ـ «ماذا جرى لك يا عم عاشور. . سبحان مغير الأحوال. . ».

أوغل فى الطريق مبتعدا، غاضبا، بعد الخطو استعاد هدوء المكان الرخيم والعناق فانبعثت داخله استثارة حتى أنه خجل لما مر به، ماذا أيتمنى مثل ذلك؟ عيب!!

دفع بنفسه عبر حوارى الجمالية، أصر ألا يستفسر عن مخارج الأزقة، والحوارى المؤدية، وصل إلى الدَّراسة، عبر إلى طريق

صلاح سالم السريع، معسكرات الأمن المركزى، ثكنات الجيش، جاءها يوما، يذكر فراغات ما بين المبانى، ساحات الوقوف، المكاتب فى الغرف الخشبية، الحرص على المظهر النظيف، يهدأ عنفوان المدينة ويخف اضطرامها هنا، يهن صخبها حتى يتلاشى عند المقابر.

أليست مقابر الشهداء قريبة؟

إلى الأمام مباشرة، ثم الانثناء، يمينا، عندما جاءها من قبل كان راكبا، لم يدقق ملامح الطريق، كان راحلا بفكره إلى أحد ضباطه، شيعه حتى الرقاد الأخير، صحب الجثمان من لسان بور توفيق إلى المستشفى، إلى المثوى النهائى، نزل إحدى هذه الحفر، . . وسدها بيديه، خلع حذاءه وسجاه، رغم تعايشه مع الموت فإن تأثراً طاله وغمًا، قرأ فاتحة الكتاب، وسورة يس، مكث غير بعيد عن الشواهد الرخامية، يحمل كل منها اسماً ورتبة وتاريخين، الأول للبداية، والثانى للنهاية.

أوصى الخفير بشراء قلل فخارية، سبع لصفها فى الطريق، وإضافة عطر الزهر إلى الماء، رجاه مداومة العناية، والاتصال به كلما تطلب الأمر نفقة، أى قرش سينفقه، سيلقى مقابله قرشين.

عندما خطا خارجا لقى رائحة بعثت عنده حضور الصحراء الممتدة الموحشة، كأن ما يحيطه رمال بلا حد، مع أن الأرض من حجارة والعتبات رخامية، بدا المكان خاليًا، يفيض بالصمت الأبدى، تذكر قولاً بعيًدا لم يدر من قائله ولا يذكر متى سمعه أو قرأه: «جيران لكن لا يتزاورون».

سعى إلى القلعة، الجدران شيدت لتحجب، لتمنع، مصمتة، مشرفة، مهيمنة، كأنه خرج من زمنه المعهود، من وقته، أدرك أنه مفتقد لمعارفه، ناء عمن أحب، عندما صحب ابنه فى صغره عامله كصاحب، يردد قول والده إذا كبر ابنك خاويه، وها هو فى الكبر ذاته، غير أن ولده بعيد، بعيد. عندما اجتاز بوابة المتحف الحربى لم ينتبه إليه جنديا الحراسة، انتبه إلى أنه رفع يده بحكم العادة القديمة التى لم تعد من حقه، عندما كان يرد التحية العسكرية.

أبرز بطاقة المحارب المتقاعد فقام الباشجاويش محييا، ليست تحية مشدودة، محددة، إنما تأدبًا منه ومراعاة، ابتسم له، قال إن العميد زهدى انتقل من المتحف ولا يعرف إلى أين؟

أدركته خمدة؛ لأنه لن يلتقى بصاحب خدم معه، ولأن معلوماته بدأت تبلى، أصبح خارج البنية، بعيدًا عن النظام!

اعتاد إذا لقى نفسه قريبا أن يعرج على المقابر، يستوثق سلامة الأوانى الفخارية، وامتلاءها بالماء المعطر، يتودد إلى الحارس مقدد الوجه، تسأله امرأته بعد عودته..

ـ أين كنت؟

كيف أمضيت الوقت؟

يقول إنه كان بصحبة بعض رجال الأعمال، إنه يدرس مشروعا تجاريا، ربما شارك فيه!

تصمت، دائما يحدثها عن مشاريع يدرسها، لا يفصح عن كنهها، يبتسم داخله، ربما تظن أن مسا أدركه، أنه مال فى هذه

السن إلى امرأة أخرى، ألا يحدث ذلك ممن تقدم بهم العمر، أو تضخضحت بهم الصحة، فما البال وعنفوانه مازال مكتملا.

عندما سأله زوج ابنته عما يشغله، قال إنه يدرس مشروعا كبيرا عرضه عليه صاحب له، استفسر زوج الابنة، قال إنه يمت إلى السياحة، ثم عرج بالحديث مستفسرا عن بعض الضباط الكبار الذين يعمل معهم زوج ابنته.

كم دام تجواله فى المدينة لا يمكنه التحديد، غير أن الشوارع بعدحين باتت مستعصية عليه، فما طرقه مرة ومرتين لا يجد دافعا أو حماسا للسعى إليه مرة أخرى، باستثناء أماكن محدودة يهفو إليها، ويشرع فى المضى، فتعوقه صعوبة الانتقال من زحام وزهق.

إن خللا يسعى إلى كونه؟

يأرق ليلا، يقضى أوقاتا فى الفراش متقد الذهن، راحلا ما بين أيام الحرب وحيث يعيش ابنه، يصحو مبكرا مهما طال سهره، إلا أن تغيرا سرى، لم يعد ينصرف فى موعده القديم، لم يكن بعد تقاعده يطيق البقاء فى البيت، عند اقتراب الساعة التى كان يخرج فيها، يمضى إلى الجراج، يبدو قلقا، متعجلا إخراج السيارة، ينطلق بنفس السرعة، لكن . . إلى لا شىء، عند خروجه من منطقة البيت يدركه فراغ، إلى أى جهة، ماذا يفعل؟ جاب الطرقات الرئيسية، أوغل فى الجانبية، شهد المتاحف التى كان ينبغى له زيارتها منذ زمن، أوى إلى مقاه لا يعرف فيها أحدا، ولا ينتظر مجىء أحد.

وماذا بعد؟

إن ثقلا بدأ يحط داخله، رصد اقترابه عندما بدأ يتأخر قليلا عن الخروج فى موعده الصباحى، مع توالى الأيام تمدد الوقت، حتى جاء نهار شرع فى الذهاب إلى الحسين، أحب متابعة حركة الميدان، عاودته الرغبة فى الذهاب، إلا أنه تكاسل، تقاعس، أمضى اليوم فى البيت، حاول الابتعاد عن حركة امرأته، التوارى بعيدا حتى لا يعطلها و يضايقها، ذات صبح عرض عليها المساعدة، غير أنها ضحكت. . لم تعتد هذا منه، إذ يمضى لإعداد كوب شاى تلحق به، تطلب منه أن يستريح، لم يكن له موضع فى حركة البيت اليومية، انسحب إلى الشرفة الداخلية، فسيحة، فراغاتها محاطة بزجاج ملون، يمكنه رؤية ما بخارجها ويستعصى على الناظر إليه مشاهدته، يشب متابعا حركة الطريق، ما يستجد فى الشرفات، من ظهور امرأة تنشر الغسيل، أو شاب يرتدى قميصا، يتلفت متطلعا إلى لاشىء، أو رجل يظهر فجأة، ينظر بجدية ثم ينثنى داخلا، يصغى إلى المذياع الصغير القوى، هدية ابنته إليه، يدير المؤشر، لا يستقر عند محطة بعينها، إلا إذا أصغى إلى نشرة أخبار باللغة العربية أو الإنجليزية، يتوالى الصفير الغامض، الإشارات المتقطعة والموسيقى الشاحبة لبعد المسافات، تعاوده اللحظات المنقضية، طوابير التدريب، الليالى الباردة، الترقب، الفرح بالأجازات، قلق البعاد، يستعيد مقدمات هجوم تم أو اقتحاما شارك فيه، أو تربصا جويا، يسأل نفسه، هنا يعلو صوته، ينتقل من داخله إلى خارجه.

- «أحقا جرى ذلك؟».

يعجب مع أنه يلوم نفسه، لماذا؟ لماذا الدهشة؟ لماذا الروع؟ ألم ير تبدل النصب؟ البناء المشيد على بقايا البناء القديم، تبدل الأمر دوما، ما يظنه اللب الإنساني خالدا مخلدا سيبهت يوما ثم يتلاشى، ما نظنه مقيما سيرحل يوما، وما نعتقد فى بقائه سيفنى، حتى البطولات، والأمجاد والرسائل المنزلية، لو قرأ ذلك منذ أعوام لما اقتنع ولما صدق، لو أنه أصغى إليها من حميم لولى مبتعدا وشكك.

ما أوعر أن يعيش ذلك!

لكم تبدلت المعانى، واختلف مضمون القضايا، وتبادلت الجهات مواقعها، غير أنه لم يهن بعد، صحيح أن وحدة قاسية تطويه، تقذف به فى زمن مفترض، مباغت، يمت إلى آخرين ولا يدركه، فما أوعر الغربة! تبدو الصحف وكأنها تصدر فى بلد هاجر إليه، بعض ما يقرأه كان يثير عجبه واستنكاره بداية، لكن تكرارها أورثه تعبا وضنى، أحيانا تستفزه سطور ما فيشرع فى صياغة رد، أو توضيح، أو تعليق، غير أنه لايقدم، لا يكمل، ماذا بقى؟ حتى ما بدا يوما فى منزلة الرفعة والتقديس لم يعد بمنأى عن المس، العقيد المتقاعد لم يتصل به ولا يسعى إليه، فى آخر اتصال بدا مرتبكا، محرجا، قال إنه يتعرض لضغوط شتى، ثم غاب عنه، لم يود إحراجه.

أصعب الأوقات فى البيت، صمت ما بعد الغداء، اقتراب العصر ثم حلوله المتئد الأصفر، فيه توغل امرأته إلى أبعد نقطة

داخل ذاتها، تبدو مستسلمة لثقل غامض غير مرئى، إرهاق الزمن المنقضى. . ربما، ينوء بساعات العصر، حتى إذا دنا الأصيل تشتد وطأة الظلال داخل البيت، اقتراب المغيب يستنفره، يستنفر المحارب الذى كان فى أيام القتال يسمون هذه اللحظات آخر ضوء، يكتمل التأهب فى كافة المواقع، يتم دفع الكمائن إلى المواضع المحددة، المحتمل قرب العدو منها، يشتد الرصد، يقوى التأهب. .

يرتدى ملابسه، فى بدء الفترة اقترح على امرأته المضى إلى النادى، آثرت البقاء، قالت إنها سترى تمثيلية السابعة فى التليفزيون، قالت:

- اخرج لتفرج عن نفسك.

يعرف أنها ستتصل بالبنات، ستطمئن على حفيدها، هل تناول الرضعة؟ هل كانت شهيته جيدة اليوم؟ يخرج إلى الطريق وعليه كمدة، لو أدركه المرض يوما سيرغم على الرقاد والاستسلام للحظات آخر ضوء، يتمنى ألا يقابلها، ألا تلحق به مضطجعا أبدا، ألا تجىء النهاية متمهلة، معذبة، يتمنى أن يقضى فجأة، بغتة، أن يخطف خطفا، ألا يقعده العجز أبدا.

إذ يرى حمرة الشفق، يهفو إلى ولده، فى أى أرض يسعى الآن؟ على أى المرئيات تقع عيناه؟

فى تلك الأيام عرف الطريق إلى المقهى، بعد أفول آخر ضوء يستقر مشرفا على الميدان، مقهى إفرنجى يخلو من النرجيلات،

يحيطه سور منخفض، صفت عليه أصص ورود، في الصالة الداخلية المغطاة معظم زبائنه من أبناء المنطقة، يوما بعد يوم لاحظ أن الوجوه لا تتغير، بل إن البعض يجيء في توقيت يومى متقارب إن لم يكن هو ذاته، أحدهم عجوز يجلس وحيدا على مقربة منه، يرتدى حلة كاملة فى عز الليالى الحارة، ورباط عنق بهت لونه، كان وكيلاً لإحدى الوزارات، يعيش بمفرده، لو أن امرأته جرى لها مكروه، لو . . لاقدر الله، سيجيء مثله، مضموما، ضامر الحضور، يتناول العشاء هنا مثله، لا يقرب الأطباق بعد أن توضع أمامه، يبدو وكأنه غير منتبه، ثم يمد يده بينما يولى النظر بعيدا، يزحزح الطبق الرئيسى قليلا، يرفع الملعقة متمهلا، فى اتجاه مصدر الضوء، يمسحها بمنديل ورقى، على مهل يبدأ المضغ، إن شفتيه تمتدان إلى الأمام، متلاصقتان، تتحركان بسرعة، وعند البلع يتراجع بعنقه إلى الخلف، كأن شيئا يؤلم حلقه، يتوقف، يعود مرة أخرى، بين لحظة وأخرى يرفع الفوطة البيضاء ماسحا شفتيه، من حركتهما أدرك أنه ذو طاقم أسنانى صناعى، يجيء مرتين، الأولى للغداء والثانية للعشاء، لم يفكر من قبل فى ملاحظة الآكلين الشاربين على مقربة منه.

فى الجبهة بذل جهدا قصيا حتى يلم بمواعيد تناول الوجبات فى مواقع العدو، أولى ذلك اهتماما، بل رصد وراقب الوقت الذى يستغرقه التناول، لكم استطلع، وجمع الدقائق العسرة، لكم رصد وحلل، ومزق ما جمع، لكم أصغى إلى حوارات متبادلة بين ضباط المواقع، لكم أجهد نفسه، لكنه لم يرقب عامدا من هم على مقربة، لم يخدش حياتهم بفضوله، منذ سنوات قبض على

عميل خطير كان يسكن مباشرة فوق شقة واحد من زملائه، ضابط ممن خدموا طويلا فى المخابرات . .

قال له أحدهم مداعبا :

ـ كيف لم ينتبه كيف لم يلحظ؟

أجابه قائلا : إنه لم ينس ما تعلمه فى بداية الخدمة، ألا يرصد جارا أو صاحبا، ينثنى ليلوم نفسه.

لماذا يتابع رجلا عجوزا يأكل طعامه وحيدا، أليس فى الأمر قسوة؟ لكنه لا يريد به شرا، إن أمرا خفيا لا يمكنه تعيينه أو تحديده يواصل الدنو منه، يوشك أن يطبق عليه، وما تعلقه بالآخرين إلا محاولة للنفاذ، لتوسيع الرقعة المتاحة، حتى وإن اقتصرت الصلة على النظر من ناحية مع انتفاء المجاوبة أو توقعها.

مع بداية إحدى الأمسيات جاء شاب طويل عريض الكتفين، ينحنى إلى الأمام، عندما جىء إليه بطبق الخضار، وطبق الأرز، اتسعت حدقتاه، يصب المرق فوق الأرز، يرفع المعلقة إلى فمه، يمضغ بسرعة بينما تتحرك رأسه، بين الحين والحين يدفع بلسانه إلى ركن فمه فيبدو بروز مقبب، يتحفز . .

حاد ببصره عنه، يبدو منفرا، يعاود النظر خلسة، يرفع شفتيه العليا، تلامس أنفه، يضيق، يود لو قام، لو ضربه، لو وجه لكمة إليه، وعندما رآه يرفع الطبق ليصيب آخر قطرة مرق فوق حبات الأرز، أشفق فجأة عليه، يبدو جائعا، إنه عابر، تُرى . . إلى أين يقصد؟ ما وجهته؟ لام نفسه بسبب تلك الكراهية غير المبررة لماذا وهو لا يعرف حتى اسمه؟

لسبب ما استعاد ملامح ابنه صغيرا، كان لا يأكل إلا واقفا بينما تضج أمه، تشكو شحوب شهيته، تخشى الضمور، ألا يشب، ألا ينمو، تطالب الطبيب بدواء، الآن.. كبر الولد وراح يسعى فى العالم بعيدا، غريبا، يراه طفلا يحبو، أو صبيا يلهو، صور بعيدة ظن اندثارها، تلوح وتبرز من بين ثنايا الذاكرة المثقلة، يعجب.. يستعيد لحظة نائية جدا، صحب ابنه إلى الإسكندرية، كان الولد فى الخامسة أو السادسة.. ربما، لا يذكر على وجه الدقة، بل إن سبب ذهابهما إلى الإسكندرية غاب عنه تماما، اندثر، غير أنه يرى مشيهما فوق الرصيف المؤدى إلى أحد الشوارع الجانبية، كان يمسك بيد ابنه، يسبقه قليلا، لم يتنبه إلى العمود المعدنى الذى ينتهى بمصباح الإضاءة، يبدو أن الولد كان ينظر خلفه، كانت الصدمة شديدة حتى إنه صرخ جزعا، انحنى عليه، بدا الألم عميقا، غائرا، خلال اللحظات الأولى، أوشك البكاء أن ينفجر، لكنه فوجئ بولده يكظم ألمه، لم يشأ إزعاجه، لم يرغب فى تكديره، لم يرم تعكير صفوه، أو التنكيد عليه فى الرحلة التى بدأ خلالها سعيدا جدا لقربه هذه المدة من والده، لانفراده به، كان ذلك قبل أن تأخذه الدنيا، الغريب أنه على امتداد سنوات تالية، فى مصر، فى اليمن، فى بعض المهام التى خرج لتنفيذها، استعاد اللحظة، وفى كل مرة كان يبذل الجهد لينجو منها، ليواريها أعماق ذاكرته، كان تردد الألم داخله، استرجاعه أقسى من وقوعه لحظتها على ابنه، ماظن اندثاره يلوح ناصعا، كلما بعد العهد نصعت التفاصيل.

أنس بخلوته، بوحدته فى هذا المقهى، ولأنه يتردد فى أوقات معلومة؛ لذا صارت ملامحه معروفة لرواده، يحيونه، يومئون، يرد التحية بأحسن منها، إلا أنه يتحاشى دنو أحدهم من حواف عالمه، كأنه يكتشف الاستغراق والخلوة إلى الذات، لم يهدأ، لم يستكن طوال عمره، ولت مراحل محورها القتال، دراسته، الإعداد له، نقل الخبرات القديمة، التأهب له، خوضه، دفع الكيان الإنسانى إلى حافة الوجود وبدايات العدم، الجرأة، الرجولة، التقارب الإنسانى الحميم، تشظى الصمت، وتبدى الكينونات، فى أيام المقهى الأولى ضايقه تمهل الوقت، لم يشغله إلا متابعة حركة الطريق، ومتابعة رواد المقهى خفية، غير أن ضيقه خف بعد اعتياده تدخين النرجيلة، حضورها الصامت يؤنسه، ينفث الدخان متمهلا، أحيانا يتأمل المياه داخل الوعاء الزجاجى وفقفقاته عند سحبه الأنفاس، وتوهج الجمرات فوق التمباك، ربما ثمة حضور لا يدرك بالحس الإنسانى لهذه الأشياء، من يدرى.. ربما تحتوى وعيا غامضا يمكنها التخاطب فيما بينها، أن تسمع وترى، بدأت أوقاته تطول فى المقهى، إذ يلتقى فى الطريق بأحد معارفه، يسأله عن أحواله، يقول إنه مشغول بدراسة مشروع استثمارى، وعندما تستفسر امرأته عما يشغله، يقول إنه يدرس مشروعا جديدا، تصدير واستيراد!

أحيانا يشرع عند الصباح الباكر فى كتابة خطاب طويل إلى ولده المغترب يخبره عن أشياء شتى، يذكره بأمور ولت، وفى النهاية يؤكد لولده أنه يعفيه من الرد، يعرف أنه مشغول، لا يريد

تعطيله، إنما هو شعور قوى لمخاطبته، ومع ذلك فإذا سمح وقته فليرسل إليه بطاقة مصورة، مجرد أثر منه وطيف من رائحته.

أحيانا كان يتلقى مثل هذه البطاقة، بدون ظرف، سطورها مباحة، لا خصوصية لها، إنه دائم التنقل والترحال، وإذا أرسل خطابا يبدأه بقوله، آسف لأننى أكتب بسرعة فبعد قليل سأسافر إلى . . أثناء توحده بوقته يردد، ما أسرع انقضاء المدة.

يأسو، يترقرق حتى ليدنو من ضفاف البكاء، فى البداية كان يخشى أن يلحظه أحد، بعد فترة لم يعد يعبأ، إذ يستعيد حوارا ضامرا موجزا، جرى بينه وبين أحد المقاتلين فى لحظة حرجة، ربما يتوقف عند عبارة قيلت عرضا، ولم تلفت انتباهه وقت نطقها، يرددها بصوت مسموع، يقشعر إذ يستعيد لحظة نائية، كان يكتب، اقتربت منه ابنته، إنها أم الآن، وقتئذ كانت فى السابعة، اقتربت منه أثناء كتابته خطاب، لا يذكر لمن؟ عندما التفت أوشك سن القلم أن يلامس عينها اليسرى، بعد هذه السنوات الطوال يجزع، يغمض عينيه هربا من المخيلة والاحتمالات القديمة، ماذا لو . . تماما كما يجرى داخله عند استعادته لحظة اصطدام الولد بالعمود، لم يبل ألمه، لم يخف روعه، مع أن عمرا بأكمله ذهب، لكنه ـ دائما ـ يحاول الهروب من وعورة المخيلة، لكم رق لهذا الضابط الذى لقيه مصادفة أثناء مشيه بعد الغروب متجها إلى المقهى، صافحه، وعندما استفسر عن أخباره بكى، فقد ابنه الوحيد، لم ينجب غيره، انزلقت قدمه، اصطدمت بحافة الحمام، لم ينطق، أخبره الرجل عن ذكاء ولده، وتفوقه فى

المدرسة، وهذا النور الساطع المفاجئ الذى بدد عتمة القبر عند نزولهم لتمديد جثمان الصغير، القبر كله أشرقت فيه شمس خفية، صاح الحانوتى، الله أكبر! لا يحدث هذا إلا مع من اختارهم الخالق عز وجل أحباء له، فليهدأ، فليطمئن باله، لكن الفراق مر، كيف ينسى.. كيف؟

لم يدر أى كلمات ينطق ليهون، ليهدىء! يردد بينه وبين نفسه، لو جرى لى ما جرى له لجننت.

زاره الأب المكلوم مرتين، إذ يخبر عن ولده وما كان منه يتدفق محدثا، ثم يصمت فجأة، عندئذ يؤثر ألا يزعجه، ألا يخض سكينته، انقطع أكثر من شهرين، ثم جاءه ذات عشية، بدا مقلا فى حديثه، نحيلا، حزنه مقيم، ظن أن الزمن عمل عمله، ألا يلد كل شىء صغيرا ثم يكبر؟ عدا الحزن، فإنه يولد كبيرا ثم يتضاءل إلا أن حال صاحبه مغاير، ألمه مستقر ما بين الجلد والعصب، ما بين العظم والحس، دامى العينين، قام بعد صمت، راح، طالت غيبته، انقطع عنه، أدار قرص الهاتف مرات، ولم يأته إلا الرنين الأصم..

إن حزنا ثقيلا يهمى عليه، الأسباب مغايرة لكنها جمة، إن وهنا يتسلل إلى خباياه، إنه يعى ما يجرى، يحاول صده، دفعه يعرف أن أشد المخاطر وأوعرها ما يبدأ من الداخل، يحذر أن يجرى له ماالقيه هذا الضابط الذى مشى فى جنازته منذ يومين، رحمه الله، كان من أكفأ ضباط المدفعية، فوجئ، بوغت بخروجه من الخدمة، خلا الرجل نفسه، كتم، لم يحتمل، فكان ما بين

تقاعده ورحيله الأبدى عشرة أيام لا غير، فكأن مهمته لم تنته فى الجيش فقط، ولكن فى الحياة الدنيا، يخشى الانقطاع، مع بدء تقاعده قال إن حياة جديدة تبدأ، استنفر ما عنده، حاول الاندفاع بنفس الطاقة، إلا أنه كان كقطار شح مؤنةً، ويحاول قائده دفعه إلى مرحلة غير مقدرة، غير أن السرعة تقل شيئا فشيئا لنفاد الزاد، وفساد التكوين.

قابل عديدين ممن زاملوه، وخدموا معه هنا أو هناك، من سبقوه إلى التقاعد، أو ممن لحقوا به، منهم من بدأ عملا مغايرا ونجح بمقاييس الفترة، ومنهم من يحاول التعلق بعمل ما، فالأحوال ردية، ومنهم من ترك تراثه وهاجر إلى بلد آخر، وحضور مغاير، أما هو.. فمن قلة لم تتكيف، ليس عن عجز، فالقدرة عنده، وتوقد الذهن موفور، وحدة البصيرة مكتملة، غير أنه يصعب عليه الشطط عما هو عليه، أن يبدد تراثه، أيمضى ليعمل عند مقتبل هذا أو غيره؟ إنه ابن اللجة التى خبرها، وعرف أنواءها، ومقصد رياحها، وجاهد فيها طويلا، حتى لو أخرج منها، وأقصى عنها، لكم رثى لصاحبه الذى جاءه موزعا ممزقا، بين ما يجب أن يكون، وبين ماهو عليه فعلا، أحيانا يشعر براحة، يعتبر أن زواجه فضلا ومنة، أنجب مبكرا، كبر الأبناء، مضى كل إلى حياته، تحدثه امرأته عن مشاكل تعترض إحدى بناتها، لا يصغى، لا يستقصى، يطلب منها أن تدعها تدبر أمرها، فبعد انقضاء الفترة لن يوجد هو أو هى، غير أن اغتراب ولده نال منه وتمكن، أحيانا يقتحمه خاطر معذب، لن يراه مرة أخرى، حتى

لو لقيه لو جمعهما الوقت مرة أخرى، فالابن الذى سيراه غير الذى رباه وعرفه، أى أمور فقد؟ وأى خصال اكتسب؟ ربما بدلته الغربة تبديلا إن ساعات طوالا تمضى عليه فى المقهى، اكتسب عادة، هو الذى عاش دائما فى الأوضاع الاستثنائية بعيدا عن العادات اليومية، كان واقعه يتغير فى ديمومة لا تكف أبدا، إنه يعرف أمورا عديدة عن روادها الدائمين، بعضهم يسعى إليه، لم يعد يتجنبهم، غير أنه يصغى فى معظم الأحيان، كثيرا ما يشرد، فما يستعيده الآن أكثر مما يعيشه.

إنه يقرأ صفحات الوفيات بتدقيق، اعتاد إرسال برقيات العزاء أو يمضى لتشييع هذا الراحل أو ذاك، فى السرادقات يلتقى ببعض ممن زاملوه، أو يرى وزراء قدامى، أو عضوا من مجلس قيادة الثورة القديم، أما ذروة انفراده فعند ذهاب امرأته لزيارة إحدى البنات نهارا، كان يجول فى البيت، يعيد ترتيب بعض الأشياء، يتطلع من الشرفة، يرقب حركة الظل فوق واجهات البيوت.

يقترب من باب الشقة، يتطلع عبر العين السحرية الضيقة إلى السلم، يمضى وقت قبل أن يرى شخصا فى طريقه إلى الصعود، أو النزول، أو خارجا من المصعد، كان خلو الممر والباب المواجه الموصدر يثير عنده صورا شتى لأراض نائية مبسوطة، بلا حد، لكنها مدثرة بالظلال.

فى تلك الظهيرة رأى من خلال العين الزجاجية طفلة صغيرة، واقفة على الدرج، تشب على أطراف أصابعها، تضغط الجرس، تمضى لحظات، يفتح الباب، يرى ثلاث بنات، يعرف كبراهن، ربما فى الثالثة عشرة، يصل إليه صوت الطفلة الصغيرة..

ـ ممكن ألعب معكن؟

يخـرجن إليـهـا ، الكبـيـرة تطلب منهن الوقـوف فى الممـر ، شقيقاتها فى جهة ، والصغيرة فى مواجهتهن ، تقول إنها ستبدأ الدوران ، عليـهن البـدء مـعـهـا ، من تسـقط سـتـخـرج من اللعبة ، الطفلة الصغيرة تقفز فرحا ، يبدأن ، يدرن فى اتجاه واحد ، الكبـيـرة تفـرد ذراعيـهـا ، صغـراهنّ تلامس خصرها بأطراف أصابعها ، يفاجأ بالطفولة الكامنة فى كبراهن ، يلتقى بها فى المصـعـد ، صـامـتـة خـجلى ، لكنه يراها الآن أغزر طفولة ممن يصغرنها ، يستمر دوارهن ، لا يتوقفن ، الكبرى تترنح ، ولكنها تواصل ، الوسطى تسقط .

ـ اخرجى . .

تكرر الكبيرة :

ـ احذرن الوقوف ، من ستقف ، ستقع . .

تردد الشقيقة الوسطى :

ـ لو وقفت سأقع . .

ابنة الجيران صغراهن عمرا مستمرة ، دورانها هادئ تتساءل :

ـ فستانى بيطير؟

لا إجابة ، الكبيرة تشير إلى شقيقتها .

ـ أنت اتكأت على الحائط . . اخرجى . .

تنتقل إلى الأمام، إلى الوراء، ترفع يديها، تغطى عينيها، إذ تقترب من السلم يود فتح الباب، أن ينبهها إلى ما ينتظرها من خطورة لو سقطت فوق الدرج، يستعيد الحزن المقيم فى عينى ضابط سلاح الجو، أين راح؟ إلى أين سعى؟ لا يدرى . .

كبراهن تميل مستندة إلى الجدار، تنزل ببطء لتقعد بجوار شقيقتها الوسطى، تغيب عن مدى رؤيته عن الفتحة المستديرة الضيقة فى حجم القرش، لم تبق إلا ابنة الجيران، صغراهن، لم تتوقف، لم يبد التعب عليها، بل إنها تزيد سرعة دورانها أحيانا ثم تتمهل حتى يخيل إليه أنها ستكف، يود لو صفق لها، غير أنه لا يأتى أى حركة حتى لا يشعرن . .

وهذا نبأ الطوبجى

. . منذ تخرجه فى الكلية الحربية، عام ألف وتسعمائة واثنين وخمسين، لم يفارق سلاح المدفعية، إنه ابن ناس طيبين، لم يكن أبوه ميسورا إلى حد الثراء، ولا معسرا إلى حد الإملاق، كان مستورا، مقتصدا.

ورث عن والده العديد من الصفات، أهمها الرضا بالمقدور، والحرص على البعد عن أولاد الحرام، والاحتفاظ بمسافة بينه وبين الآخرين، لا تدنيه منهم إلى درجة التبسط المخل، ولا تقصيه عن الخلق حتى الوحشة والانقطاع.

إذا ذكره من عرفه، أو استعاد ملامحه من خدم معه، أو جاوره، فلا يعى منه إلا وجها بشوشا، لا تغيب عنه ظلال ابتسامة أبدا حتى عند الظروف الصعبة، أمضى سنوات عمره فى مراكز التدريب، يضع الخطط، ويشرف على تنفيذها، يشهد المناورات العسكرية الموسمية، ينضم أحيانا إلى لجنة المحكمين.

كان مسموع الكلمة، لرأيه احترام وموقع حسن، مضت سنواته على سداد وأمر جميل، وعندما أتم السادسة والعشرين، تكلم والداه معه فى أمر زواجه، حان الوقت ليتم نصف دينه، لاقى مقترحهما قبولا عنده، لم تمض أسابيع إلا كان يمضى بصحبة والديه لخطبة ابنة موظف قديم عمل زمنا مفتشا للرى، صاحب الوالد، ذى استقامة وسيرة حسنة.

فى الأسبوع الأول سألته عما إذا كان يجب عليها البقاء فى البيت أو الاستمرار فى الوظيفة، قال لها إن الأمر متروك لها، علقت منه فى الأسبوع الأول، بعد تمام مدة حملها أنجبت طفلة جميلة فرح بها أبوها فرحا جما، وفى الأعوام التالية أنجبت ابنتين أخريين، قالت إنها ودت دائما أن تأتى له بولد، ابتسم ملوحا بيده؛ يا شيخة.. البنات أحن على الأب.

بعد إنجاب الابنة الثالثة، نصح الطبيب المداوى بالكف، صحة الأم لن تحتمل، فتدبرا أمرهما، واحتاطا.

حياتهما لم يشبها كدر، لم يعكر صفوها طارئ سوء. إنما مضت فى هدوء، يمضى أجازته وأوقات فراغه بصحبة البنات، يقلب كراساتهن، ويسترجع دروسهن، إذا رجع مبكرا يمضى منتظرا صغراهن بعد انتهاء يومها الدراسى، لم يقبل بديلا أيام العطلات يبعده عن امرأته وأطفاله، عقب كل صلاة كان يرفع يديه بالدعاء، متمتما بشفتيه، ثم حدث بعد هزيمة يونيو عام ألف وتسعمائة وسبعة وستين، أن اقتضى عمله التردد مرات على جبهة القناة، كان له الرأى المسموع فيما يختص بتوزيع بطاريات

المدفعية، فى هذه الأيام لاحظ إرهاق امرأته البادى، كان عملها فى المنطقة التعليمية يقتضى منها الاستيقاظ مبكرا حتى تعد البنات لمدارسهن، وتتأكد من تناول الإفطار، ثم تهرول لتلحق بكشف التوقيع قبل رفعه، فى هذه السنة اقترح عليها أن تتقدم بأجازة طويلة بدون مرتب، أن تريح نفسها من هذا الجهد المضاعف، قالت بعد تردد: إن صحتها لاتسندها الآن، لكن الأحوال تزداد صعوبة، البنات فى حاجة إلى مصاريف، الشوط مازال أمامهن بعيدا، والعين يجب ألا تتوه عن المستقبل.

قال لها : يا ستى مستورة والحمد لله، المهم أنت!

بالفعل سوت أحوالها، تقاعدت، كانت أحيانا تشكو بعض الأوجاع، لكنها تكتم خشية إزعاجه، خاصة أن ما يبذله تضاعف، وبان عليه التعب، كان لا يخبرها بسفره إلى الجبهة إلا لحظة خروجه وأحيانا لا يفصح.

يقول إنه ماض إلى مهمة، سيغيب أياما، لم يكن يرتدى فى تلك الأيام إلا السترة الكاكى، لا يفرغ من مأمورية إلا ليبدأ أخرى، يمضى إلى أقصى النقاط المتقدمة، يدنو من مياه القناة، يقف فى مراصد الاستطلاع، هادئا، ثابتا، مستغرقا، لطيف الملامح، يحذره بعض الجند، قد تطاله نيران القناصة، إلا أنه يهز رأسه، لا يفارق وجهه التعبير الهادئ، حتى عند بدء القصف، أو الغارات الجوية، لا تتبدل أساريره أبدا.

يردد دائما لصحبه، لزملائه، لامرأته أحيانا، إنه لا يتمنى إلا حضور الحرب الفاصلة، أخشى ما يخشاه أن تقع هذه الحرب بعد

خروجه من الخدمة، لسنوات ست لم يكف عن الحركة، عن بذل المجهود.

أمضى أياما صعبة فى الشتاء، وشديدة القيظ صيفا فى مناطق نائية من الصحراء الغربية، والجبال الشرقية، بقاع لم تدوّن على الخرائط، لم تطأها أقدام بشر من قبل، حتى عتاة الأدلة.

شهد المناورات الكبرى، والمحدودة، والتدريبات، اختبر زوايا الإطلاق، وعاين موضوع انفجارات الدانات، سود أوراقا لا حصر لها، قاس المسافات، أسهم فى تصميم خطط، بعضها رئيسى، والآخر ثانوى، وأسهم فى تهيئة مسرح العمليات لتشكيلات شتى، شارك فى بحوث ومناقشات لاختيار أنواع القصف المناسب لتدمير المواقع المواجهة، لطالما غالب إعياءه، وجاهد حتى لا يلوح تعبه، أو تبدو عليه علامات ضيق بمحدثه، كان خفيض الصوت دائما، ميالا إلى الصمت، شحيح الكلمات، لكنه إذا تبنى وجهة نظر، أو دافع عن رأيه، فإنه يتدفق، إلا أنه يلزم ذات الوتيرة، كثيرا ما توقف بعد انتهاء اجتماع أو مناقشة، أو مناظرة، ويبدا شارد النظرة بعيدها، كان يفكر فى هذه المعركة التى طال الإعداد لها، لا يكف، لكنه يخشى أن تبدأ بعد خروجه.

إلا أن مخاوفه لم تتحقق، فى ظهر السبت، سادس أكتوبر، ألف وتسعمائة وثلاثة وسبعين، طابت نفسه، وانتابته مشاعر شتى، كان موقعه قريبا من غرفة العمليات الرئيسية، إلا أنه سعى إلى الخروج فى مهمة عبر خلالها قناة السويس، أمضى ليلة فى

مقر القيادة الميدانى للفرقة الثانية، وعندما قفل راجعا أخفى عمن يصحبه مدى تأثره، كان يردد دائما أن أقصى ما يتمناه المحارب خوض المعركة قبل غروب العمر، وقد شهد ما سعى من أجله دائما، ما أعد له دوما، ما بذل له الشباب والخدمة.

فى الأيام التالية لوقف إطلاق النار، كان مسئولا بشكل ما عن بعض الجوانب المتعلقة بالقوات المحاصرة فى الشرق، برغم دقة الموقف، وحرج الحالة، لم يفارقه ثباته، حتى وإن أبدى ملاحظة أثناء أجتماع أو مناقشة من الممكن تلمس قلق منها، فإنه يتبعها بابتسامة اعتادها من عمل معهم، إلا أن خدمته لم تدم طويلا بعد انتهاء الحرب، وتوقيع الاتفاقيات، كان داخله يقين خفى، غير مستند إلى معلومات دقيقة، أو استقراءات، أو تحليلات، أن ما كان لن يكون، وأن ما سيكون ليس ما كان، إن رياحا جديدة تهب، وإن تغييرا سيقع، التيار شديد، يحيد بعيدا، بعد سنة من انتهاء الحرب، وعندما حان موعد ترقيته، رقى فعلا إلى رتبة لواء، لكن صحب ذلك إحالته إلى التقاعد، مثل هذا يجىء مفاجئا، مباغتا، وإن كان متوقعا فى نفس الوقت.

بدا هادئا لحظة تلقيه النبأ العظيم، ولكن داخله تصدع، وبقى فؤاده غير مطاوع، رجع إلى البيت، البنات ينتظرنه، لا يتناولن طعامهن إلا إذا جاء، أما إذا طرأ أمر مفاجئ يضطره إلى الغيبة، فإنه يتصل بهن، يخبرهن، بعد الغداء انتقل إلى غرفة الجلوس، هذا ما جرت به العادة، كبرى البنات أصرت على إعداد الشاى، أصغى إليهن، إلى امرأته مبتسما، ملامحه هادئة، لكن فيما بعد

قالت امرأته إنه كان يتطلع إليهن، كأنه فى الجانب الآخر، تطلع طويلا إلى البنات، ثلاثتهن تقعدن فوق الأريكة، فى مواجهته، متضامات، متقاربات، هل كان يحاول النفاذ عبر الحجب؟ ربما، قرأت امرأته فى أوراقه تساؤلا قلقا، أين ستكون كل منهن بعد عشر، بعد عشرين سنة؟ الأعوام القادمة تبدو كطريق لا تلوح معالمه للسارى، أهذا ما جال بخاطره فى تلك اللحظات؟ ما من إجابة، فلن يحيط أحد بذلك علما.

تابع حوارهن، بهجتهن، حتى هذه اللحظات لم يخبرهن، لم يشأ التكدير عليهن، ربما ظنن سوءا.

قال إنه سينام قليلا، تتقدمه امرأته إلى غرفة النوم، تبدو راضية، خاصة بعد الأوقات التى يلتئم فيها الشمل، إنه يرتب ثيابه، يزيح الملابس المدنية داخل الصوان، يفصل بيده ما بين الملابس العسكرية والمدنية، تطول وقفته، لا يحيد بنظره عن العلامات، يبدأ تساؤل امرأته خافتا كرجع الصدى الذى يزداد وضوحا..

ـ مالك.. جرت حاجة؟

حاشية ٢

كلما لقيت صاحبى الذى تجاوز الخمسين، قال لى :

ـ لا ألتقى بزملائى القدامى الآن إلا فى الجنازات . .

عرفته زمن الحرب، ضابطا بقوات الصاعقة، قادرا، عنده كفاية، وفيض وطنى، علّم الكثيرين، خاصة فنون القتال خلف الخطوط، ولسنوات طويلة لم يكف، ولم يهدأ، واشتهرت عنه أمور، فمن ذلك : عبوره إلى الشاطئ الشرقى لخليج السويس أول أيام الحرب، وبقاؤه بعد انتهاء مهمته الأصلية، قال لى : إنه اخترع لنفسه مهمة، وقطع طريق الإمدادات القادم من الجنوب باتجاه مواقع الجيش الثالث، حارب سبعة أيام، بالحد الأدنى من الزاد قبل أن يُجرح، ويُسحب إلى الغرب.

قابلته فى منتصف السبعينيات بعد إحالته إلى التقاعد بشهر واحد، رأيته متحمسا، متفجرا بالتدفق الحى، أخبرنى عن مشروعات عديدة ينوى أن يجريها، قال إنه ينوى خوض لجة السوق، لكننى عندما لقيته بعد عام تقريبا، ودعوته إلى مقهاى

ناحية باب اللوق، أخبرنى أن السوق غير سليم، وأن معظم الشركات الجديدة تعمل فى التهريب، تهريب كل شىء لم يبق أمامه إلا مشروع إنشاء ورشة لإصلاح طلمبات الديزل، وراح يفصل لى ما نوى عمله، ثم غاب عنى، ولما مر عامان أو أكثر ولم أسمع عنه خبرا، ولم تبلغنى منه إشارة، سعيت أستقصى أثره، فعلمت ممن له به صلة أنه جمع سائر أمواله، وفض ما تبقى، وسافر، وأن آخر خطاب وصل منه إلى أهله، ينبئ فيه أنه أصبح مدربا للغطس فى أحد النوادى بجنوب فرنسا، فاتنى القول، أنه تدرب فترة فى سلاح البحرية على أعمال الضفادع البشرية، فخطر لى عندما سمعت النبأ، أنه ربما كان يدرب الآن بعضا ممن حاربهم يوما، أو من على صلة بهم، فسبحان مغير الأحوال ومدبر الأمور.

فيما تلا ذلك، مررت بظروف ليس هذا مجال تفصيلها، فالأمر ذاتى، دفين، فآثرت الانقطاع والتوحد، خاصة عمن عرفتهم زمن خوض الحرب، غير أن أحدهم شغلنى أياما ليست بالقليلة.

ذلك أننى فوجئت فى نهاية الثلث الأول من الليل بصوت يأتينى عبر الهاتف، بعيد، قصى، قادم من أغوار الأزمنة، أستعيده حتى الآن فأرى فيه من يستنجد بغير صراخ، من يسعى إلى المساعدة بدون عويل، قال إنه يطلبنى، لا يريد أكثر من خمس دقائق، إنه يعتذر لتعطيلى، يعرف أن وقتى ثمين.

قلت له إن وقتى متاح، وإننى أقدر على المجىء إليه للتو، لكننا اتفقنا على اللقاء فى اليوم التالى، انتحينا ركنا فى المقهى غير

بعيد، صعب على أمره، فلم تقع عينى عليه من قبل إلا وهو فى هيئة الإمارة، والقدرة، ما رأيته منه الوهن، والحيرة . . عرفته عند عملى فى الجبهة، وكان برتبة مقدم، له كلمة، ومنه إقدام، وأمره ثابت.

قال لى إن أحدهم غرر به، أضاعه . .

ـ كيف؟

قال إنه دعى إلى حفل استقبال بمناسبة تقاعد ضابط كبير ممن تتلمذ على أيديهم، ليته ما لبى، ليته ما ذهب.

ـ المهم، ماذا حدث؟

قال إنه التقى فى هذا الحفل بأكبر مقاولى البناء، طبعا هو فى غنى عن التعريف، معروف بثرائه، ونفوذه المالى والسياسى، تعرف به، وقال إنه سمع عنه، وقرأ فى الصحف ما قام به من أعمال، خاصة خلف خطوط العدو، إنه يدعوه للعمل معه فى إحدى شركاته، إن وظيفة كبيرة تنتظره، وراتبا مغريا، آن الأوان كى يجمع له قرشين، قدم إليه بطاقته، ورقم تليفونه الخاص جدا الذى لا يوجد إلا لدى كبار المسئولين، رجاه ألا يطلع عليه مخلوق، ليته لم يقف معه، ليته لم يقترب منه، بل ليته لم يذهب إلى هذا الحفل المشئوم.

المهم، ماذا جرى؟

طبعا عاد إلى البيت، يستعيد هيئة الرجل، جديته، بنظرة يفحص ما وصل إليه، حتى هذه الفترة لم يكوّن حاجة تقى

ولديه الشرور غير المتوقعة، ما لديه المرتب لا غير، لا أملاك، لا أراض، لا عائدات من أى مصدر آخر، من حقه أن يسلك وجهة مغايرة، يضمن دخلا معقولا يمكنه من الادخار، لم يشرح له الرجل طبيعة عمله الجديد، لكنه كان واضحا عندما قال له إن الأوان حل لكى يجمع له قرشين، ليته لم يصغ، ليته لم يتبعها.

قال إنه سعى، وسعى، حتى أحيل إلى التقاعد بناء على طلبه، ودع عمرا من الخدمة المتصلة، وإنه عندما مشى فى الطريق بعد أن خلع سترته وفترته كان حائرا، وكأنه افتقد وجهة أعتاد أن يقصدها مع مطلع كل شمس، فلما حيل بينه وبينها، أوشك أن يضل عن آماله الجسام، لولا . . لولا الطاقة الجديدة التى فتحها له الرجل، ولكن المصيبة سرعان ما لاحت.

قال إنه قصد باب الرجل فلقيه موصدا، فى البداية لم يصدق، ولكن عندما قابل سكرتير رئيس مجلس إدارة أكبر الشركات التى تحمل اسمه، عندما أصغى إلى ما قاله، اتسعت هوة تحته، قال له الرجل إن المقابلة ضرب من المستحيل، صحيح أن هذه الشركة ـ وغيرها ـ تحمل اسمه، لكنه لا يتردد على أى منها، ثمة من ينوب عنه فى إدارتها، إنه على مقربة باستمرار من القيادة السياسية، واللحظة من وقته لها ثمن، عندئذ أبرز رقم الهاتف الخاص، تأملها السكرتير، قال:

ـ «نمرة صحيحة، لكنها تغيرت، أرقام هواتفه تتغير كل ستة شهور . .».

طلع من مقر الشركة لا يكاد يبصر ما أمامه، لا يدرى كيف

عرف أن للرجل بيتا فى الجيزة، وبيتا فى الإسماعيلية، وبيتا فى الإسكندرية، واستراحة فى أسوان، وأخرى فى الواحات، عبثا حاول أن يقنع موظفى المكتب الرئيسى للبرق، لكنهم أبوا، فالرجل من الشخصيات التى لابد من تصريح خاص لإرسال برقية إليه، وعندما قبل موظف عجوز فى مكتب الموسكى الفرعى، تمنى لو عانقه، لكن البرقيات شيعت ولم يبد أى صدى، سعى إلى الصحف لينشر إعلانا يطلب فيه مقابلة الرجل، ولكن الصحف جميعها أبت، عند حد معين أدرك استحالة اللقاء، خاصة عندما أكد له السكرتير أنه تم إبلاغ سيادته باسمه، برغبته فى مقابلته، وكانت إجابته، أنه لا يعرفه!

ماذا يفعل، ماذا يفعل وفى رقبته أسرة، وراتبه التقاعدى محدود؟

أصغيت حائرا، كنت ألومه بينى وبين نفسى، غير أنى أبقيت ما عندى حبيس صدرى، فلم أظهره على أساريرى ولو من بعيد، فوجئت به يطلب مساعدتى، إننى صحفى، وعندى اتصالات، وما يطلبه مجرد عمل، أو السفر إلى أى بلد عربى.

لم أقل له إننى أمر فى ظروف لن تمكننى من مساعدته. ولم أشأ أن أبقى ذرة أمل عنده عالقة بجبهتى، انصرف منحنيا، ولم أسمع صوته، ولم أقابله، غير أن عبارته الأخيرة بقيت زمنا ترن فى سمعى.

ـ «خرب بيتى .. الله يخرب بيته».

فيما بعد استقصيت أحواله، فعرفت أنه عمل مدة شهور بإحدى شركات الأمن الخاصة التي بدأ ظهورها حديثا، وأنه استقال وسافر، كثيرون ممن عرفتهم سافروا إلى بلاد شتى، وبعض من عرفت لم يدر بمخيلته يوما أنه سيركب الطائرة ليرحل إلى بلد غريب، أو يخرج حتى من القاهرة، لكنها الظروف، والأوقات التي أتت بكل غريب، عجيب، ولكن الأغرب أن تأخذني الدهشة، أنسى دائما ما خبرته، أنه لا شيء يبقى على حاله..

وفيما يلى نبأ الخطّاط
الذى راج أمره فى الغربة

فى مفتتح العقد السابع كان له من العمر اثنا عشر عاما. إذ نمى إلى علمي ـ وهذا مؤكد ـ أنه ولد عام ألف وتسعمائة وثمانية وخمسين ميلادية، فى أسرة أحوالها معسرة، تسكن حجرة واحدة من الخشب المطلى بالجص فى بيت عتيق يقع عند ناصية زقاق يمكن للواقف فيه أن يرى مسجد ابن طولون. كان ذكيا لماحا، سريع الإجابة فيما يوجه إليه من أسئلة طوال سنوات دراسته، متقد الفؤاد بأحلام شتى، بعض معلميه تنبأوا له بمستقبل حسن فيما لو ثابر، وأتم الشوط، وتزود بالعدة.

لكن كما قيل: «تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن»، وكما قيل أيضا، «العين بصيرة واليد قصيرة»، ذلك أن الأب كان نجارا، فقيرا، أرزقيا، لاعمل دائم له، ولا مورد ثابت يتقوتون منه، يوم هنا، وآخر هناك، وثلاثة أو أربعة يقضيها بطالا، مع أنه مهر فى حرفته، وبرع فى حفر الأشكال المورقة على الخشب، إلا أن الحظ

خالف، والبخت مال، والزمن لم يساعد، أمر واحد شغل به، وتعلق، وسعى جاهدا إلى تحقيقه، بل لنقل إنه عقد العزم عليه، ألا وهو تعليم ولده هذا حتى التتمة، كذا إخوته الأربعة، الحق أن ابنه هذا كان تواقا إلى العلم، أثار إعجاب أساتذته، كثر ثناؤهم عليه، كما ذكر اسمه فى لوحة التفوق مرات، ومما أثار اهتمامهم، تميزه عن أقرانه بجمال خطه، وبراعته فى تنسيق الحروف وحفظ النسب، بعضهم أوكل إليه رسم لوحات عليها عبارات مثل، «وبشر الصابرين» و«ادخلوها بسلام آمنين» و«الصبر مفتاح الفرج»، إلى غير ذلك مما يعلق فى الغرف، وفى الحفلات الموسمية، كانت كراساته منمقة، مرتبة، نظيفة، خلوا من الأخطاء، وعندما كان يصحب والده إلى المسجد المهيب الفسيح القريب، اعتاد تأمل الحروف المورقة وتشابك الحروف، تلاقيها وتفرقها، تماسها وابتعادها، يود لو نقش مثلها، على ورق، على جص، وكثيرا ما استعاد فى خلوته بنفسه هذه الأشكال، وعند تخيلها كان يميل ببعض الحروف، فيغير من أوضاعها، وزواياها، وعند تجاوزه الثالثة عشرة أعجب به مدرس عجوز من معلمى الزمن القديم، اسمه سعد الله، كان يدنو من سن التقاعد، نحيل جدا، عويناته سميكة، وكانت يده اليمنى لاتفارق منشة مقبضها عاجى، حتى عند إمساكه الطباشير وخطه الدروس، كان طويل الصمت، بطىء الخطوة، ثقيل النظرة، طيب القلب، أهداه كتابا ضخما لم ير مثله عن الخط العربى، قلّب صفحاته، تأنى فى تأمل لوحاته، نقل منها، وعرف الرُقعة والنسخ، والكوفى، والبسط، والثلث، والحجازى، إلى غير ذلك، بعد أدائه امتحان شهادة

الإعدادية، لم يكن فى حاجة إلى انتظار النتيجة كى يقرر أمرا، ذات ليلة أفضى إلى والده بما نواه، بما عزم أمره عليه، فالظروف صعبة، والرزق شحيح، ، والزاد قليل، والشجار بين أمه وأبيه متكرر، وكثير، أفواه الأشقاء فى حاجة إلى قوت، حز فى نفسه رؤيتهم حفاة فى الحارة، أو متعلقة أبصارهم بنهاية الطريق فى انتظار عودة الأب بقليل من الطعام، تتخاطفه الأيدى الممتدة عادة إلى طبق واحد، مما يضطر والده إلى نهرهم، آمرا كلا منهم مراعاة البقية، عزم على البحث عن عمل يأتيه بما تيسر ليساعد الأب الذى تقدم فى العمر، وبان على ملامحه العجز ومرارة الأحوال، أطرق الرجل مغموما، كمدا، حجب عن نطقه رغبته فى إتمام ابنه للشوط حصوله على شهادة تمكنه من وظيفة تؤمنه، وتحوشه عن سؤال اللئيم، يجنبه المشاق التى عرفها، تنأى به عن ذل الحاجة، كأن الابن أدرك أفكار أبيه إذ شفت ملامحه المجهدة عما عنده، فأفضى إليه بعزمه ونيته على استكمال علمه، سيلتحق بمدرسة ليلية، سأل . . ودلوه على مدرسة خاصة ناحية الفجالة، الأمر ميسور والعزم صادق، فى هذه المدرسة موظفون صغار يطمحون إلى الحصول على الثانوية بمجموع مناسب، واجتياز عتبات الجامعة أملا فى تبديل الأحوال، ليس فى الأمر عيب، فالظروف حاكمة، اقترب الأب من ولده، بدا كالجمل الحمول إذ يحط بما ينوء به من ثقل بعد طول رحيل، بان فى عينيه ضعف وإعياء قديم، طلب منه أن يقسم، فتح المصحف على سورة يس، قربه، عندئذ هدأ بال الأب، واستفسر عن العمل الذى سيلتحق به الابن، قال إنه سيبحث عما يناسب ما يتقنه، الخط طبعا، قال

الأب: هذا عمل كريم، مضى إلى سعد الله أفندى، معلمه القديم، أبدى الرجل ترحيبا ومجاوبة، قال: أنت يا ولدى هدية لمن ستعمل معه، طلب مهلة يومين، بعد انقضائهما اصطحبه إلى أحد معارفه، مدير لإحدى شركات المطاحن، زوده ببطاقة إلى تاجر بالموسكى أبدى ودًا، وتحدث عبر الهاتف إلى شخص ما، طلب منه الذهاب إلى هذا العنوان صباح اليوم التالى، لم يكن المقر نائيا، دكان عتيق، زاخر بعبير الزمن المولى، عند نهاية شارع محمد على قرب ميدان العتبة، تعلو مدخله لوحة باهتة: «فنان الخط العربى» قال صاحب الدكان إن زمن الخط الجميل ينقضى، الحروف الجاهزة تكتسح السوق شيئا فشيئا، وكثيرون يطبعون بطاقاتهم الآن بالمطابع التى تُصف الحروف صفا، قال له: أنت صغير، والعمر أمامك مديد، ومهنتنا إلى زوال، لماذا تتعلق بها؟

قال إنه يريد أن يأكل عيشا حتى ينهى دراسته الثانوية ويلتحق بإحدى الكليات، ولأنه يعشق الخط ويتقنه فهذا أنسب الأحوال الموائمة، حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا، أبدى الرجل رضاءه؛ لأنه يريد تخفيف الحمل الثقيل عن أبيه، كما أعجب بمهارته خاصة فى كتابة الثلث والحجازى والمنسوب، والحسن والفائق، وقدرته على فهم أسرار الحروف ودلالاتها، قال الرجل إنه لا يعمل إلا فى الحلال، كتابة اللافتات، عناوين الكتب، والأختام الشرعية، لو أنه عمل فى الحرام لجنى ثروة وصار فى بحبوحة، فلما استفسر منه عما يعنيه بالحرام، قال إن صناعة الأختام جزء من مهنتنا، بل إنها الأكثر رواجا، يحدث أن يجىء

أحدهم، يطلب إعداد خاتم حكومى، والمقابل طبعا مقدار غير قليل من المال، غير أنه يأبى، لا يرفض فقط إنما ينهر ويطرد، حدث منذ عشرين عاما أن جاءه رجل تبدو عليه علامات اليسر والنعمة، طلب إعداد ختم عليه علامة النسر، اعتذر، فأخرج الرجل من جيبه عشر ورقات، كل واحدة بمائة جنيه، الألف فى ذلك الوقت تساوى مائة ألف الآن، أخرج المبلغ بسهولة، كأنه يتناول عشرة قروش، هززت رأسى، عندئذ تغير واكفهر، هدد وتوعد، لكننى قلت له، أوسع ما فى خيلك اركبه، لا يمكن أن تعمل لى حاجة لأن شكلك واقع فى الخطأ من شعر رأسك إلى أصابع قدميك، أنذرنى بإغلاق الدكان، لكنه مضى ولم يعد إلى ناحيتى، الغريب أنه مقدم على الخطأ ويهددنى بالنفوذ والسلطان، فيما بعد علمت أنه مضى إلى زميل لبى له طلبه، سامحه الله، مات منذ سنتين. . ماذا أخذ معه؟

اعتاد الحديث المتدفق المتصل، يبدو أنه لن يكف أبدا، يذكر أدق التفاصيل فجأة، بدون مقدمات يصمت، يكف، يبدأ سرحة طويلة، ينقطع عما يحيطه، يصير إلى عزلة محكمة، ربما ينهيها بقوله:

- ياما شفت. . أنتم لم تعرفوا شيئا، أما نحن فعشنا. . ».

يحكى له عن شارع محمد على هذا، عن توالى الأقواس الحجرية وتعاقبها بانتظام، عن نظافته، عربة الرش تجىء يوميا مرتين بعد كنسه، مرة أول النهار ومرة آخره، لم يكن مزدحما كما يراه الآن، كان الضوء شفافا لاتكسوه غبرة، يقف فى أيام الشتاء

بعد نزول المطر، فيرى الطريق ممتدا من ميدان العتبة وحتى القلعة، مستقيما، واضح القصد، وإلام يؤدى؟ الهواء شفاف حتى ليمكن رؤية الأصوات السارية، عربات قليلة، ومارة لاتعلو وجوههم الهموم، وعيون للنساء المكحولة الواسعة، تلخص وجودهن المختبئ كله تحت الملاءة اللف، والبرقع واليشمك اللذين يغطيان الوجه عدا العينين، يتوقف لحظة لينفث آهة حسرى على ما ولى وانقضى، نزول الليل، آه من قدوم الليل، اشتعال المصابيح والكلوبات، وخروج صبية العوالم، وقوفهم عند مداخل الحارات يضعون أمامهم صناديق الآلات الموسيقية الضخمة، متعددة الأشكال، ينتظرون نزول المطربات والراقصات والعازفين، تجيء السيارات، يعلو ضجيج الأصوات، كم من جميلات تطلعن إلى الطريق وهن ترتدين الفساتين المحلاة بالترتر والقصب، ملابس السهرة، تقضين الساعات اللائى تقمن خلالها بإحياء الأفراح والحفلات، هنا فى المدينة أو الأطراف، أو السفر إلى بلدان وقرى بعيدة، للشارع نجومه، منهم من يعظم الطلب عليهم، ومنهم من يقل، بعض الراقصات اللواتى عشن فيه عشقهن علية القوم، باشوات سعوا من أجل طلّة أو نظرة، لذهابهم ومجيئهم بصحبة عازفى الآلات الموسيقية شذى وأصداء، هنا كان الفن، وكانت الصحافة.

هل سمعت عن جريدة المؤيد؟

يمصمص شفتيه أسفا قبل أن تأتيه الإجابة، مساكين شباب هذه الأيام، ماذا تعلموا إذن فى المدارس؟ يصمت ثم يستفسر، ألم

تسمع عن الشيخ على يوسف؟ يتقدم مباشرة تجاهه، يمسك بذراعه، يخرج به إلى نهر الشارع، يشير إلى مبنى عتيق مقابل: هنا كان مكتبه، هنا مقر جريدة المؤيد، كانت أكبر وأوسع شهرة من الأهرام ولكن الزمان قلب!

يقول إن والده ـ رحمه ـ الله كان يرسم عناوينها، ويصيغ أختامها، أبى الشيخ على يوسف ـ عليه الرحمة كلها ـ أن يتعامل مع الأرمن، الأجانب، وخص والده، أول مصرى عمل فى الصنعة بكل ما يلزم الجريدة.

يشير إلى ناحية باب الخلق.

هناك كانت مجلة اللطائف، مقابلها مجلة اليوم، على مقربة جريدة السياسة، الناحية الأخرى مجلة المطرقة.

يتطلع ناحية دار الكتب.

يا سلام.. ياما قعدت فى المقهى هناك، واستمعت إلى حافظ إبراهيم، والشيخ عبد العزيز البشرى، وتوفيق دياب، ممن لا مثيل لهم ولا شبه فى هذا الزمن القفر.

يتوقف لحظة، ثم يتساءل:

هل شاهدت مصارعة الديوك؟ طبعا لا.. ولن تعرفها، هناك، بجوار دار الكتب كان أغنياء الأتراك يداعبون أطراف شواربهم الكثة وهم يتفرجون على مصارعة الديوك، بينما تشتعل حمية الرهان، راح هذا كله، ذهب ولن يعود.. انظر إلى الزحام، انظر إلى فقر الترام، وبؤس المعمار..

كان يفيض متحدثا عن تغير الضوء فى ساعات النهار المختلفة، وعن امتداده عبر الأيام الشتوية صوب القلعة، حيث تختتمه مآذن مسجد محمد على، عن روائح غامضة، محببة إلى نفسه، لا يمكنه تفسيرها أو نسبتها إلى مصدر بعينه، ربما رائحة ظلال البيوت المتداخلة، المتعانقة، أو البوابات العتيقة التى لم يلامسها ضوء الشمس، ربما رائحة انتظار الأحبة والعياق عند النواصى، وتطلع نظراتهم إلى النوافذ المستطيلة، المسدل عليها الستر، أو أبخرة أطعمة صُفت أطباقها وتنتظر الطاعمين، أو أصداء عبير أنثوى، ربما هذا كله، لايقدر على التحديد، على التعيين، لكن الرائحة تلك بقيت عنده تثير ماتثير، الآن وهنت، رقت، صحيح أنه قادر على رصدها، لم تمح تماما، غير أنها لم تعد تلك التى عرفها وهفا إليها، أنه يزداد انحناء، إنه يأسو، يبدو أشد بعدا، كأنه أقلع من الحيز المولى . .

إنه يجلس أمام الدكان، يتابع المارة، مضيقا عينيه من حين إلى آخر، يشرب الشاى الغامق، لم يعد يقف أمام لوحة منذ فترة، أو ينحنى ليخط حرفا، أسند العمل كله إليه، يقوم أحيانا ليلقى نظرة فيبدى ثناء أو ملاحظة، ثم يعود إلى المقعد المستدير راحلا بنظره الكليل عبر الطريق، عمره موزع عند المداخل العتيقة، وتحت البواكى العتيقة، وعند نواصى الأزقة التى يرتفع بعضها عن مستوى الطريق، يلتفت فجأة ليتحدث عن والده، يقول إن الخواجات الأرمن هم الذين أدخلوا هذه الصناعة، ظلت كارهم الخالص، لا يقترب منه أولاد البلد، يتوقف ليخبط صدره مرات

ثلاث، والدى أول من فتح الباب، أول مصرى يعمل فى الزنكوغراف، لم السوق من الخواجات، وتبعه كثيرون، ولولاه لظلت الصنعة فى أيدى الخواجات.

وإذ يستعيد والده يلوح فى عينيه حنين، أحيانا يحط على مقعده ممسكا كوب الشاى، لا يحيد بنظره، قد تمضى ساعات، لايتحرك، وربما سأله فجأة، هل سمعت عن المؤيد؟ أحيانا يطلب منه أن يترك ما في يده، مايشغله، يشد مقعدا صغيرا بدون مسند، يقول مبتسما، متحننا:

ـ يا بنى هون على نفسك، لا تتعب نظرك..

ثم يفيض فى الحديث، يضحك، وفجأة يأوى إلى صمت شديد، يبدو أنه نسى وجوده إلى جواره، أشد ما يزعجه زحام الطريق، خاصة إذا توقف المرور وارتفعت أبواق السيارات ورنت أجراس الترام وعلا صهيل من هنا أو نهيق من هناك، يلوذ برمادية الفراغ، بعتاقة المكان، يتمتم مكلوما:

ـ لم يكن الأمر هكذا، أبدا، أبدا..

فى عصر شتوى، غامق، يوحى بالكنة والتوق إلى ماض مبهم، بدا منحنيا، ملموما، كأنه تضاءل فجأة وانطوى، ثمة رياح باردة تثير أتربة، سعل مرة، مرتين، ثم مرات مقطعة، متباعدة، سعال غريب، أصداؤه متسلخة، اشتد ثم خفت، كصدى يذوب مبتعدا فى واد سحيق، ترك اللافتة التى يخط فوقها اسم المرشح، هذه بداية الموسم، يروج الحال عند بدء المنافسة واحتدامها،

لافتـات عـديدة مطلوبة، يضـيق بالسـرعـة فى عـمله هـذا، لكن للضـرورة أحكام، هذا موسم لا يتكرر إلا كل أربع سنوات مرة، إلا إذا أكـرمـهم الله بحل المجلس، وإجـراء انتـخـابات جـديدة، أحـيانـا يبتـسم سـاخـرا إذ يحط لافتـتين، الأولى لمرشح والثـانيـة لمنافسه، غير أن الابتسامة راحت عندما بدأ يصل إلى سمعه هذا السعال الغريب، وأشد ما يخيف . ، ماكان غير مألوف.

ـ مالك ؟ . . مابك؟ . .

لا يصـمـد للمسـة يده، إنه ثقـيل، هذا الثـقل التـام، ارتبك، اضطرب، إنها المرة الأولى التى يواجه فيها النهاية الحتمية، مرة واحـدة أثناء ركـوبه التـرام، صـرخت امـرأة، أقـبل اضطراب، وعندما تمكن من النفاذ عبر الأجسام الفضولية المتكأكئة، رأى جثمانا متمددا، بنطلونا بنيا وحذاء، قميصا مقطوعة أحد أزراره، قالوا إنه سقط فجأة، السكتة، غير أنه لم ير وجهه المجهول، هاهو الآن يقف مواجها الرجل الطيب، الرجل القديم، الذى كان! إنه مستسلم لنوم غامض، خلو من الأحلام، ملامحه تبدلت بعض الشىء، أطبق بعضها على بعض، وفى ثناياها ضمر الحنين إلى ما كان وما انزوى، قفل منثنيا إلى ما ولى، ثم هرع إلى الجيران، إلى المقهى، إلى دكان الآلات الموسيقية، بكاه كأنه يشيع أباه، ما يقرب من عامين لم يسمع منه كلمة فظة، لم يزجره، لم يقل له أف، لم يثقل عليه، بكى إذ استعاد عبارته عندما منحه العيدية :

ـ والله يا بنى انت زى ابنى . . كأنى خلفت على كبر . . ».

تحلق القوم حوله، قالوا له ما يقال فى مثل هذا الموقف، من

تأكيد لقضاء الله، وتذكيره بحتمية الموت، وأن كل من عليها فان، راحل، مودع، والرجل مضى فى هدوء، لم يرقد، لم يمرض، لم يصبح عبئا على غيره، إنه من المكرمين، رحل فى لمحة . .

لم يفارقه حتى مواراته الثرى، عاد إلى المحل لا يدرى ما يفعل، كان الرجل وحيدا، عاش بمفرده، لم يسمعه يتحدث عن قريب أو صاحب حميم، إنه يقف على حدود مرحلة مجهولة من الطريق، لا يدرى ماذا سيأتى به الغد؟ كيف ستمضى الأمور؟ وحتى يدبر حاله استقصى من الجيران عن ديون الراحل، وما من دين إلا حساب مقهى التجارة المجاور، ، أربعة جنيهات وسبعون قرشا، قلب الأوراق التى عثر عليها فى الدرج المقفل، عله يجد كمبيالة ما، أو إيصالا يستحق السداد، لم يعثر إلا على ثلاثة أختام بالية، أحدها باسم حسن نشأت باشا رئيس الديوان الملكى، فى الأيام التالية أتم كافة ما اتفق على إتمامه من لافتات انتخابية، نصحه والده باستشارة أهل العلم بما سيكون عليه الدكان، غير أن الأمر لم يطل كثيرا، صباح الخميس المتمم مرور خمسة عشر يوما على تمام أجله، ظهر رجل تجاوز الخمسين، بدا قاسيا، ينوى الأذى، قال إنه من أقارب المرحوم، أبدى الإثباتات الشرعية وأظهر الحجج القانونية، تساءل: بأى حق يقف ويدير المحل؟ من الممكن اللجوء إلى الشرطة لوضع الأمور فى نصابها، لكنه يبدى النصيحة لوجه الله خالصة، أن يمضى إلى حالة، أن يشوف رزقه بعيدا، وإكراما للمرحوم لن يطالبه بما ربحه فى الأيام المنقضية، فارق الدكان بقلب موجع، وخاطر كسير، مرددا:

ـ يا عامل الخير . . يا عامل الشر!!

لم يبد له الشارع أطول مما بدا له ذلك اليوم، وعندما دنا من ميدان العتبة، ولاحت سماء نائية، وغمامات متناثرة، عمه خواء، فارق عمله الذى أحبه، الرجل الطيب خلت منه الدنيا، حتى عدته لم يأخذها، فرشه وأقلامه، مضى متمهلا فى الطريق الخلفى لمبنى المطافئ، أوى إلى مقهى مزدحم رواده سمر الوجوه، نوبيون، زحام، ضجيج، غير أن وحدته لم تتبدد، تضاعفت، منذ هذه اللحظات بدأ انحطاط أمره، وعكس حاله، ودنوه من بيد تؤدي إلى مجهول لا يعرفه، فى الأيام التالية طرق أبوابا شتى، أحد معارف والده عرض عليه الوقوف بمطعم ناحية السيدة زينب، عمل بسيط لا يقتضى مهارة، مجرد حشو الأرغفة بالفول أو الطعمية، لكنه أبى، خشى أن يأخذه بعيدا عما أتقنه، قال له الراحل الكريم إن الخطاط لابد أن يمرن أصابعه باستمرار، وإلا أصبح الأمر صعبا، كان قد ادخر بضعة جنيهات، اشترى ورقا سميكا، وورقا مذهبا، وآخر ملونا، فوق سطح البيت بدأ يقعد فى الشمس، على مقربة منه دواجن تلتقط من الحب ماتيسر، أصوات الطريق تبدو بعيدة كأنها تأتيه من واقع آخر، بداية يحدد الحروف الغليظة بالقلم الرصاص، ثم يقص الورق المذهب، يلصقه، حتى إذا فرغ ينظر مرتاحا، راضيا، آية قرآنية كريمة، إذ يتم اثنتين أو ثلاثا، يطوف على المتاجر بما أتمه، على المقاهى، غير أن البيع صعب، لم يدرك أحد ممن يعرض عليهم الفروق بين خطوطه واللوحات الأخرى الجاهزة، بل أبدى بعضهم استخفافا، بعد أخذ ورد يسمع تكرار العبارة ذاتها «الله يسهل لك» كأنه يبغى صدقة، كأنه يطلب منة، حتى إذا ما تم بيع لوحة

يجد ربحه ضئيلا، أثناء تجواله لقى رزقا، إذ مر بورشة قرب القلعة تصنع عربات اليد، اتفق مع صاحبها على تزيين عربتين، الأولى لبيع الفاكهة والأخرى عالية كالهودج، خطَّ أدعية، وآيات قرآنية، ورسم زهورا، ودوائر متداخلة، أبدى المعلم إعجابه، وتمنى لو أن الحال كالزمن القديم، كان العمل لايتوقف، في كل أسبوع عربة أو عربتين على الأقل، أما الآن فالأحوال عسرة، قل الطلب على العربات الجديدة، ولولا إصلاحهم قديمها لأغلقت الورشة منذ زمن، لم يتوقف عن قطع شوارع القاهرة وحواريها حاملا لوحاته، مر بشارع محمد على، من الرصيف المقابل وقف غير مصدق، سرعان ما بدا ينز حسرة، تبددت ملامح الدكان تماما، فكأنه لم يفتح يوما لخط الكلمات أو رسم اللوحات، تعلوه لوحة: «مينى ماركت». أما فى ذات الموضع الذى كان يخلو فيه الرجل الطيب فرأى ثلاجة بيضاء، على جوانبها ملصقات شتى، حيث وقف وانحنى واندمج تقف امرأة شابة، من هى؟ من تكون؟ خطر له عبور الطريق، أن يعرض عليها لوحة، لكنه أقصى الخاطر ولم يبادر، من هؤلاء الذين قدموا من المجهول ليرثوا، ليبدلوا ما انقضى؟ أى درجة قرابة تربطهم بالراحل؟ لم يسمع منه عنهم، يتحرك خطوات مبتعدا، يلتفت مرة أخرى، كأنه لم يمض أياما كوامل هنا، كأنه لم يقض سنة وعدة شهور يصحبه الطيب، الأمير، ابن الزمن العتيق، لكم حنا عليه وأثنى به، كأنه لم يكن، وكأنه هو لم يعمل هنا ولم يصغ ولم يتعرف على جهاد الأب لانتزاع الصنعة من أيدى الأرمن، مايراه عند الجانب الآخر لا صلة تربطه به، لا أثر للعلاقة، اتئد فى مشيه، إنه

يتعرف على ذلك المعنى المبهم الغامض، يدركه لأول مرة، إنه انقضاء ما انقضى، تمام مرحلة لن تتكرر أبدا، لن يستعيدها أبدا، أطبق عليه أسى، وناء وجد.. تعب من اللف فى الطرقات فأوى إلى مقهى بباب اللوق، جاءه صاحب المقهى، كان قد اشترى منه لوحة علقها فى مواجهة النصبة، قال له إن ما يقوم به تضييع للجهد، للطاقة، سيدله على تاجر يبيع هذه اللوحات وغيرها، إنه من رواد المقهى، يجىء فى السابعة صباحًا، يدخن النرجيلة، ويشرب النعناع المغلى، إنه رجل صالح، يؤدى الفروض فى أوقاتها، يحج كل سنة مرة، قال له: تعالى يابنى غدا فى الحادية عشرة ليلا، إنه آخر زبون يقوم من هنا، تعال قابله واتفق معه وأرح نفسك من الهم!

فى النهار التالى لم يفارق البيت، رسم لوحتين أضافهما إلى ما عنده، قبل الموعد بوقت كاف سعى، هاهو الحاج يدخن النرجيلة، أنفاسه سريعة، قصيرة، لا يتيح للدخان فرصة المكوث فى صدره، يمسك سلسلة ذهبية، تأمل اللوحات بلا مبالاة، كان يشير بيده إشارات حادة، مقتضبة، فيحار، أيطلب منه أن يمضى بعيدا وكأنه يهشه هشا؛ أم يريد رؤية اللوحة التالية؟ ملامح وجهه تؤكد أنه مستمر فى رؤية اللوحات، عند رؤيته المستطيلة ذات الخلفية الزرقاء، أشار إليه أن يتراجع، تأملها قليلا ثم أشار بيده.

ـ كفى!

باختصار محض، مباشر، موجع:

ـ شوف يا بنى، كل هذا لاينفعنى..

المعلم صاحب المقهى الواقف خلف الحاج يغمز بعينه، يعض شفتيه، ما يعنى، اصبر، لا تتعجل، خفف ذلك من ضنكه، بعد لحظات قال الحاج، أنت ستجىء عندى إلى الدكان، سأعطيك الخام كله وأخبرك بما أريد، تروح بيتك، تنفذه، ثم ترجع إلىَّ، تأخذ عرقك وأكثر، المهم . . لا تغشنى.

صاحب المقهى يسارع متدخلا:

ـ «ضمانته علىَّ . . ».

يقطع الطريق إلى البيت مرتاحا، لن يضطر إلى التجوال المضنى، والوقوف هنا وهناك، ومعاناة إذ يعرض عنه الآخرون، ولا يعيرون ما يحمله طلَّة حتى، لن يقاسى الخوف من شرطة المرافق التى تطارد الباعة الجائلين.

بدأ عمله بهمة ونشاط عظيمين أملاه الحاج العبارات المطلوب خطها وتجميلها، والأسماء التى يبغى أصحابها كتابتها على ألواح نحاسية، أو خشبية، أمده بما يلزمه، يقع الدكان خلف المقر الرئيسى للبنك المركزى، على مقربة من المقهى محل صغير، ضيق، مزدحم بالإطارات القديمة والحديثة، إنه مجرد مقر للحاج الذى يعمل فى مجالات عديدة. تركيب زجاج العمارات وبيع السيارات القديمة، والعملة، وأوجه أخرى شتى، جاء إلى المقهى فى الميعاد المحدد، لم يصل الحاج بعد، أبدى المعلم إعجابه، ردد: اللهم صل على النبى. وصل الحاج، وتأمل صامتا، لم يفصح وجهه عن علامة، أبدى بعض الملاحظات، وصف المحل القريب، طلب منه أن يمضى إلى هناك، سيجد صبيا اسمه

عاشور، سيسلمه اللوحات ويرجع، ومنذ الآن سيكون التسليم هناك، عندما عاد إلى المقهى لم يجد الحاج، أثقل صدره بغم، رتب أموره، نوى شراء فطائر وحلوى من ميدان السيدة زينب لأشقائه، قال صاحب المقهى إنه اضطر إلى الانصراف بعد مكالمة مهمة، ثم قال: لا تقلق، أجرتك ستقبضها مساء كل خميس مع الدولاب، أبدى دهشة، أي دولاب؟ ضحك قال إن كل من يعمل مع الحاج اسمه الدولاب، يعنى دولاب العمل، تساءل قلقا، آملا: ألم يترك لى شيئا؟ قال المعلم، طبعًا. طبعًا، مضى إلى المنضدة المرتفعة، تناول ورقة بيضاء عليها بخط ركيك: مطلوب عشر لوحات «الصبر مفتاح الفرج»، المقاس العادى. عليه أن يمر صباح الغد بالمحل ليأخذ المونة، يقول المعلم بعد لحظات:

«أنت فى ضيقة؟».

ينفى، أبدًا، أبدًا.

يدس فى يده خمسة جنيهات.

«فك عن نفسك يا رجل، ويوم الخميس الفرج إن شاء الكريم..».

يقول المعلم مبتسما، مودعا، مطمئنا، فما أرق ملامحه وقتئذ:

ـ «لا تنس المرور على الدكان صباحا».

مساء الخميس جاء، أشار المعلم إلى سبعة أشخاص، هل

يفـضل الجلوس مع الدولاب أو بمفـرده؟ إنه لا يعـرف أيا منهـم، ينزوى فى ركـن قصى مـتابعـا الداخلين والخارجين، الصامـتين، المتحاورين، ممتلئا بالصمت، ظاهر الجد، رمى سلامـا عاما لـم يخص به شخصا بعينه، قعد بمفرده، بعد أن طلب كوبا من القرفة إضافة إلى النرجيلة المعتادة التى تستقر أمامه بمجرد وصوله، بدأ يستـدعى الدولاب، يحـاور، يجادل، يضـرب حـافـة المنضـدة بأصبعه، وربما يرتفع صوته، لـم يحن دوره إلا فى النهـاية، لم يحص النقود، مدها الحاج إليه مضمومة، ملمومة، كأمر مفروغ منه، لا يقـبل نقـاشـا ولا يحـتـمل جـدلا، عـاد إلى مـقـعـده، لم ينصرف مباشرة كأفراد الدولاب الآخرين، رغب فى كوب من الشاى، وعندما أعاد الجنيهات الخمسة الى المعلم دعـا له بطول العمر، فأبدى الرجل تأثراً ورقة، ربت كتفه..

ـ ربنا يفتحها فى وشك..

فـارق المقـهى وعنده رضـا وفضـول، لم يكن يعـرف مـقـدار مكافأته، توقف تحت مصباح ناء، المبلغ أقل مما قدر وتوقع، يكفى حاجاته بالكاد، لا يقابل أبداً مقدار ما يبذله من جهد وعناء، هل يجادل الحاج فى الأمر؟ هل يفاتح مـعلم المقهى؟ يبـدو له هذا كله عبثا، لا جدوى منه، لو أن الظروف ساعدته، لو تمكن من افتتاح محل صغير، ليس فى وسط المدينة، فى أى منطقة بالمدينة، لكن. دكانا كهذا يقتضى مبلغا هائلا لابد أن يدفعه فى البداية.. من أين له به؟ لو أمكنه أن يعمل ويوزع بنفسه، لكن من له بالدروب؟ من يدله على بدايات السكك؟ كـان يلف المدينة شارعا شـارعـا ودربا

دربا ويعود فى الأغلب الأعم بما خرج يحمله من بيته، إنه فى ضيق، أما ما حزن من أجله، وما رثى لذاته بسببه، فتوارى مشروعه لإتمام تعليمه، كان والده يرقبه منكبا على اللوحات، يدعو له، وينبهه إلى ضرورة نزوله الطريق ليمشى، ليفرد جسمه قليلا، ليخرج إلى الضوء، ليريح عينيه، ليسرِّى عن نفسه، مرة أو مرتين فاتحه فى موضوع دراسته، ماذا عن تلك المدرسة الخاصة؟ قال إن الأمر سيتم، لكن بعد استقرار الأحوال قليلا، يريد أن يتبين رأسه من رجليه، غير أن داخله كان مشغولا بالرغبة فى امتلاك محل، افتتاح دكان، وليس طموح إنهاء مراحل دراسته، أن يكون مقره بيده هو، يخط ما يحب، ويرسم ما يرغب، ما يفضله هو، لا ما يريده غيره، يبدع ما يهوى، لا مايطلبه السوق، إن اقتراب يوم الخميس يثير عنده مشاعر متنافرة، يقدر ما ينتظر استلام ما يستحقه، يقدر ما هذا الانتظار الطويل المتعمد، إن أكتاف الرجال لتنوء، وإن رقابهم لتميل عبر انتظار كسير كهذا، مرة اتصل المعلم قبل الموعد المحدد لإغلاق المقهى بدقائق أخبر باضطراره إلى تأجيل الموعد حتى غد، انصرف الدولاب، استفسر منه معلم المقهى عما إذا كان يحتاج مقدارا من المال؟ شكره وأعرض عن طلب مليم واحد مع أنه كان فى حاجة، انصرف مثقلا وعنده غبن وهم، فى هذه الليلة تردد داخله ما لم يدر حتى راوده أول مرة واتضح عنده مالم يتصور أنه شارع فيه يوما، وفى الأيام التالية بدأ يعد العدة، لم يخبر أباه، لم يخبر أمه، أو أحد أصحابه، حتى لو أراد أن يفضى إلى قريب أو حميم، فإلى من يسر؟ وإلى من يحكى؟ زملاء المدرسة مضوا فى مراحل تعليمهم،

ما كان يجمعه بهم ولى، فى المنطقة التى يقطنها لم يقم علاقة حميمة، إن عمله يلتهم الجانب الأكبر من وقته، وعندما يثقله الضيق، وتحدق به الوحدة، يمضى إلى مقهى قريب فيه جهاز للتليفزيون، يمكث مقدارا من الوقت، وفى الأعم يكون شاردا عما يتتابع أمامه من مشاهد، أرضه قلقة وجسوره منقطعة، والآتى عنده غامض، ضبابى، أمره مشوش حتى ليغض البصر عند لقائه بخديجة ابنة جارته إذ تلتقى به أثناء خروجه من البيت أو عند عودته، خديجة سوداء العينين، طويلة الشعر، حصلت على دبلوم تجارة، تعمل مؤقتا بائعة فى متجر للملابس الداخلية بالموسكى، تنتظر الالتحاق بوظيفة فى بنك أو دائرة حكومية، أو إحدى هذه الشركات الحديثة التى تمنح أجورا سخية، إنه يولى الوجه، يشيع ويتجاهل، ماذا بوسعه أن يقدمه؟ على أى شىء يقيم الوعود؟ حتى ملابسه لا تستر إذا رغب فى الخروج بصحبتها، المشى بحذاء النيل، أو الإيواء إلى ركن فى حديقة شاحبة ليبثها ويفضى. إذا تلح عليه فورات الجسد ونشيش الرغبة، يعالج الأمر، يستدعى إلى ذهنه صورة امرأة رآها فى الطريق، أو نظرات خديجة الخمرية وما تثيره، أو يمعن البصر إلى صورة ممثلة شبه عارية، يكفى ذاته، حتى يهدأ ويهجع.

أحيانا يطبق عليه الحال، تنتابه رغبة فى الهجاج، خاصة عند نزول الليل، يخرج قبل اكتمال الغروب، يستسلم لحركة الطريق فيمضى إلى حيث لم يقصد، عيناه مجهدتان، وآلام تخز عنقه، يرجعها إلى طول انحنائته، فى ميدان السيدة زينب زحام، الناس

كثر لكنه بمفرده، كأنه لا يرى أحدا، فى المقهى سمع عن بعض ممن سافروا، منادى السيارات الذى سافر إلى دولة نفطية وعمل نقاشا، ثم تقلب في مهن شتى حتى عاد ميسور الحال، يجىء راكبا عربة، يوقفها، ينزل متمهلا، يمسك حلقة المفاتيح المعدنية، يدخن النرجيلة بهدوء، يقال إنه أصبح من تجار العملة، سمع عن أحدهم، كان عاملا فى مطعم قريب، يقلى الباذنجان والطعمية، ادخر ما ادخر وسافر، هناك أصبح مالكا لمطعم صغير، يجىء كل سنة محملا بالهدايا. صاحب المقهى اقترب منه أكثر من مرة:

ـ «لم لا تجرب حظك..»

يتطلع إليه حائرا:

ـ «أنا خطاط ياحاج..».

مرة لوَّح الرجل بيده:

ـ «اعمل أى حاجة، أنا كان عندى صبى هنا وراح، كان إذا أحدهم سأله عن عمله، يقول له، أنت ماذا تريد؟ فإذا كان المطلوب مبيضا أجاب، وإذا كانت الحاجة إلى مبلط لبى.».

ثم يشير إليه الحاج:

ـ «أما أنت. فتعرف ما لا يقدر عليه غيرك..».

ليلة من ليالى فبراير الباردة، اقتنع بما فكر فيه، بما لم يتخيل أنه واقع يوما، ما يحصل عليه يكفيه بالكاد، لو أنه ادخر ما يتسلمه من المعلم لمدة عشرين سنة بدون أن ينفق مليما واحدا، فلن يتوافر

له ما يمكنه أن يدفع مقدما لحجرة أو خلوا لركن يمكنه أن يبدأ فيه حياته مع خديجة أو غيرها، إذن. . فلتكن غربة قسرية، يدخر ما يمكنه ويرجع، استبدت به الفكرة، أحكمت الحوطة عليه، بدأ ينظر إلى عمله مع الحاج على أنه مؤقت، لم يطلع حتى الأقربين على نواياه، ادخر ما ادخر، واقترض ما اقترض، وبذل الجهد المضاعف، وعندما اكتملت قيمة التذكرة، وخرج من مكتب شركة الطيران إلى الطريق تطلع إلى البنايات فغامت عيناه، ومر بالنواصى فكأنه لن يراها مرة أخرى، أبدا، وعندما عبر ميدان السيدة متجها إلى مسجد ابن طولون كاد ينوح، كأن ما تبقى له من أيام هنا كل ما سيقضيه فى هذه الحياة الدنيا، كأنه يقف على شفا جرف سحيق وثمة من سيدفعه فجأة، فى عصر هذا اليوم صارح أمه وأباه وإخوته، أصغوا واجمين، لكن لم يبد أحدهم اعتراضا، حتى والده لزم الصمت، برر ذلك لنفسه بأنه زين لهم الظروف، فلم يقل لهم إنه ماض إلى مجهول، وإنه قاصد باب الكريم، بل أكد أن عملا ينتظره، وسكنا مع صحب سبقوه، وأنه سيرسل من هناك ما يحتاجون إليه إن صيفا أو شتاء، كما أنه سيجىء على الأقل مرة فى كل سنة حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا، ما ضاعف شجنه تطلع أمه الصامت إليه، كأنها تتزود منه، وتتملى من قسماته، ولكم كان راغبا فى الاطّلاع على ما يدور داخلها، أى لحظات تسترجعها، ما أثقله اهتمامها به، بطعامه، حتى إنها نزلت السوق القريب واشترت سمكا، هى تعرف أنه الطعام المحبب له، أبدت همة عالية فى طهيه، وعندما جلست على مقربة منه طلب أن تشاركه، كذا إخوته.

ـ «يعنى آكل لوحدى؟» .

قالت إن نفسها مسدودة، أما الإخوة فيفضلون الطبيخ، عندئذ تراجع :

ـ «طيب . . لن آكل . . » .

أقدمت، وأقدم الأشقاء، غير أنه لاحظ تمهلهم، حرصهم على أن يدعوا له النصيب الأوفى، ضايقه ذلك، لكن لم يكن بوسعه تبديل الأمر، وفى إحدى الليالى خيل إليه أن أمه تبكى، أصغى إلى نهنهة مكتومة، وعندما تقلب فى فراشه كفت، حتى خروجه من البيت قاصدا المطار حرصت ألا تبدى أمامه ضيقا، أو غما، كان يدرك أن ابتسامتها تلك وليدة جهد جهيد، أما والده فلاذ بسكون، واستجاب لإلحاح ابنه ألا يصحبه إلى المطار، كان يعول هم الأب، كيف سيرجع من المكان البعيد، حتى وصوله إلى ناصية الحارة التفت مرات سبعا، ولوح بيده، وهم بالرجوع، لكنه لم يعد، وكانت امرأة عجوز كليلة البصر تقف أمام الفرن القديم تبيع أحيانا الليمون، سمعها تقول . .

ـ «تروح وتجىء بالسلامة يابنى . . » .

اعلموا يا أفاضل، ياكرام، أن وداع هذه المرأة التى لاتمت إليه بصلة، ونطقها الواهن لتلك العبارة، نكأت عنده جرحا، وهدمت ساترا أخفى خلفه ما انتابه، وما اجتاحه، وجهد حتى لا يبدو منه شىء على مرأى من والديه، هذا ما عرفته من حال هؤلاء القوم، أمه تدارى حتى لا تؤلمه، وهو يخفى حتى لايزيد

حملها، حتى إذا خلا كل بنفسه ونأى عن بصر الآخرين باح بما عنده، وأظهر ما خفى من أمره، ولكن لذاته هو، شفقة ومحنة على محبيه، ظل صوت هذه المرأة العجوز يتردد عنده، حتى اجتيازه بوابات الرحيل، وطلب منه الشرطى إبراز جواز سفره وبطاقته، بعد أن تفحصهما وقارن الصورة المثبتة بملامح الوجه الصامت المتطلع إليه بنظر ثابت، كأنه يقول، لا تدرى ما مررت به حتى وصولى هنا، حتى وقوفى بهذه اللحظة، حتى إقدامه على المغادرة، حتى انخلاعه من البيت، والحارة، والحى، والبلد، ووالد وما ولد، متى سيطأ هذه الأرض مرة أخرى؟

عندما اقترب من باب الطائرة لم يواته الفرح الذى طالما تخيله طفلا، ثم صبيا، يتطلع حالما إلى الطائرات التى تعبر سماء المدينة، أبدا بل التفت متشبثا بكل ماتقع عليه عيناه، مبنى المطار، العربات المتباعدة، السماء الغمامية، الجنود الواقفين، العاملين بالمطار، كل منهم سيصبح الليلة فى سريره، فى بيته، بين من يحب ومن يعرف، وعندما تطلع من النافذة الدائرية إلى الأرض والمعالم التى راحت تتضاءل بسرعة، بدا كأنه أودع ما مضى وما كان جوف هذا الثرى.

جال فيما حوله، اعتصم بالحديث إلى من يجاوره، صعيدى من سوهاج، فى البداية كان حذرا، يومئ، وعندما نطق اقتضب الجواب، غير أنه سرعان ما وثق وأنس، فحكى عن عياله، وقيراط الأرض الذى باعه ليوفر ثمن التذكرة، مبلغ من المال قسمه، نصفه لامرأته، تدبر به أحوالها حتى يتيسر أمره فى

الغربة، ومقدار آخر قليل أخذه معه يتدبر به، قال إنه سينزل على قريب له، أخرج من طيات ملابسه ورقة مضمومة، ملمومة، فردها، طلب منه أن يقرأ العنوان مرة أو مرتين، ردده بصوت مسموع، كأنه يستوثق من حفظه، من يدرى. . ؟ ربما فقد الوريقة لسبب ما، طواها وخبأها فى مكمنها الأمين، ثم استفسر فجأة عن مقصده، وعن بلدته، ومهنته، فقال إنه يقصد البلد ذاتها، وأنه قاهرى المولد والنشأة، يعيش على مقربة من السيدة زينب، وأنه خطاط، وأنه على باب الله . .

قال الرجل الصعيدى :

ـ شاء الله يا سيدة زينب . .

ثم صمت، بدا حائرا، لا يدرى ماذا يقول، كأنه يتمنى تقديم مساعدة ما، لكن ليس فى اليد حيلة، قال أخيرا :

ـ الله سيكرمك . .

جاوبه مستسلما، قلقا، أملا :

ـ «كله على الله . . ».

مع بدء هبوط الطائرة، وثقل السمع، قدم إليه الصعيدى استمارة الجوازات رجاه أن يكتبها له، تبعه ثان وثالث يجلسان فى المقعد المجاور، خيل إليه إن كلا منهم يعرف وجهته، عداه، لا يدرى كيف جرى التقارب وتم بين ثلاثة لم ينتبه إلى وجودهم فى الطائرة، ، هم مثله؛ ينزلون البلد أول مرة، وما من ارتباط مسبق بعمل، الوضعية متشابهة، لذا وقع تآلف، وتقارب، فكأن

كلا منهم يلوذ بالآخر، بعد انتهاء الإجراءات، وتفتيش الحقائب، وتقليب محتوياتها والطرق على جوانبها، وتمرير جهاز صغير يحدث أصواتا متقطعة، بعد فرد ملابسه، حتى الداخلية منها، واستبعاد رغيفين، ودجاجة أصرت الأم على إعدادها له زادا للطريق، بعد التحديق فى الملامح والتنقيب فى شرود العينين، وسبر غور النظرات، ومحاولة استكشاف مدى الحزن البادى وسره، بعد التطلع بريبة، ثم بقسوة، ثم بعدوانية سافرة، السؤال عما إذا كان معه رسائل، أو شرائط تسجيل، أو كتب، أو مجلات، بعد تقليبه يمينا وشمالا، قال الموظف بلهجة طرد، أو سب «رح..».

رتب محتويات حقيبته القليلة، مضى فى الاتجاه الذى يشير إليه سهم الخروج، قرب البوابة ذات الجهاز، فوجىء بجندى يرتدى غطاء رأس أحمر، يصيح به، يأمره أن يتوقف، تحسس ثيابه، مرر جهازا صغيرا مستطيلا على ظهره وبطنه، أمره بإخراج ما فى جيوبه، أن يخلع نعليه، وجوربه، ضغط موضع أمعائه، وداس عليه من دبر، ولما سأله واستفسر جاوبه بنظر خشن، وتهديد خفى، فيما بعد عرف أنهم يحجزون البعض، يدخلونهم فرادى إلى غرف مغلقة، يجردونهم من ثيابهم، يصبح الواحد عاريا كما ولدته أمه يأمرونه بالانحناء، يتفحصون الإست، والحجة أن البعض يدس أنابيب من بلاستيك فيها ممنوعات! لم يجر هذا له، بعد لحظات قال الجندى..

«رح..».

لحظة تأهبه للمغادرة لمح فى الصالة الداخلية التى يفصله عنها زجاج بعض من صحبوه، من جاءوا معه على الطائرة، يقعدون القرفصاء فى الصالة الداخلية، ينتظرون أمرا ما، رأى جاره السوهاجى، مضى منقبضا، كدرا، خرج إلى الساحة الفسيحة، طالعه فى الواجهه إطار هائل يتطلع منه وجه زعيم البلاد، ملامح قاسية، صارمة، كأنها تتفحص القادمين، أما الخط الذى كتب به الشعار تحت الصورة فردىء، خلو من أى تنسيق، لا يتبع قاعدة، وقف بمفرده، غريبا، لا ينتظره أحدا، أرض يطؤها لأول مرة، رائحة لم يعتدها، مزيج من عناصر شتى، برغم تعدد المصابيح، وتناثرها على مسافات متقاربة، فإن العتمة مخيمة طاغية،

متى سيجىء إلى القسم الآخر من المطار ليعبر بوابات العودة لا يدرى..

يبدو الأمد ممتدا، والوحشة غالبة، يجهل ما ينتظره وكأنه يدرك لأول مرة أنه غريب، بعيد، ناء عن كل إلف، وأنه كان مشمولا برعاية غير منظورة، أما الآن فإنّه مجرد من كل ما أحاطه منذ مجيئة إلى العالم، بعيد عن كل ما اعتاد عليه، فى لحظاته الأولى تلك حن إلى صاحب المحل، الخطاط، الطيب، قديم الهجرة، استعاد استغراقه فى اللوحات والحيوية المتدفقة عبر كيانه الضئيل، إذ يستعيد ذكرياته القديمة، وسعى ونظرات عينيه عبر الأيام المولية، عطفه وحنوه عليه، تذكر صمته النهائى فوق المقعد، احتضاره الهادئ الذى شهده بعينيه. حن إلى أبيه، وصمته المضطر إليه، وقلة حيلته البادية فى الأيام التى يقضيها

بطالا بدون عمل .

لم يكن يدرى كيف الوصول إلى المدينة ، لم يقترب منه أحد السائقين ليسأله عما إذا كان بحاجة إلى عربة ، كأنه بما لديهم من خبرة يدركون إلى من يتجهون ، فى مثل هذه الظروف تعمل الغربة عملها ، أنس إذ لمح هؤلاء الثلاثة الذين صحبوه فى الطائرة ، ينزلون البلد مثله أول مرة .

الأول قال إنه سائق وميكانيكى ، جاء قاصدا أحد أقاربه ، لكنه لا يقيم فى العاصمة ، إنما فى مدينة نائية من مدن الجنوب ، لابد من قضاء الليلة هنا ، ثم متابعة السفر فى الصباح .

الثانى مهندس زراعى ، بدا حريصا عند التعريف بنفسه أن يقرن لقب المهندس باسمه ، قرأ وسمع عن المشاريع العديدة هنا ، معه رسالة توصية إلى شخصية ذات نفوذ ، لا يمكن الإفصاح عنها ، تقيم فى الشمال ، لابد أن يقضى الليلة هنا ثم يسافر غدا . .

الثالث ، قال إنه إسكندرانى ، جاء ليجرب حظه ، ليجمع قرشين ، ثم يسافر إلى أى بلد أوروبى ، وما هذه البلدة إلا أول محطة فى طريقه ، معه عنوان مقهى يقصده بعض أبناء بلدته ، ضحك ، قال إنه قادم وعينه أيضا على النساء هنا ، ضحك الإسكندرانى ، هذا فى الظاهر ، ولكن خفية يحدث ما لايمكن تصوره ، والمصريون هنا مرغوبون . .

سألوه قال إنه خطاط .

أبدوا شفقة .

وماذا سيعمل الخطاط هنا؟ أي رزق سيجيئه من مهنة كهذه؟ ثم كيف يجيء ولا معارف له؟

قال إنه سيحاول، فإذا فشل في العمل كخطاط يمكنه العمل في أي مهنة، عندما كان تلميذا عمل شهور الأجازة الصيفية في ورشة لإصلاح الإطارات . .

قـال المهندس الزراعي إن هذه خطط طويلة النفس، المهم الآن . . وصوله إلى المدينة، مشى في أثرهم، اقترابه منهم طمأنه، خاصة في اللحظات الأولى التي يصعب فيها كل أمر، لم تكن هناك عربات عامة تربط المطار بالمدينة، عاد الإسكندراني ليقول إنه اتفق مع سائق عربة أجرة، وإن هذا هو الحل الوحيد للوصول إلى المدينة، البقاء هنا فيه مخاطر، بلغ نصيبه من أجرة العربة ثلث ما معه، ما جاء به، أي انتقاص من نقوده يدنيه من لحظة حرجة يرهبها ويخشاها لمجرد التفكير فيها، لكن . . ما باليد حيلة، لا مفر.

الليل غميق، لا يتيح له رؤية المعالم، تبدو المدينة متوارية، البيوت واطئة، طابق أو طابقان، يلمح حدودها الخارجية، ما من مبان مرتفعة، أعمدة المصابيح متباعدة، تتلألأ القاهرة الآن، تشع بضوء راسخ، السائق يغطي رأسه بطرحه بيضاء، لم يلفظ حرفا، كما أن أحدهم لم يتكلم، ربما لشعورهم بوجود غريب، مع أن كلا منهم لا يعرف صاحبه إلا منذ دقائق، الطرقات مقفرة على المدى، ميدان السيدة في أوجه الآن، محلات الفطير، والكباب، والدخان المتصاعدة، وباعة الفاكهة عند النواصي، ورائحة أنس

لهـا لطول ما اعـتـادها، عـبق قـادم من عـصـور مـتـواليـة، لا يدرك بالوعى، إنما يحس، لا يفسر، ينفـذ إلى الوجـود اللامرئى، فـما أنأى المسـافـة! ما أصـعب الشُقـة! ما أوعر الوقت! لسـبب مـا ألح عليه وجه خديجة جارته، تطلعها المخملى إليه، خفرها، وسنها، وحياؤها الشرعى، أين هى الآن؟ يستعيد ما يحول بينهما، ويعى بقسوة أنه قصى، أنه بعيدا!

توقـفت العـربة أمـام الفندق، مـرة أخـرى شم تلك الرائحـة الثقيلة، إنه زخم شهوانى غامض، فيه دهون، وبقايا شواء، دم وقسوة، مدخل الفندق مطل على بداية زقاق ضيق صاعد، أما الشـارع الرئيسـى فخـال، الدكاكين مغلقة، النوافـذ لا تشـى، لا تفصح عن أى ضوء، ما من شرفات، الليل لم يوغل بعد، ما من وقوف عند الناصية، ما من مقاه عامرة، غير أن ما لفت نظره، ما أثار انتباهه، ما أخذه عن القفر والوحشة، رؤيته هذا العدد من اللافتات، لافتات قماشية معلقة تصل جانبى الطريق، تتوالى على مـسـافـات متـسـاوية، متـقـاربة، لافـتـات ممتـدة بعـرض الواجهات. .

قال حسن هذا!

ثمة فرصة، بل وكبيرة، العبارات متشابهة، تعلن الترحيب بضيوف المؤتمر الثالث للشرطة العربيـة. . مؤتمر كـهـذا تعلق من أجله هذه اللافتات كلها، وأين؟ فى منطقة شعبية لن يعقد فيها اجتماع واحد، ولن يزورها أعضاء المؤتمر بالقطع، ماذا عن منطقة انعقاد المؤتمر؟ بل ماذا عن الأعياد والمناسبات؟ غير أن ما طمأنه

ليست هذه اللافتات، بل أخرى تعلن عبارات التأييد والترحيب والتهنئة بعودة زعيم البلاد المفدى من زيارة المنطقة الجنوبية، مجرد عودته إلى العاصمة اقتضى هذا، فكيف الحال عند عودته من الخارج، أو عند احتفاله بمناسبة ما؟ موجات متتابعة من اللافتات، إنها تحمل له البشارة، هذا باب للرزق ومجال فسيح، ما عليه إلا الاستدلال على الطريق المؤدية، أن يقف ببابه، يطرقه طرقا هينا، لطيفا، ثم. . يقرعه بكل ما أوتيه من قدرة ومهارة.

فيما بعد استعاد الليلة الأولى، تمدده فوق حشية مهترئة، إلى جواره رفاق سفره الثلاثة، الحجرة بدون نوافذ، فقط. . فتحة مربعة فى الجدار المطل على الممر، فى الخارج، أمام الغرفة فُرشت سجادة بالية، تمدد فوقها رجل سودانى نحيل جدا، طويل، كان يئن طوال الليل، ينبعث منه ضنى مكتوم، وعلامات تعب، وألم حاد.

برغم إرهاقه، تَعب السفر وتوتره فى المطار، وحنينه الممض الذى يبلغ مداه فى اللحظات الأولى لبدء الاغتراب، فيتشابه مع الشوق الذى ينضج ويكتمل بعد طول المدة وتوالى الفترة أثر الفترة، بغم الكمد لم ينم، أيضا بسبب شخير الصحب، وقرص حشرات غامضة، وحضور المكان الغامض الذى لم يألفه، وارتفاع حوار حاد فى الطابق الأول قرب الفجر، إصغائه متفحصا لهذه اللهجة غريبة الإيقاع، الخشنة، بسبب كتمة النفس، لم ينم.

لن ينسى الليلة الأولى أبدا!

عند طلوع الصبح أغفى قليلا، غسل وجهه بالماء البارد، لم

يكن لديه صابون ولا فى الفندق، عند خروجه إلى الزقاق، ثم إلى الطريق، فوجئ بكثافة الحركة، بالزحام، كان الشارع نهارا غيره ليلا، أما ضوء النهار فساطع، سماء حادة، قوية السطوح، شديدة القرب، بدأ سعيه مؤجلا إفطاره حتى الحادية عشرة على أن يتناول غداءه فى الخامسة بعد الظهر، هكذا يمكنه توفير وجبة، أفضل الطعام فى ظروف كهذه ما يثقل المعدة ويلكمها، ما تبقى لديه ضيئل، وهو غريب، وحيد، بعد تفرق من تعرف بهم، راح كل منهم إلى حاله، دله المهندس الزراعى، قبل سفره إلى الشمال ـ على مقهى قريب يلتقى فيه المصريون، مقصد من يبحث عن عمل، أو وظيفة، أو عون. . برغم قلقه وتخوفه من اقتراب المساء، من قدوم الغد، أو بعد الغد وهو على حاله، إلا أنه لم يكف عن قراءة اللافتات، ورصد كثافتها، وضح وثبت أن كل متجر صغر أو كبر، كل مصلحة أو منشأة تعلق عددا من اللافتات، واحدة للترحيب عند المدخل، وأخرى بعرض الطريق لتأييد زعيم البلاد أو إبراز جملة من مأثور قوله. .

لن ينسى يومه الأول أبدا، وحشته وغربته، فالبدايات لا تغيب عن الذهن، وما يليها تندغم تفاصيله، وربما يقضى الإنسان حولا كاملا فى مدينة، وإذا ينقضى الزمن، لا يعلق بوعيه إلا يوم الوصول، ويوم المغادرة، وبدايات أهم ما مر به والنهايات، هكذا عرف المقهى، حيث يفد أبناء موطنه، عرف الانتظار، والقعدات الطويلة، وشرود الفكر وتيه النظر، والمشاركة فى حوارات لا تعنيه، الاقتراب ممن لا يعرفهم، الإصغاء إلى وعود مبهمة،

التطلع إلى ما سينطقه مجهولا عنه، البعض أبدى شهامة، وتعاطف وصادق رغبة فى المعونة، فمنهم من أقرضه، ومنهم من أسدى إليه نصحا؛ لأنه سبقه المجىء إلى تلك الديار وخبر أحوالها، ومنهم من اقتسم معه لقمة وغموسا هينا، أحدهم دله، بل توسط له عند صاحب مقهى آخر قديم، هكذا شاء حظه أن تكون البداية من مقهى.

إنه مقهى عتيق، يقع بأرض خلاء، مبناه على الطراز القديم، تحيطه حديقة أشجارها قصيرة، تتوزع فيها دكك خشبية بيضاء، يقعد فوقها بعض الرواد صامتين، يحملقون إلى الفراغ، وفى الأغلب الأعم لا يتحدثون، يشربون الشاى يدخنون النرجيلة، وشباب يلعبون الورق قرب الطريق، وقلة من أجانب يعملون فى البلاد، يجيئون للفرجة على أدوات الشاى التى تنقرض من سائر المقاهى الأخرى، وفناجين القهوة العربية، والنرجيلات، وأثاث خشبى من بقايا بيوت اندثرت، صاحب المقهى بدين، يقعد فوق دكة مرتفعة، يدخن نرجيلة نحيلة، لا يقربها إلا هو، وعاؤها زجاجى من كريستال ملون، منمنم، أنثوية المظهر، تمباكها غزير، جمرها شديد، أما «اللى» فطويل ينتهى بمبسم عاجى لا يفارق فمه، يظل على مقربة من شفتيه إذا نادى أو تحدث، بين الحين والحين يزعق:

ـ «ولد..».

لا يسبق نداءه بحرف فى «يا»، حتى إذا ما لبى أحدهم أشار صامتا إلى الجمر الموشك على همود، يتابع ما حوله صامتا فإذا

غربت الشمس فارق مقعده، انتقل متمهلا إلى الجهة المطلة على الحديقة المتسعة، واستقر فى مقعد من خيزران على مقربة من الأشجار العتيقة.

كان يرقب نزول صاحب المقهى من فوق دكته، يبدو خفيفا فى سعيه، رغم ضخامته، وجهه خلو من أى علامات ضيق نتيجة قعاده الطويل وانثناء ساقيه تحته، لم يتصور أنه قادر على اتخاذ هذا الوضع لعشر دقائق فقط، يعجب من سهولة انتقاله من وضع الثبات إلى الحركة، بعد لحظات من استقراره فى مكانه الغروبى، يرتفع صوته على مهل، غناء عميق، بالغ الحزن، حزن مخدوش، أساه بعيد الأغوار، سحيق، يتحلق حوله بعض من رواد المقهى، يصغون صامتين، يبدون تأثرهم، غير أنه يبدو قصيا، هو فى ناحية، ومستمعوه فى ناحية أخرى، لو انصرفوا أجمعين لا يكف ولا يتوقف، وربما تزايد جمعهم، وتعاظم شجوهم، وفى غمرة الترقرق والانفعال يكف فجأة، يميل رأسه حتى تلامس ذقنه صدره، عندئذ لا يمكن لإلحاح أو رجاء أو قوة أيا كانت أن تدفعه إلى استئناف الغناء، عرف عنه هيامه بأم كلثوم، وحفظه لأدوارها وأغنياتها القديمة، وجمعه لإسطوانات نادرة صار العثور عليها صعبا، حتى إن إذاعة البلاداستعارتها منه لتسجيل ما تتضمنه، لم يأمن . . فحمل إسطواناته مضمومة إلى صدره كالوليد، وانتظر قلقا حتى انتهاء النقل والتسجيل، أما إذا تحدث عنها فيلزم الإصغاء إليه، وهويصف صوتها، وطبقاته، ودرجاته، وكمون نبوغه، ويقال إن له ألحانا لم يطلع عليها أحد قط.

فى الثامنة ينصرف القوم، غير مسموح بالسهر بعد الثامنة واثنتى عشرة دقيقة، قبل الموعد تطفأ نار الركوة وتجمع النراجيل، تصف فوق الطاولة الرخامية، يتابع صاحب المقهى الحركة بعينين قلقتين، مع اقتراب الموعد يمد الخطى، بينما تتباعد ذراعاه السميتتان، يتطلع إلى الساعة المعلقة إلى الجدار، إلى ساعة معصمه، لابد من إقفال الأبواب تمام الثامنة واثنتى عشرة دقيقة.

فى المقهى خمسة عمال، أربعة مصريون، وخامس يمنى، يستوثق من وجودهم، يدخلهم المبنى، يدفع مصراعى الباب الرئيسى، يؤكد أنه كان باب القصر الكبير فى الزمن العثمانى، وأنه اشتراه بدراهم معدودات عند بيع أنقاض قصر أقامت فيه زمنا إحدى العائلات المتنفذة التى صالت وجالت زمنا، ثم تفرق شمل أفرادها، ولم يعد يقيم منهم شخص واحد فى البلاد بعد هجرتهم واحدا إثر الآخر، يخرج من ثنايا صديريته مفتاحا كبيرا يديره ثلاث مرات، له طرقعة وضجيج، يدفع الباب بكتفه حتى إذا اطمأن انصرف مبتعدا، هذا شرطه حتى يناموا فى المقهى، النوم هنا يوفر لهم أجرة المبيت فى الفندق، كان باستطاعته الاستحمام فى دورة المياه، أن يطبخ مع صحبه أيضا، أحدهم شاب قصير القامة، كبير الرأس، تجاوز العشرين بعامين، صعيدى، ولد وعاش فى قرية قريبة من بنى سويف، أبوه فلاح أجير، يعمل بالكراء فى أراضى الآخرين، رزقه يوم بيوم، غير أنه جاهد وثابر، ادخر من قليله حتى تخرج ابنه فى مدرسة الصنائع، آثر الابن أن يعوض حرمان والديه وتعبهما وضناهما الطويل من أجله

خيرا، فسعى، ادخر، واقترض، حتى اغترب ليجمع قرشين ويرجع فيريح أباه من شقائه الصعب، كان ينوى بمجرد نزوله مصر شراء سرير لوالديه، ناما عمرهما كله فوق الأرض، إنه صموت، حيى، هادئ، لا ينطق إلا إذا سئل، وفى غير أوقات العمل يتمدد محملقا إلى السقف، يؤدى أى عمل يطلب منه، عنده صبر، وجلد، برغم سكونه، فإنه إذا بدأ الحديث عن قريته، عن والديه، فإن صوته يترقرق، وملامحه تحن، يكتب خطابات عديدة يشيعها إلى والده، وإذا يلقى خطابا من مصر ينفرد بنفسه، يقرأه مرات، ثم ينتابه نشاط، يروح ويجىء، يقبل على خدمة الكل، وقد يلوح بيده إلى السماء مخاطبا من يقابله عرضا.

ـ «الحمد لله.. الوالدان بخير!».

إنه أقربهم إليه، كلما أصغى إليه يتحدث أو يخبر عن والديه فكأنه يردد ما عنده، كأنه عنه يكنى، وإياه يعنى، يناديه باسما، «يا بنى سويف..».

إنه الأمهر فى الطبخ، يشترون الخضار خلسة، كذا اللحم، يخفونه داخل المقهى بعناية، حتى إذا انصرف المعلم نشطوا، بدأوا فى إعداد طعامهم، يدبرون نارا، يوقدونها بطرق شتى، يخفون وقيدها ولهيبها، لو لمح أحد جنود الدورية ضوءا داخل المقهى لوقعت أمور لا يدرى عاقبتها أو مداها، عند الطرف الآخر من الحديقة، فى مواجهة المقهى يقع مقر عظيم من عظماء البلاد، مقرب لزعيمها المفدى، ويقال إنه يجىء ليقضى بعضا من وقته فى هذا القصر، يتخفف فيه من مسئولياته الجسام، ويتبسط ويلعب

رياضته المفضلة، التنس، أوقات تردده غير معروفة، مجهولة، عربات الدورية المسلحة لا تكف عن الرواح والمجيء ليلا ونهارا، أحيانا يتطلعون إلى أسواره البادية، ماذا يجرى هناك؟ ربما يكون موجودا الآن، لكن لا يعلق أحدهم، ولا يلفظ تعليقا أو دعابة، فقط عندما يغلق عليهم باب المقهى، ينعزلون تماما عن الخارج، حتى إذا جاء أحدهم بسيرته خفض من صوته، وتحوطا لا يذكرونه باسمه، بل أطلقوا عليه اسم فريد شوقى الممثل الشهير، إن حذرهم لشديد، فالأحوال هنا غير ما عهدوا، وما عرفوا من قبل، إن تآلفا ومودة يسودانهم عند إعداد الطعام، عند القعاد لتناوله، إذ يوغل الليل يتمدد كل منهم على دكة خشبية مغطاة بالحصر، الحصر مستطيلة، تترك الحز أثر الحز فى الضلوع، غير أن العادة تهوّن، تخفف من كل شىء، يطوى الواحد منهم ملابسهم تحت رأسه كوسادة، المشكلة فى الأيام الباردة، فثمة نافذة علوية مكسورة، وما من غطاء، إنهم يقربون الدكك من بعضها، ويوقدون الجمر لفترة، أما ليالى الحر فمقدور عليها، أمرها هين.

لا يبدأ العمل قبل العاشرة صباحا، دائما يستدعى زحام المقاهى القاهرية فى شتى ساعات النهار، تفتح أبوابها مع بدايات النهار، تفيض أنسا وحيوية، وكثيرون ممن عرفهم لا يمضون إلى أشغالهم قبل أن يمروا بـ «الاصطباحة» يشربون الشاى، وقد يتناولون الإفطار، بعضهم يدخن متمهلا ثم يمضون إلى سعيهم، لا . المقهى القاهرى ونسة وألفة، هنا رواد المقاهى قلة نهارا، فى العصر يبلغ الزحام ذروته، لكل منهم مهمة محدودة فى المقهى،

ما وقع على عاتقه منذ اليوم الأول، حمل أبريق نحاسى مملوء بالماء المثلج، وثلاثة أكواب معدنية، يطوف الصالة الداخلية والساحة الخارجية، ينادى:

- «مَيْ.. مَيْ..».

إذ يصيح أحدهم

- «ولد..».

يلبى، يبدو النداء خشنا، جافا، فيه صيغة الأمر واضحة، فجة، تعلم ألا يبدى ماعنده، أن يكتم حتى خلوته الليلية، الوحيد الذى خيل إليه أن ثمة تقاربا نشأ عنده تجاهه، صاحب المقهى، ربما لصمته، لهدوئه الكثيف، والأهم.. ميله وحبه الغناء، وصوته الغريب الذى يختزل أحزانا بعيدة، موغلة، غير أن وصل حبل الود بينهما كان أمرا صعبا، حوارهما يكاد يكون منعدما والرجاء مقلع دائما من المكان، استمر الأمر هكذا حتى عصر ذلك اليوم الذى لم ينسه قط.. رآه يفك القفل الصغير الذى يمسك به قرص الهاتف منعا لاستخدامه أثناء غيابه، إنه نادرا ما يتحدث عبر الهاتف، وإذا تحدث فإن صوته المرتفع يسمع من أركان المقهى، لم يكن يجيب هذا العصر إلا بغمغمات وإيماءات، وعندما انتهى بدا مغتما ثقيل الحركة، لم يأو إلى مكانه الذى اعتاد ملازمته عند المدخل، إنما طاف الساحة، واستند مرة أو مرتين إلى الباب الرئيسى، تحدث بسرعة إلى بعض الجالسين، واضح أنه يستفسر عن أمر ما، وما من أحد يجيبه، إذ كان يرتد أكثرهما، لم يكن قادرا على متابعته، إذ عليه أن يتحرك هنا وهناك ليلبى

طلبات الظامئين، القيظ وعر، حر الديار شديد، أثناء مروره بالناحية المواجهة للنهر فوجئ بزميله البنى سويفى، الصعيدى، الصامت، يناديه، ماذا جرى؟ خشى أن يكون اضطراب المعلم له صلة بأحدهم، وأنه سينعكس عليهم، لا شيء يثبت هنا، وكل أذى متوقع، دائما ينتظر الضرر، غير أن البنى سويفى مبتسم، إن وجهه يبدو طفوليا عند انفراج ملامحه، قال:

ـ «ابسط يا عم، الفرصة جاءتك لغاية عندك..».

دنا منه مبتهجا، قال هامسا إن أحدهم فيما يبدو كتب تقريرا فى صاحب المقهى، نبه فيه إلى خلو المقهى من لافتات التأييد، لا توجد إلا لافتة بالية قديمة، تهنئ زعيم البلاد المفدى بالعام الجديد، أى عام؟ هذا مثير طبعا للسخرية، اللافتة مضى عليها ثلاثة أو أربعة أعوام، أى عام جديد هذا؟ مقهى كهذا يقع فى مواجهة مكان يتردد عليه «المفدى» يجب أن يعوم فى لافتات لا حصر لها ربما تطلع الزعيم من الجانب الآخر للحديقة، ماذا سيجرى إذ يلحظ خلو المقهى، المبنى الوحيد فى الناحية خال من أية لافتة؟ أما الصورة الكبيرة المعلقة عند المدخل والتى رسمها فنان معروف مقابل مبلغ كبير من المال فلم تشفع ولم تخفف، باختصار.. صاحب المقهى فى موقف حرج، اللافتات يجب أن تعلق فى أسرع وقت، الخطاط المعروف هناداخل المدينة، مشغول للغاية، ولن يفرغ من المطلوب قبل شهر، إن المعلم فى موقف فظيع، يخشى وصول خطاب اعتقال مفاجئ إليه.

إن اعتقال الخلق هنا لا يتم فجأة، لا يداهم رجال الشرطة منزل

المقصود فجرا، لا يذهب إليه أحد، إنما يرسل خطاب فيه قرار القبض، ويتم تحديد موعد بعد أسبوع، بعد شهر، بعد سنة، وفى الموعد المعين لابدمن الذهاب إلى الجهة المحددة وتسليم النفس وإلا لحق الأذى بكل من يمت إليه بصلة، حدث أن تلقى صاحب متجر فى السوق القديم خطابا، تحدد فيه اعتقاله بعد شهر، انتاب الرجل رعب جسيم، ماذا فعل؟ ماذا جنى؟ انفض عنه كل قريب، وصار إذا ألقى السلام لا يجاوبه أحد، إذا سعى فى الطرقات يبتعد عنه الناس، يتحاشونه، سعى إلى جهات شتى، لم يجاوبه أحد، مضى إلى المركز المحدد لتسليم نفسه قبل الموعد المقرر، لكنهم رفضوا اعتقاله، أخبروه بضرورة الحضور فى الموعد المحدد بالخطاب، ألا يتخلف عنه، تملكه كرب كمن يعرف تاريخ موته مقدما، عاف الطعام، وهجره المنام، بدأ يزوى، وقبل الموعد بيومين مال رأسه على صدره ولم يعتدل قط، لم يعرف القوم بموته إلا عند مجيء الليل، لحظة إغلاق المتاجر كلها، حتى بعد اكتشاف أمره هاب القوم الاقتراب، فأبلغوا ومضوا، إن المعلم يرتعد خوفا. .

قال البنى سويفى:

ـ «فرصتك هذه. . مض إليه الآن. . ».

ضحك صاحب المقهى، قال:

ـ «يا رجل. . ولماذا لم تقل منذ البداية؟».

قال إنه خاف ألا يلحقه بالعمل لو أفصح عن مهنته أوشك المعلم أن يقول شيئا، غير أنه عبس مرة أخرى.

ـ «ما الأمر؟».

الأسواق..

الأسواق أغلقت الآن، من أين لهم بالقماش والأحبار والأقلام، تساءل:

ـ ألا يوجد فى البيت قماش؟ ملاءات سرير بيضاء حتى، ستائر، القماش أهم ما فى الموضوع..

قال المعلم:

ـ هذا ممكن.. لكن الحبر..

ـ الحبر الموجود فى البيت أسود، يكتب به الأولاد، هذا لون ممنوع الكتابة به.

ـ لكن الصيدليات لاتغلق مبكرا..

تطلع، آهة ارتياح طويلة.

ـ «آه منكم يا مصريين.. عفاريت والله عفاريت».

أما الأقلام فأمرها سهل، ما أكثر الخشب هنا، يمكن تسويته بالمقادير المطلوبة، هرع المعلم إلى بيته، لم يمض إلى قعدته الغروبية هذا المساء، أما هو فمضى ليخبر زملاءه، بدوا مبتهجين، ما سيتم سيرفع أقدارهم فى نظر صاحب المقهى، مضى إلى الخشب يبحث عن قطعة مناسبة، الثانى مضى إلى حيث خبأ السكين، يقطعون به اللحم ليلا، ويقشرون البطاطس، والباذنجان، الثالث قرب منضدتين متساويتى الارتفاع، ضمهما، وضعهما عند الناحية المواجهة للمقر، هنا يقل عدد المترددين،

لا يفضلون الجلوس على مرأى من مقر هذا العظيم، يجلسون بعيدا، مديرين ظهورهم له، ربما لكراهية يضمرونها، ربما لخوف، لخشية، الدوريات لا تكف عن المرور، لو حملق أحدهم تجاه القصر، لو شردت النظرات، لو علقت، ربما أسيء تفسير الأمر، قال أحدهم:

ـ «أين ذلك من القعاد أمام النيل؟».

المصابيح القوية تضاء قبل اكتمال الغروب، راح يبرى قطعة خشب، يسويها، يرفعها فى اتجاه الضوء، عند حد معين بدا راضيا، جاء المعلم لاهثا، عرقه غزير، يمسح عنقه وجبهته بمنديل كبير، تطلع متفحصا، كل شيء فى موضعه، القلم، أدوية معالجة الجروح حمراء، صفراء، بسط القماش الأبيض الذى كان فى الأصل ثلاث ملاءات تفرش الأسرَّة.

هل يصلح القماش؟

طبعا. القماش ملائم..

عند الثامنة وعشر دقائق، قبل موعد الإغلاق الرسمى، تم تعليق لافتة بعرض المدخل، الخط الأبيض، الخط الأنيق، ضخم يُقرأ من مسافة بعيدة:

ـ «مقهى الزمن القديم يحيى ويؤيد الزعيم المفدى».

علق بصر صاحب المقهى باللافتة، دار حولها، وتأملها من جهات مختلفة، عاد إلى صمته، إلا أنه بدا راضيا مرتاح البال، وإن لاح إنهاك خفى بين ملامحه، وفى خطوه، بعد أن أغلق

الباب عليهم تابعوه من خلف زجاج النافذة الجانبية المستطيلة، كأنه تقدم فى العمر فجأة، شأن من تعرض لمأزق عظيم وجاءه الفرج فى اللحظة الأخيرة. . استمر واقفا عند المدخل الخارجى، رافعا وجهه صوب اللافتة، ثم استدار متمهلا، يداه وراء ظهره متماستان، مضى تلفه الظلال والعتمة.

فى اليوم التالى لم يوزع الماء المثلج، إنما قعد فى الساحة الخلفية يرتب ما اشتراه صباح اليوم من الأسواق، قماش اللافتات، الأحبار، الأقلام، الفرش، الألوان، عدد من الرواد أبدوا إعجابهم بما فوجئوا به معلقا فوق رءوسهم، فى كل يوم يجيئون ليجدوا أن لافتة قد أضيفت، تحمل عبارة من أقوال المفدى، أو جملة ترحيب به، أوتأييدا، أو دعاء بالنصر، ماجذب الأنظار وشد الانتباه، تنوع اللافتات، فواحدة من قماش أبيض، وأخرى من قماش أخضر، أما ما أوقف العابر، وأثار الإعجاب، ما كان سببا فى قيام المسئول الثورى للناحية بزيارة المقهى فيما بعد، ومجىء عدد من الصحفيين والمصورين، فتلك التى امتدت بطول الباب القديم، جملة من أقوال الزعيم، لكنها صيغت فى خطوط متداخله، متصلة، متفرجة، بحيث يتشكل منها وجه لا يمكن للناظر إليه أن يخطئ ملامحه لأيام متتالية لم يكف صاحب المقهى عن الشرح، والإشارة إلى الحروف، وتفسير ماغمض منها، يزهو، يتباهى، يمكن القول إنه راض الآن، آمن. . وعندما جاء مسئول الناحية، طاف به، أشار إلى اللافتات، أفاض فى الشرح، هز المسئول رأسه مرات وهو يتأمل اللوحة والحروف العربية التى

تحدد ملامح الزعيم فى تشكيل جمالى بديع، قال إنه سيرفع تقريرا إلى هيئة الإعلام لعمل الدعاية اللازمة، لكن. . على وجه السرعة مطلوب عشرون لوحة أخرى مماثلة.

يمكن القول إن هذا كان بداية حظه، وطلوع سعده، وإشراق نجمه، وثباته فى الغربة.

جاء وفد إذاعى، أجرى حوارا مع صاحب المقهى، تبعه آخر تليفزيونى، ضرب المذيع باللوحة المثل على طاقات الحب الكامنة فى قلوب الشعب الطيب الأصيل تجاه قائده المظفر.

لم يتحدث إليه أحد، ولم يدعه صاحب المقهى لمقابلة الزوار المعجبين، ولو أن مبدع اللوحة واحد من أهل هذه الديار، لتغير الأمر، ومضت الأحوال إلى مسار مغاير، إلا أن صيته ذاع، وأمره انتشر، توافد عليه بعض من روادا المقهى، وأصحاب المتاجر، وعربات النقل طلبوا لافتات مماثلة، إلا أنه أبدع فنوع فبهر الآخرين، تزايد حجم عمله، وأصبحت المساحة الخلفية القريبة من الحديقة تخصه تقريبا، بدأ صاحب المقهى راضيا، متقبلا، إلا أن الأمور لا تظل كما هى، والأحوال لا تثبت، والظروف مهما طالت موقوتة، لها انتهاء، ولو لم تكن نهاية لما كانت بداية أصلا، فبعد اتساع عمله وجريان الرزق بين يديه، وقضائه خمس عشرة ساعة يوميا منكبا، تزايدت حاجته إلى مكان يخصه، يريح فيه جسده، أما هذا الحصير فيحدث علامات فى جلده، وآلاما فى عظامه، والأدهى ذلك المكان المغلق. لم يعد يطيقه، لم يعد قادرا أن يغفو فى موضع لا يقدر على فتح بابه، لم يطل الوقت، حانت

اللحظة التي يفارق فيها المقهى، حاول المعلم أن يستبقيه، ولما أدرك أنه الفراق، رجاه أن يزوره من حين إلى حين، بدأ المعلم رقيقا، طيبا، مترقرق الصوت، قال إنه اعتبره كابنه، وإنه لن ينسى أبدا جميله تجاهه، يعلم الله كم هو مدين له، وعندما تلاقت نظراتهما في لحظة وداعية، أيقن أن هذا الرجل يخفى أكثر مما يظهر، يبطن ولا يبوح، عانق صحبه، زملاء المقهى، أوصاهم بالتردد عليه، وعدم الانقطاع، خاصة البنى سويفى!

اتخذ مسكنا قرب الشارع الرئيسى، فيه حمام، حمام يخصه هو، مسكن محكم، خلو من تيارات الهواء الباردة التي كانت تشق فراغ المقهى مصدرها مجهول، بيت يمكنه الدخول إليه والخروج منه عندما يشاء، إذا أراد المشى عاريا مشى، وإذا رغب التمدد حينما شاء تمدد، به شرفة يمكنه الوقوف بها والنظر إلى الطريق إذا ماكلت عيناه، راج أمره فى المدينة كلها، بل جاءه نفر من مدن قريبة، بعضهم من ذوى المكانة، رجوه، ألحوا عليه لسرعة إتمام لافتاتهم، عرف الطريق إلى المصرف، أصبح من المخاطرة الاحتفاظ بما يدخره فى البيت.

إنه يعمل بدون انقطاع طوال أيام الأسبوع، لكنه بعد توالى عدة أسابيع مرهقة خصص بعد ظهر الخميس لراحته، يرتدى ملابسه، يمضى إلى قلب المدينة، إلى السوق التجارى المغطى، حيث يمكن للنساء أن يمشين على مهل تثيره نظراتهن الخلسى، الشبقة، أحيانا يقتفى خطى إحداهن، يتلقى بحواسه الأزيز الخفى، يدخر اهتزاز القوام، ونحولة الخصر وترجرج الأرداف

لخلوته الليلية، فيستعيد متمهلا متلذذا، مبطئا مايراه أو متوقفا عند صدى نظرة متخمرة، داعية له، متخذة طريقها إليه فى الزحام، أما إذا بلغ الزحام النادر حدا مكنه من مس جسد إحداهن، أو الاقتراب من مشارف الرائحة الخاصة . . فإن ذلك يشعل لياليه، يؤرقه، ولا يفلح جهده فى إرواء ذاته بذاته!

يوم الخميس أيضا اعتاد المضى إلى أحد المطاعم، يأكل لحما أو دجاجا، ثم يرجع فى ساعة متأخرة، يصغى إلى المذياع، يدير مؤشر الجهاز الصغير، القوى:

ـ «هنا القاهرة . . . ».

لتكرار الإصغاء يعرف الآن أصوات المذيعات والمذيعين، ومواعيد عملهم، أحيانا يسمع على البعد حفيف الأوراق التى يقرأ منها المذيع الأخبار، تتدفق عندئذ الصور، مبنى الإذاعة المطل على النيل، القوارب، والجسور، ويمضى شارع فى أثر شارع وناصية بعد الأخرى، وبيوت لم ينس واجهاتها، حارات لم تبهت روائحها عنده، ودكاكين لها مغزى ومعنى عنده حتى يتوقف عند مسجد أحمد بن طولون يمضى متمهلا إلى الحارة، إلى البيت، وإذا تطالعه قعدة أمه عند المدخل، تتطلع إلى منحنى الحارة، مترقبة، منتظرة، إذ يراها ولا تراه، يرقب هيئتها ولا تلمحه، إذ يرصد الحزن القديم، يقوم قاعدا فى فراشه، يدرك بحدة أنه بعيد، قصى، يحصى ما تبقى من شهور على التاريخ الذى حدده لعودته فى أجازة لن يطول به المقام فهو غريب، لكنها الضرورة والرغبة فى تدبير الأمر . . فى مثل هذه الليالى يغفو

وعنده رغبة فى هجاج، أما كبده فينز حنينا، إنه يصحو وعنده غم، وميل قوى لاستئناف النوم إلا أنه يتذكر ما التزم به فيفارق السرير كدراً، عبوساً، حتى إذا قعد إلى أقلامه وألوانه استغرق شيئا فشيئا، مفكرا فى محاسن حاله، إنه لا يعمل عند أحد، لا يضطر إلى الذهاب هنا أو هناك، أما ما يتقنه فندر من يعرف مثله، وهذا يضفى عليه قوة.

العمل كثير، والمناسبات متوالية هنا، محورها زعيم البلاد المفدى، مناسبات عارضة، وأخرى ثابتة، أما العارض فافتتاح سيادته لمشروع جديد، أو منطقة سكنية، أو محطة كهرباء، أو مقر جديد لوزارة، أو زيارة إلى إحدى نواحى البلاد، أودولة أخرى، وهذه الزيارات الخارجية تقتضى عملا نشطا، فلافتات تودعه عند رحيله الميمون، وأخرى تستقبله عند عودته المظفرة، أما المناسبات الثابتة فمعروف تواريخها، يجرى إعداد العدة لها مقدما، فمنها حلول شهر رمضان المبارك، وعيد الفطر، وعيد الأضحى، وليلة النصف من شعبان، وعيد رأس السنة الهجرية، أما هلول عيد ميلاده فأوسع الاحتفالات وأشدها، إنه موسم العمل بلا كلل، ويباع قماش اللافتات الأبيض بأربعة أضعاف سعره فى السوق السوداء، يحتاط له القوم ويحتاطون منه، ويحتاطون له بإعداد كل منهم لافتة جميلة، ويحتاطون منه بتدبير قماش ملابسهم الصيفية أو الشتوية قبله بوقت كاف، لا ينسى أحد عندما شح قماش الدمور والبفتة والدبلان وسائر المنسوجات القطنية السادة والملونة، حتى لم يبق فى المخازن متر واحد يكفى لتفصيل قميص لطفل، كما أنهم يدخرون أيضا البيض والدقيق واللبن، خاصة

البيض، فعند ذروة الاحتفال بالعيد تعد الكعكات وتوقد الشموع، كعكة العاصمة، وكعكة فى كل مقاطعة، وأخرى فى كل مدينة، ومحلة، والحق أن إطلاق كلمة كعكة إنما من قبيل المجاز، فكعكة العاصمة مثلا يبلغ قطرها عشرين مترا، وارتفاعها ثمانية وقيل عشرة، ويجرى إعدادها فى وسط الملعب الرياضى الكبير، وعند إطفاء الشموع هائلة الحجم المستوردة والمصنوعة خصيصا طبقا لمواصفات معينة تجيء عربات المطافئ من فرقة العاصمة وضواحيها، مزينة بصور سيادته، مكللة بالزهور، وتنصب السلالم فى أوضاع محسوبة، وفى اللحظة المحددة يتم تسليط أجهزة خاصة، تطفئ النيران المتصاعدة، ويكون هذا إيذانا بإطفاء الشموع فى المدن الأخرى، وأما بيوت العائلات التى يخرج أفرادها كلهم حتى البنات من خدورهن، والأطفال على آباط أمهاتهن، لا يتخلف عجوز أو صغير، ويتحلقون أمام مداخل البيوت حول الكعكات، وبعد إطفاء الشموع تجرى الرقصات ويبدأ الغناء فى الشوارع وتنطلق الأهازيج ولا يتوقف الأمر إلا بعد طواف المراقبين التابعين للهيئة السياسية واللجان الثورية، حتى يرصدوا من تغيب، أو من شارك بغير حماس، قيل بين القوم إن كعكة العاصمة وحدها تستهلك عدة آلاف من البيض، وأن القشر المتخلف بعد تطقيشه يملأ عشرات السيارات، وينشئ جبلا صغيرا فى كيمان القمامة خارج المدينة، وهذا من أعجب ما سمعه وعاينه.

عيدميلاد المفدى ذروة المناسبات، ولكن ثمة أخرى تتوالى،

عيد تسلمه السلطة، وانتصاره على خصومه، وعيد قيامه بالحركة التصحيحية الأولى، ثم الانتفاضة المباركة، وعيد إعلانه الثورة التعليمية، والثورة الصناعية، والثورة الزراعية، والثورة الثقافية. الثانية، والثالثة، وعيد ظهور أول مؤلفاته، وعيد شفائه من المرض، وعيد سباحته فى البركة الصناعية، وجريه فى السهل، وعيد تهديده القوى العظمى!

أما الأيام الثوابت فمرتبطة كلها بحياته، فمن ذلك الثالث من سبتمبر الذى شهد قيادته للمظاهرة الطلابية الكبرى عندما كان تلميذا فى المرحلة الأولى، والرابع من أبريل، والسادس من مايو، والتاسع من نوفمبر، والرابع عشر من يناير ـ وكان الثالث عشر فى الأصل إلا أنه قدم يوما لتشاؤمه من الرقم ـ أما الرابع عشر من يونيه فهو عيد إعلان المرسوم الشعبى بألا يطلق اسمه المفدى على أى مولود، فالبلاد كلها لم تنجب إلا شخصا واحدا يحمل الاسم الذى لا يذكر مجردا، ومثله لا يمكن أن يتكرر!

لقد دوّن هذه التواريخ فى مفكرته، وأحصاها، حتى يرتب ظروفه، كما أنه استقصى حذرا إمكانية شراء كميات هائلة من القماش وتخزينه عنده على الرغم أن هذا لا يعد مخالفا أو معوقا للهدف، فمن الشائع، الثابت، أن أى شخص يقوم على تخزين البيض أو السكر أو الدقيق أو القماش يعاقب باعتباره عدوا للشعب وسيادته، لكنه هو يحتفظ بالقماش اللازم حتى يلبى طلبات الناس فى الوقت المناسب، خاصة أن المفاجآت عديدة، فجأة تنطلق مظاهرات تأييد أو شجب، تأييد الزعيم، أو شجب

الخونة والعملاء والمأجورين، أو شجب سياسة قطر مجاور، أو بلد آخر، هذه المظاهرات يلزمها عدد لا حصر له من اللافتات، لابد من تجهيزها على وجه السرعة، ربما ألقى سيادته خطابا مفاجئا، أو أدلى بحديث مطول إلى صحفي أجنبي، عندئذ تغمر الشوارع لافتات تؤيد كل عبارة وردت، أو تبرز بعض الأقوال المعينة.

كان أثناء انهماكه يحاول تخيل أولئك المجهولين الذين يؤيدهم، أو يشجبهم، أو تلك الزمرة العميلة التي يبارك استئصالها، يتساءل.. من أفرادها؟ أي شجاعة دفعتهم إلى التحدي؟ ولأن زعيم البلاد المفدى هو المحور والركيزة، أصبح يشعر أنه قريب منه، وأن علاقة لها خصوصية تربطه به، ليس الولاء، ليس الحب أو الكراهية، صلة عجيبة بمقدار مافيها من رهبة، بقدر احتوائها على تهكم دفين، وإدراك لخبايا الملعوب.

ستة شهور انقضت، تعاظم خلالها حجم العمل، حتى لم يعد قادرا على ملاحقة وتلبية الطلبات، الثابت منها أو المتغير، المعروف أو المجهول، في بداية الشهر السابع أتاه زميله القديم في المقهى، البني سويفي بشابين، أحدهما خريج زراعة، والثاني خريج مدرسة الفنون والصنائع، داخ كل منهما في البحث عن عمل وحفيت قدماه، عندهما هواية للخط، لكن تنقصهما الدراية، صبر عليهما أياما حتى أصبح ممكنا له الاعتماد عليهما.، فك ضائقتهما وأقرضهما مالا يخصم فيما بعد من أجرهما، وأبدى معهما أنواعا من الشهامة والجدعنة، ومن ناحيتهما بذل

كل منهما أقصى الجهد ليعطى أفضل ما عنده، بعد أسابيع انضم إليه ثلاثة أخرون، صار من يعمل معه خمسة، هكذا تيسر أمره للغاية، وراج حاله جدا، بدت أيام المقهى نائية، بعيدة على قربها، يعجب.. كيف احتمل النوم على خشب الدكك والمبيت في مكان مغلق كالسجين؟ إنه يكتب الآن خطابات أقل، ويتلقى أكثر، تتباعد نوبات حنينه وإن لم تخف حدتها، كما أنه لم يتخلف قط عن تحويل المبلغ الذى خصصه لأسرته، ومع أى مسافر يثق به يرسل قماشا وحلوى، وبعضا مما تيسر، كذا بعض الهدايا الصغيرة للجيران، بل أرسل عباءة صوف إلى صاحب المقهى الذى حن عليه يوما، غير أنه لم يذكر خديجة فى رسائله، وتذكر أنها بنت حلال وأصيلة، لم يخف عليه التلميح وإن تجاهل الرد أو الإشارة، تيسرت أحواله ولانت ظروفه أيضا، ولرقة طبعه ودماثة خلقه ومهارته فى صنعته، تعرف إلى عدد من ذوى الحيثية والمكانة بعد ترددهم عليه، وطلبهم لافتات جديدة، أو التوصيات على لوحات ذات مواصفات خاصة تعلق فى السرادقات أو فى الطريق الذى يسلكه الزعيم، مكنته علاقاته تلك من التوسط لدى بعضهم لإيجاد عمل لبعض من تعرف بهم أثناء تردده على المقهى القديم، أحيانا يمد هذا أو ذاك بمبالغ صغيرة لتجهيز أنفسهم بمتطلبات الأعمال التى سيلتحقون بها، كما كان يساهم بالنصيب الأكبر فى تكاليف شحن جثمان من يلقى حتفه هنا، يقول لمن معه، المصرى لا يدفن إلا فى أرضه، ومما أثر فيه هذا التسابق الذى يلقاه من عمال فقراء، لا يدرون ماذا سيكسبون غدا، لكنهم هم البادئون دائما بجمع ماتيسر لإغاثة من لحقته ضيقة، أو نزلت به

محنة، أو عسرت أحواله، أو وافاه أجل لا مفر منه، كان لايتردد أبدا، وبالجملة فإنه صار مشكور السيرة محمود الخصال، رائج السمعة الحسنة، بين أهل بلده، وأبناء تلك الديار، وبمضى المدة صار هناك سبب آخر لهدوء أحواله، واستقرار نفسه، وترطيب أيامه، وتلطيف وجوده هنا وتثبيته، ذلك أنه تعرف ببنية جميلة، رائقة المظهر، نارية الجوهر، وتفصيل ذلك شائق.

ذلك أن البيت الذى يقطنه، ويتخذ من أحد طوابقه مقرا، يتكون من أربعة طوابق، وبذلك يكون من المبانى المرتفعة بالقياس إلى بقية المعمار فى المدينة، فى الدور الأول تعيش أسرة هندية، عائلها يعمل فى المستشفى الأميرى، وفى الثانى عجوزان بلغا من الكبر عتيا، يقضيان جل وقتيهما فى الشرفة، تمضى أيامهما هادئة عدا يوم الجمعة الذى يعلو فيه ضجيج الأحفاد، وأحاديث الأبناء، الثالث مقره هو وسكنه، فى الأخير أسرة صاحب البيت، الرجل تاجر مصنوعات جلدية، امرأته هادئة فى حالها، لم يرها إلا مرتدية العباءة السوداء، كانت تمضى إلى المستشفى الجديد بانتظام، كثيرات يذهبن إلى العيادة الخارجية ليس طلبا للعلاج، ولكن من باب الترويح عن النفس والفرجة على الطريق، والثرثرة أثناء الانتظار، أبناؤهما ثلاثة، ولد وبنتان، كان إذ يلتقى البنتين يغض الطرف، وإن أدركته نشوة غامضة، يتخلله الفيض الأنوثى للكبرى، ويطاله، رائحتها، ونظراتها الخلسى المتقدة، فى الليل يستدعيها، يتخيلها فى أوضاع شتى، حتى يغفو منهكا، لم يرهما إلا معا، حتى جاء ذلك الخميس، عند خروجه إلى جولته، أمام

شقة الطابق الثانى، كانت تصعد متمهلة، وهو ينزل متئدا، مدغدغا برؤياها، ترتدى العباءة السوداء فوق الزى المدرسى الأزرق القصير الذى بدا من انفراجة أتاحتها، أما أنفاسها فيكاد يراها لسخونتها، أما النظرات فمتدفقة فائرة، مبهرة بعينيها الواسعتين، تحاول إسدال خفر وحياء لكن عبثا، توقفت حتى يمر، تمهل.

ـ مساء الخير..

أومأت، مضى وجسده يولول بالرغبة، لوقفتها الصامتة، المترقبة فحيح، غليان، وعيد، سمع كثيرا من صحبه فى المقهى عن جرأة النساء فى هذه الديار إذا ما أتيحت لهن الخلوة، وأن الواحدة منهن إذا استوثقت وجودها بمفردها مع من ترغب شرعت فورا، برغم الحكايات العديدة فإنه التزم الحذر، إنه غريب، يخشى إثارة مشاكل لايدرى مداها، مع أن مجرد تخيلها عند انفراده يفرج ويخفف عن زمته جسده، ويسرى عن رغبته، كان لديه حس خفى أنه مقدم على أمر، وأن بعضا مما سمعه عن الآخرين سيمر به، مجرد استعادته ملامحها يخفق قلبه، يتعجل المصادفة، تلقائية أو مدبرة!

حتى حانت تلك الظهيرة..

كان منهمكا فى كتابة لوحات ورق مستورد خصيصا، مطلوبة لإحدى الجهات الرسمية، ولأهميتها لابد من إعدادها بنفسه، عندما فتح الباب بوغت، تقف أمامه متأججة، نافرة، وعندما دارت لتنظر السلم، لتتأكد أن أحدا لم يرها، لم يلمحها، أعلنت

في الوقت نفسه سرية قدومها، وأنبأت ببدء مغامرتها، ولجت داخلة، أغلقت الباب، اقتحمته عيناها، كان شعرها الأسود طويلا، مسترخيا، شارد الخصلات، كانت بضاضتها تتخطى الفراغ الذى يشغله جسدها إلى فراغ البيت كله، وعلى مهل، بعمق، استنشق رائحة الأنثى، فأشاعت عنده دفئا، وأنسا، أما رغبته فتأججت قاسية، تطلعت، تردد بصرها بينه وبين الأرض مرات، ثم استقرت سافرة الملامح، عالية النداء، ملقية عنها كل خفر، أصابع يديها متداخله، فى وجهها ظمأ قاس، وتوق، ودعوة عاجلة، واستعداد أتم لفك الحصار، إنها الجرأة الهادرة التى تندلع جارفة كل شىء اذ تحين الفرصة، طقت خميرة الرغبة عنده، قالت بصوت متعثر، غير مسترسل إنها تريد لوحة للمدرسة، مجرد نطقها أوصل أمره إلى مداه، أما نظراتها فأججت أمورا كامنة طال كتمانها بتأثير جهد يمتص منه الطاقة، ويستنفد منه جل القدرة، تقدم مادا يديه، وعندما لامس أناملها حطت كلها عنده، بركت وأقعى، لم يتصور أن الأمر سيتم بهذه السرعة، لقيها دافقة، تقصى حرمانا وتهتك أسوارا طالما خنقتها، تسعى إليه بقدر ما يسعى إليها، رددت فى غمار نعاسها اليقظ . .

ـ «شبعنى . . شبعنى . . ».

رأى عجبا، طرق دروبا لم يعرفها من قبل، فى لحظات تتباعد مكوناتها، تتراخى، تتفكك أوصالها حتى ليخشى عليها، وما أن ينحنى ليلمسها بشفته أو ليناديها فكأنه ينفخ فيها السر، تتورد، تزهر، ولحظة بلوغها الأوج تبدو منفلتة، خارج كل قانون،

شهيدة فى تعبيراتها، حتى إن تمام متعته لم يكن يتم إلا برؤية ملامحها، وتقصى انتفاضاتها، وطفراتها، وقطعها المراحل حتى بلوغ همودها، كان يغالب جموحه النهائى، فالبنت عذراء، إلا أنها لم تكن تعبأ، ما سمعه عن شبق نساء هذه الديار لشدة التضييق عليهن والحجر يتضاءل وتفضيل الرجال هوى الغلمان، ما تردد أمامه يتضاءل بالنسبة لما عاينه، لما رآه منها، مع أنها لم توغل فى سنى الحياة بعد، اعتادها، أصبحت جزءا من وقته، حتى إن اللحظات التى تسبق مجيئها كانت مصدرا لمتعة بذاتها، كتب إلى والديه وإخوته ينبئهما بتأجيل موعد عودته، بدا له ما انقضى من عمره مهدرا، أما إنسانيته فظلت ناقصة حتى مجيئها، وظهورها وحتى يفرغ لها، وتفرغ له، استأجر بيتا قريبا لمن يعملون معه، ليكون مقرا للعمل ويقيمون فيه أيضا، فرحوا، رحبوا، واستراح هو، إذ أقلقه وجودهم فى البيت الذى تسكنه هى، خشى ميلها إلى أحدهم، يعى أنها لن تتردد، لن تتراجع، بل ستقدم إذا قررت، وعندئذ لا يقدر على التنبؤ بما سيكون منه، قال لهم إنه يود الانفراد بنفسه، السكن سكن والعمل عمل، طلب منهم إلا يجىء أحدهم إليه مهما كانت الظروف، إذ يتخيل انصهارها فى إحدى اللحظات بين ذراعى غيره يطق غيرة وغضبا، امتزجا، خبر تضاريسها، رائحتها، شذا اقترابها، ولسع ملحها!

لم يعد يفارق البيت كثيرا، يمضى فى الصباح عند ذهابها إلى المدرسة، يتابع تنفيذ اللوحات، يبدى الملاحظات، ويخط بيده ما يرى أهميته، أو يرسم الخطوط الخارجية للكلمات، يدع ملء

الفراغات لهم، بعض الطلبات صار يوكل تنفيذها إليهم، كان يردد لنفسه دائما، أنه أصبح صاحب عمل، كما أنه يثق بهم، خاصة ذلك الشاب النحيل، الهادئ الذى جاء يبحث عن وظيفة مناسبة لمؤهله فى علم المساحة، اكتشف عنده قدرة على تجويد الخط وإتقان فنونه غير أن أمره لم يطل معه، إذ فوجئ يوما بتغيبه، وعندما استقصى واستفسر علم أنه استقل، وافتتح محلا فى ضاحية قريبة، ضاق فى البداية، وطاقت الأفكار القاتمة برأسه، لو أخطره، لو أفضى إليه، ربما خفف لك من وقع الأمر، ضاق بالغدر، يمكنه إلحاق الأذى به عن طريق أحد المعارف المهمين الذين يطرقون بابه، لكنه استبعد ذلك، بل لام نفسه فيما بعد، كيف يفكر فى إلحاق الأذى بمن جاء فى ظروف كظروفه؟ استوحش ذلك منه، السوق تحتمل عشرين آخرين، فلماذا يغضب أو يضيق؟ بل إنه مضى لزيارة المحل الجديد، لو أن الخطاط العجوز الذى آنس منه مودة ومحبة مكانه لأقدم على ذلك، أحيانا يستعيد أيامه معه، الصباحات الباكرة فى شارع محمد على، والمبانى العتيقة، وتداعيات الذكرى المتتابعة، والأدراج المكدسة بالأختام والكلشيهات، كأن أيامه مع الرجل الطيب انقضى عليها سنوات طوال، بل يخيل إليه أحيانا أن شخصا غيره عاشها، مر بها أثناء عمله وإصغائه إلى مرويات الرجل وحكاياته لو أخبره أحدهم أنه سيكون بعد أقل من عامين فى هذه الديار لما صدق، ولما تخيل أبدا إمكانية حدوث هذا، أو لقائه بهذه البنية، هل تصور يوما وهو يسعى فى حوارى السيدة، أو قلعة الكبش، أن

بيتا كهذا سيضمه مع غريبة عنه، وأن جسده سيلج جسدا فائرا، هنا، في هذا المكان، فما أعجب التدبير!

عاتب الشاب خريج مدرسة المساحة، قال لو أنه أخبره برغبته في الاستقلال بعمله لساعده ومد له يد العون، احتفظ الشاب بصمته، واكتفى بالإيماءات الحذرة، وعندما قام صافحه، وأوصاه ألا يتردد في اللجوء إليه لو اعترضه سبب، أو نزل به ضيق، وألمح إلى إمكانية تعاونهما، فهما في النهاية أبناء بلد واحد في ديار غربة، غير أن الشاب لم يبد حماسا مقابلا، وانصرف عنه مرددا، هل أخطأ في سعيه إليه؟ لأسابيع متتالية لم يهن إقباله على صاحبته، طالت أوقات بقائه في البيت، إنها تجيء عند أي سانحة، عند خروجها لشراء شيء ما، أو إلى موعد الدرس الخصوصي، أو في الأوقات التي ترتبها بإحكام مع إحدى صاحباتها، ثلاث مرات لم تتم نزول السلم في الصباح الباكر، تغيبت فيها عن المدرسة لتقضي نهاراتها معه، أما ما أثار خشيته فمجيئها الليلي، انتظارها نوم الأهل، دخولها عليه حافية، مرتدية قميص النوم القصير، في الليل تكون أشد اتقادا، قليلة الكلام، إذ ما رغب تبادل الحديث لقي ألفاظا قليلة وتطلعا إلى البدء من جديد، حتى إن الوهن يبدأ وإذا خاطبته قالت:

- حبيبي.. حياتي.

وكان يلمح إيقاع الممثلات المصريات في لهجتها، واقترابها منه، اعتاد زياراتها الليلية، وصار يتأهب لها، غير أن الأمور لا تثبت على حال، وإذا استقر جانب تبدل آخر، وإذا ما استقامت ناحية، تضعضعت جهات.

هل كان انشغاله بصاحبته تلك البداية، وانقطاعه عن متابعة عمله، أم تفتح رغبته عند حد معين للتعرف إلى أخريات؟ أم تنفيذه ما طلبته هذه المرأة العجوز التى جاءته باكية متوسلة، إذ اعتقل ابنها منذ عام كامل، وبعد أن لفت ودارت، استعطفت واسترحمت، طلب منها مسئول ذو نفوذ يمت إلى قبيلتها وله برجال الزعيم صلة أن تنفذ ما طلب منها، أن تعد ألف لافتة من قماش جيد، تعلق فى منطقة سكنها تحمل الدعوات وعبارات التأييد، سعت إلى عدة خطاطين، إلا أنهم ماطلوها، وتهربوا منها، مع أنها عرضت مبلغا كبيرا من المال، ذهبا من مصاغها، لكن كلا منهم زاغ بوسيلة أو طريقة مغايرة، مع أن هذا مشروع، وعرف جرى العمل به، عند طلب العفو وقبوله يتقرر كتابة عدد من اللافتات يجرى تقديره من قبل المسئولين، طبقا لدرجة الجرم، أو العقوبة المحددة سرا، أحيانا يطلبون خمسمائة، ومرة أخرى ألفين، وفى إحدى المرات قام تاجر فى الصاغة القديمة بإعداد خمسة آلاف لافتة، وهذا أكبر عدد عرف، رق للمرأة التى كانت تمشى بصعوبة، وتتحدث بضعف، وحتى يؤمن عمله، استفسر من أحد العاملين بأمانة الناحية، فأخبره أن هذا عادى، معترف به، وإلا لما صدر الطلب أصلا . .

عندئذ شرع، وأوصى العاملين معه . .

أى سبب كامن ؟ ومن أى نقطة بدأ الأمر؟ ربما ما جرى للفتى البنى سويفى كان نذير الشؤم، لكم أحب هذا الشاب القصير، الصامت، الذى لا يتحدث بانفعال إلا إذا ذكر والديه البعيدين،

والذين اغترب لتعويض بعض من كدهما، وحرمانهما من أجله، عندما جاءه أحد العاملين بالمقهى وأخبره باحتراق المقهى ليلا، صرخ جزعا:

ـ «مات أحد؟».

واحد فقط، البنى سويفى، اختنق بالدخان قبل أن يتمكنوا من كسر الزجاج العلوى والخروج، ضناه حزن، وقال لصحبه:

ـ «لن يدفن إلا فى مصر..».

وتبرع بمال كثير، وتبرع آخرون لتجهيز البنى سويفى، وشحن الجثمان فى صندوق مغلق، لن يفتح، هو الذى قام بهمة عالية لنقل الجثمان، هل أثار ذلك غضب المسئولين هنا؟ هل حنقوا عليه لسبب ما؟

لا يدرى، مامن سبب واضح مثل فى وعيه عصر ذلك اليوم.

كان يجلس فى صالة البيت، محاطا باللافتات، والصور المعدة لإحاطتها بالإطارات، كان يتوقع مجىء البنية أيضا، لكثرة ترددها صارت رائحتها فى فراغ المكان، كان يستعيد دخلاتها عليه، غير أن رغبة قصية داخله بألا تجىء، كان يتطلع إلى فك مغاليق أخرى، ثقته أكثر بنفسه الآن، منذ أيام لم تغب عنه هذه الصبية التى تسكن البيت المجاور، طويلة الضفائر، متينة الأساس، مقببة الأرداف، تبادلا نظرات خلسى، حذرة، هل أولته اهتماما باديا، أم لحظها عابر، على أية حال. فليحاول، فليدبر أمر اقترابه منها، يستعيد حضور جرأتها الفتية، وكأنه يود

تبديد شعور بالذنب، يلوح بيده ناطقا خواطره بصوت مرتفع: إنها لا ترتوى، وأنا بحاجة إلى من أتكلم معه! هم بتخيل الصبية الأخرى، مدهشة العينين، تردد طرق غير مألوف، قبضات ثقيلة، آمرة، هذه وجوه مقتحمة، لا يعرف أصحابها، الشوارب ثقيلة، يدفعه أحدهم جانبا، يلج المكان متلفتا حوله . .

ـ «أنت» .

يتفحص المكان متمهلا، ينتشر خمسة من الأشداء المسلحين، يقلبون اللافتات، اللوحات الصغيرة، يتأملون بعض اللوحات التى خطها للعجوز كى يتم نسخ مثيلاتها، يعرضون القماش للضوء، بدا مرجوفا، خائفا، ما سمع عن وقوعه لآخرين يجرى له، يمر به، بوهن، بحنين، بألم، ألحت عليه ملامح أبيه، وأهله البعاد، وقعدة الرجل الطيب فى دكان شارع محمد على، كأنه يلتمس منهم مددا، أو عونا خفيا.

أكد أنه لم يأت مخالفة، لم يقدم على إتيان جرم ما، أوراقه كلها مضبوطة تماما، مد جواز سفره، وبطاقة إقامته، هوى قلبه عندما أمسكهما كبيرهم، بدون النظر إليهما، رماهما إلى أحد مساعديه الخمسة، فوضعهما هذا فى جيبه لا مباليا . .

حاشية ٣

. . وإنى لمطلعكم على قعدة أمومية، أشهدتها مطلع نهار صيفى، لن يتاح لكم الوقوف عليها، حتى من يمرون بها لا يدرى معظمهم ماوراءها، ولا خبرها، ما عرفته من الهيئة عند بدء لواحها لى.

حدث أن دعانى صاحب لمرافقته إلى البر الجنوبى، كان مكلفا باستقصاء أحوال بعض ممن طلبوا المساعدة، فاتنى ذكر أنه يعمل فى هيئة اجتماعية، تقدم بعضا من عون لمن أعوزهم الوقت، ونزلت بهم نوائب البغتة، أو مالت بهم الظرف.

كان النهار فى أوله عندما وصلنا إلى مدخل الطريق الترابى المؤدى إلى القرية الصغيرة، لم نلق عسرا فى الاستدلال والاستفسار، الناس فى هذه النواحى يعرفون بعضهم، قيل لنا إن الرجل الذى نقصده يعيش فى بيت صغير قبل الوصول إلى القرية، بجوار شجرة السنط، أجابنا واحد مرتابا، متشككا:

ـ لماذا تسألون عنه؟

قال صاحبى:

ـ نقصد خيرا . .

لاح عنده اطمئنان، أشار إلى الجهة المؤدية . . قال:

ـ توصوا به، الله يكرمكما . .

ثم قال:

ـ لم يعد لهما أحد.

بقدر ما لمحت حذره، بقدر ما رصدت هذا التضامن الخفى، والرثاء للآخرين، والحس بالمشاركة، هـذا ميـراث طويـل يا صاحبى، موغل فى قدم لا ندرى أوله، أما الحذر فلأن القوم هنا لا يتوقعون خيرا من الغرباء القادمين، الآتين عبر الطرق المؤدية . .

المهم، مضينا يا أخى حذرين، السكة ضيقة، والأرض متربة، وعرة، وعندما لاحت بيوت القرية المتضامة، بدا الفراغ المؤدى فسيحا، عند حدود الحقل لمحت القعدة، والشجرة، وقناة المياه الضحلة، وجذع النخيل، غير أن كل ما أدركه بصرى من عناصر بدا مؤديا لهذه القعدة، للانحناءة للإطراقة، للنظر المستديم إلى المكان.

كانت تنكت التراب بعود قش، هذا كل ما يصدر عنها من حركة بادية، عبر صاحبى القناة، اهتز جذع النخيل، لم أتقدم لتوى، بقيت واقفا أراقبها، فكأنى حصلت على لمحة الإدراك الشمولى ما صار إليه الأمر، كل ما وقفت عليه بعد ذلك.

هذه قعدة أمومية ياصحب، قعدة ثكلى، حضورها الحسى فى مكان وزمان بعينه، أما حضورها الأشمل، الأتم، فيمتد عبر شعاب خفية، ويتعلق بلحظات مولية، قعدة لن يصلكم عنها تفصيل، قعدة آل إليهاالعمر الطويل، وحط فيها الضنى، يوميا، تبدأ مع طلوع الشمس، مع رحيل الليل، لا تفارق مكانها هذا إلا بعد اكتمال الغروب، وتردد أصداء العتمة وتوالى نباح الكلاب، ونقيق الضفادع، وهيام صرخات مجهولة عند المدى، ربما تؤدى بشكل ما إلى أثر من الحبيب الغارب!

قعدة منحنية، مطوية، مضمومة، محورها هم، ومقصدها، وهدفها، مبتغاها أثر ولو يسير، فى إطراقتها محاولة منها وسعى لتمثل الضمة القديمة، عندما كانت تحنو عليه، وتهدهده حتى ينام، أو تملس على ظهره حتى تدركه راحة، تحاول جاهدة ضم ما تبدد، بعد أن طاح به الوقت فأقصاه بعد قرب، ونفاه إلى أبد لن يدركه أحد تذرى!

افترشت الأرض فى مواجهتها، تطلعت إلىَّ، وعندها رجاء فى أمل خارق، يتجاوز المستحيل، يتخطى المعقول، ربما نبأ بعودة ضناها الوحيد، عيناها حال لونهما، تداخل سوادهما ببياضهما، فلا يمكن لى أو لكم تمييز الدائرتين اللتين كانتا يوما تنبضان، تتابعان القاصى والدانى، وتتعاقب عليهما الرؤى، أما ما يحيط بالعينين، فتحاريق تشقق، وجهها يا أخى كأنه قُد من الأرض التى تقعد فوقها، المتربة.

لم يكن محورها إلا هم، روحها كانت فيه، وحيدها، فلما جرى ما جرى، عافت الزاد، انطوى بسطها، ولم يعد لها إلا

إحصاء ما تبقى، كل من يسعى إليها بود، بعزاء، بشفقة، تقول له:

ـ «خلاص.. اللقاء هناك..».

لولا يقينها أن من ينهى حياته بيده يموت كافرا، وأن مصيره إلى النار، للحقت به منذ تيقنها النبأ، لكنها تريد المضى إليه، يقينا هو فى الجنة، من يشبهه، من يماثله؟ من؟ كان غضبا، نقيا كالأطفال، لم يأت شيئا فريا، لم يفعل ما يغضب ربه.

لو أنه لم يتغرب، لم يبعد، صحيح.. قدر ومكتوب، لكنه لم يرحل إلا لأنه شاء رؤيتهما فى أحسن حال، هو من خرجت به من الدنيا، ثم فارق الكينونة قبل أن تكمل فرحتها به، أنفاسه ما تزال فى البيت، رائحته، موضعه لم يقربه أحد، ما خصه باق، ما أرسله من خطابات فى حفظها، لا تسمح أن يقربها أحد، ألم يمسك بهذا الورق؟ ألم يخط هذه الكلمات التى لا تعرف كيف تفك رموزها؟ نصيب، حظ عاثر، من كان يتصور ما تخبئه الأيام؟

منذ يومها الأول فى هذه الدنيا كانت وحيدة، لم ينجب أبوها السَّقاء غيرها، لم يكن لها أخ أو أخت، لكم ودت أن يكون لها شقيقة، لكنها طلعت إلى الدنيا بمفردها، كثيرا ما قالت: الواحد فى الدنيا عندما يتعب يقول... أخ.

كان رجلها فقيرا، على باب الله، لا وراءه ولا أمامه، شقى من يومه، تقلب فى مهن شتى، لا.. ليست مهنا على وجه الدقة

يا أخى، لكنه كان يقوم بالعمل المتاح، يلف على الأسواق، يقضى حاجة هنا أو هناك، ينشط فى المآتم والأفراح، لكنه لم يتسول، لم يمد يده قط، حياته الوعرة لم تكسر نفسه، لم تهن أو تحط من وضعه أمام ذاته، كان عنده عزة وأنفة، استقر به الأمر عاملا بذراعه، بالفأس، يضرب الأرض مع مطلع الشمس، كان قصيرا، مدكوك البدن، تقدد جلده، واشتدت ملامحه، ولزمت عيناه نظرة حيرى، بعد أن جرى ما جرى لولده، لوحيده، لمن خرج به من الدنيا.

شقى طوال عمره، هكذا ردد دائما، لم يمض إلى طبيب قط، لم يزر مستشفى أو وحدة صحية، كان إذا شعر برجفة، أو ألم، يأكل الثوم الأخضر الطازج على الريق، أو يداوى نفسه بأعشاب شتى عرف أمورها من هنا وهناك.

عندما سمح له صاحب الأرض القبلية ببناء كوخ طينى عند حد الزراعة الموزاى للطريق، ليتخذ منه سكنا ومقرا يطل منه على الرائح والغادى، أو من يبغى إلحاق ضرر ما بالزرع، ليحوش أى غريب قد يأوى خفية بين عيدان الذرة، بمجرد أن أتم السقف بيديه، سعى إلى إتمام نصف دينه.

عندما قصد أباها، كان على باب الله، أرزقيا، بسط حاله وفسر أمره، قال لوالدها السقّاء:

ـ بنتك فى رقبتى.

هذا ما تمناه السقاء، فالعمر يتقدم به، وظهره يميل وينحنى، لم تعد الصحة مواتية، والدنيا وحشة، خاصة أن البنت وحيدة، لا قريب أو بعيد.

بعد رحيل أبيها فجأة، لم يعد لها إلا رجلها هذا، غير أنها لم تنجب ثلاثة أعوام، عللت الانقطاع عن الخلفة بما جرى لأمها، إذ قضت أربع سنوات حتى حملت، ولأن قلقها كان بالغا، مضت إلى أحد المشايخ المشهود لهم، كتب لها حجابا تعلقه على صدرها، أوصاها بأمور معينة نفذتها بدقة، كما استجابت لوصفة امرأة عجوز، فتحينت الفرصة حتى خطت فوق رجل ميت لم يدفن بعد، كان غريبا يعمل فى وابور الطحين، كان ينام فى عشة من البوص ناحية الجسر، يبدو أنه نسى اللمبة الصغيرة مشتعلة وسقطت فوق القش الذى يغطى به الأرض، هكذا قيل، عندما مددوا الجثة المحترقة خطت فوقه مرتين.

مع بدايات العام الجديد انتابها دوار، وعافت نفسها أطعمة، وتاقت إلى أخرى، الحق أن الرجل لم يقصر، راح وجاء، طرق باب هذا وذاك، منعها من الخروج لحمل الأوعية، أو ملء الماء، كان حنونا، كريما مع وعورة أحواله، يضيق على نفسه باللقمة، لا يأكل إلا ما يتبقى فى البيت، هذا حاله منذ أظلهما سقف البيت، أما فرحته بمجيء المولود فما تزال تذكرها فى قعدتها هذه، كأنها ترى اللحظات المولية، النائية، أمامها.

لن تنسى أبدا جريه حتى بيوت القرية يوم أن جاءها المخاض، إجهاده المشبع بالفرح، وتطلعه الصامت إلى ابنه.

ـ « والله لأربيه أحسن تربية . . » .

كان يقول دائما إنه يطلب من العلى القدير أن يطيل عمره، أن يمد فى أجله حتى يراه واقفا على قدميه، أن يجنبه ما رآه، ما كابده

هو، مع توالى السنين بدا واضحا أنه هو فرحتهما الوحيدة، لم ينجبا غيره، وضع أمام عينيه مقصدا، أن يتلقى الولد تعليما، ألا يعرضه للمهانة، وبقدر فرحه بصحبته له، بقدر ما حرص على إبقائه بعيدا عند زيارته لصاحب الأرض، أو بعض الأعيان في الناحية ممن يعطفون عليه، أو يهبون له المساعدة، من زكاة المال، أو فى الأعياد والمناسبات، وعندما كان أحدهم يهبه بعض الملابس المستعملة التى لم يعد لأولاده حاجة بها، كان يأخذها تأدبا، لكنه لم يقدمها إلى ولده قط، لم يرتد ابنه إلا لباسا جديدا. . . كان يعمل فى الأرض طوال اليوم، وإذا سمع عن أحد فى حاجة إلى عمل مؤقت بالقرية يمضى فورا، كأن يشارك فى بناء ما، أو تفريغ حمولة، أو الخدمة فى عرس، أو مأتم، وفى أيام بطلان العمل فى الأرض يسعى إلى البندر القريب، يغيب اليوم كله، لكنه لا يقضى الليل بعيدا عن ولده وامرأته، يعود ومعه طعام، لم يكف، لم يهدأ، كان كالنحلة، ويوم حصول ابنهما، الحبيب، الطيب، الهادئ على أول مرتب، جاء الأب وقعد بجوار الأم، ربما فى نفس المكان الذى تلزمه الآن، طال صمتهما، هكذا اعتادا فى لحظات الفرح القصوى، فى لحظات الحزن الأشد لا يتبادلان اللفظ المسموع، أو العبارة المصاغة، ماعنده يصلها وما لديها يبلغه بدون محاورة.

ـ «أشعر أن الله عوض علينا. . ».

الولد نبتة طيبة، طالع لأبيه، وفى أيام الأجازات كان يبدى الرغبة فى الحصول على عمل مؤقت يساعد به، لكن الوالد يجيبه. .

ـ «انتبه يا ولدى لدروسك وربنا يقدرنى. . . ».

وعندما نزل إلى الغيط، وحاول أن يخفف عن والده، أبى الرجل وأقسم، هل كان يبذل الجهد إلا ليجنبه ما شقى به هو؟ لم يكن الولد مدللا، مع أن أمه تخشى عليه من سريان الهواء، من أولاد الحرام، من كل ما يمكن أن يلحق به السوء.

كان الولد يعى ضنكهما، يؤرقه أنه غير قادر على المشاركة، خاصة أن الحياة تتزايد صعوبتها، والأحوال لم تعد تمضى كالزمن القديم، ضنًّا على نفسيهما حتى بالفراش، اشترى أبواه لوحا خشبيا، ومرتبة، وملاءة، وغطاء، أصرا على أن يكون هذا مرقده، أما هما فاعتادا افتراش حصيرة قديمة، يقول الوالد ضاحكا إنه لا يريح جنبه إلا الأرض. . .

فى ليالى سهره لا تغفو أمه، تقعد صامتة، لا تأتى حركة حتى لا تزعجه، تنشط إذا طلب منها شيئا، كوب شاى، لقمة، لم تنم فى حضوره، تغمض عينيها بعده، تفتحهما قبله، لو قلق فى عمق الليل تصحو، كأن ركنا خفيا من جهازها العصبى متصل به، لم تنفصل عنه طوال ليالى سهره، تمسك لمبة نمرة عشرة تحملها على مقربة منه لتضىء له السطور والصفحات، برغم إرهاقها اليومى كانت دائما راغبة فى بذل المجهود، وعندما امتدت أسلاك الكهرباء فى النواحى، وتخللت الأبراج المعدنية الحقول لم يكن عسيراً مد سلك بمصباح كهربائى، كان مريحا لعينيه، ساطعا فى العتمة، أثناء قعدتها يقول لها فجأة:

ـ «وبعد شغلى، أجيب لك تليفزيون تشوفى فيه الدنيا. . ».

عندئذ تقول:

- «تجيبه لبيتك يا ولدى . . ».

كانت، وكان أبوه، يتمنيان، يطلبان من العلى القدير أن يصلا به إلى الشهادة العالية، لكن الزمن أصبح غير مساعد، ظهر الأب بدأ يميل، والطورية لم تعد تطاوع يده، أصبحت ثقيلة على ذراعه، والحاجات فى غلاء دائم، القرش الذى كان يكفى بالأمس صار قاصرا اليوم.

هنا أقول إننى لم أر هذا الفتى، لم ألتق به قط، لن أصغى إلى صوته أبدا، كل ما شفته ثلاث صور تمسك بثلاث لحظات من زمن دراسته، أطلعنى الأب عليها قائلا:

- «كان زينة الشباب . . ».

والله كأنى عرفته، كأنى عايشت بعض أيامه فى هذا البيت الطينى المتواضع، بل أزعم أننى اطلعت على بعض خلجاته، ولحظات من توحده وتوارد الخواطر عليه . .

اعلموا يا صحب أن قلبى كان على أبى، كما كان قلبه على أبيه، كذا الرغبة فى تخفيف الحمل؛ لذا لم يكن عسيرا علىَّ إدراك ما كان، الجوهر واحد وإن اختلف الظرف.

كرر دائما رغبته فى شيل الحمل عن أبيه، حدثها عن سرير سوف يشتريه ودولاب، عن ترتيب البيت، بياض جدرانه، عن فتح نافذة على الجدار البحرى، الطريق إلى الجامعة طويل، أما المدرسة الزراعية فثلاث سنوات لا غير، ستمضى بسرعة، يلتحق

بعدها بالعمل ملاحظا زراعيا فى المنطقة، لن يضطر إلى التغرب، سواء فى دراسته أو بعد عمله، المدرسة قريبة.

قال الأب إن الخيرة فيما اختاره الله، كان بوده أن يمضى معه حتى نهاية الشوط، لكن العين بصيرة واليد قصيرة، وقتئذ لم يكن يرجف الأم إلا احتمال بعده عنها، لكنها لم تفصح، لم تهن أمامه أو تضعف، حتى لا يطرق دربا على غير هواه.

يعلم الله كيف انقضت هذه السنوات الثلاث، أعوام ثقيلة، طويلة، غير أنها مرت، انطوت بما حوته من مشقة وضنى، غير أن الأيام إذا كانت تذهب بالصعب، فإنها أحيانا تأتى بالأصعب، أو كما قيل.

ومن عادة الأيام أن صروفها إذا سر منها جانب ساء جانب، الوظيفة لم تنتظره بعد حصوله على الشهادة، بدأت تسمع عن كثيرين سبقوه وما زالوا فى بطالة، وأن خريجى مثل هذه المدارس يفيضون عن الحاجة، وأن الحكومة تتراجع فى تعيينهم.

مضى أبوه إلى صاحب الأرض وهو رائج الحال، له بالجهات صلة، وعده خيرا، ذهب ليطرق باب عضو الهيئة البرلمانية عن الناحية كلها، ولكن ما من فرج لاح، وما من حل بدا.

كانت أمه تلحظ ضيقه، تدرك أمره، تود لو أعانت، لكن.. كيف؟ ما آلمها ملاحظتها حرصه، إنه يعمل حسابًا للّقمة التى يأكلها، بل إنه يتحرك كضيف، كأنه غريب، زائد عن الحاجة، مكسور الخاطر، يتجنب الحديث إلى والده مع أنه لم يقصر، سعى

إلى هنا، إلى هناك، لكن الدائرة واسعة، وبصره لا يدرك الحواف، قال يوما إن الشغل ليس عيبا، وأنه سيقصد البندر، سيعمل أى شيء ما دام بعيدا عن المهاوى، ليته لم يذهب، ليته بقى فى البيت، بل.. ليته لم ينه دراسته، فى إحدى الليالى عاد مبتهجا، تذكر أمه ملامحه المرهقة، قال إنه حصل على عمل بالمدينة القريبة، أفضل من انتظار الوظيفة بطالا، قال إنه يقطع التذاكر فى السينما الصيفى، الدار الوحيدة فى المدينة، المشكلة أن عمله يقتضى السهر، الطريق ينقطع فى الليل، لا يمكنه العودة إلا إذا استأجر عربة، هذا لا يقدر عليه، لحسن الحظ أن صاحب السينما وافق على قضاء الليل فى دار العرض، فى الصباح يعود إلى والديه، يمضى معهما ساعات النهار، كان يصل دائما مجهدا، وبمجرد تناوله اللقمة يحط رأسه، ينام، لا يوقظه قرع الطبل، تطل عليه بحرص، تبسط يدها، تحيطه بالرقى والتعاويذ والأدعية.

لن تنسى أبدا يوم مجيئه بأول خيره، بدا متهللا، جاء بحلوى ومنديل جديد تعصب به رأسها، بسط يده إلى أبيه بورقة مالية، عشرة جنيهات، فيما بعد أمسكتها، وحدقت فى رسومها، قبلتها ودعت له بالستر وحمايته من أولاد الحرام، لن تنسى ملامح أبيه، لحظة استناده إلى الجدار، لزومه السكينة، نزول الصمت عليه، تحديقه إلى الورقة المالية أم عشرة، كأنه لا يدرى ما يقول، هذا أول خير من وحيده، الولد لم يحتفظ لنفسه إلا بجنيهات أربعة، مصاريف الطريق.. لكن يا ليت دام ذلك!

لسبب ما أغلقت دار العرض، وقيل إنها ستتحول إلى ورشة نجارة، لم تدم فرحة الابن لكنه لم يشأ العودة إلى قعدة البيت، طال غيابه فى المدينة، لم يفض لوالديه، غير أنهما ألما بما كان فيما بعدمن أقرانه، وممن عرفوه، وممن جاءوا إليهما لبث كلمات الصبر، وإبداء الشفقة، ليته لم يفارق.

تقلب فى أعمال شتى، خدم فى مقهى، وحمل أجولة القمح فى مخبز بلدى، ونادى على سيارات أجرة فى موقف المحطة، باع علب الكبريت وأربطة الأحذية والأقلام فى القطار البطىء، وعمل عدة أسابيع فى معرض مؤقت للكتب أقامته جمعية الشبان المسلمين، حاول الحصول على القرش الحلال لكن لم يستمر شىء من هذا، بعد أن انقضى وقته، علمت مصادفة أن بعضهم ضربه، هددوه إن عاد للعمل مناديا على عربات الأجرة أمام المحطة، عندما أيقنت صرخت «يا ولدى»، رفرف قلبها فى صدرها، كيف تلقى الألم، أكان يعانى ما لا طاقة له به؟ كيف تحمل؟ هو ضئيل الجسد، نحيف البنية، هو الذى لم يضرب مخلوقا قط، أشفقت، رثت حتى بكت مع أنه كان نائيا، النأى كله، بعيدا، قصيا، لا يمكنه أن يسمع، لا يقدر أن يرى بعد انتقاله إلى العدم.

ليته لم يرحل، مر يتلوه مر، وشقاء يتبعه شقاء، لكنها لم تعتد التدخل أبدا فى أموره، ولا إبداء الرأى فى صحبه، فلم يلح منه إلا ما يطمئنها، لم يرفع صوته فى مجادلة أو مناقشة، لكنه عندما قعد أمامها، وقال إنه لا مفر من السفر، لم تدعه يكمل . .

ـ لا يا ولدى . .

لا ، البعد جفا والغربة صعبة ، لا ، إنها لم تطق مجرد تصور أنه فى ناحية وهى فى ناحية أثناء دراسته ، فكيف يغيب عنها فى بلد آخر ، بلد لا تعرف عنه شيئا ، هذا ما لم تتصوره يوما ، ولا ترجوه أبدا ، هل ضاقت السبل؟ هل شح الطعام؟ هل انعدم موضع الرقاد؟ أبدا أبدا .

قال إن الحكومة توقفت عن تعيين أمثاله ، ولابد من واسطة قوية لا هو ولا أبيه يعرفان الطريق إليها ، عدد من أصحابه سبقوه ، بعد شهور من سفرهم فاض خيرهم على أقاربهم ، بل إن بعضهم بدأ يبني أو يعيد بناء بيته القديم ، إن وضعه جيدا ، إنه وحيد ، معفى من أداء الخدمة الإلزامية ، لم يغب فى الجيش السنوات التى كان لابد من غيابها ، فلتعتبر مدة سفره غيبة مماثلة .

لم تلن ، لم تهن ، جادلته ، هذه بلاد بعيدة ، ظروفها غير الظروف ، وناسها غير الناس ، هناك سيكون بمفرده ، وحيدا ، ضعيفا ، حتى لو كان فى صحبة ، تغور الغربة وسنينها ، ما لديهم يكفى ولو كان قليلا ، هل حدث أن ناموا ليلة بدون طعام؟

قال إنه ما زال يفكر ، لماذا تحزن؟ هل رأته يحزم حقائبه؟ بعد أسبوع ، لا . . بل عشرة أيام جاءها متهللا ، التحق بعمل فى البندر ، كاتبا فى شركة نقل ، هدأت ، دعت بتيسر الأحوال ، لمدة سنة لم يطرق موضوع السفر ، أحيانا يخبر عن صاحب له غادر متجها إلى هذا البلد أو ذاك ، فتصمت مخافة أن يتطرق إلى مناقشة ، لكنها فيما بعد أدركت أنه كان يدخر بهدوء فى مكتب البريد ، وأنه يقتر على نفسه حتى يجمع ما يجب أن يدفعه لمكتب السفريات فى عاصمة المحافظة ، لم يكن ثمة مفر من دنو تلك

اللحظة التي تستعيدها مرارا في تلك القعدة، تذكرها بأسى، بخوف، كأنها ستحل: مع أنها كانت وانقضت.

لما أيقنت من وقوع المقدر، حاشت نفسها عن إبداء الدمع، قالت لنفسها: إذا كان ولابد، فليسافر ومعه صورتها باسمة، مشجعة له، يا عالم، متى يلتقي الحي بالحي؟

رتب حقيبته، وأوصته، وتمنت له، وفي الليل ولت وجهها شطر الجدار، عضت شفتها، ونزلت دموع عينيها، حتى الفجر لم تكف، لكنها عندما وقفت في بداية النهار تحمي الفرن، وترمي الحطب داخله، حرصت أن تمنع دموعها، وأن تظهر البشر، أعدت الفطير، واللبن، وجبنا حلوبا، تظاهرت أنها تأكل وأنها تبلع، وعندما ضمها إليه بقوة، مالت لتقبل يده. . أليس وحيدها؟ أليس هو حصاد العمر؟ فوجئ. . إنها المرة الأولى، سحب يده قبّل رأسها، قال إنه يسافر من أجلها، تمنت لو قالت له، إذا كان الغرض هي فإنها كارهة لسفره هذا، ليبقى، ودت لو تقول له، صعب عليها غياب طلاته، رحيل حضوره من البيت، لكن. . لم يكن بيدها من الأمر شيء، كان أبوه صامتا، كأن أيادي خفية تحركه، لو حل بينهما الآن، فلن يعرف والده، تضحضح الرجل، مال، وزاغت عيناه، لم يعد قادرا على حمل الطورية أو السعي إلى بيت صاحب الأرض للخدمة، صار يجول في شوارع القرية، ينتظر عند باب الجامع، يردد على مسمع من الخلق برنة باكية، أن ضناه عمره «ماعيي»، عمره ما اشتكى، وأنه لو عاش لكان عنده الآن كذا، كان نفسه أن يرى أحفاده قبل

رحيله، ولكن صاحب الأمانة استرد أمانته، فهل يعترض؟ هل يكفر على آخر العمر؟ صار أبوه يخاطب من يعرف ومن لا يعرف، يسأل الناس ويمد يده، وهذا ما لم يفعله قط طوال حياة الغالى، فأخشى ما خشيه، أن يسمعه أحدهم كلمة عندما يكبر، ولكنه الآن هائم على وجهه، بل أحيانا يغيب ولا يرجع إلا بعد منتصف الليل تاركا امرأته وحدها، لكنه لم يقض الليل بطوله بعيدا أبدا، بعد وصول جثمان المرحوم فى صندوق، راح الأب يكتب إلى جهات شتى إلى وزارة العمل وإلى الشئون الاجتماعية، إلى الصحف، كان يقعد إلى أحد أصدقاء ابنه ويملى شارحا حاله، ثم يقص عن ابنه، ثم يطلب المساعدة، فالقوى وهنت، ولم يعد بمقدوره، وإلى الجريدة التى يعمل بها صاحبى وصل أحد خطاباته، وعندما أقبل علينا، بقيت الأم فى قعدتها، وبادرنا قائلا : إن ولده كان جميل الصورة حلو اللسان، لم ينطق العيب قط، لم يخلف وراءه ضغينة، وإنه لم يذهب إلى طبيب فى حياته، لكنها إرادة الله، إرادة من بيده الأمر، قال الأب إننا أول من نستجيب لضراعاته، لشكاواه، ثم انقلب إلى داخل البيت فجأة عاد ملوحا بخطاب، قال إن إقامة ولده لم تدم، وإنه مع ذلك لم يرسل إلا خطابا واحدا، ليس له ثان، قال فيه إنه بخير، وإنه مع صحبة طيبين، وإنهم يعملون فى مقهى، صاحبه يحب المصريين، عاشقين لصوت أم كلثوم، ولمحمد عبد الوهاب، وإنه يسمح لهم بالنوم فى حجرة ملحقة بالمقهى، وإنه تعرف على مصريين كثيرين هنا، وكلهم يد واحدة، إن نومته مريحة، وأكله جيد، وعما قريب سيرسل إليهما كسوة الشتاء . .

وهذه حكاية نزيف

. . اعلموا يا صحب، يا من ستقيمون الصلة بى عبر حروفى تلك، أن عددا قليلا جدا من الناس يذكرون الآن المهندس الذى تخصص فى علم طباعة الكلمات والتصاوير قليلون أولئك الذين يذكرون شيئا ولو يسيرا عنه، أو يرد على أفئدتهم طيف عابر منه، أو يستعيدون جملة عابرة نطقها يوما، أو معنى أفضى به، يمكننى القول عن ثقة: إن بعضا ممن انتسبوا إليه نسوه، لم يعد يعنيهم إلا صرف معاشه، أو مكافأة من هذه الجهة أو تلك، إذ تقلب فى أعمال شتى . . داخل مصر وخارجها، لا أبالغ، وإنى لقاص عليكم من أخباره شيئا، إذ عرفته على فترات متباعدة، وأحيانا عن قرب. سمعت منه وعنه؛ لذا أحطت بأموره علما. وما لم أعاينه خمنته، واستنتجته.

اعلموا أنه يكبرنى باثنتى عشرة سنة، ولد فى بيت من طابقين بحارة صغيرة سد، لا تؤدى إلى أى شارع أو درب، تقع قرب قلعة الجبل، يمكن للواقف عند مدخلها أن يرى مآذن مسجد محمد على. من يومه بدا هادئا، لا يبدى أمور الشقاوة التى

يعرفها الصغار، ومما ردده أبوه عنه . . أن الولد فالح من يومه، لم يلعب في الشارع، لم يشط، لم يتسبب في مشكلة مع الجيران، كتب اسمه على لوحة الشرف في المرحلة الإعدادية، كان بارعاً في الرياضيات واللغة الإنجليزية، تنبأ له أساتذته بمستقبل نضر، إما في الطب وإما في الهندسة.

فعلا التحق بالهندسة، وبعد تخرجه عمل في المطبعة الأميرية، كان ممكنا أن يمضي بها حياته، يترقى من درجة إلى درجة، لكن حدث أن مدير أحد الأقسام استقال يوما، وقيل إنه عمل بمطبعة صحفية كبرى، وإنه يتقاضى ضعف مرتبه، بعد شهور من استقالته التقى به في ميدان سليمان باشا.

كانت نزهته الأسبوعية المضي إلى وسط المدينة، يمشي من القلعة إلى شارع محمد علي، فميدان العتبة، يعبر ميدان الأوبرا، إلى الشوارع المضيئة، يتفرج على الواجهات، يتابع الفتيات، يقتفي خلواتهن واهتزاز أرادفهن بنظراته لا غير، حتى إذا أعجبه قوام، أو حضور أنثوي طاغ، ثبت ملامحه في الذاكرة، عند عودته قبل نومه يتمدد على ظهره، يسترجع القسمات والخطوط المحددة والتأود اللين، يضاجع الصورة المستدعاة.

أمام دار سينما التقى بزميله، سأله عن الأحوال، فقال إنها طيبة، قال بعد ثوان من الصمت:

ـ والله أنت ابن حلال، هل تصدقني إذا قلت إنني كنت أنوي الاتصال بك؟

ـ خيرا!

طبعا كل خير، اقترح عليه أن يأتى معه، العمل فى حاجة إلى من هم مثله، الظروف أفضل، المرتب أحسن، فرص الترقى مفتوحة، إمكانية السفر إلى الخارج متاحة.

أصغى، لم يقل نعم، لم يقل لا، اقترح صاحبه أن يفكر، تلك مواعيده التى يمكن أن يزوره خلالها.

هذه الليلة رجع مشيا، ذهنه خلو من أى وجه مليح، أو قوام تثنى فى مجال ناظره، مشغول، مهموم بما سمعه، من طبعه ألا يتحمس فورا، ألا ينفعل للتو، إنما يأخذ ما يقال له بحذر، وعندما يحسم الأمر تتدفق حماسته.

أطلع أباه، أطرق الرجل، طلب منه انتظار الجواب إلى مابعد صلاة الجمعة، بعد قراءة سورة الرحمن ونيل بركتها فكر واستخار، ثم قال لابنه:

ـ اعزم وتوكل!

نصحه أن يحزم أمره، المستقبل كما هو واضح.. أكثر اتساعا..

فى هذه الليلة نام يتعجل مجىء النهار ليمضى إلى زميله القديم.. سعى إليه، لم يجده، فى اليوم التالى كان غائبا أيضا، قال لنفسه إذن يبدو النصيب وعرا، إذن لينصرف بعد أن يخط له خطابا، إذا كان فى حاجة إليه فعلا، فليرسل إليه.

عند باب المؤسسة فوجئ به أمامه، اعتذر، اضطر للذهاب فجأة إلى المطبعة القديمة، صحبه إلى داخل المبنى، جال به، أبدى راحة لما رأى، وما سمع، لم يمض شهر واحد إلا وتسلم عمله.

بدأ سعيدا، متفانيا، باذلا الهمة، توثقت صلته بزميله هذا الذى تمت النقلة على يديه. خرجا معا فى نهاية الأسبوع. وعندما دعاه إلى بيته لبى، ولما استقر فى غرفة الاستقبال، نفذت إليه رائحة الاستقرار. وجود أسرة الستائر المسدلة، الهدوء، الأثاث النظيف، الكلمات الهادئة المتبادلة بين الزوج والزوجة، لكن كما قيل الحلو لا يكتمل. عرف أنهما لم ينجبا، وأن أعواما عديدة مضت، وفيما بعد لا يدرى كيف علم أن العيب من الزوج.

حتى ذلك الوقت كانت الشواهد كلها تؤكد أنه لم يعرف امرأة، لم يدخل فى علاقة، كان إذا لفتت نظره أنثى يخفى إعجابه. بل يخشى أن تفلت منه إيماءه أو نظرة، أو تتلون كلمة من لفظة تشى ببعض مما يكتمه، هذا ما عرف عنه، وكان لزوجة زميله هذا ـ أو بمعنى أدق رئيسه فى العمل ـ شقيقة تصغرها بعامين. تخرجت فى كلية التجارة، ولم تعمل بعد.

الحق أننى لا يمكننى القطع إن كانت المصادفة مدبرة، أم أن الأمر تلقائى، المؤكد أنه لقى نفسه بمفرده مرتين فى مواجهتها أثناء تردده للزيارة، لمدة قصيرة جدا، لكنه ارتبك، لم يدر ماذا يقول خاصة عندما سألته عن عدد قطع السكر التى يفضلها فى الشاى، وقربت منه طبق الفطائر، بعدها لزمت الصمت، أطرقت حيية، غير أن نظرة مارقة، عابرة، كانت كافية أن يحتويها، ويحيط

بحضورها . . يتمكن منها، هكذا قال لنفسه : إنها جميلة وأهلها ناس طيبون .

بعد الزيارة الرابعة عزم أمره، وتوكل . قال والده إن الخيرة فيما اختاره الله، المهم . . الأخلاق .

طوال فترة الخطبة التى استمرت عاما وثلاثة أشهر، اعتاد الذهاب كل يوم جمعة لتناول الغداء بصحبة أسرتها، كانت تقعد إلى جواره أثناء تناول الطعام، تبدى اهتماما به، تداعبه أمها، توصيه بابنتها خيراً . ثم تفيض فى الحديث عن خصالها، عن سماتها وخجلها القديم، تطرق الابنة، ترجو أمها أن تكف .

لم تتح له فرصة الخلوة بها فى البيت، لكنه عندما خرج بصحبتها أول مرة داعيًا إياها إلى أحد المقاهى الإفرنجية على النيل، أسلمت له يدها، فسرى عبر شرايينه دفق جديد عليه، وإن حار فيما يجب قوله، حتى إن اللحظات الأولى انقضت بدون أن ينطق حرفا، ربما اجتهد فى استدعاء حوارات دارت أمامه فى الأفلام، أو ما قاله زملاء الدراسة عن مواقف كهذه، ضرورة تشابك الأيدى، والمرور بمهل على راحة اليد، هذا مما يحنن الصاحبة، أما الكلمات فلابد أن تعنى بمظهرها، بطريقة تصفيف الشعر، لكنه لم يطرق شيئا من هذا، إنها خطيبته، ستصير أما لأولاده، ليست مغامرة عابرة .

حدثها عن الطريق الذى اعتاد أن يسلكه، عن الشقة، عن أثاث البيت، وما يجب إعداده وتجهيزه، وما يمكن تأجيله إلى مرحلة تالية . . . مع اقتراب عقد القران والدخلة تحدثا طويلا عن

المدعوين، من يجب دعوته من أقاربهما . . من ناحيته هو قال : لن يأتى إلا والده وشقيقته الصغرى، معظم أقاربه فى الصعيد، لو فتح الباب لجاء العشرات، ولضاق المكان بهم.

يبدو أنه قال ما قاله ليقابل بفعل مماثل، تكاليف الفرح سيتحملها هو، إنها ليست هينة، كان ممكنا أن تقل لو أقيم فى دار النقابة، غير أنهم أبدوا عدم رضاء، أختها الكبرى تزوجت فى النادى، إن لم يكن المكان أفضل فليس أقل، الحقيقة أنها لم تجهر بالرفض، لم تقل نعم، لم تقل لا، لكن عدم الرضا بان عليها خاصة عندما حادت بنظرتها، عندئذ يطوى كل ما قرر التصريح به، اشتداد النفقات.

الحق أنهم أثقلوا عليه، وحملوه ما لا يطيق بمقاييس هذا الزمن، لكنه لم يتسبب فى أى مشكلة، لم يعترض مدفوعا برغبته فى رفع رأس البنت أمام أسرتها . . فى الظهور بما لا يقلل من شأنه. كما أنه أخفى عن والديه التفاصيل، ردد دائما أن كل شىء يمضى على ما يرام، وأنهم قوم كرام، مع أنه ضاق أحيانا، حتى فكر فى فسخ الخطبة . . فى التراجع، وهو ما زال بعد فى البداية.

حدث ذلك مرات، ولأسباب مختلفة، منها على سبيل المثال ما جرى عند التفاهم على الشبكة، إصرارها على أن تكون مما يليق، ألا تقل عن تلك التى قدمت إلى شقيقتها، أسورة من الذهب محلاة بجنيهات جورج الخامس، ألا يقل عدد الجنيهات عن سبعة، وخاتم من الذهب الأبيض عليه فص ماسى، لا يقل

عن اثنى عشر قيراطا . . هذا ما جاء لشقيقتها . طبعا إذا أضاف من عنده فهى عروسه . وكله يعبر عن تقديره لها . .

لسنوات تالية لم ينس عصر ذلك اليوم الذى أعلنت فيه الأم مطالبها ، بعد شرب الشاى تراجعت قليلا إلى الوراء ، لم تتخل عن ابتسامتها المجاملة ، غير أن كلماتها بدت محددة ، حاسمة ، إيقاعها أصولى لا يمكن مناقشته ، هز رأسه مرات . لم ينطق ، لاحظ انسحاب خطيبته عند بدء الكلام ، أما الأب فأطرق صامتا ، راح يدحرج حبات مسبحته ، وعندما أمعنت الأم فى التفاصيل ، قال الأب :

ـ يا ستى . . دعيه هو يختار . .

لوحت بيدها :

ـ والنبى لتسكت . . أنا لم يعد عندى غيرها . .

هو نفسه تحدث فى جلسة أخرى ، بينما لزمت الأم الصمت ، بدأ يذكر مثلا شائعًا ، ثم أتبعه بمثل آخر «الله ، الله على الجد ، والجد الله الله عليه ، الطريق اللى أوله شرط آخره نور ، إنه يرى فيه ابنه ، هو الذى تمنى ولدا ذكرا ، لكنها إرادة الله سبحانه وتعالى ، الذى يعطى ويمنع ، إنها الوحيدة الباقية ، ربنا أكرم شقيقتها بالزواج الصالح ، وبيتها عامر الآن ، طبعا أنت زرتهم وشفت . . » .

لم تخف عليه الإشارة ، وعندما بدأ التصريح كتم ضيقه ، ما آلمه ، ما نال منه ، هذه اللهجة الباردة المحددة ، التى تحمل من النُذر

بقدر ما فيها من تفصيل، تحدث الرجل عن الشقة، عن ضرورة أن تكون من أربع غرف، لابد من عمل حساب المستقبل، هناك أولاد سيجيئون بإذن واحد أحد، ثم أشار إلى الأصول. . أكد أنه لن يبخل بجهد على ابنته، ليس عنده الآن غيرها، المطبخ كله من واجبات العريس، أيضا سخان الحمام، والنجف والسجاد، السجاد بالذات يفضل أن يكون ست عشرة عقدة، كذلك الستائر عليه. .

هنا قالت الأم:

ـ «ودولاب الفضيات. . ».

أشار الأب بيده:

ـ «بعد، بعد، هذا من الكماليات، طبعا هو حر، إنه بيته. . ».

أكد مرة أخرى على السجاد، السجاد بالذات، اليدوى أفضل، قيمته فيه، كلما مر عليه الزمن أزداد سعره، تماما كالذهب. .

قال إنه لابد من تكسية الجدران بورق حائط قابل للغسيل، أما النجف فلابد أن يكون من الكريستال الحقيقى الصافى، هناك أنواع من البلاستيك يظنها من لا خبرة له أنها كريستال، لكنها ليست كذلك؛ لذا يجب. . الانتباه الوسائد. . مرتبة السرير. . تنجيد مقاعد حجرة الاستقبال. . أوانى الزهور. . من مسئولياته، أيضا فإنه لا ينصح بموقد محلى الصنع، من الأفضل أن يكون مستورداً، يمكن شراؤه من السوق الحرة بالدولار،

لا يسألون عن مصدر العملة الصعبة الآن، أما الدولار فمتوافر فى السوق السوداء، مهم الموقد جدا.

ـ «ياسلام لو أمريكى الصنع..».

صحيح أن السعر مرتفع، لكن الغالى ثمنه فيه.

ـ «عند شقيقتها موقد ممتاز يعمل بالبوتاجاز والكهرباء..».

كان إصغاؤه إلى هذه التفاصيل ثقيلا عليه، يومئ متمنيا انقضاءها بسرعة، بل إنه ينكمش فى جلسته، يلملم ذاته، يتساءل، لماذا يعاملونه هكذا؟ لم يشأ إغضابهم، لم يرد طلبا مادام فى قدرته، لكن لماذا يضغطون؟! لماذا تبدو كلماتهم حادة، صارمة؟! تفاصيل تؤدى إلى تفاصيل، والتلميح لايدوم، إنما يسفر عن تصريح حاد، محرج، ملزم.

كان ينصرف عند الزيارة وعنده كمد، وثقل داخلى، ود لو أفضى إليها بعتاب يسير، ألا تدرك ظروفه؟ ألم يتعاهدا على استكمال بيتهما خطوة؟ خطوة؟ لا يبخل، لايشح، لماذا يُحمل بما لايطيق؟ لماذا تتوارى مبتعدة عند بدء الحديث فى الأثاث.. والستائر، وأدوات المطبخ، ومكان إقامة الفرح؟ إنه يضطر إلى تبديل الخطة، يضطر إلى الإقدام على ما كرهه منذ تخرجه، أن يلتحق بعمل إضافى فى مطبعة يمتلكها رجل ثرى عنده مصنع للصابون، وشركة لعربات النقل، كان بحاجة إلى من يثق به ليدبر له أمور المطبعة التى ورثها عن أبيه، اضطر إلى التضحية بساعات فراغه وراحته.

لسنوات طويلة، كره النظر إلى الأسورة الذهبية المحلاة بسبعة جنيهات ذهبية من عصر جورج الخامس، كان ثمنها مرتفعا أخل بما ادخره.

أثناء خطبتهما، كان أقارب لها في زيارة، بعد تناولهم الغداء، قعد صامتًا، كان لا يرتاح فى جمع غريب عنه، يشعر أنه يقوم بدور فرض عليه، أنه خلع عنه هويته، أودعها فى مكان غريب، قامت حماته، عادت بعلبة القطيفة الحمراء مفتوحة، ترقد الأسورة فى كفنها المخملى، طافت على الحاضرين باسمة، راضية، متباهية، سرى عبره خجل، ود لو توارى، لماذا عرض الشبكة؟ مالزوم ذلك؟ تذكر يومًا بعيداً عندمًا صحبه أبوه إلى فرح أحد الأقارب، بعد قراءة الفاتحة، طاف شقيق العروس يعرض الشبكة على المدعوين . . أسورة وقلادة وخاتم وحلق، كان بعضهم يمعن النظر، يطيل التأمل، يتفحص، يقلب، ثم يهز رأسه، فينتقل الشقيق إلى آخر.

لكم ود انقضاء هذه الفترة، معللاً النفس أنهما بعد انتقالهما إلى بيتهما، بعد بدء حياتهما، ستبدأ أوضاع جديدة، وتتغير أمور، تمنى تغييرها.

هنا لابد من الإشارة إلى أن أحواله فى الشهور التالية لزواجه مباشرة لا يعرف عنها الكثير، كان يبدو صامتًا فى معظم الأحيان، على ملامحه تلك الابتسامة الهادئة، البسيطة، المستفسرة، والتى كانت تبدو إذ يواجه موقفًا صعبًا، وبالتحديد عند الشروع فى عدوان من الآخرين، باللفظ كان أو الرغبة فى

المضايقة، كأنه يتساءل بدون حرف، «لماذا . . إذا كنت لم أقدم على شر؟».

لكن من الثابت . . المؤكد، أنه عرف الطريق إلى المقهى، كان المقهى مرتبطا عنده ـ من قبل ـ بتبديد الوقت، برفقة السوء، وكثيراً ما استعاد قول والده، إنه لم يقعد بالمقهى إلا لضرورة.

كان في مطبعة الجريدة زميل له، مرح دائمًا، خفيف الظل، عنده قبول، صحبه يوما بعد انصرافهما ودعاه إلى تناول الشاى في مقهى يقع بالقرب من محطة الأوتوبيس، بعدها اعتاد أن يمضى إلى هذا المقهى، كان مطلاً على شارع هادئ يؤدى إلى باب اللوق المزدحم.

في البداية طابت له الخلوة، تعرف إلى عدد، اقترب منهم واقتربوا منه، برغم التزامه الصمت، فإنه كثيرا ما أفضى ببعض من دقائقه إلى صاحب كان يمتلك متجراً للعطور، وكان من محاسنه إجادة الإصغاء إلى محدثه، هادئًا، غير ذي ضرر . . وقد كمد عليه عندما عاد من الخارج في إحدى أجازاته بعد سنوات، وفوجئ برحيله فجأة، هكذا بدون مقدمات.

كان يقعد في الموضع ذاته عندما سحب نفس الدخان، ولم يخرجه، مال رأسه على صدره، سبحان من استرد أمانته، لا معقب لحكمه.

كان يدخل المقهى فلا يلقى أحداً من معارفه، عندئذ تدركه وحشة، يبدو قلقًا، يسأل عن فلان، ألم يظهر؟ وفلان. ألن

يأتى؟ يبدو مهموما لغيابه، مع أن أحدهم لو ظهر وجلس إليه ربما امتد الصمت بينهما ولا يجدان ما يقولانه.

دام أمره على هذا حتى سفره من مصر كلية، لم ينقطع عن المقهى سنوات متصلة، وبعد عودته كان يسرع فى أول ليلة، أحيانا ينادى المعلم عليه ليرد على الهاتف، على الفور يعرف، إذ يقترب يقول المعلم:

ـ «البيت..».

كانت تسأله عن أمور بسيطة، كأن تطلب منه ألا ينسى شراء بعض الخبز والشاى عند عودته، يدرك أنها تطمئن على وجوده، أو تنبهه إلى أنها فى أثره، لا تستغرق المكالمة أحيانا إلا دقيقة أو نحو ذلك.

بعد زواجه وإذ يطول صمتهما، تتساءل فجأة: فى أى الأمور تفكر؟

كان يجيب: لا شىء. تبدو غير راضية، تتساءل:

ـ هل هذا معقول، أنت لا تريد أن تخبرنى!

ثم تقول ضجرة:

ـ «كلمنى».

فيلتفت حائرا.. تقول:

ـ «هل تقعد ساكتا فى المقهى؟».

تلوح ابتسامته تلك، تشير بيدها.

ـ لا أدرى سببا لضحكك . . هل تسخر منى؟».

ينفى ذلك . . يقول إن الكلام يأتى تلقائيا، بدون قصد، لكن يبدو أن رده لا يعجبها، تعرض عنه، لا تلوح إلا مقطبة، لم يكن هذا إلا عين المضايقة منها، لكم ود مضى أيامهما بدون منغصات، يحرص ألا يغضبها، خاصة أن الأسباب المؤدية إلى الكدورات لم تكن إلا هينة، شاءت أن تضخمها، أو إبداء ردود فعل لا تتناسب، لم تكن تبادر بالغضب الفوار الجامح، لكنها كانت تنسحب إلى داخلها فى هدوء ممض، أو تجيبه بحيادية، وكلما أمعن فى الاستفسار، تنفى بما يؤكد الحال.

فى الشهور التالية لزواجه كان انتقاله من حياة إلى حياة، من بيت إلى بيت . . أمر له جانبه الثقيل عليه، بقدر ما انتظر من مباهج حياته الجديدة، قدر ما أدركه أسى، فما كان بينه وبين والديه وشقيقته لن يعود، خصص يوما كل أسبوع يخرج فيه من عمله ليتناول الغداء عند والديه وأخته . . فى المساء تلقاه امرأته صامتة، تجيبه بقدر، لا تسأله عما إذا كان يريد شيئًا، لكنها تقول له وهى تولى مسرعة إلى الداخل: «سأنام . . عندك الأكل جاهز فى المطبخ . .».

أصعب أوقاته وقتئذ ـ أفضى إلى صاحب له ـ بقاؤه وحيدًا، تغمره وحشة، يبقى بمفرده طوال الليل، كيف يواتيه النوم؟ . . هى بجواره وبعيدة.

فيما تلا ذلك باعد ما بين زياراته لأسرته، أحيانا كان يخرج من عمله قبل موعده بساعتين أو ثلاث عندئذ يهرع إلى والديه، عند دخوله يبدى العذر بعد العذر، يتعلل بانشغاله، وعمله ساعات إضافية، إذ تقوم أمه لتعد له الطعام يسارع إليها، يرجوها أن تستريح، ألا ترهق نفسها، إنما جاء ليطمئن، فى البداية كانت تستجيب، تقول:

ـ «البيت بيتك يا ولدى . . ».

لكنه أدرك أنه يحول بينها وبين ما تحب، أن تعد له الطعام، أحد واجباتها القديمة، تعرف ما يفضله، فيما بعد كان يقول بمجرد دخوله، «أنا جائع . . ».

وكانت ترجوه أن يخبرها بمجيئه مقدما، فيضحك قائلا: إنه لا يود أن يُعامل كضيف فى بيته، لكنه يعى أنها تفهم، ما عنده يصلها، بدون حوار منطوق، وعندما يصمت، وتطرق هى، عندئذ يتم الإفضاء والبوح، ولحظة انصرافه يصر على تقبيل يدها، يودع فيها ما لم يقله.

عند عودته إلى البيت يبدى النهم فى تناول الطعام، حتى لا تظن امرأته أنه مضى لزيارة البيت القديم كما كانت تسميه، لكم ود ألا يغضبها، ولكن تمنى أيضا ألا يسبب ألما لمن أحبوه بدون غرض!

لم يسفر، لم يظهر، ولكن من تصريحه ذى الدلالة، ما قاله يوما لصاحب فى لمقهى، إن النساء متشابهات، اللواتى تلقّين

التعليم منهن، الجامعى أو غيره، كذا من لا يعرفن القراءة والكتابة، غير أن صاحبه لم يوافقه، وضرب مثلا بالمرأة ابنة البلد، التى تلقت أسرار الحياة من أمها، انظر كيف تتهيأ للقاء رجلها، كيف تنتظره عند رجوعه، تتطيب، وتتزين، وتبدى الهمة.

مال عليه صاحبه، فى الأحياء الشعبية يعرفن أسرار النكاح عند البلوغ. . هذا مهم جدا بالنسبة للرجل، المهم أن تعرف المرأة ما يرضى رجلها.

قال صاحبه إنه يعرف أحدهم، متزوج منذ عشر سنوات، لكنه يخجل من مصارحة امرأته بما يرضيه، وما لا يرضيه، بعضهن يؤدين هذا كواجب، ثم قال صاحبه إنه يعرف امرأة متزوجة لا تتجرد من ثيابها تماما أمام زوجها، لا تسمح له إلا بأوضاع معينة، لا ترويه أبدا، قال إنه عرفها وكان بينه وبينها ما كان. . رأى منها عجبا، تتابعت رغباتها حتى إنه لم يستطع المواصلة لنهمها وغرابتها، كانت تقول إنها لا تحب رائحة زوجها، عرقه فظيع!

كان يصغى إلى ما يدور حول الجنس بين صحبه، لا يشارك إلا بقدر، لا يلمح ولو من بعيد إلى حياته الخاصة، قال صاحب له فى المقهى، متخصص فى صنع إطارات الصور. .

- «تصوروا أنه لم يعرف غير زوجته!».

غضب، انقطع عن المقهى أسبوعين، لم يرجع إلا بعد أن اتصل به ثلاثة من المقربين، وعدوه بالكف عن مثل هذه

المداعبات، إلا أنه فى ليلة تالية شارك فى الحديث فجأة، قال إنه يعرف شخصا كان زميله في المدرسة، التقى به بعد سنوات من تخرجهما. . راح يشكو خيبة أمله، أعد فى مخيلته برنامجا حافلا بالمتع، لكنه لاقى من امرأته صدودا وعدم مجاوبة، إنه يضطر إلى الاستمناء أحيانا، لم يتصور أن ذلك سيحدث وامرأة فى متناول يده. . ينام ملامسا جسدها بجسده وهى عنه مستعصية.

توقف، كف فجأة عندما انتبه إلى النظرات ذات المعنى المحدقة به، أنهى روايته قائلا :

ـ «عالم غريب. . ».

اعلموا يا صحب أنه ردد دائما أن امرأته طيبة. . مهمومة دائما بالبيت، وحاجاته، لم تقصر قط، خاصة بعد مجىء أولى البنات، بكريته، كانت أمه تسأله عن أحواله، عن امرأته، لم تصحبه لزيارتهم إلا مرة أو مرتين فى السنة الواحدة، وعندماتجىء تتكلم قليلا، تأكل ببطء، حذرة، متمهلة، حتى إنه أحرج غير مرة، ولم يخف عليه عتاب أمه البادى فى عينيها، فيما بعد قالت له :

ـ «ربما لم يعجبها الأكل. . ».

ثم قالت :

ـ «كل إنسان بما تعوّد عليه. . ».

بعد ذلك آثر ألا يصحبها، أحيانا يقول إنها تعتذر عن المجىء، فالدنيا مشاغلها كثيرة، وهى عندها الشغل والبيت، وأحيانا تنام لشدة إرهاقها : تقول أمه :

ـ «الله المعين!».

بعد عام من زواجه بعد احتفاله بالعيد الأول، لم يتبق إلا ثلاثة أشهر ويصير أبا، تأخر حملها مع أنهما لم يستخدما أية موانع، لا أقراص ولا لولب ولا عازل.. كانت تردد دائما رغبتها فى الإنجاب، ويدركها رعب أن تصبح مثل أختها. كانت شقيقتها تترد على مستشفى خاص لطبيب مشهور، بعد إصابتها بعقم لا ذنب لها فيه، وتفصيل الأمر أنها بعد حملها أول مرة أخبرها الطبيب المعالج أن فى الحمل خطرا، لا بد من الإجهاض.

لم يكن ثمة مفر.. لكن حدث أن الطبيب أوكل العملية إلى مساعده الشاب الذى كان غير ذى خبرة كافية، ويده لم تثبت بعد، تسبب فى ثقب الرحم.. إثر ذلك لم يتم لها حمل قط، رقدت على ظهرها ثلاثة أشهر كاملة كما نصحوها، غير أن الأمر بات مؤكدا، والنتيجة معروفة فى كل مرة، الحق أن رجلها أبدى فيضا من رقة وحنو، خاصة بعد تأكده انعدام الخلفة، لكن أملها هى لم ينقطع، طافت بأطباء عديدين، حتى استقرت مع هذا الطبيب الكبير، أجرت تحليلات وكشوفا سببت لها آلاما، ومعاناة، تعلقت بأمل اكتشاف علمى يوما ما يحل المشكلة لعل وعسى.

وأعود إلى امرأة صاحبنا، طلبت أن تكون الولادة على يدى هذا الطبيب المعالج لشقيقتها، إنه مشهور، يستضيفه التليفزيون، تشير إليه الصحف، وآخر ما ذكر.. أن امرأة سفير الدنمارك أرسلت إليه خطاب شكر تشيد ببراعته، وعنايته بها أثناء إجراء

عملية جراحية . . مما دعا الصحف إلى التعليق معتبرة هذا فخرا يجب الإشادة به .

أصغى إليها، لم يقل نعم، لم يقل لا ، لكنه أخفى ضيقا ، تكاليف المستشفى مرتفعة، لم تكن دور العلاج الاستثمارية قد ظهرت بعد، كان عقد السبعينيات ما زال فى بدايته، لم تلح بعد علاماته، برغم هذا كان ذلك المستشفى معروفا بارتفاع نفقاته، حتى تردد أنهم يحسبون سعر كوب الماء المقدم، على أساس أنها مياه معدنية مستوردة من نبع معين فى جبال الألب السويسرية!

لم يطلب منها الذهاب إلى مستشفى آخر أقل كلفة، الأمر يتعلق بمولود قادم، كانت تلمح إلى تردد شقيقتها عليه للعلاج، للعلاج من أجل ماذا؟ من أجل أن تحمل، وهما اللذان أنعم الله عليهما بالخلفة، هل سيبخل؟ هل سيضن؟ صحيح أن عديله أقدم، إنه ليس مجرد رئيسه فقط، إنما عنده أعمال أخرى تدر عليه دخلا، إذ تستعين به شركات طباعة لحل بعض ما يواجهها من مشكلات، خاصة فى الماكينات الألمانية الصنع، سنوات خبرته أطول، إنه أيسر حالا ، لكنه لم يشأ إبداء المعارضة، المولود القادم أول فرحتها، بل فرحتهما معا .

هل يثير المشاكل؟

لا . . لا داعى .

جهد يسير منه ويتوافر المطلوب، عاد ليعمل فترة بعد الظهر، لكن فى مطبعة أخرى، ساعده عديله هذه المرة كان يتقاضى من العمل الإضافى مبلغا يتجاوز ما يقبضه من الأصلى، فيما يلى

ذلك . . ولمدة سنوات لم ينس قط استعدادتهما لاستقبال المولود الأول، شراء الملابس، والمفارش، أحذية القماش الصوفية، أوعية الرضاعة وسائر ما يلزم.

كانت فى لحظات الصفوة، تبدو وديعة، مستكينة، تسند ظهرها إلى بعض الوسائد، تطلب منه أنه يضع أذنه على بطنها، كان يصغى إلى حركة الجنين، تنتابه مشاعر شتى لا يدرى كيف يعبر عنها. تقول هى:

- يبدو أنه شقى!

ثم تتوه بنظراتها فى الفراغ تتحدث عما ستجىء به السنوات المقبلة، لابد أن يبدأ البحث منذ الآن عن مدرسة لغات، المدارس قليلة، الزحام شديد، والوساطة مطلوبة من الآن.

تلك أفضل حالاتها، ترق، تشف، حتى إنها تطلب منه زيارة والديه، ألا يهمل السؤال عن أمه بالذات، يا سلام. . ياسلام على رضا الأم، لماذا يمضى وقتا طويلا بعيدا عنهما، لماذا لا يمر بهما؟ لابد أن يقبل أمه، يخبرها برغبتها أن تكون بجوارها يوم الولادة، أمه طيبة، بركة، لكن . . لماذا لا يمضى إليها الآن؟

تبدو عيناها دامعتين تأثرا، يؤكد لها أنه سيزورها غدا، يود لو أخبرها بزيارته الخاطفة السريعة، لكنه لا يفصح، فى اليوم التالى يمضى وقتا أطول عند والديه، حتى إنه يبدل ثيابه ويرتدى جلبابا تحفظه أمه له وتغسله بانتظام، تكويه وتعلقه، يتمدد، يغفو، تماما كالزمن القديم، بعد عودته، تسأله امرأته:

ـ «أين كنت؟».

الله! ألا تعـرف أنه مـضى إلى والديه؟ ألم تطلب ذلك منه أمس؟ عندئذ تهز رأسها . .

ـ «آه . . لكنك تأخرت . . ».

ثم تطوى ملامحها، فلا بسمة، ولا إيماءة، وعلى هذه الحال تتم يومـهـا، يدارى مـا به، إنهـا حـامل، والانفـعـال خطر على الجنين . .

هنا لابد من تأكيـد، أنه لم يبد لهـا ما عنده، لا قبل الحمل ولا بعده، كان يكتم، ويزفر أنفاسا حرى، يمضى إلى ركن قصى ناعيا ميل حظه وسوء بخته.

مع اقتراب موعد الوضع صارت أكثر عصبية، أصبح هو أكثر رقة، كل مساء يصحبهـا للمشى فى الشـارع، نصحهـا الطبيب بذلك، كـانا يقطعـان الطريق صـامتين عند نهـاية الأرصـفـة، أو النتوءات، أو يمسك بذراعها تلقائيا عند اقتراب غريب.

ليلة الوضع لم تكن هناك علامات غير عادية، لكن عندما بدأ الألم المتـقطع يتـردد عند منتـصف الليـل، نزل، اتصل من هاتف الصيـدلية المجاورة بشقـيقتهـا، مرت على والديهـا، جاءوا عند الفجر، وبعد أن دخلت الحمام، تبعتها أمها، خرجت معلنة أن علامة الولادة نزلت.

السابعة إلا ثلث صباحا خرجت المرضة من غرفة العمليات، كانت تحمل لفافة بيضاء، بدت مبتهجة، توقفت، طلبت إغلاق

النافذة العريضة فى نهاية الممر، عندما اقترب منها، أزاحت القماش.

ياه.. لم ينس هذه اللحظة قط، المواجهة، بين الأصل والفرع، وجه صغير دقيق الملامح، مغمض العينين، مصفر الوجه، شبه شديد لم يره فيما بعد بهذا الوضوح كما رآه من باكورة هذا الصباح، فيما تلا ذلك من شهور وأعوام تغيرت الملامح، كانت تقترب أحيانا، وتنأى، لكنه لن ينسى أبدا لحظة المواجهة الأولى تلك.

«عروسة زى القمر..».

غمرته حالة من التأثر الغامض، همس عديله فى أذنه أن يعطيها حلاوة البشارة، دس فى يده الممرضة خمسة جنيهات، عندئذ أمسكت بأنف المولودة، وارتفعت الصرخة الحادة الثاقبة.

أمران انطبعا فى ذهنه، استعادهما مرارا فى غربته، ملامح المولود، وتلك الصرخة. للأسف، لم يقدر له فيما تلا ذلك أن يحضر اللحظات الأولى لمجىء ابنته الثانية إلى العالم؟ كذا ابنه.. تلقى خبر وفودهما فى غربته، ولدت الثانية وهو فى ذلك البلد العربى، وجاء ابنه وهو فى البلد الأوروبى، أما لماذا سافر إلى هذا، وإلى ذاك.. فلهذا أيضا تفصيل لا بأس من الوقوف عليه..

حقيقة، لم يفكر قط فى العمل خارج مصر، لم يخطط ولم يشرع فى ذلك، ولو أنبأه أحدهم أنه سيفارق القاهرة إلى أرض

غريبة أثناء شتى مراحل دراسته، أو فى سنين عمله الأولى، سواء بالمطابع الأميرية، أو فى تلك الجريدة لما صدق، لأكد استحالة ذلك، لتساءل مستنكرا:

وكيف يتأتى ذلك؟ . .

لكن، دعونى أتساءل، هل تتسق البدايات مع النهايات؟ هل تمضى المصائر كما تمنى أصحابها؟ وهل يتحقق ما يرجوه المرء أبدا؟ المهم . . أن ما لم يتخيله حدث، وما كان وهما صار واقعا.

عبارات عديدة قيلت فى حوارتهما الليلة، كانت فى البداية تلميحا أو إيماء، محورها ضرورة إيجاد حل، تكاليف الحياة فى تزايد مستمر، ما كان يكفى أمس لا يكفى اليوم، العمل الإضافى فيه إرهاق، فيه استنزاف لجهده، يرجع لينام وأحيانا لا يلحق تناول لقمة. والعائد لا يوازى، حرام . . هذا فوق طاقته.

كثيرون بدأوا السفر، فى السنوات الماضية لم تسمع إلا عن سفر المدرسين لكن كثيرين الآن يمضون للعمل سنة أو سنتين، يعودون فتتحسن الظروف، زوج إحدى زميلاتها عاد بالسيارة بعد سنة واحدة لا غير، ليست سيارة فقط، إنما تليفزيون ملوّن، وجهاز فيديو، وثلاثجة ببابين، وهما الآن يبحثان عن شقة أوسع.

هذا البيت الذى يعيشون فيه، ما أضيقه، هل يصلح لهم فى المستقبل؟ كيف سيتحركون فيه؟ هل سيظل الأثاث على حاله؟ أليس من الأفضل أن يحسن الإنسان ظروفه، أختها تغير ورق الحائط كل سنة مرة، التغيير ضرورى، والبنت . . ماذا عن البنت؟

ومن سيجىء بعد البنت؟ أليس من الواجب تكوين رصيد، أو وديعة فى البنك، ألم يفكر فى ذلك؟

مع توالى الأيام صار خطابها مباشرا، فى كل يوم تردد المعنى وإن اختلفت العبارة، من الضرورى أن يسافر، فى السفر حل للمشاكل الآتية، وتأمين لما قد يستجد، عليه أن يلحق، الفرص لا تدوم، وما يتاح اليوم ربما لن يجده غدا.

الحق أنه بدا كارها للسفر، لم يتقبل فكرة اغترابه، بل لم يتخيل سفره إلى بلاد لا يعرفها، ولا يعرف ناسها وأهلها، فكر فى إمكانية عمله فى أحد المشروعات الاستثمارية الجديدة، ولكن من أين له تلمس الطريق؟ وكيف الوسيلة؟

أصحاب المؤسسات الجديدة والمشروعات الانفتاحية لا يقدمون إلا على تشغيل الأقارب، أو من ينتمون إلى أصحاب النفوذ بصلة، أقاربه هو فى حاجة إلى مساعدة منه، ولا يعرف شخصا من ذوى النفوذ، صحيح أن سمعته حسنة فى مجال عمله، عرف عنه الدقة، وبذل المجهود الأتم، والقيام بالمهم الأكمل، لكن هذا كله لم يعد مبررا، لا يشفع إلى وسيلة أو غاية، ثمة تغيير يسرى، يدركه فى مجمله، مما يصل إليه، فيما يقرأه، أن ما يجرى غريب عنه، أو هو فى غربة عما يحدث، لكن السفر للعمل شىء آخر، تغيير عمله هنا يتم داخل الدائرة، فى إطار مألوفه، لكن سفره.. هذا كون مغاير لما عهده، حتى لو كان الخلق لهم نفس اللسان، لا يتصور انقطاعه عن المقهى، وصحبه، معقول هذا؟

هل تتوالى الأيام بدون السعى فى شارع محمد على إلى بيت والديه؟

هل سينقطع عن تجواله، عن التطلع إلى صمت النهر، إلى السماء الشتوية والغميمات الشفقية، وهبوب النسيمات فى الليالى الصيفية؟ لا يتصور هذا أبدا.

هل يتحول وجوده المعاش إلى مادة للحنين القاسى؟ صعب.. والله صعب!

قال لامرأته وهو يحاول.. إن الحصول على عقد ليس بالأمر السهل، قالت فليبذل جهدا من ناحيته، وهى لن تقصر، تساءل متعجبا، وأى جهة ستطرقها هى؟ قالت إنها تحدثت بالفعل إلى زوج شقيقتها، وأن الرجل وعدها خيرا، أشارت بأصبعها ـ الغريب أنه لم ينس هذه الإشارة لسنوات ـ قالت:

ـ سنة واحدة تتغير بعدها أوضاعنا..

فى هذه الفترة لاحظ أصحاب المقهى صدوده وابتعاده، يقعد بينهم لكنه بعيد، يذكر أحدهم قوله له بدون مقدمات، بدون أن يؤدى مجرى الحديث إلى مضمون نطقه.

ـ «يظهر أننى سأغيب عنكم!».

لم ينبئ بخبر، لم يفسر، لم يشرح.

فى تلك الأيام مضى عبر الطرق التى اعتاد المشى فيها، والنواصى التى ارتبطت عنده بأيام ولت.. يرى العالم بعينى

المودع . . أطال المكث فى بيت والديه، وقعد فترات إلى شقيقته، ربما أدرك وقتئذ أن حياته تفترق عنهم، كخطوط السكك الحديدية التى تتجاور، وعندما تتقاطع وتتفرع، تتباعد فجأة، بنفس سرعة القاطرة التى تدرج فوقها، فلا يحيط بها النظر إلا للمحة، سرعان ما تندثر .

حقا، ما أسرع مضى أيامه، إنه ممعن فى البعد، مولى صوب جهة مغايرة لتلك التى ضمته وإياهم، ما بقى بينه وبينهم جوهر الصلة، ولب المودة الذى لا يرصد، لا يرى، لكن لم يعد هناك لُحمة الحياة وسُداها، دقائقهاوتفاصيلها، مصادفة يعرف أن أمه زارت الطبيب، قديما كان مجرد تفكيرها فى التردد على إحدى العيادات يثير لديه اضطرابا، وخوفا من المجهول، مرة أخرى لمح أباه مصادفة ينتظر عبور الطريق عند ميدان باب الخلق، كان يركب سيارة عامة، ولم يهم بالنزول. إنما أدرك من لمحة خاطفة ما لم يدركه بالقربى . . الهرم الذى لحق بوالده، كأنه وعى فجأة، لكم تقدم فى العمر، كيف غاب عنه الأمر؟

فى تلك الأيام جال فى الطرقات طويلا، أوى إلى المقهى كثيرا، أصغى ولم يتكلم إلا نادرا، حتى إذا حانت اللحظة التى خشيها وحاول تجنبها، انطوى بعيدا عن الخلق فى صالة المطار .

اعلموا يا صحب، أنه خرج وحيدا، أصر ألا يصحبه أحد للوداع، لا الزوجة ولا والداه، شقيقته فاجأته بقدومها، قالت إن أمها أصرت، وإنها تبلغه برضائها عنه، وصفاء قلب أبيه له، ودعواتهما من أجله، أعطته مصحفا صغيرا، قالت إن أمهما

تتمنى لو احتفظ به دائما على مقربة، حاش دمعة قسرا، وعندما ارتفعت مقدمة الطائرة، فارقت عجلاتها الأرض، عندما مال الخط الأبيض الذى يحدد الممر، ثم تلاشى، رجف قلبه وهوى، تابع البيوت التى تحولت إلى خطوط، والشوارع التى تلاشت ملامحها، وسرعان ما غطاها ضباب خفيف.

لطالما قرأ عن السحب التى تبدو تحت الطائرات، كان يمكنه إطالة النظر، التأمل، لكنه نظر ولم ينظر. رأى ولم ير، ود لو أن سفره الأول هذا كان موقوتا.. أسبوعا، أسبوعين فى مهمة ويعود محملا بالهدايا، يفيض فى رواية ما شاهده لأصدقاء المقهى.

هل من المعقول أن يقضى سنة كاملة قبل أول أجازة؟ هذا ما نص عليه العقد.

فى الليلة الأولى لوصوله كتب خطابين.. الأول شرع يسطره قبل أن يقلع هدومه، فور دخوله الحجرة فى فندق حجزوا فيه أربعة أيام له حتى يدبر أموره، خطاب والديه، أوصى أمه بتناول دواء الضغط فى مواعيده، الانتباه إلى طعامها، رجا أباه الانتباه عند عبور الطريق، فالشبان الصغار يقودون السيارات الحديثة بسرعة، لا يعبأون بزحام المدينة، ألح على شقيقته ألا تتأخر عند عودتها من الجامعة، بعد أن كتب العنوان على الظرف، قام ليتأمل الحجرة، نظيفة، فسيحة، فيها تليفزيون، وراديو إلى جوار السرير وثلاجة صغيرة فى الجدار، داخلها قطع حلوى، وعلب مياه غازية، مستديرة، أنيقة، بدأ دخول أنواع منها إلى مصر.

الحق . . أن الجماعة لم يقصروا، استقبلوه فى المطار، أوصلوه بالعربة، الفندق فاخر، قريب من البحر، لم يخرج محتويات حقيبته كلها، بعد أيام قليلة سيفارق، قبل نزوله إلى المطعم، كتب الخطاب الثانى إلى امرأته، قال إن إرادة الله والظروف شاءت أن يكون بعيدا عنها وعن ابنته، لكنه سيعمل ما بوسعه كى يسعدهما، قال إنه بخير وإقامته مريحة، ولا ينقصه إلا رؤيتهما، ثم أوصى بالانتباه إلى جدول تطعيم البنت، وعدم تعرضها للهواء، وإذا اضطرت للنزول إلى الطبيب فلابد أن تصحب شقيقتها أو زوجها. كتب فى الرسالتين أنه سيرسل عنوان سكنه الدائم بمجرد استقراره.

فيما بعد استعاد مرارا، وفى ظروف مختلفة تناوله العشاء بمفرده أول ليلة، كان القوم جمعا جمعا، تلتقى نظراته بعيونهم فى لحظات عابرة، وسرعان ما يولون بعيدا، لا يعرفه أحد، لا يدرى شيئا عنهم، حرص على أن يتناول طبقا واحدا، حتى لا يبدو مسرفا عندما يتأمل مضيفه قائمة حسابه، بل إنه قرر أن يتناول طعامه فى الخارج إذا سنحت الفرصة.

فى اليوم التالى مضى إلى المطبعة، المطبعة فى الضاحية الجنوبية، أما الجريدة فتحتل طابقين فى وسط المدينة التجارى، استأجر شقة صغيرة من حجرتين وصالة، فى بيت يقع على ناصية طريق متدرج فى الارتفاع، كان يمكنه منه رؤية الجبل والبحر، بدا له الجبل فريدا، لم ير من قبل ارتفاعا صخريا كهذا، تكسوه الخضرة، لم ير من قبل جبل المقطم، أما المدينة الحديثة المشيدة

فوقه فلم يطلع ليجول فى شوارعها، لم ير منها إلا أنوارها المضيئة عندما كان يسلك طريق صلاح سالم ليلا، لم تكن إدارة الجريدة ومطابعها فى مبنى واحد مثل الصحيفة التى عمل بها فى القاهرة.

كان يتعرف على ما يبعد عنه، بحذر، حتى المدينة أوروبية الطابع، لم يتغلغل داخلها إلا متمهلا، وعلى خشية، فى القاهرة كانت الشرايين والأوردة تؤدى إلى القلب، ولكن هنا بدا له التكوين كجسد أنيق من بعيد، لكن لا رأس له ولا رجلين، لا ملامح.

جل وقته كان يقضيه فى المطبعة، حتى بعد انتهاء الزمن المحدد له، لم يعتد مكانا محددا يمضى إليه، لم يرتبط بمقهى أو مكان معين، كأنه يخشى إقامة صلة، وجوده هنا مؤقت مهما طال، إنه عابر وليس مقيما، مع أن مكثه فى هذه المدينة دام عامين ونصفا، تبدلت فيهما الأحوال المحيطة به.

فى البداية كانت المدينة مبهرة، عندما عرف شوارعها كان يمضى إلى الرئيسى منها، يتطلع إلى الأضواء، المتاجر، المقاهى الحديثة، مقاعدها الملونة، الحلوى، الجيلاتى المكسو بالفستق، والوجوه الجميلة، جنسيات شتى، إلى مكاتب السياحة، إعلانات السفر إلى أوروبا، إلى أفريقيا، إلى أقصى آسيا، يلمح شذرات من العالم البعيد، كان يمر بواجهات الفنادق الضخمة، لا يتمهل، إنما يمضى بسرعة، لم يدخل إحداها، يتابع حركة الشوارع المتدفقة فى أيام الأجازات، المحلات الصغيرة، النوادى الليلية، لكنه لم يوغل.

كان ينظر بخوف إلى المسلحين، إلى ثيابهم العسكرية المموهة، شبان صغار تبدو عليهم الشراسة والتأهب لخوض القتال فورا، كان يخشى دخول مناطق معينة، ويحيد بعيدا عن شوارع حذّره معارفه منها، فى المنطقة الفقيرة عرف مقهى متخصصا فى النرجيلة وداخله ركن لتناول أقراص الفلافل والفول المدمس، صاحبه من الإسكندرية؛ لذا يقصده مصريون، بعضهم يقيم هنا وآخرون جاءوا إلى المدينة كمحط عبور إلى أوروبا، عدد منهم يعملون فى التهريب، لا يخفون ذلك، تذكر ما سمعه فى مصر عن تجار الشنطة، لكن ما خفى كان أعظم.

قال له أحدهم ذات مساء إنه يعمل فى تهريب الماس، وإن أحد معارفه على صلة بكبار تجار المخدرات الذين يقيمون فى قصور هنا، ولا يتحركون إلا محاطين بحرس خاص، الأفيون والحشيش يزرع علنا فى هذا البلد، ويعد من الصادرات التى تدر دخلا.

لم يدر، لماذا أفضى إليه محدثه بهذه المعلومات، أهو استهتار أو غرض آخر؟

شاب جامعى، قال إنه ينوى السفر إلى تركيا، سيتاجر هناك فى السيارات، أصبح يصغى إلى محدثيه فى المقهى أكثر مما يتحدث، معظم من لقيهم يقفون على حدود المغامرة، وخوض أدوار لم يعدوا لها، ومن أجلهم أدركه رثاء وحزن.

كان بعضهم قد انضم إلى الفرق التى تعج بها المدينة، إلى هذه الطائفة، أو ذاك الحزب، أيقن أن هذا البريق لن يدوم أبدا. آثر البقاء معظم لياليه فى مسكنه يجلس متابعا التليفزيون، كان

بإمكانه فى الليالى الصافية أن يرى التليفزيون المصرى، كان يتابع الأفلام الملتقطة فى الطريق، يحدق فى أطياف الوجوه، هل ثمة من يعرفهم.

اعلموا ياصحب أنه قضى عامين يحاول جاهدا تجنب المشاكل، كان صاحب الجريدة يرتاح إليه، يدعوه أحيانا لتناول العشاء فى مطاعم لم يفكر قط فى الدخول إليها، كان رجلا ضخم الجسم، محبا للحياة: نهما أكولا، عاشقا للنساء، يشرب فى اليوم الواحد زجاجة ويسكى كاملة، فى الصباح بعد الإفطار يحتسى الفودكا التى يظهر أثر رائحتها، خاصة عند حديثه إلى المترددين عليه، هو أيضا لاعب ماهر، مدمن للقمار، ويقال إنه خسر فى ليلة واحدة عشرين ألف جنيه استرلينى.

كانت الجريدة والمطبعة، ودار النشر، والفندق، مجرد واجهات لأمور أخرى، الجديدة تمول من إحدى الدول العربية المجاورة، إذا تأخر المخصص الشهرى تعطل صرف الرواتب.

يقال إنه على علاقة بجهاز مخابرات أوروبى، لم يحدده أحد بالضبط، أما جل ثروته فيؤكد المقربون أنها من المضاربة على الذهب، والأسهم، ويؤكدون أنه من خبراء سوق المال، حتى إن أكبر بنوك أمريكا منحه بطاقة خاصة لا يحملها إلا عشرة من عتاة المضاربين فى العالم.

عامان بأكملهما قضاهما فى هذه المؤسسة، يصغى إلى كل ما يقال، لا يعلق، يقول إنه ليس طرفا على أية حال، وإن كان ما سمعه حوى أخطارا تزايدت بعد ظهور رجال أشداء

مسلحين، عرف أنهم حرس خاص، استعان به الرجل لحماية المطبعة.

كان وضع المؤسسة غريبا، الإدارة ومكاتب التحرير فى منطقة تسكنها أغلبية من طائفة ينتمى إليها الرجل، أما المطبعة فمقرها هنا ضدهم، وإن اضطرت بسبب هذا الاعتبار بالذات إلى تخفيف اللهجة خاصة بعد بدء الاضطرابات التى تمت فيما بعد، وإن لم ينفع ذلك . .

خلال هذين العامين زار القاهرة مرة واحدة، بعد غيبة سنة كاملة، أمضى شهرا قضى منه أسبوعين بصحبة امرأته وابنته فى فندق فلسطين بالإسكندرية، لكن من رآه فى هذه الزيارة يذكر حزنه البادى وصمته، والبياض الذى طق فى شعره.

اعلموا أن لذلك أسبابا . .

أولها ما رآه من ابنته الصغيرة، لحظة دخوله البيت ولت هاربة، لاذت بأمها، عندما ظهر عديله، جرت إليه، مرحبة، معانقة . .

«بابا . . ».

نزل به كمد عند سماعه نداءها، فى نفس الليلة أصغى إلى امرأته، تحذر ابنتها:

ـ « . . لا . . أبوكى هذا . . ».

لكن، هل يقدر على لوم طفلة؟

السبب الثانى سلسلة أمه فى المرض، قعدت، لم تعد تدخل أو تخرج، حتى الطبيب المعالج لا تقدر على الذهاب إليه، تلقته متهللة، مقبلة، قالت إنها ظنت الفراق، وإن ليالى عديدة مضت تود تنسم رائحته لا غير، لم تقل له لا تسافر . . اعتادت منذ الصغر ألا تلح عليه، ألا تكرهه على فعل شىء، لكنها قالت له :

ـ «ما تقعد يا بنى جنب ابنتك وامرأتك . . » .

حدثها عن عقد موقع، وعن التزامات لم ينهها، وعن العام الأول الذى لم يتمكن الإنسان فيه من ادخار ما ذهب من أجله .

انصرف من البيت مغموما، كابيا عنده هم، ولوم لنفسه، لأنه اشترى قماشا من السوق المحلية قبل زيارته لوالديه، وقدمه على أنه أتى به من هناك، لماذا ذلك؟ حتى لا تطلع امرأته على ما يأتى به إليهم، أليس فى ذلك ضعف منه؟ إنه يعى ذلك .

لماذا ضمته أمه بهذه القوة؟ لماذا أطالت النظر إليه وكأنها لن تراه ثانية؟ لماذا أبقت رأسه على صدرها لحظات؟ هذا لم يحدث من قبل، أما والده فخطاه أقرب إلى الزحف، شقيقته كانت غائبة فى زيارته الأولى، لم يتبادل معها إلا كلمات معدودات، فى الزيارة الثانية بدت مهمومة بدراستها الجامعية، عندما خرج إلى الطريق، التفت إلى النافذة المستطيلة العتيقة، كانت أمه تنظر منها، تتطلع إليه، تتبعه بنظراتها، وكان واثقا أنها تبكى!

قبل أن يتم عامه الثانى فى هذا البلد بشهرين، تلقى خطابا بقدوم ابنته الثانية، فى الخطاب - أيضا - أنبأته امرأته أنهم أسموها «عفاف» ود لو حملت اسم أمه، لكنهم لم ينتظروا رأيه، كأنه غير موجود، صعبت عليه نفسه، لكن لم الحزن؟ لم الغضب؟ إنه ليس موجودا بالفعل، ألم يبد فى بعض الأحيان خلال أجازته كالضيف؟ حتى مظاهر العناية به عمقت إحساسه بذلك . .

لام امرأته، لام شقيقتها، وأقاربهما، لكنه عاد يلتمس لهم العذر، الخطاب يستغرق عشرة أيام، هل كانت البنت ستبقى عشرين يوما بدون اسم، وماذا عن شهادة الميلاد، والتطعيم، تُرى . . هل دعوا أمه بعد مجيء المولودة؟ لم يطلعه أحد على ذلك، شقيقته لم تلمح للأمر فى آخر خطاباتها، كانت تطلب منه أدوية معينة لوالدتهما وتنقل إليه وصاياها، بدءا من ضرورة حرصه على صحته، وحتى الاهتمام بطعامه، ودعواتها أن يقصى الله عنه أولاد الحرام.

كان يقرأ خطابات شقيقته ولا يعنيه منها إلا الاطمئنان على أمه، وأن مكروها لم يصبها، لكنه فيما بعد طلب من شقيقته أن تحدد بدقة التاريخ الذى بدأت فيه الكذب عليه، أكثر من سبعة شهور تمعن فى التفاصيل حتى توحى إليه بغير ما جرى وما كان.

فى آخر خطاب منها قبل الحادث الذى تسبب فى عودته، طلبت منه قماشا من القطيفة، حددت اللون، البنى، ابتهج لذلك، حتى إنه اشترى القماش فى يوم تسلمه الرسالة، وقد رأى أمه فى المنام ليلة سفره النهائى إلى القاهرة، كانت ترتدى ثوبا قاتما

من نسيج غريب، ليس مما عهده فى العالم المحسوس، تحيط رأسها بعصابة سوداء، حولها نساء عجائز يتحلقن فى شبه دائرة، يحملقن إليها صامتات، رانيات، كلهن فى صالة فسيحة مجهول مصدر ضوئها، كات تنظر إليه عاتبة، وعندها آهات حرى، فلما سألها عن أحوالها قالت:

ـ سافرت بحسرتك!

صحا منقبضا، ولما تمت عودته، وعرف ما عرف، وأيقن أنه لن يراها، كمد وأخفى، حتى إن شقيقته رجته أن يبكى، أن يذرف دمعة.

لم يتسلم عمله مباشرة، أياما طويلة قضاها بمفرده، يلوذ بالتيه فى الطرقات عند اكتمال الغروب، وبدء نزول الليل، لم يفارقه إدراكه أنه غريب، أنه انخلع من العائلة، لم يعد دعامتها الرئيسية، بل إن أياما عديدة انقضت قبل أن تناديه ابنتاه «بابا».

بعد تسلمه عمله، قالت امرأته، إن الأسعار ارتفعت، وإنها تطلب منه أن يتولى هو الإنفاق، لا يمكنها تدبير الأمور بالمبلغ الذى كان يدفعه قبل سفره، بدت له الفكرة صائبة، يسترد بعضا مما راح منه، لكن المطالب توالت، لم يكن مصرا، أو راغبا فى التدقيق، لكنه فوجئ بفجوة بين مرتبه وما يجب أن ينفقه، اضطر إلى السحب من المدخر، ولم يكن فى حاجة لحسبة يكتشف بعدها أن ما ادخره خلال العامين سينفد بسرعة، كأنه لم يتغرب، ولم يتعرض لخطر، ولم يعان الوحدة.

هنا أرجع بكم قليلا لذكر السبب الذى عاد بعده إلى دياره، ذلك أنه لم يتم المدة، ولم يرتكب خطأ ما، بل إن صاحب الدار أشاد به دائما، ولكم ذكره بالخير فى حضوره وغيابه، ولكن ما حدث لم يكن له فيه يد، ذلك أن الأحوال بدأت تتغير، اقتتل القوم فيما بينهم، بدأ تقسيم المناطق، وهجرة الخلق من منطقة إلى أخرى، تحددت المعالم بقسوة، ثم أصبح السعى فى الطرقات محفوفا بالمكاره، خاصة للغريب، لمن لا ينتمى إلى فريق.

حتى كان هذا اليوم، عندما اتجه من بيته إلى المطبعة، لكنه فوجئ بالسكك المؤدية مغلقة، وأناس يروحون ويجيئون.. ولما لاح له المبنى فوجئ.. دخان أبيض سائل يتخلله لهب، منذ أن وقع الهجوم والمبنى يذوى جزءا بعد آخر، تتصاعد منه هبات وانفجارات، طالت النيران مخزن الحبر، والمواد الطباعية الكيمائية، وجم ودنا من حافة البكاء غيظا وقهرا، هذا مكان أودعه ما يقرب من عامين، لم يعد له مقام هنا، وبقى عليه انتظار اللحظة المناسبة ليصل إلى المطار الذى صار مغلقا معظم الوقت.

فيما بعد، اعتاد أن يقرأ أخبار المعارك فى المدينة، كان يتخيل الشوارع والمتاجر، والنواصى التى تتفجر عندها العربات الملغومة، يفكر.. لو وقع الهجوم على المَطبعة نهارا لما أفلت، لاختنق، أو احترق، إنه يعرف جيدا ماذا يعنى حريق مطبعة.

حقا، قدَّر ولطف..

لكن بقدر ما بدت له الغربة منذرة بالمخاطر، فإنه أيقن باضطراره إلى الخروج مرة أخرى، لكن.. إلى أين؟

حاد به شيء لا يعيه تماما عن السياق القديم .

اعلموا أنه لم يتم سنة واحدة بعد عودته من تلك المدينة ، إلا كان يستعيد الروائح الخاصة بصالة المطار ، الهواء المكيف ، وعطور غامضة ، ومشروبات ، وبقايا عابرين ، قعد منتظرا الإقلاع شطر بلد آخر ، لكنه فى هذه المرة لم يكن ذاهبا للعمل فى مؤسسة خاصة ، عديله ساعده بما لديه من صلات فى الحصول على هذا العقد ، بلد أكثر استقرارا ، أموره ممسوكة بحزم ، إنه يمضى كخبير ، هذا ما نص عليه العقد ، سيعمل مشرفا على مطبعة وزارة الإعلام . فى المطار انتظره موظف رسمى ، أبدى ودا وترحيبا ، كان هناك أيضا سيارة وسائق مرح ، قال إنه لا يعترف فى دنيا الغناء إلا بصوتين ، أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب ، اتجها به إلى بيت من طابق واحد ، تحيطه حديقة ، مؤثث ، مطبخ فسيح توازى مساحته صالة بيته فى مصر ، لو أن الأسرة معه ، كانوا سيمرحون فى هذه الحديقة الصغيرة الأنيقة ، رحابة البيت ، بساطة أثاثه ، سطوع الضوء ، بعث عنده راحة وحسن قبول ، كان هناك هاتف أيضا .

عند عودته فى أجازة سيبدأ إجراءات تركيب جهاز فى البيت ، يمكنه الاتصال بابنتيه ، سماع صوتيهما ، لكن أهم ما شغله ترتيب وسيلة تحويل مبلغ فى بداية كل شهر .

فى غربته الأولى ، كان يحول مبلغا إلى زوجته عن طريق البنك كل شهرين أو ثلاثة ، لولا ادخاره قدرا من المال لعاد خاويا تماما ، علمته التجربة أن كل ما يصل إلى يديها تنفقه ، لم يسألها ،

لم يسترجع الأمر، لكنه عندما لحَّ فى إحدى ليالى الصفاء سرعان ما تكدرت، قالت إنها لا تنفق على نفسها، لم تشتر من الصاغة ذهبا ولا فضة، مع أن زميلاتها يكسين معاصمهن بالأساور، ويحطن أعناقهن بالقلادات، لكن كل قرش أنفقته فى البيت، البيت لم يستكمل بعد، هل يرضيه منظر الحمام؟ لابد من توسيعه، وكسوة جدرانه بالخزف، ومع ذلك لم تفعل، لأنها تراعى الأولويات، ماذا يقول الناس عندما يرون الصالون الصغير البدائى الذى اشتراه. لم توافقه عليه، لكنها لم تصرح وقتها حتى لا ترهقه، الصالون لابد أن يتغير، لابد!

اعلموا يا صحب أن مسافة بقيت غير منقوصة بينه وبين البلد الذى نزله، تماما كما جرى له فى البلد الأول، وإن اختلفت الأسباب، ليست اللهجة، أو الأزياء، أو ملامح العتاقة، لكنه النظام عينه، هناك كانت المدينة تبدو مفتوحة، تعرض مكنونها جهارا، بما فيه من قوى حرب، ودمار، لكن المدينة هنا تبدو مضمومة، ملمومة، بعيدة، قصية عنه وهو يسعى فى قلبها، غير مبسوطة للغريب، المتاجر تغلق بعد الغروب مباشرة، تخلو الطرقات تماما إلا من عربات مارقة، يبعث كل شىء خوفا غامضا لم يكن يدركه هناك، حيث الرصاص يمكن أن ينطلق فى أى لحظة، هنا تنتشر طوال الليل عربات مسلحة، بينما يقف على النواصى شبان يرتدون الملابس المدنية، لكنهم يشهرون المدافع الرشاشة والبنادق سريعة الطلقات، يدققون فى الهويات، يطيلون النظر إلى الملامح، الأخطار هنا خفية، لكنها مبثوثة، لا تبين.

كان يواجه وحدة من نوع غريب، إنهم يبدون له احتراما جما، لا ينادونه إلا «سيادة الخبير» لحظة دخوله المبنى الحديث الضخم يقوم موظف الاستعلامات محييا، لكن، لم يقترب من أحدهم، ولم يسمع شخص منهم إليه، لم يتلق دعوة لزيارة بيت، لم يرافقه صاحب إلى مقهى فى المدينة، ولم يسأله زميل عن حاجة له، ولو قابل واحدا منهم فى الطريق بعد انتهاء العمل، فكأنه لا يعرفه حتى إن تلاقت نظراتهما، مسافة تفصله عنهم، لم يدن منهم، أى محاولة كانت ستقابل بصد، إما معلن وإما خفى، هذا ما أيقن منه؛ لذا لم يسرع!

فى القاهرة إذا ضاق به الحال، يلقى متسعا هنا أو هناك، إقامة الجسور بين الخلق ميسورة سهلة، لكن هنا تبدو الوجوه جهمة، لكل شىء ظاهر وباطن، هدوء المدينة مريب يخفى عنفا، صمت الملامح يطوى غضبا أو حنقا، لا يدرى، لكن ما يراه عبر الملامح مخالف لما يدور فى الأعماق القصية.

كان يخشى عطلة نهاية الأسبوع، يعول همها قبل حلولها، ما بين انتهاء الدوام ظهر الخميس، وحتى بدئه صباح السبت أثقل الأوقات وأوحشها، بيته بعيد، محاط بالفراغ من كل جانب، المنطقة كلها ما تزال تحت الإنشاء، الحشائش تغطى مساحات واسعة، وثمة شىء ما يتربص، متحفز على وشك الانقضاض.

بعد انتهاء برامج التليفزيون يطن الفراغ فى رأسه، يدير مؤشر المذياع، يصغى إلى القاهرة، إلى عواصم بعيدة، إلى لغات لن يفك رموزها، عصى فهمها، وعندما تحين لحظة إيوائه إلى

الفراش، يتكوم، يفرد الغطاء حتى يخفى رأسه، كأن هذه البطانية فى الشتاء أو تلك الملاءة فى الصيف ستموّه وجوده فى مواجهة خطر يحدق به.

نهار الجمعة تبدو الساعات ثقيلة، ملولة، يعيد ترتيب الأشياء، أو يعد طعامه فيتأنى ويتمهل، أحيانا يكتب الخطابات، إلى امرأته، إلى والده.

الغريب أنه لم يكن يخشى وفاة والده كثيرا، كأن رحيل أمه وهو فى غربة أوجد عنده ألفة مع العدم، اعتياد لبدء الفراق، كان يفكر فى شقيقته، وظروفها بعد رحيل والده، أكثر مما يفكر فى الرحيل ذاته، اعتاد الخطابات المطولة إليها، ينبئها بأحواله، لكنه يتحاشى أى إشارة إلى البلد، كل الظروف تفتح، وصف أيامه، وتوالى الليالى، وشوقه إلى ابنتيه، واسترجع أياما نائيات، فمن ذلك جلوسهما فى الزمن القديم إلى مائدة الغداء، وعدم تناول أى منهم لقمة واحدة مهما بلغ الجوع مداه قبل رجوع الأب، إنه يذكر ترتيب القعدة، ومذاق طعام أمه، والفطائر التى كانت تقليها يوم الجمعة، وخروجه عند العصر.

الغريب.. أنه كان نادر الإشارة إلى امرأته وبنتيه، وابنه الذكر الذى رزق به بعد شهور تسعة من أول أجازة يزور فيها مصر بعد عمله هنا، أمضى شهرا كاملا، وقبل سفره أوصى لو جاءت بنتا فليكن اسمها صفية، لو ولدا فليكن اسمه محمد، وهذا ما كان.

فى خطاباته إلى والده لم يذكرهم إلا فى السطور الأخيرة، لكنه فى خطاباته إلى امرأته كان يكرر وصاياه، ألا تدع البنتين

تنزلان إلى الشارع بمفردهما، أن تقف فى الشرفة عند ركوبهما حافلة المدرسة، أن تشدد عليهما فى عدم شراء الحلوى من المدرسة، أن يحذرا عند تلقيهما قطعة شيكولاته أو حلوى، من إحدى العاملات، أو حتى من زميلاتهن، يؤكد أن أحدهم أخبره بمعلومات غير مشكوك فيها، وثيقة المصدر، بوجود عصابات تدس المخدر فى الحلوى، يقوم عملاؤها بتوزيعها مجانا على الصغار حتى إذا ما اعتادوا وأدمنوا فرضوا عليهم الأسعار التى يريدونها، حذرها حتى من المدرسات، أرسل إليها قصاصة من مجلة وقعت فى يده مصادفة وجدها مع أحد المصريين العاملين هنا بالمقهى القديم، فى القصاصة خبر عن إحدى المدرسات، عملت فى الخليج لمدة عشر سنوات، جمعت مالا وادخرت ثروة، إلا أن أحدهم أقنعها بحمل كيلو واحد لا غير من الهيروين لتسلمه إلى شخص ما، فى مقابل هذا تحصل على أضعاف ما ادخرت طوال عشر سنوات من الكد والمتصل.

كان يؤكد دائما أن الزمن لم يعد كما عهدوه، وأن المخاطر جمة، وما يسمع به غريب..

فى خطاباتها إليه عبارات متشابهة، تطمئنه، وتؤكد له أن كل شىء على ما يرام، وأنه لا ينقصهم غير وجوده بينهم..

وجوده بينهم؟!

اعلموا أنه توقف طويلا عند هذه العبارة، وأمثالها، إذن.. لماذا يشغله هذا الخاطر، البطىء المزعج، لماذا تفاجئه تلك اللحظات الحادة عند استيقاظه صباحا، أنه غريب، وأنهم غرباء،

يحاول الدنو منهم، وبقدر ما يبذل من جهد خلال إقاماته القصار فإنهم يوغلون بعيدا، بل فى لحظات أمكنه تحديدها، خيل إليه أنه زائد عن الحاجة، أنه لا يعرف شيئا عمن هو من صلبه.

فى البيت، يرن الهاتف:

ـ أنا منال..

ـ منال من؟

ـ زميلة عفاف.

فى المساء يسأل ابنته الكبرى عن المدرسة، عن زميلاتها، تجيبه باقتضاب، أحيانا بتفصيل، هل تبدو متعجبة لأنه يستفسر؟ ربما، مرة أخرى فوجئ بوجود قائمة أدوية، يقرأ التاريخ:

ـ «لماذا لم تخبرينى بمرض الوالد؟».

ـ «لم أشأ أن أزعجك..».

ـ «لكن.. ألم أوصك بكتابة كل شىء إلىّ..».

تصمت.. مرة قالت إن ما يجب الكتابة عنه كثير، هل ترهقه وهو فى غربته، يكفيه ما هو فيه..

لم يفته تعبها، وإرهاقها البادى، مضيها إلى النوم مبكرا، كان فى بيته وبين أولاده يلقى نفسه فجأة غريبا، ينوء بثقل غير مرئى، لم يكن معهم عند ذهابهم وعودتهم إلى مدارسهم، إلى الطبيب، إلى مركز التطعيم، فى أمسيات الخميس، فى مرات خروجهم لقضاء حاجاتهم، للترويح أو للتسوق، أو لزيارة الخالة.

ما حاول إقصاءه عن وعيه، عن الصور المستعادة التى يطيل التأمل فيها بعد عودته، تلك اللحظات التى يرى فيها الأطفال زوج خالتهم، تبسط ملامحهم، يندفعون إليه، يحيطون به، حتى الولد! أما البنت الكبيرة فموقعها خاص، لم يعلم إلا فى الأجازة الثالثة أنها تقضى معظم أيامها فى بيت خالتها، أن لها حجرة تخصها هناك، ولاحظ فجأة أن ما ترتديه مختلف عن ملابس شقيقتها الصغرى، وأن زوج خالتها توسط لإلحاقها بمدرسة أجنبية بعد أن أمضت مرحلة الحضانة فى مدرسة سعى هو أثناء أجازته الماضية لتنتظم فيها البنت، ولما أبدى ملاحظة عن الأوضاع، وقال إن السنين الأولى تؤثر فى شخصية البنت، أبدت امرأته ودا، ولينا. قالت إن شقيقتها حرمها الله من الخلفة و«عفاف» تؤنس وحدتهما، هما يعتبرانها كابنتهما، لم يرتح، لكنه لم يعلق، إذ كان عليه أن يرجع إلى هذا البلد بعد يومين.

فى أيام وحدته القصية كان يتساءل عما يفعلون الآن؟ فى هذه اللحظة بالذات؟ يستعيد وجوههم، يتأمل ملامحهم فى الصور، يلمح أطياف شبه من أمه وأبيه وقسماته هو، البنت الكبرى فى طفولتها أقرب شبها إلى أمه، ليتها حملت اسمها، يطيل النظر، ثم ينطق بصوت مسموع:

«أولادى!».

يشير بإصبعه..

«اسمعى يا عفاف..».

يتوقف لحظات، يصغى إلى رجع الصدى فى البيت الفسيح النائى، لأسباب شتى يوقن أن ابنته تدرك فى نفس اللحظة ما يقول برغم بعد المسافة.

فى صغره كان إذ يتحشرج صوته فجأة، أو يبدأ اضطراب ما فى حلقه، تقول أمه إن بعضهم يخوضون فى سيرته، ثم تتلو اسم الله مرات، وآيات القرآن الكريم، إنه ينظر إلى الصور، يوجه بعض الملاحظات، يسدى نصائح وربما أبدى غضبا، غير أنه بعد وقت يسير ينثنى مبديا اللطف، «خلاص.. سامحتك..».

وقبل مضيه إلى النوم، يومئ للصور المطلة عليه:

«تصبحون على خير يا أولاد..».

فى ليالى عزلته القصية، خاصة أيام الأجازات، والعطلات الرسمية، أصعب الأوقات وأوحشها عليه، فى الليالى تلك وفدت إليه أعراض لم يعهدها من قبل، كان يستيقظ فجأة، مكروش النفس، تعدو دقات قلبه بعضها فى أثر بعض، ماذا لو وافته المنية فجأة؟ كم من الوقت سيمضى قبل اكتشافهم غيابه، أم أن ما سينبعث من جثمانه سيدل عليه؟ لكن البيت بعيد عن الطريق.

يمعن متخيلا ردود الأفعال، لحظة تلقى امرأته للنبأ، والده الذى لم يعد يبصر، شقيقته الوحيدة، أيهم سيبلغ حزنه المدى؟ أيهم سيذكره لمدى أطول؟ الولد مرتبط به، سيحزن، ولكنه سيلهو بعد حين، لكنه سيصبح يتيما، كذا شقيقتاه، لن يكفى إلا

لفترة محدودة؛ لهذا اضطر إلى تجديد العقد أربع سنوات أخرى، لم يكن له خيار، من يدرى ماذا سيجىء به الغد؟ فى تلك الليالى تأخذه الخواطر السود، حتى صاغ أحيانا نعيه ورتب الأسماء التى ستنشر، وشرع فى كتابة خطاب إلى ابنه يحكى فيه ما جرى له فى إقامته، وفى غربته، كان دافعه أن يعرفه ابنه ميتا، مادام لم يعرفه حيّا، بدأ فعلا، لكنه لم يتم الخطاب، تشاءم، إن ذلك يعجل بالمقدر.

فى النهار يلوح لمن يعرفه هادئا، صامتا، لا يعرف أحد شيئا عن دخائله ولا يعرف شيئا عمن يحيطون به.

فى بداية كل شهر يمضى إلى المصرف لتحويل المبلغ الذى يحق له تحويله إلى مصر، نسبة معينة ينص عليها العقد الرسمى، يوقع العديد من الاستمارات، يتنقل من نافذة ضيقة إلى أخرى، ملامحه محايدة مهما تلقى من مضايقات الحراس، والموظفين الذين كان معظمهم غليظ العبارة.

فيما بعد قال لشقيقته، هذا ما انحصرت فيه العلاقة، أزعجها ذلك، جاء رد فعلها مشابها لما كان ممكنا لوالدته أن تقوله..

«حرام عليك.. من لهم غيرك؟».

حقا، ليس لهم غيره، لكن.. هل يدرك وعيهم ذلك؟ لماذا لا يبدون نحوه قدرا من الحنية؟ لكن البنت الصغيرة تسرع عند ظهوره، سمعها مرة تتكلم مع زميلتها، تخبرها أن والدها وصل بالسلامة، فى اليوم نفسه طلبت منه أن يزورها فى المدرسة، لم

يتأخر، صباح اليوم التالى، بدت مزهوة به وعندما لمحت إحدى الطالبات صاحت بها :

ـ «بابا أهه يا ستى . . بابا أهه» .

لسنوات تالية لم ينس فرحة ابنته بزيارته لمدرستـه، وتعلقـها بيده، وتوقفها المفاجئ، وإشارتها إلى إحدى زميلاتها :

ـ «ثريا . . دى اللى بتضربنى . . » .

وإلى أخرى :

ـ «صفاء . . بتقولى فين أبوكى» .

لكم رق، وشف حزنه فى غربته عندما استعـاد زيارته تلك، علل البعـاد بأنه من أجلهم، يتمنى لو أتم ادخار حاجة لكل من الثلاثة حتى إذا حان تخرجهم فى الجامعة . . لقوا ما يمكنهم الاستناد إليه فى بدء حياتهم، هذا أقوى ما دفعه إلى تجديد العقد . .

لكن . .

حدث ما لم يخطر له على بال، ما لم يعد له العدة، ولذلك تفصيل :

فمنذ نزوله هذه الديار، لزم جانب الحرص، لم يتحدث أمام زملائه عن شأن يخص بلادهم، لم يخض فى أمور عامة، لم يذكر لا بالشر ولا بالخير حاكم البلاد الذى تطالع صورته البصر أينما اتجه، لم تخل منها حتى العربات العامة والخاصة، وفى نهاية

الأسبوع عندما ينتظر القوم السهرة إذ يتوقعون فيلما مصريا، أومسرحية، أو عروضا غنائية، يطل عليهم مفترشا الأرض، ممسكا بعصا الماريشالية، مرتديا عباءة عربية، يبدأ حديثه البسيط، أو العائلى كما أطلق عليه إعلام البلاد، حتى فى هذه الليالى لم يعتد إغلاق الجهاز، إنما يتركه مفتوحا، مسموع الصوت. . فالبعض يؤكد أن الشباب الموالى يمر بالبيوت متصنتا، راصدا من أغلقوا، أو بدلوا قنوات التليفزيون بقناة بلد مجاور يصل إرسالها واضحا، تخلو عادة من الأغانى الحماسية، والشعارات المتتالية، والإعلان المستمر عن نبأ مهم سيذاع بعد قليل.

فى الأيام الأولى هنا كان ينتظر بقلب واجف، حابسا أنفاسه، متوقعا الأذى، هل وقع انقلاب؟ هل قامت الحرب؟ هل هى كارثة طبيعية؟ لكنه اعتاد ما يلى ذلك، إن سيادته ـ مثلا ـ تلقى رسالة خطية مهمة من أحد إخوانه أصحاب الجلالة، أو الفخامة، أو افتتاح وحدة كهربائية جديدة، أو حضور مناورة بالذخيرة الحية قرب الحدود الشمالية حيث مصدر التوترات الدائمة، أو إعادة العلاقات أو قطعها مع بلد ما، أو قيام سيادته بممارسة رياضة المشى لمدة ثلاث ساعات فى منطقة القبائل الجبلية، لم يعد يتوتر، وإن بقى ترقبه إلى حد ما، فربما وقع حادث جلل فجأة.

كان إذا وجد فى جمع، وفوجئ بسيادته فى التليفزيون، يشخص وينصت، لا يسمح لأى خاطرة داخلية تمر به أن تبدو ظلالها على ملامحه، كان يبقى جامدا، فإن صفق القوم شاركهم، وإذا ابتسموا تبعهم، ليس له من الأمر شىء غريب مهما طالت مدته، ليس بذى علاقة مهما أبدوا له ودا أو ترحيبا.

لم يتـردد إلا على هذا المقـهى القـديم المطل على الحـديقـة، لم يتبادل الحوار إلا مع العـمال المصريين الشبان الذين يفدون إليه من أجل الكسب المحدود، والمأوى الذى يقدمه إليهم صاحب المقهى البدين، حواره معهم عام، عابر، شاركهم مرتين، الأولى بعد الحـريق الذى شب، رجـاه أحـدهم أن يتـبـرع باليـسـيـر؛ لأنـهم سينقلون الجثـمان إلى مـصر، توقف الشـاب عن الحديث، كان مـيكانيكيـا من الجـماليـة، قال إنـهم أقسـمـوا فيـما بينهم إذا لحق بأحـدهم مكروه أن يعـيـدوه، فى أى وقت إذا حلت المنيـة، فلن يدفن هنا أبدا. قال له إن الولد وحيد والديه، وإن أباه فقير جدا، والأمر كارثة، كارثة، لم يتردد.. لم يبخل قط.

فى المرة الثانية جاءه أحدهم استفسر منه، أيعرف مسئولا كبيرا فى هذا البلد؟ نظر متسائلا، حذرا..

قـال الشـاب إن صـاحب هذا الخط، وأشـار إلى اللافـتـات المعلقة، صاحب الخط الجميل هذا معتقل منذ ستة شهور، قيل إنهم أطلقوا عليه الرصاص، وسمعوا أنهم دسوا له السم فى اللبن كما جرت العادة عند قتل الخصوم هنا، أبوه حفى فى القاهرة، دار على وزارة الخارجية وسفارة هذه البلاد قبل قطع العلاقات، ونشر التمـاسا فى صحـيفة مـصرية رفعـه إلى الزعيم، لكـن. . ما من مجيب!

أصغى حذرا، من لا يعرفه جيدا لن يثق به، يعلم أن عددا من الذين جـاءوا لـلعـمل هنا انضـمـوا إلى الفيـالق الثـورية، البـعض طواعية، والآخرون تحت ضغوط شتى.

قال إنه مجرد موظف فني، خبير طباعة ولا يعرف أحدهم، أو بمن يمكنه مجرد الإفادة، اعتذر، ولكنه لم ينقطع عن المقهى، كان يمضى إليه بعض الوقت فى العصر، يقعد فوق إحدى الدكك متأملا الأشجار القديمة، المتقاربة، وعندما سأله بعض من أهل البلاد عن زيارة السادات إلى القدس، قال إن ما جرى خطأ، ولم يزد حرفا.

الحقيقة أن ما شعر به فى تلك الأيام أكثر من محدودية تلك العبارة، عندما رأى رئيس البلاد يخرج من بطن الطائرة فى مطار البلد، ويتلفت حوله، لم يصدق عينيه، كان بمفرده فى البيت القصى ، اهتز باكيا، وترددت فى وعيه فكرة موجزة: انتهى دهر، انتهى عصر، راح عهد وجاء عهد، ما زال محتفظا بكراساته التى رسم على صفحاتها أبطال الجيش المصرى أثناء حربهم فى فلسطين، ومما لا ينساه، أيام ألف وتسعمائة وستة وخمسين، تطوعه فى المقاومة، أيام الخريف هذه الرمادية، الانفجارات، الغارات الليلية، الأغانى وما أثارته من مشاعر بقيت حية، ومن قبل ومن بعد ابن شقيقته، مازال مفقودا حتى الآن، لا يدرى أحد أحى هو أم ميت؟ كان يعمل فى منجم الفحم بسيناء، قال زملاؤه إنه هج على وجهه فى الصحراء عندما وصل الغزاة، آخر مرة شاهده عامل صعيدى يمشى متجها إلى الشرق، وضاع، وقال آخرون إنه كان بين مجموعة من الشاردين، صفهم الجنود ورموهم فى هجير الصحراء، لا أحد يعلم. .

أهكذا . . أهكذا ببساطة؟

فيما بعد، لم ينس خرجة السادات من بطن الطائرة، تلفته مضطربا حوله، تمنى فى هذه اللحظة أن يجرى شىء ما، أمر خارق، فيختفى أو يتلاشى، لكن كل التفاصيل علقت بذاكرته، حتى هذا الضابط الإسرائيلى، كان يشمر كمى سترته، ويمشى مزهوا مختالا وراء الرئيس!!

ما مر به كتمه، فى اليوم التالى مضى لمقابلة المسئول السياسى عن الوزارة، وكان الرجل قد سلمه جائزتين فى حفل أقيم بالديوان العام بعد الظهر تعبيرا عن تقديرهم لتفانيه فى العمل، قال إنه يمكنه العودة إلى مصر إذا كان وجوده يثير حساسية ما، غير أن الرجل قام واقفا، قال:

- «بل إننا نرجوك الاستمرار . . مالك أنت وما جرى؟».

ثم قال: إن التوجيهات العليا للقائد المنتصر صدرت بمعاملة المصريين أفضل معاملة، وإذا كانت العلاقات قد قطعت فإن العلاقات الحقيقية ستظل قائمة، وإن هذا البلد سيتسلم زمام القيادة لتعويض النقص الاستراتيجى بخروج مصر . .

هذا ما قاله القائد، وهذا ما سيكون . .

إلا أن ما قيل علنا، وما رددته الصحف، وأجهزة الإعلام المسموعة والمرئية، غير ما جرى فى المعاملات اليومية، فلم يخل الأمر فى أحسن الأحوال من تعريض خفى، وفى أسوئه من تهكم علنى، بقى يتغاضى، ولكن ما جرى فى المقهى لم يستطع عليه صبرا.

ذلك أنه أوى عصر يوم خريفى رمادى إلى المقهى، شرب شايا، ودخن أنفاسا من النرجيلة، وراح فى سرحة طويلة، لم ينتبه إلا عندما فوجئ برجل أصلع، غليظ الرقبة، بأنفه أثر من ندبة قديمة.

ـ «أنت مصرى؟».

ـ «نعم..».

ـ «زين والله زين.. عندى منكم اثنين.. خدم.. والله أنتم ما تنفعوا غير خدم..».

وسقطت النرجيلة فوق الأرض، تناثرت الجمرات، والتمباك، كأن قيدا شده دهرا انفلت، انقطع فجأة، أطبق على عنق الرجل، اقترب الرواد، تحفز العمال المصريون، وعندما تمكنوا من إبعاده إلى الخلف، كانت يداه ترتعشان، وشفتاه ترتجفان، وعروق رقبته نافرة، وألفاظه متقطعة.

أحد الشبان العاملين، بدا منفعلا، صاح: إن هذا الرجل أهان المصريين، سمعه بأذنيه، هذا يتناقض مع توجيهات القائد، مع ما يتردد صباح مساء، كان صاحب المقهى البدين قد وصل، قال:

ـ «لا تضخم الموضوع.. هذا عجوز خرف..».

ثم التفت إلى العمال الذين تحلقوا..

ـ «اسألهم عن حبنا لمصر.. مصر أم العرب..».

فوجئ الكل بالرجل ينظر هلعا، يردد:

ـ «ما تخربوا بيتى . . » .

ثم اتجه إليه . .

ـ « يا أخى ما تخرب بيتى . . كنت أداعبك ، والله أداعبك . . »

ثم صاح هاتفا بصوت متحشرج :

ـ «عاش الرئيس . . عاش الزعيم . . » .

أصر صاحب المقهى على دعوته إلى مجلسه ، إلى شاى ، إلى النرجيلة ، قال كلاما كثيرا عن الخواطر الغاضبة ، عن الذين لا يحسنون التعبير ، عن الحمقى أيضا ، عندما تأهب للانصراف قبل اكتمال الغروب ، كان عنده شجى ، لماذا فقد أعصابه هكذا ، ما الذى جرى؟ فى لحظة ـ وقد عاودته فيما بعد ـ رق للرجل إذ استعاد خوفه ، وهتافه المذعور .

فى البيت ، عندما خلا إلى نفسه ، وأحاطته الوحدة ، أيقن أن ما كان لن يكون ، وأن المقام لن يطيب بعد الآن ، وبدأ عنده اليقين أن ثمة أمرا سيقع ، توقع غيلة ، أذى . . لكن ما طبيعته ، ما حجمه؟ لم يدر .

عندما طلعت الشمس لم يشعر هل أغفى أم لا؟ شرب فنجانين من القهوة المركزة ، اقترب من المرآة ، لكم هو فى حاجة إلى النوم .

على حاله هذا مضى إلى المسئول السياسى الذى استدعاه على عجل ، استقبله غير مبتسم كعادته ، بل إنه لم يدعه إلى الجلوس ، بدت الجفوة واضحة ، والرغبة فى الإيلام .

قال باختصار: إنه سبب له إحراجا شخصيا، فهو المسئول عنه هنا، وما جرى منه فى المقهى عصر أمس لم يكن له داع، هل يزج باسم القائد فى شجار عابر. هذا خطير، خطير جدا، إنه يتعجب.. بل إنه لم يصدق عندما أطلعوه على ما جرى.. إذن.. هل يخفى هدوءه هذا وعزلته ما هو أخطر؟

بعد خروجه من مكتب المسئول السياسى كان فى حال، وعنده حاجة إلى الانفراد، لم يجد إلا دورة المياه، دخلها لا ليقضى حاجته، وإنما ليغمض عينيه ليحاول تبين عند أى نقطة يقف؟ ما علق بذاكرته ما قاله لبعض من معارفه فيما بعد، شعوره بأنه بعيد، وحيد، وما من ناصر، أو معين، إن مكروها يمكن أن يصيبه فجأة، سمع عن كثيرين راحوا ضحية حوادث مفاجئة أثناء عبور الطريق، أو يفقدون بعض أطرافهم فى حوادث تبدو عابرة، لكنها مدبرة، أما دس السم فى اللبن فشائع، لم يدر، لماذا اللبن بالذات؟

كف عن شرائه، عن شربه، قرر ألا يتردد على المطاعم العامة، أن يتوقف عن نزهة نهاية الأسبوع، أن يشترى طعامه من أماكن مختلفة، أن يغير ما يقدمه له البائع فى اللحظة الأخيرة، حتى النرجيلة كف عن تدخينها، بل انقطع عن المقهى تماما.

ما أثقله، لحظة بدء انفراده، عندما يصل إلى البيت، ويغلق الرتاج، ويصبح منقطعا، معدوما من كل عون، يائسا من المساعد، أحكم إغلاق النوافذ والأبواب، غير موضع نومه، يضىء الصالة طوال الليل، مع أنه لم يعتد النوم، إلا فى عتمة،

كان يستحم بسرعة، ولحظة إغلاقه عينيه بسبب تدفق المياه، يفتحهما بسرعة، متوقعا ظهور أحدهم فجأة أثناء عريه.

كان فى البيت نائيا، ضعيفا، وفى الحمام، أو أثناء نومه أشد ضعفا، لم يوقن، هل تبدو نظرات المحيطين به طبيعية؟ أم أنها تبدلت؟ لكن الذى لم يشك فيه أن النساء يطلن التحديق إليه، حتى إذا انتبه ولوا بنظراتهن، أما موظفو الاستعلامات فبان فى تحيتهم فتور..

كم مضى على حادث المقهى؟

كم انقضى على استدعاء الوكيل له؟ وحتى وصول هذا الاستدعاء؟

فيما بعد لم يستطع تحديد الأيام بدقة، ربما سبعة، ربما عشرة، لكن ما مر به، ما أثقله خلال هذه الأويقات جعل مرورها بطيئا، ثقيلا، حتى خشى استعادة بعض من تفاصيلها، مما جرى فيها لمدة.

عند ذلك الغروب كان يتأهب لقلى بيضتين، وإعداد كوب من الشاى، وبالمناسبة، فإن ما يثير حزنه، جلوسه وحيدا عند تناول طعامه، فالأكل يحب اللمة، وكثيرا ما استعاد أياما من سيرته الأولى.. انتظارهم وصول الأب، لا يمد أحدهم يده إلى لقمة مهما بلغ الجوع، كان الشبع لا يكتمل إلا بالونسة.

من ينتظره الآن؟

فجأة رن الجرس، مرة نادرة، لا يتوقع أى زائر، من؟ عندما فتح الباب رأى أحدهم، يمسك أوراقا، يردد اسمه، متطلعا إليه،

تحدد يوم الأربعـاء صباحا، الساعـة الحادية عشرة وثلاثة عشرة دقيقة لمقابلة رئيس مكتب الأمن الخاص، استفسر عن السبب، لكن معالم الرجل بدت صماء، حدد عنوانا، واسما تسبقه رتبة عسكرية، شدد على الحضور.

لماذا؟ لماذا الاستدعـاء؟ فى حيـاته لم يدخل قسم شـرطة أو محكمة، ولا كشاهد حتى، لماذا يوم الأربعاء وليس غدا؟

يعلم الله وحده كيف مرت عليه الأيام الثلاثة، شحب نومه، وقض مضجعه، هوى قلبه مرات، كدره تساؤل ممض، هل سيرى الأولاد مرة أخرى؟

إلى من يتـجـه؟ ممن يطلب العـون؟ إلى من يبـوح؟ خطاه مرصودة، حركاته محسوبة.

كـانت الأيام الثـلاثة قـاسـيـة.. لكن السـاعـات الأربع التى انتظرها فى الصالة الرمادية أقسى، بدت لهجتهم غريبة، كأنه لم يصغ إليها لسنوات..

نودى عليه فقام، إلى الجدار علقت ساعة قديمة، ذات بندول يعتز برتابة، الواحدة والنصف.. طلب منه الرجـل أن يتبعه، إلى البـاب الضيق فى نهـاية القـاعـة، لابـد من إحنـاء الـرأس للمـرور منه، للوصـول إلى الفناء الفسيح، عـدد من شبـاب الثورة مسلحين بمدافع رشاشة صغيرة، يرتدون الأزياء المدنية، ملامحهـم متقاربـة، عليهـم تأهـب وعندهـم قسـوة، تطلـع بعضهـم إليه.

أثناء صعوده السلم الضيق، الرطب إلى الطابق الأول، ثم الثانى، ثم الثالث، كان أكثر هدوءا وقراره أهدأ من الأيام المنقضية، وقوع البلاء ولا انتظاره كما يقولون! مع أنه لم يوقن من خروجه من المبنى الذى بدا كل ما فيه محاطا بغموض، أبوابه مغلقة، لا تسفر، لا تشى، أما الطرقات فمتداخلة . .

عند أحد المنحنيات فوجئ برجل معصوب العينين، يقوده اثنان منهم، تساءل . . لماذا يبدو رأسه مرفوعا إلى أعلى؟ تذكر أن العميان يمشون هكذا، الفرق أن كتفى الرجل مرفوعتان وكأنه يتوقع ضربة مفاجئة فآثر أن يتحفز . هل سيخرج هكذا؟ إلى أين سيمضون به؟

داخل الحجرة الرمادية طلب مرافقه المكث لحظات، انصرف، بقى وحيدا، معزولا تماما، بعيدا إلى أقصى حد، أيقن أنه مرئى، مراقب، وأن ما يعبر ملامحه مرصود، رب حركة بلا معنى يحاسب عليها، فليشغل نفسه بتأمل ما حوله، بالنظر إلى الموجودات، مكتب قديم، فوقه أوراق متناثرة وزجاجة حبر، قلم، دفتر صغير، عليه دبابيس دائرية، فتاحة خطابات حادة، ثلاثة أجهزة للاتصال . هاتف أحمر، تتدلى الأسلاك المتصلة بها، تتشابك، تمضى إلى حيث لا يستطيع متابعتها، خزانة حديدية، مقبضها دائرى، ماذا تحوى؟ صندوق مغلق، ماذا به؟ البساط قديم، نقوشه هندسية، مثلثات، داخلها مربعات، تتوسطها صلبان صغيرة، رائحة قدم تثقل الفراغ . .

ـ «أهلا . . ».

من أين دخل الرجل؟ هل استغرقه الأمر حتى أنه لم يلحظ؟ الغريب أن أولاده توافدوا عليه فى هذه اللحظات، حن حتى كاد يبكى، إنه أب، متغرب عنهم؛ ليؤمن لهم أوضاعا أحسن، ألا يستحق هذا رفقا بحاله؟ لم يأت شيئا، لم يخالف، لماذا دخوله المبنى مجبرا؟

الرجل قدم نفسه. . الرائد علاء، علاء وفقط اسمه حقا؟ بدا مصرا على إبداء هذا التهذيب المبالغ فيه، لا يخفى ما يستتر وراءه من عنف ربما تفجر فى أى لحظة.

فى مواجهته تداخل فى بعضه، لو رأى نفسه لأدهشه تضاؤل حجمه، إنها المرة الأولى فى حياته التى يواجه فيها شخصا فى مثل هذا الموقع، بدأ يتحدث مباشرة، فقال كلاما كثيرا عن عظمة مصر، عن دور المصريين فى هذا البلد، عن مساهماتهم فى خطط التنمية العظمى، عن التوجيهات الحاسمة فى توفير ظروف العمل لمن يجىء منهم، طبعا هذه تعليمات سيادة القائد. .

ـ «طبعا. . طبعا. .».

هذا لا يمنع وقوع بعض التجاوزات الصغيرة، خاصة من الجيل القديم الذى لم يترب على الأفكار القومية، الثورية، الوحدوية، وأبرز مثال. . ما حدث فى المقهى. .

ـ «ياه. . سيادتك تعرف. .».

استدار الرائد مبتسما، الحق أنه تساءل منبهرا، ليمد غروره بزاد من عنده. .

ـ «نحن هنا نعرف كل شيء . . » .

دنا منه فجأة، مال عليه . .

ـ «إننا عيون الزعيم وآذانه . . ما علينا . . » .

عاد مرة أخرى فأفاض، ذكر الكفاح المشترك، ونبل الشعب وقدرته على التضحيات، وإذا كانت الظروف التاريخية أدت إلى انسحاب مصر من المواجهة فان الثقل القيادى انتقل هنا بفضل حنكة الزعيم والقائد . .

ضرب المكتب بقبضته . .

ـ «إنه قيادة تاريخية، استثنائية . . » .

لم يعلق، لم يبد حركة، لم يجاوب، لا بالنظر . . ولا بالإيماء، إنما سرى عنده حزن وأسى، واستمر الرائد متحدثا عن الأمة الواحدة، عن ضرورة بث أفكار القائد، فى كافة أنحاء العالم العربى، خاصة مصر . . مصر الأم، مصر مركز الثقل . .

هنا لابد من وقفة، إذ بدأت تلوح علامات فى الحديث المستمر، المتدفق، تلميحات لم تخف عليه، إنه مقبل على لحظة حادة، مدببة، لا يمكن له التزام الصمت عندها وإلا عنى ذلك الموافقة .

اعلموا أنه منذ وصوله إلى هذا البلد، ومنذ نزول السادات فى مطار العدو، منذ الإعلان عن قطع العلاقات، وهو يخشى أن يلقى نفسه عند نقطة لا يمكنه بعدها العودة إلى القاهرة، أن ينقطع

تماما عن عياله، عن شقيقته، لم يفصح لأحد عن دمعه إذ رأى الرجل يخرج من بطن الطائرة فى مطار اللد، لم يبح، لم ينطق، لو أنه فى القاهرة، لمضى إلى المقهى، لفض مغاليق قلبه لصحبه، لأبدى وجاهر، لكنه هنا لم يشأ أن يسفر حتى لا يجد روحه عند هذه النقطة التى يخشاها، أن يكون هو فى بلد، وأسرته فى بلد آخر، صحيح أنه لن يراهم قبل تسعة شهور، لكن كل يوم ينقضى يقربه منهم، وعند لحظة بعينها سيجد نفسه فى الطريق إلى المطار، متجها إليهم، لا يوقفه حاجز، ولا تخترقه عينان متفحصتان كعينى هذا الرائد. . بل إن وجوده فى هذا المكان يؤذيه داخليا، إنه مضطر لإخفاء مجيئه إلى هنا، هذا إذا أتيح له الخروج.

المهم. .

كم طال به المقام؟

أربع ساعات كاملة، رق فيها الضابط وتصلب، أبدى وأخفى، صرح ولمح، تقدم وانثنى، بعدها لم يطل مقامه، بمجرد خروجه عبر الطريق بسرعة، أوغل مبتعدا فى الطرقات الخالية، مجتازا البيوت التى لا تلوح منها حركة، كان يود التوحد بذاته، النأى، استعادة دقائق اللقاء، فى البيت قعد مكمودا، لا يدرى المراد به، هل سيطلع عليه صباح اليوم التالى هنا أو فى مكان آخر؟ كان راضيا لوضوحه مع الرجل، غير أنه كان يعى تماما. . لم يعد له مقام هنا!

لم يعرف إنسان ما جرى له خلال هذه الأسابيع الثلاثة، الممتدة بين المقابلة ولحظة إقلاع الطائرة به.

فيما بعد قال لشقيقته:

ـ لو تعرفين أى أيام سود؟

كانت شقيقته تحملق إليه صامتة، لا تدرى، لا تستفسر، لا تعرف التفاصيل، غير أنها كانت تحسه، تماما كالمرحوحة أمه، لكنه فيما بعد أفصح، ليس فى جلسة، إنما عبر قعدات شتى، فى معظمها كان يبدأ وكأنه يناجى نفسه.

فى البيت لم يغف إلا مضطرا، ولم يعرف من النوم إلا ما يشبه الإغماء، أما الزاد فعافه حتى أوشك على هلاك، تردد بين الوزارة، والبنك، ولما قالوا له إن تحويل مدخراته يقتضى موافقة أربع جهات، اثنتان أمنيتان، واثنتان سياسيتان، لم يعبأ، ما شغله سرعة مفارقة البلد، تحمل نظرات المحيطين به، وتحرشات العاملين، وازدراء الموظفات البادى، وسخف اللجنة التى جاءت تتسلم البيت قبل موعد سفره ـ الذى تحدد ـ بستة أيام، كان عليه قضاء هذه المدة فى الفندق، ولأنه يعلم بوجود مفاتيح أخرى للغرف، كان يزيح المقعد والمنضدة إلى ما وراء الباب، ثم يستلقى باكيا حظه، متشوقا إلى أولاده..

لكن هذا كله فى ناحية، وما جرى له بالمطار فى ناحية أخرى، عندما تخطى الحاجز المؤدى إلى مكتب الجوازات، مازحه الرجل فى البداية، سأله عن سعاد حسنى، هل هى متزوجة الآن أم لا؟ ثم أطال النظر إلى جواز السفر، تطلع إليه، بدا عليه تجهم مفاجئ، قام مفارقا المكتب الضيق، أشار إليه..

ـ «اتبعنى . . » .

إلى حـجـرة مـجـردة من كل أثاث ، مـغطاة بلون رمـادى ذى مـسـتوى واحـد ، لا ظل ولا نتـوء ، رائحـة مطهـر قـوى ، كـفـراغ المستشفيات .

هل أخبر بما جرى له؟

نعم ، ، لشقيقته ، وقبل سفره الأخير بأسبوع واحد ، قال لها باختصار إنهم لعبوا فيه ، قال ما قال وأدركه خزى ، أطرق ، لكنه منذ حدوث ذلك وهو يود أن يفضى ببعض من حمله الثقيل إلى آخر يحسه ، لم يكن له إلا أخته ، التى تقعد أمامه متوحدة ، بها ظل من مـلامح أمـه القـصـية ، بها ود ، وعندها تحسـر ، وتمن ، لم تمض أمـورها كـمـا تمضى أمـور سـائر البنات ، إنه سـوء الحظ ، والبخت المائل .

حـدثهـا عن تجريدهـم ثيـابه ، عن إيذائهم الـغلظة ، دفـعـه إلى الصدر ، وخزه فى الجنب ، حتى بقائه بالقطعة الأخيرة ، إصرارهم تجرده منها ، وعدم مجاوبتهم لما طلبوه ، دخول ثلاثة ، حفاة غلاظ الأكباد ، فشخه قسرا ، تمرير آلات كهربائية ، التنقيب داخله عن نقود يمكن أن يكون قد أخفاها فى أنابيب من البلاستيك . .

عندما فرغوا أقـعـد عـاريا تمـامـا ، ومرارة داخله ، وتقـبـل لفكرة الموت لو استمر تطاولهم ، لو ألحوا ، أن يطبق على عنق أحدهم ، لكنهم لم يواصلوا ، وعندمـا دخل واحـد منهم ، لم يره من قـبـل صاح ونهر ، أسف واعتذر ، كان فى مواجهته ضعيفا ، مجردا من

كل عون، غير أنه لم يجب، لم ينطل هذا عليه، كل شيء مدبر، كل خطوة مدبرة، حتى إبداء الشفقة.

عندما تسلم جوازه مختوما، مدونا به كافة التأشيرات، عبر الحاجز الحديدى إلى داخل الصالة حيث انتظار الإقلاع، هنا الخطر، فمن الناحية القانونية غادر البلد، لكنه فى الواقع ما زال فى قلب النظام! فى المتناول، لو اختفى هنا، فما من دليل، هذا إذا وجد من باستطاعته الوصول إلى من يمكن الاستفسار عندهم هنا.

كان يخشى استعادة لحظات عريه المهينة، لكنه فى مواجهتها يأتى بلحظات مقابلته للرائد، إصراره على عدم إبداء التراجع ولو خطوة، أى تهاون يتبعه آخر، لم يلن لم يخش نفيه عن العالم، هذه المقابلة لم يفض بها لأحد، حتى أخته، إن مجرد تصريحه بذهابه إلى هذا المكان لمما يخجله أكثر من عريه فى المطار، وهذا عجيب!

قبل سفره إلى أوروبا ـ وسيرد تفصيله ـ اعتاد التردد على شقيقته، وبقاءه عندها ساعات، ويحكى وتحكى، يستعيدان أيام طفولتهما، وأمانهما المولى، تذكره بمن بهتت ملامحهم فى ذاكرتهم، المرأة المهيضة التى كانت تسكن فى مواجهتهم، والموظف المتعالى الذى كان لا يلقى التحية على من يلتقى به، وإذا ذكر اسمه يتبعه فورا بقوله: ليسانس حقوق بدرجة جيد جدا، يضحكان، تذكره بزواجه المفاجئ من صاحبة الفرن الإفرنجى عند

الناصية، أما الشيخ الملتحى تاجر العطور فلم يكن يظهر إلا ليلا، ثم تبتسم وتذكره بابنته، ألم يكن يهتم بها؟

ويفاجأ . . بعد مضى هذا العمر كله، يكتشف أن أمه وأخته كانتا منتبهتين إلى ما ظنه خفيا، مستورا، يعرف هذا . . لكن ليس فى حينه، إنما بعد غياب أمه، واكتمال وحدة شقيقته، واقترابه منها، والإفضاء بما يثقله إليها، وهذا جديد عليه، مستحدث . .

قبل زواجه كانوا معا، ينمو كل منهم قرب الآخر، يظلهم سقف، لكن الدخائل بقيت أسيرة الصدور، كان ما بينهم كليات، وليس جزئيات، أحب أمه وأباه، غير أنه لم يفض إليهما بعذابات مراهقته، أو دقائقها.

أمه لم تصارحه بإدراكها لبعض مما عنده، بقيت خارج دائرة المكاشفة، أما شقيقته فظلت حتى زواجه . . تلك الطفلة التى كانت تدرج على مقربة حتى بعد تخطيها العشرين.

فيما بعد بدأ يلحظ اهتمام أمه الخاص بابنتها، كانت تخرج خفية إلى سوق الموسكى القريب وتعود بقماش أو زجاجة عطر أو علبة بودرة، لم تكن شقيقته دميمة، ملامحها هادئة، مريحة كظلال الطرق التى يسعى عبرها إلى بيت والديه، ليست قصيرة، ولا طويلة، لم تكن نحيلة ولا بدينة.

فى الأعوام الأخيرة طالت فترات صمتها، أحيانا يلقاها محمرة العينين من بكاء، تصر أنه ما من سبب، لم تكن تزور صاحباتها، ولا تزار منهن، وإن تحدثت مرة عن صديقة لها فى

ضاحية حلوان، كانت تعود من الجامعة فتمكث حتى اليوم التالى حتى بعد عملها فى هذا البنك، وإذا استرجعا ذكرياتهما عن الأم فلا تحوش نفسها عن البكاء.

«لم يكن لى غيرها.. ولم يكن لها غيرى..».

ما يحزنه، حتى فى غربته، أن الوالدة رحلت مبكرا وحسرتها باقية، ودت أن تفرح بها، أن تراها مستورة، لكن الحظ مال عنها، فى آخر حوار جرى مع أمه، قالت:

ـ «البركة فيك، لم يعد لها غيرك..».

لم يغب عنه ذلك، كان يقتصد مبلغا، لا يخبر به امرأته، لا يذكر عنه شيئا، يعطيه لشقيقته عند زيارته السنوية.. يطلب منها الاحتفاظ به فى دفتر التوفير الذى فتحه لها فى مكتب البريد القريب عند ناصية الشارع الثانى إلى اليمين.

عندما رجع فى أجازة منذ عامين، هاله وحدتها، البيت الذى ضمهما معا صار قبرا للذكريات ومثوى، كل جزء منه يوحى بلحظة مندثرة، عندما ولجه انقبض مع أنه عابر، فما البال وهى المقيمة. لاحظ القفلين الجديدين فى الباب، وإغلاق حجرة والديه.

عندما فارقها عائدا إلى بيته كان مثقلا، كيف يتركها هكذا، بمفردها؟ عند انصرافه بدا حرجا، حاول مداراة ذلك بالتأكيد على ضرورة إغلاقها الباب، التأكد من شخصية محصل الكهرباء، إبقاء ضوء الصالة ليلا، قال لامرأته إن شقيقته وحيدة تماما، من

الطبيعي مجيئها للإقامة، وحدتها مبعث قلق له، لم ترفض، لم توافق - أيضا - بوضوح، إنما قالت: «البيت بيتها». ثم تساءلت عن مدى الخطر المصاحب لترك الشقة هناك بدون ساكن، ألا يغري هذا أولاد الحرام بسرقتها؟

لم تقبل أخته فورا، أبدت ممانعة، ألح وأقسم، أبدت امرأته ترحيبا، قالت لها، إنها في بيتها، إنها ليست ضيفة، حرص خلال المدة المتبقية من أجازته أن يقرب بين أبنائه وشقيقته، غير أن ما آلمه أن العلاقة لم تتوطد، وعندما شرع في السفر لم يكن مرتاحا، فثمة مسافة بين الأولاد وعمتهم، لا يجلسون إليها، ولا يتحدثون إلا نادرا، أما ما أزعجه فزوجته، اذ تطلب منها أداء بعض الأعمال، الحقيقة أن البنية لم تقصر، بل سعت من تلقاء نفسها، لكن يبقى فرق ضئيل بين تأدية ما يجب كأنها من أهل البيت، وبين طلب زوجته منها بلهجة شبه آمرة، وكأنها.. هل بالغ؟ ربما، لكنه عندما سافر لم يكن راضيا، كتب في أول خطاب يوصي امرأته وعياله، ويذكر ما يرقق قلوبهم، فأخته لم يعد لها أحد ما من قريب أو بعيد، لكنه بعد شهرين تلقى خطابا فيه الحزن الخفي، قالت إنها لم تشأ أن تكون مزعجة لأهل بيته، وإنها تفضل الإقامة في المكان الذي سعى فيه والدهما حتى آخر أيامهما، كل ما رغبته، ألا يغضب منها، وهي تثق أنه يقدر ويفهم!

في أجازته التالية لم يطرق الموضوع، لا مع امرأته، ولا مع شقيقته، لا من قريب ولا من بعيد، ما بقي مصدر ألم له، معيشتها بمفردها، غروب أيامها يوما إثر يوم، وشهرا بعد شهر،

سنة بعد سنة، الطفلة التى عرفها، التى ما تزال صورتها بالضفائر مهيمنة عليه، هذه الصغيرة التى سكنت نفس الرحم الذى تكون فيه وآواه، تدرج نحو العنوسة، تتغير ملامحها، وتنزل ببطء عتمة فى عينيها، وتلوح بوادر استكانة فى مصيرها.

ماذا بوسعه أن يفعل؟

بعد عودته النهائية أثر ما جرى له، أكثر من تردده عليها، لا ليطمئن فحسب، إنما ليتحدث، ليفضى إليها بدقائق الشئون، وعندما كانا يستسلمان لنزول الغروب، وتبقى النافذة مفتوحة قليلا لخروج الذباب، بينما الليل يكتمل فى الخارج، وضجيج الطريق الذى اعتاده في الزمن الآفل، يتغير إيقاعه، كان يصمت أحيانا . . . يلقى نفسه وحيدا، تماما كوحدتها هى، وأن حظه عاثر مثلها، وأن الزمان مال عليه كميله عليها، كان يطيل القعاد بدون لفظ، تنتابه رغبة فى البكاء، لكنه يكتم، عندما يتهيأ للذهاب، يفتح الثلاجة، يطمئن إلى وجود طعام كاف، عند الباب ينطق الوصايا ذاتها، إحكام الإغلاق، عدم فتح الباب لغريب، ترك ضوء الصالة، تودعه مبتسمة . .

ـ طيب . . طيب . .

ينزل الدرج حزينا، يمضى إلى المقهى، يؤجل عودته إلى البيت، لماذا؟ هذا ما يلزم توضيحه!

اعلموا أنه منذ عودته، وبعد انقضاء الأيام الأولى، أدرك أنه غريب، أنه زائد على الحاجة، أن ما كان يعنيهم التحويل

الشهري، أما شئونهم فليست شئونه، وأمورهم لم تعد تمضي مقترنة بأموره.

البنت الكبيرة مقيمة عند خالتها، أحيانا تجيء، لكن مكانها هناك، ملابسها، كتبها حجرتها، بل إن ثمة فارقا بينها وبين شقيقتها، ابنته؟ نعم، لكنها تنتسب إليه بالاسم، جوهرها لم يتابع نموه، إنها أنأى ذريته عنه، لم يلحظ نموها يوما بعد يوم، تطور اهتماماتها، لا يعرف من أمر علاقاتها شيئا، زميلاتها، صديقاتها، يفاجأ أحيانا عند النظر إليها، أهذه ابنته؟

ما أزعجه، ما بلبل خواطره، ما أخجله حتى خشي استعادته، أنها كانت تتحرك في البيت، في أحد العصاري، كانت ترتدي قميصا ضيقا يبرز صدرها المتمكن وبنطلونا يلتصق بجسدها، عندما انحنت فوجئ بنفسه محدقا بردفيها، المكتملين، المستديرين، المتصلين، المفترقين في تضام، سرى عنده ما يسرى عند الذكر تجاه الأنثى!!

عذبه هذا، خجل من استعادته، وإن توافدت عليه اللحظة من حين إلى آخر، حاول نفيها وإقصاءها، لم يذكر هذا لأحد، غير أنه دونها على قصاصة ورق أثناء المرحلة الأخيرة من تغربه في أوروبا، كان يدرك أن أوان احتجاجه على بقائها عند خالتها قد مضى، إن سنوات غيبته سلبته أمورا، حتى ابنته الوسطى، وابنه كانا نائيين، بعد عودته كان يطيل البقاء في البيت، لكنه يفاجأ بحياته تمضي عبر شعب عدة، دروسهما لا يعرف عنها شيئا، أصحابهما، كان يجد نفسه وحيدا، امرأته إما مشغولة بأمور

البيت، وإما تجلس إلى أحدهما لمراجعة الدروس، دائما مرهقة، مهمومة، العبء ثقيل، المدارس، الأسعار التى تتزايد باستمرار، إذ يبدى تعجبه ودهشته، تطلب منه الذهاب بنفسه إلى السوق، بعد هجوع البنت والولد، يطل نعاس من عينيها، يسألها أن تقوم لتنام، تستفسر عما إذا كان يريد شيئا، يهز رأسه نفيا، تشير بإصبعها «العشاء جاهز» تبتسم فى إعياء . .

ـ «تصبح على خير . .» .

بدأ يعتاد الخروج بعد الظهر، زمان . . كانت تسأل وتدقق مبدية الغيرة، أو ملمحة بها، الآن، لا تنتظر عودته . .

فى الصباح يبدو الولد والبنت متعجلين حتى إنهما لا يتناولان إفطارهما، إنه يمضى إلى المقهى، لكنه لا يلقى أحدا من معارف الزمن القديم، الوجوه تغيرت، أصحاب السنين البعيدة رحل بعضهم، انقطع عدد منهم، أصبح المقهى مقرا لعدد من المقاولين الذين بدأوا نشاطهم فى السنوات الأخيرة، أحدهم كان حارسا للسيارات فى الشارع الضيق القريب، كان يحمل فوق صدره لوحة معدنية، الآن يجىء فى سيارة حديثة، ينزل أمام المقهى تماما، تاركا بابها مفتوحا، ومحركها دائرا فى عرض الطريق، وسرعان ما يقودها المنادى الذى خلفه فى المنطقة ليركنها بجوار الرصيف، أما صاحب المقهى فدائم الشكوى، بعد أن توفى أخوه صار الحمل كله عليه، كما أن التكاليف فى تصاعد، الشاى، القهوة، السكر . . صار يجد صعوبة فى توفير السكر، الزمن لم يعد هو الزمن.

ثمة عروض عديدة عليه لشراء المقهى، من بنك من تاجر سيارات، من صيدلى كبير، من سيدة ثرية تريد افتتاح معرض للأزياء. . إنه يفكر ولم يقرر بعد.

لم يعد يطول به المقام، تضنيه الوحدة، يفتقد الدروب الموصلة إلى من يحيطون به، يقوم منصرفا إلى متاهة الطرق.

أما امرأته فعادت إلى التلميح، ما سيحتاج إليه الأولاد، صحيح أن أحوالهما أفضل من غيرهما، عندهما رصيد فى البنك، لكنه يجب ألا ينسى أبدا أنه أب لابنتين، كلتاهما ستتزوج بعد قليل، ويجب أن يعد العدة من الآن.

من ناحيتها هى اقتصدت، وادخرت، واشترت طوال السنوات الماضية بعضا مما يلزم، أطقم صينى، سجاد، أسعار الأمس غير اليوم، ولا يدرى أحد شيئا عن الغد. ثم تصمت، لكنها مرة قالت بوضوح إنه لو أتم المدة لأصبح عندهم الآن مبلغ أكبر.

قال لها إن من حقه مبلغا كبيرا هناك، لم يحولوا مكافأته عن المدة، كتب عدة شكاوى، أرسل إلى الصحف، فيما تلا ذلك استفسرت منه، حتى تستوثق أطلعها على الأوراق، وإيصالات البرقيات التى دفعها سواء هنا أو هناك، كان يائسا من حصوله على حقوقه، لكنه لم يستكن، ماذا كان باستطاعته أن يفعل إلا إرسال التظلمات وتشييع الشكاوى؟

خلال هذه الأيام التى تكاثفت فيها غربته بين من يحب، وقع أمر، وتفصيل ذلك. . أن عديله كان مسافرا إلى أوروبا منذ

عامين، وذلك لعمله فى إحدى المطابع العربية التى أنشئت هناك خلال السبعينيات، كان يخبر فى رسالته عن أحواله الميسورة، يرسل الهدايا، كثيرا ما حسده، فالحياة هناك تعج بمباهج شتى، وحتى هذا العمر لم ير شبرا من الشاطئ الآخر للبحر.

فى شهور الأجازات الصيفية كان بعض العاملين يقترحون عليه السفر أسبوعا أو أسبوعين إلى فارنا، أو إلى قبرص، لتغيير الجو كما يقولون، لكنه يومئ برأسه بما لا يعنى الموافقة أو الرفض.

إذا ذهب بصحبة الأولاد فسينفق مبلغا كبيرا. . إذا ذهب بمفرده فلن يطاوعه قلبه، يتفسح هو وهم لا؟ أصعب عليه تقبل هذا، كثيرا ما كان يفكر فى عديله الذى سافر ليعمل لأول مرة فى الخارج هناك، كان يتساءل خفية، ألم يحاول إيجاد فرصة له؟

رغم خواطره تلك، لم يكتب إليه، لكنه فوجئ بامرأته متهللة يوما:

ـ يا لله يا سيدى ستسافر إلى أوروبا.

ـ كيف؟

أرسل زوج أختها عقدا، سيعمل فى نفس المطبعة، والسفر. . بعد أسبوعين لا غير، لم يدر. . هل أرسلت امرأته إليه، أم أن الأمر تم تلقائيا، لم يدر ولم يعنه هذا، إنما أقدم على إنجاز إجراءاته بسرعة، وتجهيز حاجاته، شراء ملابس داخلية من الصوف، وجوارب طويلة، الشتاء هناك قاس، وبرغم تطلعه للفرجة على

عالم مغاير، لم يره إلا فى السينما. فإن أسى تحرك عليه، لم يتم سنة واحدة منذ عودته، أوشك على الاندماج فى البيت، لكنه عليه الآن أن يغادر، إلى تحويل المبلغ الشهرى، إلى الاطلاع على أحوالهم عبر الرسائل.

هذه المرة بكت أخته، وعندما صافحها عانقته، فخفق قلبه، عاتبها..

«تبكين عند سفرى، أريد أتذكرك باسمة..».

ولما غالبت دموعها، قال:

«يا بنت أمى وأبى، سأرسل إليك بعد استقرار أمورى، وتجيئين إلى أوروبا..».

عند مدخل المطار فوجئ بها، لماذا ألحت فى وداعه؟ لماذا ضمته إلى صدرها؟ لماذا أتت إلى المطار الذى اعتاد الرحيل منه بدون مودعين؟ لكم يكره اللحظات الأخيرة.. غير أنه فى هذه المرة ارتاح لظهورها، ظل يلوح لها حتى تواريه، وإيغاله فى الممر المؤدى إلى مكتب الجوازات.

فيما بعد قالت إنها كانت تشعر، وأن رفة مشئومة مرت بعينيها، وأن حلما كئيبا ألح عليها، لم تشهده إلا قبل رحيل أمها، إذ رأت نفسها فى أرض خلاء تماما، ترتعد بردا، ومن فمها تسقط سن، لم تخبره بذلك، إنما كتمت..

المهم..

أنه سافر.

فى أيامه الأولى . . بدا مرحا، مبسوطًا، لا يعود من عمله إلا وينزل ليمشى فى الشارع، يلف هنا وهناك . . يتجه إلى مناطق السهر، إلا أن عديله حذره، فالمدينة مليئة بالعاطلين، والأغراب، وهؤلاء يستخدمون العنف للحصول على أى نقود، كف عن السهر، ليس بسبب الخوف، إنما الإرهاق أيضا، إذ يبدأ العمل فى ساعة مبكرة، وينتهى فى الخامسة، أقام مع عديله فى نفس الشقة، اتخذ مرقدا له فى حجرة صغيرة، تواجه بيتا قديما، نوافذه مستطيلة، المبانى كلها خالية من الشرفات هنا، ضباب، برد، مطر يستمر أياما متصلة، الستائر مسدلة تماما، لكنه يلمح ظلالا باهتة، تتحرك، تروح، تجىء، احتكاك الملاعق بالأطباق، لحظات تناول العشاء، يقلع حنينه إلى البيت، إلى اللمة القديمة، وتقوى حاجته إلى القرب.

مع تتابع الأيام بدت وحدته قاسية مع أنه يعيش مع عديله فى بيت واحد، بعد وصوله قال عديله ضاحكا، إنه ذو خبرة فى الغربة؛ لذلك عليه تدبير أمورهما معا، قال إنه لم يتقن فى حياته حتى سلق البيض . . أشاد بالطعام الذى أعده لهما، قال إن الأكل فى البيت أوفر من المطاعم بكثير . .

أصبح هو الذى يشترى اللحم والخضار والبيض واللبن وسائر ما يلزم، ليس هذا فقط، بل إنه يرتب البيت كله، حتى فراش عديله الذى يتركه على حاله ويمضى، كان ما بينهما شاحب، فلم تكن ثمة علاقة قوية، على الرغم أن الرجل كان سببا فى زواجه، وبالرغم من نمو ابنته الكبرى وتربيتها فى كنفه.

عندما دخل غرفة عديلة فوجئ بصورتها بجوار السرير وصورة خالتها، كان يعدها كابنته، كأن هذه الحقيقة تواجهه لأول مرة.

كثيرا ما كظم ضيقه، خاصة فى البداية، بل فكر أحيانا فى زوج خالتها باعتباره غريبا عنها، صحيح أنها ذهبت إليهما طفلة، ولكن ماذا بعد أن تصير أنثى مكتملة، ولكنه كان يقصى هذه الخواطر بعيدا، لا يصح..

منذ سفره الأول صار نائيا عن الكل، وإن ظلت المسافة بينه وبين ابنته الكبرى أبعد، عديله إمكانياته أكثر، ألحقها بمدرسة أجنبية، وكفل نفقاتها، أما الحلى التى تزين معصمها وجيدها فأكثر مما لدى أمها، كذلك الثياب التى تبدو متميزة، والعطور التى تفوح منها، آخر ما عرفه قبل مجيئه هنا، أنها أصبحت عضوا فى نادى الجزيرة، وأنها تذهب إليه، تلعب التنس وتركب الخيل. سمعها تتحدث عن الحصان الذى تلقمه السكر، عندما يراها مقبلة يهمهم ويتحرك فرحا، قال لامرأته، إن هذه النوادى لا يعرف أحد ما يجرى فيها، أجابته باقتضاب «إنها ابنتى.. وأنا أعرفها.. هى تحكى لى كل شىء..».

لكم لزم الصمت، ربما لأنه لم يكن إلا عابرا، مجرد زائر فى أجازة يجىء طوال هذه السنوات لفترة مهما طالت فلم تزد على شهر، ثم يرحل، على أية حال تقاطعت خطوطه بخطوط عديله، كانت تمضى أيام عديدة فلا يلتقيان. لا يجلسان للحديث فى البيت، يمضى إلى عمله مبكرا، ويستيقظ عديله بعده، إذ إن عمله يختلف، كان يعود متأخرا، علم مصادفة أنه يشارك فى نشاط

إحدى الجمعيات، لـم يخبره، ومن ناحيته هو لـم يسأل، كان ـ دائما ـ متجها إلى دعوة للعشاء، أو ما شابه، أو إلى قاعة سماع موسيقى، أو للفرجة على مسرحية، كما اعتاد الذهاب إلى أصحاب له فى ضاحية نائية لم يدعه قط لمصاحبته، لمح مرة إلى تقاليد البلاد وظروفها المختلفة.

كان يعد الطعام قبل نومه، يغطى الأطباق، ويتركها فوق المائدة المستديرة فى الصالة، مع ورقة تحتوى سطورا منه، يتمنى له شهية طيبة فى الصباح يجد الأطباق، وفيها بقايا طعام، لم يكن يغسل حتى كوب الشاى، ينتابه غضب، كأنه لم يأت إلا ليعد له الطعام ويرتب الفراش، ويدير أمور البيت، لكم بدا مختلفا عندما عاش بقربه تحت سقف واحد، يقرر أن يصارحه الليلة، لكنه مع نهاية النهار يكتم، إنه أكبر سنا، لم يبد منه ما يسىء إليه، كان عديله يدرك ما يمكن أن يجول بذهنه، أحيانا، أثناء لقائهما العابر يسأله عن أحواله، ثم يذكر بمناسبة وبدون مناسبة، الجهود التى بذلها حتى أمكنه الحصول على عقد عمل له، مثل هذا صعب جدا هنا، ألا يقرأ عن نسبة البطالة المرتفعة؟ ولولا أن أصحاب المطبعة من العرب لما جاءا إلى هنا.

كان يصغى ولا يعلق.

غير أنه تساءل مرارا فى خطاباته التى شيعها إلى أخته، لماذا تسعى الظروف إلى مخالفته فى الحدود الدنيا؟ لماذا لم تمض به فى مساراتها العادية، لماذا يجد المخالفة عند كل سعى مشروع؟

بدأ يشكو الأيام الرمادية المتتالية، المطر المستمر، الوحدة فى قلب الزحام.

هل تصدق؟ إنه يمضى أحيانا إلى بعض المقاهى الخاصة بهم. مقاه بلا أرصفة، أبوابها لا توحى بما تؤدى إليه، ضيقة، معتمة الواجهات، إذ يجتاز المدخل، يسلم المظلة والمعطف، يجد الفراغ ممتلئا بالدخان، ينتظم القوم حول المناضد، معظمهم يشربون البيرة تصورى.. يشربون وأنظارهم محملقة إلى الأمام. لا ينظر الواحد منهم إلى الآخر، يطلب طعاما خاليا من الخنزير، عندما يحمل طبقه ويمضى إلى مكان خال، يومئ محييا الجالسين، غير أنهم لا يقابلونه إلا بوجوه جامدة، وعيون زجاجية، مهما قضى معهم من وقت لا يتبادل مع أحدهم كلمة، أحيانا يجاور عاشقين، يصغى إلى حوارهما الهامس.. إلى تبادل القبلات، كأنه غير موجود، كل فى محيطه، ملاصق مركز دائرته. أين ذلك من المقهى القديم؟ وهذا المقهى العتيق، الفسيح، فى ذلك البلد العربى.. من يصدق أن يوما آت، يحن فيه إليه، وأين؟ وهو هنا فى أوروبا، كان يتحدث إلى من يجاوره، تمتد الوشائج الإنسانية، أما وحدته هنا فصعبة، كأن ستارا خفيا ضرب حوله، إنه بعيد جدا حتى عن نفسه، القوم فيهم أنفة، وصلافة زائدة، ويغض للغريب، لن ينسى أول مرة جرى فيها ما جرى.. إذ قعد فى المترو بجوار امرأة عجوز، تطلعت إليه بنظرات جانبية حادة، حتى ظن أنه أتى شيئا فريا، ثم قامت غاضبة، آثرت الوقوف بعيدا..

في المساء قال عديله إن البعض هنا يكرهون الملونين، ويحرضون ضدهم، هو بالنسبة إليهم ملون، بعضهم يسمونه التركي، البقال لا يسميه إلا التركي، لكم مرت به لحظات باردة، عند عودته متأخرا، تحدق به الشوارع الفسيحة، شبه الخالية، بينما تبدو المباني الرمادية مصمتة، لا تسفر، لا تنبئ بأي حركة، حتى الأضواء تبدو مختلفة، كأنها ظلال لأضواء أخرى، يمد الخطى وثمة خوف غامض يدركه، إذ يغلق الباب خلفه يلقي أنفاسه لاهثة.

لكم كتب إلى شقيقته، تمنى المشي، مجرد الخطو في الطريق العامرة المؤدية إلى البيت، لا تنقطع الحركة منه ليلا أو نهارا، في أي ساعة يمكنه النزول وشراء ما يحتاج إليه.

لكم يود إلقاء التحية على من يعرفهم ويعرفونه، إلى سماع الردود الحميمة، يود النظر إلى الدكاكين المتجاورة، المرور بالبقال الذي لا يفتح أبوابه إلا بعد التاسعة مساء ويستمر حتى الصباح.

لكم تمنى الدخول إلى دكانه العبق برائحة الجبن الرومي، والزيتون الأسود والصابون: تساءل مرارا.. لماذا تبدو الأيام بعيدة؟ لماذا يبدو قبس منها مستحيلا؟ نعم.. البلاد هنا جميلة، لكنها جميلة لأهلها، لمن يجيئها عابرا في أجازة، أما الإقامة لمن هو مثله فصعبة ومرة!

لم يتلق من شقيقته أجوبة، إنما تلقى أدعية، وتساؤلات ماذا به؟ إن لهجته غير مطمئنة، إن كلماته تعكس ضيقا وألما، لماذا لا يرجع؟ لماذا لا ينهي غربته؟ تغور الفلوس وما يجيء بعدها.

لكم قرأ كلماتها، وأدركه خجل، ألا يحملها ما لا تطيق؟ ألا تكفيها وحدتها، هي من تجتاز خريفها بدون أنيس، بدون رفقة بعد ميل بختها، إنها مقطوعة عن كل قريب، لماذا يثقل عليها؟ هو . . عنده امرأته وعياله لكنه لا يقدر على مكاشفة امرأته بما يصارحها به، أو بمعنى آخر . . لا يرغب.

لكم يروعه إدراكه لنأيه عن أولاده، أحيانا يقول لنفسه:

ما أبعد الفرع عن الأصل، ما يصلهم به ذلك التحويل الذى لم ينقطع عنه بداية كل شهر، لم تكن غربته الأولى فى ذلك البلد الذى كاد يلقى حتفه فيه إلا لتكوين رصيد يمكنهما من مسايرة ظروف الحياة، لم يكن بمفرده، إنما تغرب كثيرون ممن لا يعرفهم، وممن يعرفهم. أما غربته الثانية التى لقى فيها ما لقى، وهذه الثالثة فلضمان استمرار حياتهم كما هى، صحيح أنهم يكتبون إليه الكلمات الرقيقة، ولكنها كلمات متشابهة، جملها متكررة.

سنوات انقضت، هو فى ناحية وهم فى ناحية، عندما نطق كل منهم حروفه الأولى، عندما حبا أولى خطواته، لم يكن قريبا يسمع ويرى، ليبتهج، ليتلقى أول السعى بين ذراعيه، فلماذا يلوم؟ غير أن وحدته وعرة هنا، تحدق به أوقات خلو من كل عزيز، سعى أحيانا إلى افتعال مشاجرة مع عديله، لكم رتب ظروف تحرشه به، ضرورة تنبيهه إلى المشاركة فى أمور البيت. لم يأت به من مصر ليعد له الطعام، آه . . ليفهم ذلك، ثم . . لاداعى للتلويح دائما بجهوده التى بذلها من أجل إتمام هذا التعاقد، إنه يقدم جهدا ويتقاضى مقابله أقل مما ينبغى، ثم ليفهم جيدا . . أنه ليس سعيدا بالمرة، البلاد باردة، موحشة.

عندما كان فى هذا البلد العربى ، كان يمكنه الحديث إلى هذا ، أو زيارة ذلك ، لكن الكل هنا أسير جلده ، لم يسأله يوما إذا كان مريضا أو مرتاحا ، بل تمضى أيام لا يرى كل منهما الآخر . لكم جهز وأعد ما سيقوله ، وعندما يتواجهان يحل الصمت ، فيؤجل ، بل أحيانا ينقلب ليلوم ذاته ، لماذا يريد فصم ما بينهما وهما فى غربة؟ يلتمس العذر تلو العذر ، غضبه وضيقه بسبب وحدته ، وربما حاجته إلى سماع كلمة حلوة من الآخرين ، إنه البعد الطويل عن أولاده ، وإذ يفكر فيهم تتطلع عيناه إلى بعيد ، أولاده؟ يوشك على لومهم ، مع ذلك لكم مر بلحظات خف وشف بعد تلقيه خطابا من ابنتيه ، تطلب كل منهما أشياء محددة ، قمصانا بألوان معينة ، وطرزا محددة . يهرع إلى المتاجر ، يتأمل ، يتوقف ، يرى المعروضات بعيونهم ، يطيل الاستفسار . . ألا يوجد شىء أفضل؟ مرة أخرى أبرز صورة ابنته الوسطى وأطلع عليها البائعة ، أبدت إعجابها ، قالت : ما أجمل عينيها!

كأنه ينتبه إلى عينى ابنته أول مرة ، هنا تذكر ابنته الكبرى ، لحظة انحنائها ، وخجله ، لكم رتب ، وأعاد ترتيب الحاجات التى سيرسلها إلى أولاده ، لكم أطال النظر ، وتخيل لحظات الاستلام ، واستعراضهم لما أرسل!

فى هذه الليلة بالذات ، فرغ من ثلاثة أشياء قبل أن يأوى . . الأول . . كتابة رسالة إلى شقيقته ، يطلب منها ألا تصغى إلى الأحلام ، ألا تصدقها ، كان هذا ردا على قلقها لرؤيتها حلما بغيضا لم تفسره له .

الثانى . . قراءة نص رسالة من ابنه يطلب فيها نوعا معينا من مضارب التنس، فوجئ . . هذه أول مرة يعلم أن ابنه يمارس هذه الرياضة، هو لم يمارس الرياضة فى حياته، لم يعرف إلا المشى. ابنه كبر، أصبح لاعبا للتنس، قرر قبل إغماض عينيه الذهاب غدا إلى أكبر متاجر الأدوات الرياضية.

أما الثالث . . فهو تجهيز العشاء لعديله ولفه بورق معدنى حتى لا يفقد حرارته.

لم يع لحظة انتقاله من اليقظة إلى النوم . .

لم يدر الساعة التى استيقظ عندها، به جفاف فى الريق. وثقل رأس وهبوط مستمر إلى لا قرار.

بصعوبة انتبه إلى شىء لزج يغرق فيه، وسائل ينزف من فمه، لم يعهده، لم يمر به ذلك من قبل، ولم يكن بوسعه إيقاف الدم الذى انسال مبقبقا من فوق ومن تحت . .

طبق الأصل

ما شاء الله كان . .

له الأمر، من قبل، ومن بعد، منه العون، وإليه المصير.

والله يا إخوان كلما استعدت هذا الرجل الذى اكتملت معرفتى به بعد غيابه. ترقرق أساى، واستنفرت خواطرى، أستعيد إطراقته، إقباله مبتسما، مسالما، وإدبار كينونته، اندماجه الهادئ فى زحام الخلق، ودهشة ملامحه إذ يحيق به أذى أو ضيق.

أرى أطيافا منه فأقف على خلاصة سيرة، ومصير اكتمل، وكان ممكنا ألا يدرى به أحد، أو لا يقف على أخباره إنسان. . لعن الله ظروفا أدت بمن كان مثله إلى فراق الأهل والأوطان، مثل هذا كان مستقبحا مستنكرا عند قومى، حتى إذا تبدل الظرف وتغير الحال، هج من هج، وطفش من طفش.

أستعيده، لكنه فى كل مرة يزداد بعدا، فكأنى واقف على شاطئ لجة واسعة، تضطرم حينا وتنبسط حينا، وما بين ذلك

وذاك تلوح وجوه فتدنو منى حتى أوشك أن أمسكها بنظرى ويدى، لكنها تفلت، نائية، ومبتعدة، لا يمكن لى إدراكها أبدا!

راح من راح، وإنى لاحق بهم، فماشاء الله كان.

وحتى زمن لا أدرى مقداره سيحيرنى ما جرى لهذا الغارب، الذى قضى بعيدا، حار الأطباء فيما لقوه عنده، عندما أحدقوا به ظنوا النزف لأمر داخله، فشقوا، وأعملوا المباضع، وأحاطوا الأوردة بالأربطة، لكن ما كان يفلت منه لم يكن بوسع مخلوق إيقافه.

قال كبيرهم بعد حيرة: الأمر معنوى. وكان الأمر قد تم! فى المحصلة راح. بقى منه راتب تقاعدى، ومقدار من المال.

بقى معلقا حبيسا فى البلد العربى الذى فارقه عنوة، سعت امرأته، وسطت قوما ذوى علاقة، لكن لم ينفع شىء.

والمقام هنا يستدعى إلى ما لم أذكره من قبل، فبعد أن احترق هذا الشاب وحيد والديه فى الغربة، وعاد إليهما فى صندوق معدنى مغلق، لزمت أمه قعدتها أمام الدار، محملقة إلى ما كان، لعل وعسى.. أما الأب العجوز الذى كلت قواه، وما عاد قادرا على الخروج إلى الغيط، ورفع الفأس وعزق التربة، فبدأ يفعل مالم يقم به فى حياته قط مالم يفعله حتى لا يعاير إنسان ولده، بدأ يمد يده، ويسأل الخلق أن يعطوه مازاد عن حاجتهم، بقى عنده الخسران الفادح.

كان ولده رهان عمره، من أجله شقى، واحتمل ما احتمل، وحرم نفسه من اللقمة، دائما كان يمنى النفس بالوصول إلى يوم يقف فيه الولد على رجليه، يسنده، ولما حان هذا اليوم غرب الابن فجأة، لم ير خيره، أملى على أحد أبناء القرية رسالة إلى وزارة الشئون الاجتماعية، وإلى إدارة المعونة، وإلى البنك المختص بتفريق أموال الزكاة. وإلى المشروع الخيرى الذى بدأته تلك الصحيفة التى يعمل بها صاحبى، شرح حاله، وما جرى لابنه، وطلب المساعدة، والحق أن أحدهم أقنعه بذلك، غير أن الرسائل راحت، وكأنه ألقاها فى جُب، عدا واحدة، تلك التى وصلت إلى الصحيفة، وكانت بنهاية الرحلة إليه، وهكذا وقفت على ما جرى له.

عند مثولنا أمامه كان وقت طويل قد انقضى، وكان هو قد كف عن إرسال المكاتيب، وبدأ إلى القعدة التى لزمتها امرأته، عند حافة الطريق، يتطلعان إلى القادمين والذاهبين، وقد ذكرت من أحوالهما ما يشفى وما يكفى، أما الآن فهذا نص خطاب أرسله كاتبه إلى جهات شتى، وأتيح لى أن أطلع على صورة منه عند واحد من ذوى العلاقة، وإنى مورده كما كتبه صاحبه، لم أغير، لم أبدل، فلعل فيه فائدة قبل أن أذكر شيئا عن المدرسة التى عملت فى الغربة لسنوات، وأتمت المدة.. يقول صاحب الرسالة بعد الديباجة:

«.. أنا المقيم بميلانو، شارع تورشيالى رقم عشرة، كنت أعمل فى وظيفة عامل زراعى بإحدى القرى الإيطالية التابعة

لمحافظة بارما، بدأت في العاشر من نوفمبر، عام ألف وتسعمائة وسبعة وسبعين، بعقد عمل، معتمد رسميا، بمرتب قدره مليون ومائتا ألف ليرة إيطالية، وظللت أتقاضى راتبى هذا لمدة عامين، ولم أتسلم أى أجر أضافى عن أيام العطلات الرسمية، أو ساعات العمل الإضافية، أو شهور المنح المعترف بها قانونا فى إيطاليا، حتى الأجازة الصيفية حرمت منها، وكنت قانعا على أساس أنه عمل دائم، ولى سكن يأوينى، كنت أعمل طوال السنة، لم أقم بيوم واحد أجازة؛ لأننى مسئول عن رعاية المواشى بدءا من الأكل والشرب، حتى نظافة الحظائر، كانت زوجتى تساعدنى، بدون أى مقابل..

كنت أقود الجرارات أيضا، والآلات الزراعية، وقص وتجفيف وتخزين الحشائش الزراعية ــ البرسيم ـ كان المسئول عن المزرعة رجلا إيطاليا يأتى بعد الثانية ظهرا، لأنه مدرس فى إحدى المدارس الصناعية. أما صاحب المزرعة نفسه فلم يكن يأتى إلا مرة، نهاية الأسبوع. كان يسكن فى مدينة ميلانو القريبة.

فى أحد الأيام سألت صاحب المزرعة عن كشف حسابى الشهرى مثل كل الناس، فأخبرنى أن المزارعين ليس لهم كشوف حسابات، تسمى هنا فى إيطاليا «البوستة باجا»، طبعا هذا كلام لا أساس له من الصحة، ولكن ماذا أفعل؟

فى يوم من الأيام أرسل لى أهلى يطلبون من زوجتى العودة لتسلم عملها فى وزارة التربية والتعليم.

أخبرت صاحب المزرعة فقال: ليس مهما سفرك، كما أن زوجتك تساعدك وأنتما باقيان هنا.. ثم إن عمل المزرعة يحتاج إلى رجل متزوج، لأنه مرهق وساعاته طويلة..

اقترحت عليه أن نسافر، أنا وزوجتي حتى تحصل على أجازة - ولو مرضية - وإلا فقدت وظيفتها، وافق، واشترط العودة السريعة.

فعلا.. سافرت، وزوجتي وابني، وعدنا بعد أن قدمت أجازة مرضية، وأغلب ظني أنها فصلت من عملها حيث إن الأجازات المرضية لم يوافق عليها الأطباء.

قلت لزوجتي إن هذا ليس مهما، يكفي عملنا هنا، لقد انقضى وقت طويل علينا هنا، إنه عمل دائم وثابت..

في شهر مارس عام ألف وتسعمائة واحد وثمانين، فوجئت برسالة مسجلة من صاحب المزرعة، يخطرني بانتهاء عملي، وبضرورة تسليم المنزل أيضا. ولما ذهبت إليه، متسائلا: لماذا؟ زوجتي فصلت من عملها، الأهم. إلى أين نذهب الآن؟

قال: هذا كله لايهم، عليك بالرحيل من هنا فورا، سألته عن مرتبي، قال إنه سيعطيني شهري مارس وأبريل، عندما نترك البيت، وعندما فارقنا تسلمت مرتب مارس، أما أبريل فلم يدفعه حتى الآن. ذهبت إلى ميلانو بصحبة امرأتي وابني، وصلنا في منتصف الليل، بدأت البحث عن مأوى، وعن عمل، لجأت إلى محام، أبرق إليه مطالبا بعودتي إلى العمل، ليس قانونيا فصلي على هذا النحو، ثم أين ما يحق له؟

قـال فى رده على المحـامى : إن الأجـانب ليس لهم حـقـوق عندى، أرسل إليه المحامى قـائمـة بسـاعـات عـملى الإضـافيـة، بحقوقى المشروعة أصلا، وقـدرها أربعة وعشـرون مليـونا من الليرات الإيطالية. ويوزاى هذا أربعين ألف جنيه مصرى.

اتفق صاحب المزرعة مع المحامى على مهلة يفكر خلالها قبل الذهاب إلى المحكمة، بعد أسبوع اتصل بى المحامى، وعرفنى أن الرجل يطالبنى بتسعة ملايين ليرة كتعويض عن الخسائر التى لحقت بالمنزل الذى كنت أقـيم فيـه لأن مـاسورة المياه انفـجـرت وأتلفت البيت.

قلت للمحامى إنها حيلة قذرة..

عرفت أنهم دخلوا من الباب الخلفى، وكسـروا مـاسورة المياه الموجودة بدورة المياه، ثم اتصلوا بالبوليس الموجود فى القرية، بحجة أنهم لا يعرفون مكان إقامتى فى ميلانو، وللعلم فإنهم على اتصال دائم بالمحامى، وهو يعرف عنوانى، ورقم تليفونى.

عرفت الطريق إلى المحكمة، حضر شهود لا أعرفهم، كـما حضر مدير مكتب العمل بالقرية، ولكن كشاهد ضدى!

تأجلت القضية، مرة لغياب بعض الشهود، ومرة لمعاينة البيت، ومرة لسبب لم أعرفه، جرى هذا على امتداد عام كامل، ولم أصل إلى أى نتيجة.

يوم المعاينة ذهبت بصحبة محامية (تحت التمرين)، فالمحامى الكبير لا يحضر بنفسه القضايا خارج مدينة ميلانو، هكذا أخبرونى.

جاء القاضى حوالى الثانية عشرة ظهرا، معه محامى صاحب المزرعة، والسيد المسئول عنها ـ الذى يعمل مـ-رسا ـ وبدأت المعاينة.

قال القاضى: من أين دخلوا الشقة؟

قلت: من هنا يا سيدى.

لكن ما لاحظته أن الباب به ترميم جديد واضح للعيان، سأل القاضى عن هذا الأسمنت الجديد، فقال المدرس إنه منذ ثلاث سنوات، قلت: لا ياسيادة القاضى، لم يحدث شىء من هذا أثناء إقامتى.

قال صاحب المزرعة:

ـ لا ترفع صوتك هنا.

قال القاضى:

ـ إذا رفعت صوتك مرة أخرى. فسوف أدخلك السجن.

قال محامى صاحب المزرعة:

ـ «ونحن شهود».

أما المحامية التى بصحبتى فلم تنطق كلمة، وسجل السيد القاضى أن الترميم حدث منذ ثلاث سنوات، مع العلم أن هذا ليس من اختصاصه إنما من مهمات لجنة فنية فى هذا المجال.

المهم.. عرض صاحب المرزعة مبلغ ثلاثة ملايين ليرة، لتسوية الأمر، قلت للقاضى: إننى أصبت فى قدمى أثناء تقديمى البرسيم

للمواشي، شوكة كبيرة جرحتني، احتجزت في المستشفى، وأصبحت ساقي مهددة بالبتر، كانت الشوكة ملوثة، أشرف على علاجي طبيب عربي الأصل من سوريا، وبقيت اثنين وأربعين يوما مصابا، كانت زوجتي تقوم بالعمل، لأنه لا يوجد غيري.. ولم نسمع حتى كلمة شكر..

سألت القاضي عن رأيه في هذا، وعندي تقارير المستشفى، قال سيادته:

- إن هذا موضوع آخر.

قرر تأجيل الجلسة حتى العاشر من ديسمبر، حتى أقبل المعروض من صاحب العمل، أي عليّ قبول هذا المبلغ بالإكراه، أو لن أتقاضى ليرة واحدة، وانتهت الجلسة بعد أن عملوا من شقة صاحب المزرعة محكمة.. في النهاية قدم لهم النبيذ الأبيض الطبيعي، والفستق، واللوز.

جرى هذا وأنا بينهم، أجلس إلى المائدة المستطيلة، لكنني كنت أشرب كئوسا أخرى، كئوسا لا يراها أحد، لها مذاق المر والعلقم، مذاق الذل والهوان.

ظللت منكس الرأس، وهم منصرفون إلى أحاديث بعيدة تماما عن القضية، لكم ضقت بنفسي، لكم احتقرت ذاتي وأنا كالذبيحة المسلوخة بينهم، ليس لي سند أو نصير.

وعندما وقف صاحب المزرعة وتحدث، اسودت الدنيا في عيني، قال ما نصه:

«إن زوجتى كريمة، وأنا مثلها، ونحن نعطف على الفقراء القادمين من الشعوب المحتاجة مثل السنيور ـ وأشار إلى ـ إننا نعطيهم التبرعات، وأنا أعرض عليه لآخر مرة المبلغ، لننهى الموضوع كله . . إنها الفرصة الأخيرة له، وإن لم يقبل فلن يجد شيئا، إننى أفعل هذا لأننى أعطف عليه . . ».

شعرت أنه مسح بى وبكل ما أنتمى إليه الأرض، وبرغم إعتام الدنيا فى وجهى، وإحاطتهم بى، فقد أقسمت بينى وبين نفسى، ألا أخضع، وأن أسعى وراء حقى، حقى أنا، وإن لم ينصفنى قانونهم فلى شأن . .

هكذا تنتهى الرسالة التى وجهها كاتبها إلى جهات شتى يطلب المؤازرة والمعونة، ولم أعرف أخباره، ولم يقف صاحبى، الذى كانت الرسالة بحوزته على أى معلومات.

فيما تلا ذلك من مدة، لم نسمع عن صاحبها ولم نقرأ، كما قرأنا عن السيدة التى عملت مدرسة، وكان من أمرها ما كان . .

هذا ما جرى للمدرسة التى أتمت المدة..

سبع سنوات ، وستة شهور، وأحد عشر يوما . .

تمام المدة ومجمل الفترة، قضتها هنا فى تلك الدويلة الصغيرة، النائية، منقطعة متوحدة، لم تزر مصر إلا مرات ثلاث، مرة بعد ثلاث سنوات، والثانية فى بدء العام الرابع لتغربها، والأخيرة قبل عام من تاريخ عودتها النهائية .

بعد الأجازة الأولى انزعجت مما تكلفته، مما أنفقته، كل من يمت إليها بصلة، أو علاقة، ينتظر هدية، بعضهم لايمكنها الدخول عليهم ويداها خاليتان، خاصة ذوى القربى، هناك من يتطلعون إليها، يتفحصون ثيابها وحليها، ينتظرون أيضا، تقول عيونهم بما لم تصرح به ألسنتهم، أما الذين حملت إليهم قطعة قماش، أو زجاجة عطر، أو لعبة لطفل، فلا تدرى ماذا يقولون عنها بعد انصرافهم؟

ليت الأمر اقتصر على الهدايا، إنما تنفتح المطالب . . فبياض البيت مشروع مؤجل حتى عودتها، وأن تستبدل بالموقد الغازى القديم فرن بوتاجاز . . فأمران لا مفر منهما .

صحيح أن أمها لم تطلب، لكنها لمحت، أشارت إلى عمرها المنقضى بصحبة هذا الموقد العتيق، لا يمر أسبوع إلا تضطر إلى إصلاحه.

فى الزيارة الثانية أشارت إلى التليفزيون الملون، بيت فلان اشترى، وبيت فلان غير التليفزيون القديم بواحد حديث، لا يخلو منه بيت فى البلدة.

جاء طفل صغير، حافى القدمين، ذابل العينين، فتح الباب أثناء خلوتها، راح يبتسم، كان ينتظر، إلا أنها واجهته بملامح جامدة، جاءت أمها، قالت إنه ابن سعدية.. ألا تذكرها؟

أبوه سافر منذ سنتين وغابت أخباره، لم يترك ولم يرسل أبيض أو أسود، بل إنهم لايعرفون شيئا عنه، قالت أمها؛ أعطيه حاجة. قالت إن كل من يجيء هنا يحن على الولد.

أبدت تأففا، قالت إن الناس يظنون العائد من هناك بنكا متحركا.

تطلعت إليها الأم صامتة، ثم قالت:

«ربنا ما يحكم عليكى يا بنتى..».

أخرجت من كيس نقودها خمسة جنيهات، لكنها نصحت أمها ألا تعوّدهم على ذلك، إنها لا تعرف شقاءها، إنها لاتجد النقود ملقاة فى الطريق، لكنه الشقاء، والغربة.

فى الزيارة الثالثة لم تطل إقامتها. جاءت مضطرة، إذ كان لابد من دفع مقدم الشقة التى اشترتها فى المدينة القريبة، لم تشأ توكيل شقيقتها، بل قررت، إتمام كل الإجراءات بنفسها.

هكذا.. أمضت معظم المدة وحيدة فى هذا البلد البعيد، حتى أيام أجازتها لم تكف خلالها عن التدريس لعدد من الفتيات اللواتى يعانين تخلفا دراسيا، كان هذا يسرها ويريحها، فإلى جانب الدخل الإضافى تتلقى هدايا لا بأس بها، وعندما ترجع إلى غرفتها فى بيت المعلمات تمسك قلما، تحسب قيمتها، تعتبر هذا مضافا إلى رصيدها فى البنك.

خلال انقطاعها اكتفت بتحويل مبلغ إلى أمها، بداية كل شهر تمضى إلى البنك لإرسال الحوالة، كانت تنقص المبلغ شهرا، وتزيده شهرا آخر، نقص ملحوظ، وزيادة طفيفة، حتى لا تتوقع أمها مبلغا متساويا يكون تجاهه إلزام، حتى لا يتخذ شكل المرتب.

قبل إرسالها الحوالة بيومين أو ثلاثة تنتابها لحظات إشفاق تجاه أمها، قبل النوم تلوم نفسها، بل توبخها، إن ما ترسله قليل لا يفى، كيف تبخل على أمها؟ كيف لم تراع تكاليف مرض السكر الذى لحقها، مرض يحتاج إلى نظام غذائى، وهكذا مكلف، إضافة إلى الدواء الذى يجب ألا تنقطع عنه.

فى خطاباتها تشدد وتنبه إلى ضرورة اتباع تعليمات الطبيب، إلا أنها تعلم صعوبة التزام أمها بالخضار وقطعة اللحم اليومية المسلوقة، أو كوب الزبادى.. تعرف أنها لاتشبع إلا من الخبز.. لا.. يجب أن تضاعف المبلغ.

تغفو، تنام راضية، مرضية، حتى إذا طلعت الشمس وبقيت دقائق فى الفراش، ترثى لنفسها، أصعب حالات وحدتها تلك، فما من شخص قريب، ما من تحية تصغى إليها، وما من أحد يحنو أو يسمعها كلمة حلوة.

مع خروجها إلى الطريق تبدأ مراجعة ما قررته ليلة أمس، ألم تبالغ فى تقدير النقود؟ عندما ترجع إلى مصر ستخصص قدرا من المال تشترى به ما يحتاج إليه البيت، بل لحظة وصولها ستضع فى يد أمها مبلغا كبيرا، أما الآن.. فإنها فى حاجة إلى زيادة الرصيد، كلما ارتفع تضاعفت الفائدة.

عند وصولها إلى البنك واجتيازها الباب تكون خفضت ما قررته قبل النوم، حتى إذا ما أمسكت القلم لتكتب الحوالة، لا تتخطى المبلغ الذى أرسلته الشهر الماضى إلا بمقدار يسير، وربما تقلله.

هدفها الذى لم يغب عنها طوال السنوات الماضية، الوصول بالرصيد إلى حد معين. لم تنفق إلا الحد الأدنى، بل قترت على نفسها، لم يخرج من يدها إلا الضرورى.

الغريب أنها قبل قدومها إلى هذه البلاد، عندما كان مرتبها فى بداية عملها بضعة جنيهات، لم تدبر، ولم تعرف ما تعرفه الآن من حذر، على أية حال، الحمد لله، فإن مارمت إليه تحقق، وما أرادته تم. وصلت إلى الحد الذى قررته، صحيح أنها ودت تضاعف الرصيد، لكن.. هذا أقصى ما أمكنها تدبيره، من

مرتبها، من مكافأتها، من الدروس الخاصة، عبر سبع سنوات، وستة شهور، وأحد عشر يوما . .

الآن تضمن الشقة، ورصيدا يمكنها أن تحجز منه عربة. أن تدفع قيمتها بالدولار، أن تشترى ما تريد، من ملابس، ومطبخ يريحها، يضم ثلاجة ضخمة ذات بابين. وفرنا كهربائيا، وغسالة حديثة، وخلاطا كبيرا، بمجرد نزولها مصر ستشترى هذا كله بالدولار من السوق الحرة، أما الأثاث فمن مسئولية العريس الذى ستختاره من بين المتقدمين إليها، ستختار وهى مستندة إلى رصيد مالى يقوى مركزها، إنها ليست دميمة، أبدا . . ملامحها مريحة، مقبولة، وتعرف تماما أن لعينيها وضعا خاصا، إنهما جميلتان، عميقتان، وعندها لحظ!

لو قبلت الزواج ممن تقدموا خلال السنوات السبع الماضية، لأصبحت أما الآن لطفلين، لكنها شاءت أن تبنى مستقبلها بيدها، أن تقرر هى . . إن لها شروطا أيضا، لن ترضى بأحد خريجى الكليات النظرية، لا آداب، ولا حقوق، ولا كلية العلوم حتى . . لن تقبل أقل من مهندس أو طبيب، إنها تنوى حجز سيارة نصر بمجرد عودتها، ستدفع بالدولار حتى تتسلمها بسرعة، إذن . . لابد أن يكون لديه عربة أيضا، يستحسن من طراز مختلف، عليها باليقظة، الانتباه إلى أولئك الذين يمكن أن يطمعوا فيها، أو يحوموا حول رصيدها، لتحذر، إنها تكاد تشم رائحة الرجل الذى يضمر غير ما يظهر.

لكنها غير مشغولة بالزواج، حتى تمام عودتها واستقرارها،

وبدء تدبير أمرها، إنها تراجع بدقة أوراقها، مايستحق لها من مكافأة نهاية الخدمة.

فى كل ليلة تحصى مالديها، تقارن بأسعار الدولار فى مصر، خاصة فى السوق السوداء، تطرب لكل قرش زيادة، هذا يعنى زيادة الرصيد عند التبديل إلى الجنيه المصرى.

قبل نومها تحكم إغلاق غرفتها، تخرج ملفا يضم كشوف حساباتها التى يرسلها البنك بدقة، فى موعد لا يتغير، ترتدى ملابسها الداخلية الشفافة، تقعد فى مواجهة المرآة، أحيانا تتخذ وضعا جانبيا، ترمق صورتها بنظرة جانبية.. تلفظ بصوت عال:

«حلوة يابنت والله..».

أحيانا تقترب حتى تلامس بجبهتها سطح المرآة، تتثنى، أو تفرد طولها، أو ترفع نهديها بيديها، لو أن لها القدرة على معرفة من يسعى إليها فى هذا العالم الآن؟ من سيلمس، ويمرر أنامله، ويقبل، ويضم.

لم تكن تفكر فى شخص معين، فى ملامح بذاتها، بقدر ما تردد الرقم، ثلاثون ألفا وستمائة دولار، تفرد أصابعها، تثنيها، تنغم صوتها، تتمدد فوق الفراش وإلى جوارها كشف الحساب، السحب، الإيداع، المدين، الدائن، فكأنها خصصت الليلة لمضاجعة رصيدها!

ياسلام، لو أنه ضعف هذا المقدار؟ ولكنه نتاج أقصى الطاقة، عليها إنهاء ما تبقى من أمورها، إعداد أوراق، شهادة خبرة،

تحويل ما لديها هنا إلى حسابها فى مصر الذى افتتحته منذ سنوات فى أحد البنوك الأجنبية، شراء بعض ما تتصور أنها لن تجده فى السوق هناك، ياعالم.. متى ستسافر مرة أخرى. يجب أيضا تدبير بعض الهدايا، لا بأس من إرضاء الأقارب، أعدت كشفا بالأسماء حتى لا تنسى، فى كل يوم تعد له، إما بشطب بعض الأسماء.. وإما بإنقاص ما تنوى إهداءه لهم، أو شراءه من مصر بدلا من زيادة وزن الحقائب مما يؤدى إلى دفع مبلغ وقدره، المهم.. الدخول عليهم ببعض الحاجات البسيطة، فلا يمكن لأحدهم القول إنها لم تفكر فيهم، وفى نفس الوقت لا تكبد نفسها غرما.

أهى حزينة؟ أهى مسرورة؟

لم يبد عليها ما يوحى بهذا أو ذاك، بدت مشغولة دائما، تروح وتجىء، تشترى بعضا مما ستحتاج إليه هى، ماتعرف أنه رخيص هنا، مرتفع السعر هناك، زيارة هذه أو تلك ممن عرفتهن، كن يقلن لها إن فى الوقت بقية، لكنها تجيبهن برفع يدها، وبسط أصابعها:

«لا.. هذا يكفى.. هو العمر فيه كام سنة؟».

ثم تفيض فى الحديث عن أمها العجوز، المريضة، التى يجب أن تلازمها، وأن ترعاها، الحق أنها كانت تبالغ أو تحاول أن تبدو كابنة بارة، من يسألنها البقاء يعرفن أنها استنفدت المدة، وهى تدرك أنهن يعلمن، لكنهن يتظاهرن بالاقتراح عليها، وتبدى هى الممانعة، والحجة بواجبها تجاه أمها.

مرة كانت تتحدث إلى إحداهن، فوجئت بنفسها تقسم برحمة أمها، صممت، هذا شؤم، ولكنها فيما بعد قالت إنها كثيرا ما كانت تتخيل لحظة تلقيها نبأ رحيل أمها فى الغربة، فى البداية يتتابها جزع، وأسى، تسارع إلى إرسال خطاب، تشدد على ضرورة الرد فورا، ثم تفيض وتفصل فى نصائحها، كان هذا فى البداية، لكنها فى السنة الثانية كانت أقل اهتماما، كثيرا ما وعت ذلك فتعلله بالبعاد. تقول إن الغربة تلهى الإنسان عن نفسه، لكنها لم تستطع تبرير تفكيرها المفاجئ ذات يوم قائظ، عندما فوجئت بتخيلها لأدق التفاصيل المتعلقة برحيل أمها، بل وحالتها عند تلقى النبأ إذا كانت فى البلدة، أو إذا كانت هنا، فى غربتها، بل.. صاغت فى مخيلتها صيغة النعى الذى سوف تنشره فى الصحف، نعى من عدة سطور، بل ربما تكتب سطرين أو ثلاثة تناجى روحها كما يفعل البعض.

يؤكد بعض من عرفها عن قرب أنها كانت دائمة الحديث عن تخوفها ذلك، وتتبع ما تقول بذكر ما تحوله إليها، لهذا يقولون إنها كانت تنتظر الموت حتى تتوقف، وتضيف ما ترسله إلى رصيدها، كما أن علاقتها بالأقارب ستنقطع، لها عديدون تجوز عليهم الحسنة، أو زكاة المال، لكن هذا باب لو فتح فلن تقدر على إغلاقه أبدا، مالها ومالهم، هل كانت غربتها، وتحملها العديد من المواقف التى لم يكن ممكنا أن تقبل أقل منها فى مصر.. صلف الناظرة، مضايقات الزملاء، خاصة من الجنسيات الأخرى، هل كان تحملها هذا كى تغدق على هذا أو ذاك؟

هذا ما أشاعه البعض عنها، ولكن لا يمكننا الأخذ به لأنه غير مؤكد، وإن كانت بعض الشواهد تشير إلى ذلك.

فى هذا اليوم بقيت فى البيت.

كانت تحصى ما أنفقته خلال الأسابيع الأخيرة، أزعجها معدل ما اشترته، بعد أن فرغت من حساباتها على الآلة الصغيرة، لماذا لا تمضى ثلاثة أو أربعة أيام بمفردها فى أحد الفنادق الكبيرة، فى القاهرة أو الإسكندرية، لماذا لا تمتع نفسها؟ هذه الفنادق التى لم ترها إلا فى الحلقات التليفزيونية، وأفلام السينما.

لكن سيكلفها هذا كثيرا، ثم إن القوم سينظرون إليها بريبة، آنسة بمفردها..

ياه! أشياء عديدة تود القيام بها، لكن الناس، وكلام الناس، أقاويلهم، على أية حال، عندما تتزوج سيكون من شروطها قضاء أجازة من حين إلى آخر فى أحد هذه الفنادق، أما لو أسعدها الحظ، وكان العريس هو من تتمنى، فسوف يسافران إلى أوروبا.

هنا رن الجرس!

فوجئت، لم تعتد استقبال أحد من معارفها، انقطعت عن زميلاتها حتى لا يبادلنها الزيارة، اعتبرت ترتيب أثاث حجرتها ومفروشاتها سرا يخصها. فوجئت حقا برؤية زميلتها، مدرسة التربية الرياضية، تركية الأصل، زوجة لطبيب يعمل هنا منذ عشرين عاما، أى بعد الاستقلال.. مدة مكنتها من جمع ثروة، ياسلام.. ما كان أحوجها إلى مدة كهذه!

بقدر دهشتها، بقدر ما أبدت من ترحيب، كانت التركية طويلة، راسخة الخطى، حركاتها محسوبة، شعرها طويل، أما وجهها فجميل الملامح، وعيناها واسعتان، فمها مضموم كالحق.

لم تتقابلا إلا فى المدرسة، تعرفها باضطرارها للحديث بالتركية عند الانفعال، أحيانا تقول «تشكرات» بدلا من «شكرا»، ثم تتظاهر بأنها نطقت الكلمة عفوا . .

طبعا، بدا واضحا أنها جاءت لغرض محدد، صحيح أنها أبدت أسفها لأن أحسن الزميلات يرحلن، إنها نادمة بسبب قلة لقاءاتهما، لها نظرة فى الناس لا تخيب، ولأنها تدرك جوهرها جيدا، وتثق بها رغم قلة المدة لهذا جاءت تعرض أمرا محددا!

لم تتوقف التركية، لم تغير لهجتها، لم تبدل إيقاع كلماتها، لم تزخرف، ولم توار أيضا، إنما استمرت، وكأنها لا يعنيها أن تقاطع، أو أن تتلقى ردا.

قالت باختصار حازم، باتر: إنها تعرض عليها المشاركة فى عمل ستربح من ورائه خمسين ألف دولار غير منقوصة، خمسين ألفا أى ضعف ما ادخرته طوال سبع سنوات، وستة شهور. . ثم قالت متمهلة؛ : وأحد عشر يوما . .

توقفت لحظات، ثم استمرت . .

طبعا السؤال المنطقى هنا، أى عملية لن تكلف جهدا، وستعود بهذا الربح كله . . ما طبيعة العمل الذى ستصبح بعده من الأثرياء؟ حقا، إنها فرصة، والفرصة لا تجىء إلا مرة واحدة فى العمر كله . . ها . . ما رأيك؟

أصغت مأخوذة، عندها فضول، وخوف غامض. . قالت:

«أنت سألت، ولم تجيبى. .».

تراجعت قليلا، الحق أنها لم تموّه ولم تزوق قط، بدت صريحة، واضحة، وفى بعض اللحظات كأنها تملى ولاتقترح. .

قالت إن كل المطلوب منها، أن تحمل كيلو بودرة. .

ـ بودرة؟

ـ نعم. . بودرة بيضاء. . هيروين يعنى. .

مخدرات؟! ماذا قالوا لك عنى؟

قامت واقفة، غير مبالية برد الفعل.

ـ سمها كما شئت، ولكن اعلمى أنك لست الأولى ولن تكونى الأخيرة. .

لأول مرة تلحظ إصبعها الحاد القاسى، الذى لم ينثن طوال الحديث.

قالت بلهجة عاميةمصرية:

ـ فكرى كويس، وأحب أطمئنك، وصولك البيت مضمون، أنا منتظرة الرد الساعة خمسة وربع ـ بكره. . باى!

. . لم تقم من مطرحها، بقيت شاخصة، حولها رائحة العطر العالق بالفراغ بعد ذهابها، الصمت البارد، بدت الزيارة الغريبة كأنها لم تحدث وأن المرأة لم تأت، كذا الثقة الزائدة، والصراحة الحادة كالنصل. . لكنها استعادت ما قيل، وخطوط حضورها

المادى، امتلاءها غير المفرط، الراحة فى ثنايا جسدها، ملامح وجهها المشبع بالثراء.

عشرون سنة مضت على زوجها فى البلد، تنشر الصحف صورته، إنه لا يعمل فقط كطبيب، لكنه صاحب مستشفى خاص مشهور، الليلة فيه تكلف نصف راتبها الشهرى، يقال إنها شريكة فى دار للأزياء الجاهزة، لا تبيع إلا المستورد من باريس، ولندن، وعواصم أخرى لا نعرف عنها شيئا، وفى بدايات الفصول الأربعة تقيم عروضها، تشهدها سيدات المجتمع، وزوجات السفراء، يبثها التليفزيون، أما المجلات التى تصدر فى طباعة ملونة، نسائية وغير نسائية، فإنها تنشر صور العارضات، تفيض فى الشروح الخاصة بالخطوط الجديدة للفساتين، أدوات الزينة، العطور، إنها ثرية جدا ويقال إن عملها كمدرسة للتربية الرياضية ما هو إلا لشغل أوقات الفراغ التى تطول فى تلك البلاد..

لكن.. تبدو التركية وكأنها تعرف أمورا شتى عنها، لكن.. ماذا ستعرف؟ ليس فى حياتها ما يشينها، ما يعيبها، سبع سنوات وستة شهور وأحد عشر يوما، كانت تخطو فوق صراط مستقيم، لا تحيد ولا تميل، فكيف تجىء هذه المرة فى اللحظات الأخيرة لتقدم هذا العرض الغريب.. المريب؟

إن خوفا يدركها وخشية، هل بدا على ملامحها ما يوحى بقبولها، هل تضمنت نبراتها ما يومئ إلى الموافقة، تستعيد انفعالاتها، تحاول استعادة ألفاظها، قعدتها..

أبدا، لم يبد منها شىء قط.

لكن مالم تستطع قبوله، أو إقناع نفسها به، صمتها، لماذا لزمت السكينة؟ لماذا أصغت إلى النهاية؟

وماذا كانت ستبدى إزاء المرأة التى تنتشر الصحف صورتها أحيانا؟

ماذا كانت ستفعل؟

كانت المفروض بمجرد سماعها العرض الصريح، الوقح، أن تقف، أن تشير إلى الباب، أن تصيح:

أخرجى بره..

لكنها لم تفعل، ثم.. أى رد فعل كانت ستبديه المرأة؟ ربما تدبر لها أمرا يؤدى بها إلى مخاطر لا تعلمها.. إلى عدم خروجها من البلاد نهائيا، إلى فضيحة، فضيحة؟ أى فضيحة إنها لم ترتكب ذنبا، لم تأت فعلا فريا، لكن.. من أين لها بالضمانات فى واقع تسود فيه مثل هذه المرأة، إن مجيئها إليها أمر ليس سهلا، أى بلاء يبرز؟ يطل برأسه فى اللحظات الأخيرة، أين كان مختبأ لها هذا كله؟

أحكمت إغلاق الباب، بينما خوف يدركها متمهلا، ثمة أشخاص يتربصون بها فى مكان ما، هذا مؤكد، أشخاص لم تعرفهم قط، لم يخطر ببالها يوما أن أى صلة ستقوم بينها وبينهم، أحد هؤلاء ـ ربما لا تعرف ملامحه ـ ربما ألحق بها الضرر الأقصى، بل.. ربما أجهز عليها.

هل من المعقول أن تتركها المرأة هكذا؟.. معقول أنه عرض يقتضى القبول أو الرفض، أم يستتبعه ما تجهل؟

إنها مرهقة، عندها خشية، وترقب، وتفكير فى مفارقة البلاد كلها، أى ثقة كانت تتكلم بها؟ أى راحة؟ ترى. . كم ثروتها؟ كم؟ قالت إن حمل كيلو واحد من البودرة سيؤدى إلى ربحها خمسين ألف دولار، مجرد حمله، فكم ستكسب هى؟ أليس فى هذا ما يدعو إلى الجنون؟ إن شقاءها، وحدتها، وقمعها لرغباتها، شحها، تقتيرها على نفسها، وعلى أقرب الأقربين، محصلة هذا كله ما يقارب نصف المبلغ المعروض.

خمسون ألف دولار، لو أودعت فى بنك، لو أن متوسط الفائدة عشرة فى المائة، خمسة آلاف دولار فى السنة، بسعر السوق. مهما أنفقت فى مصر، هل ستنفق مثل هذا الدخل؟

أضف إلى ذلك ما ادخرته هى، إن رصيدا كهذا سيمكنها من البناء، تصبح صاحبة ملك، تحسن فرص الزواج، من الممكن التفكير فى أستاذ جامعى، طبيب كبير عنده عيادة.

خبطة واحدة، نقلة واحدة، مجرد كيلو بودرة. .

لكن المخاطر؟

طبعا عديدة، لكن مثل هذه المرأة، اللامعة، الوجيهة، القوية، هل تعمل بمفردها؟ لابد أن هناك آخرين مثلها، هل من المعقول أن تدبر أمرا لم تتوافر له ضمانات كافية؟

لكن. . ماذا يعنى وصولها إلى هذه النقطة من التفكير؟ هل تميل بها الظروف إلى هذه الدرجة؟ هل تسعى بإرادتها إلى الحافة؟!

الحق أنها لم تغف طوال تلك الليلة التى لن تنساها أبدا، تارة تجىء هنا، وتارة هناك، لحظة تأخذها، ولحظة تأتى بها، حتى إذا طلعت شمس النهار الجديد، لقيت نفسها قصية عن كل ما انقضى، أيامها كلها التى انقضت هنا فى جانب، وهذا اليوم فى جانب آخر، كانت فى رهبة وخشية، وفضول، غير أنها رددت. . وضعها الآن تحسد عليه، لابد أن هذه المرأة تتابعها، ترصد حركاتها، تدبر لها، فهى بين خطرين، كلاهما مر، الأول أن تعرض عنها تماما، تمضى فى إجراءات رحيلها، تنفذ بجلدها لكن. . من يضمن؟ من يدرى أنها لم تدبر لها أمرا فى المطار هنا أو هناك، لها ناس، هل ستتركها هكذا بعد أن صرحت أمامها، بعد أن كشفت نفسها، معقول؟ يمكن أن ترتب لها ما لاتقدر عليه، عندئذ تضيع مقابل لا شىء، وإما أن تقبل، عندئذ تتحمل المخاطر، وإذا تمت الأمور كما ينبغى، فستأتى فى انتظارها خمسين ألف دولار.

عند الساعة الثالثة كانت تدنو مما توشك الاستقرار عليه، أن تلتقى بها، أن تصغى إليها، هكذا. . لن تسفر عن عداء بين، فإذا بدا الأمر نائيا عن المخاطر الجمة كان بها، وإذا رأت العكس اعتذرت وأبدت لها رقة خلاف ما جرى عند مجيئها إليها، ستحاول ـ أيضا ـ الوقوف ولو من بعيد عما تنويه لها، أما انقطاعها تماما فخطأ مبين.

الثالثة أو الثالثة والربع. . لا تذكر. . أدارت قرص الهاتف، رن الجرس لفترة، انقضى وقت بدا طويلا، عاودت التطلع إلى الرقم لتستوثق، فوجئت بصوت التركية يجىء من الطرف الآخر.

« أهلا يا حبيبتى . . . » .

كأنها تنتظرها ، كأنها تعرف أنها على الطرف الآخر من الخط ، أو تراها . عجيب . . قالت إنها تريد أن تراها ، إنها تنتظرها .

قالت المرأة بثقة :

«لا ياروحى . . هذه المرة ستجيئين أنت ، أنا فى انتظارك ، بعد عشر دقائق سيكون السائق عندك . . » .

لم تدع لها فرصة ، لا أخذ ولا رد ، نطقها أمر ، وإرسال السيارة قرار غير قابل للنقاش .

فى البيت الفسيح القائم على أعمدة ، نصفها فى البر ، ونصفها فى البحر مغروسة فى أمواج الشاطئ ، فى صالة ازدحمت ، مزدانة بالنباتات الاستوائية جرت المقابلة .

فى اللحظات الأولى أثقلها تعب وضجت بأعوام الوحدة الطويلة ، بينما تردد عندها تساؤل ، إذا كانت التركية تعيش فى هذا البذخ ، فلماذا تجهد نفسها للعمل كمدرسة للتربية الرياضية؟ ترى . . أى نوع من الهموم عند هذه المرأة؟

للحظات تمادى داخلها وهن ، لو تبعد ، لو تجد نفسها فى مكان قصى ، بقدميها جاءت فهل تنكص فى اللحظات الأولى؟ لتنتظر وسترى .

كانت المرأة تتطلع إليها ، تتقدمها ابتسامة غامضة ، فى عينيها معنى يقول صراحة «كنت أعرف أنك ستجيئين» ، بعد دخول

خادمة أسيوية الملامح، تحمل صينية من الفضة عليها براد الشاى وأكواب الزجاج التى يستقر كل منها فى وعاء من الفضة المنقوشة.

طبق خزفى به بسكويت مختلف الأحجام، مستدير، مستطيل، لكل مذاق ورائحة مختلفة، صبت الشاى، تساءلت عن عدد قطع السكر.. قالت دون أن تعنى شيئا محددا:

«واحدة».

تساءلت التركية عما إذا كانت تلتزم نظاما خاصا لتنقص وزنها، هزت رأسها نفيا، عندئذ قالت التركية مومئة إليها، إن قوامها ملفوف جميل، وإن طولها مناسب. لم ترتح للهجتها البطيئة، المتخثرة، ونظرات عينيها، غير أن نبراتها تغيرت بعد الرشفة الأولى من فنجان الشاى.

قالت إنها عندما رأتها المرة الأولى لفتت نظرها بطيبة ملامحها، وهدوئها، وحبها الكتمان، وبعدها عن ثرثرة الزميلات.

قالت إنها تعرف كل شيء عنها الآن، ليس عن حياتها وأقاربها فحسب، إنما مقدار ما ادخرته طوال سنوات شقائها، ما اشترته من هدايا لأسرتها، يمكنها أن تصف لها محتويات حقيبتها الكبيرة، بل وزنها أيضا، ألم تعاينها عدة مرات حتى تتأكد أنها لن تتجاوز الوزن المسموح به فى الطائرة، هل تطلعها أكثر؟ يكفى أن تنبهها إلى خطئها عندما وضعت العروسة التى تتكلم وتبكى وتبول فى الحقيبة، صحيح أنها فى علبتها، لكن هذا الوضع

يعرضها للتحطيم. مثل هذه العروسة يجب حملها فى اليد، صحيح أن وزنها خفيف، لكنها تشغل حيزا لا داعى له، هذه العروسة ستوفر العديد من المشاق، ولهذا شرح، وتفصيل، لكن فى وقته، كل شيء فى وقته..

ما أن توقفت التركية فجأة، إحدى مباغتاتها التى تتبعها بتحديق مركز مباشر، نفاذ، حتى شعرت أنها عارية تماما أمامها.. إذن، فحدسها صحيح.. لو أنها لم تأت لدبرت لها أمرا..

استأنفت حديثها، بدت غير عابئة بتلقى ردودا، كأنها تتكلم أمام جهاز أصم، ولا تخاطب آدمية من لحم ودم.

قالت إن ملامحها الهادئة، وحبها الانزواء، وإخلاصها فى عملها، وبعدها عما يشين أو يعيب، هذا كله جعلها تقدم على اختيارها، لكن.. قبل الشرح والتفصيل، لابد من العلم أنها ليست الأولى التى ستقوم بذلك، وأن أخريات ـ لو علمت بمراكزهن الاجتماعية ـ سيغمى عليها، فى مصر سوق كبيرة الآن لما ستحمله، ستحمل كنزا حقيقيا، ليس ممثلا فى قيمته وحسب، لكن فيما يعنيه بالنسبة لمن اعتاد عليه، تعرف تماما أنها لا علاقة لها من قريب أو بعيد بهذه الأمور، أنها لا تدخن حتى، وهذا أفضل، بل إنه من أحد الأسباب القوية لاختيارها، فكل من تقرأ أخبارا عن وقوعهم فى المحظور، إنما يكون أمرهم قد انكشف لأمر أو لآخر، وفى الأغلب لتكرار نشاطهم، أو لخطأ يرتكبونه، أو لوشاية مقصودة، هذا كله لا محل له، فهى ستقوم بالعملية مرة

واحدة، لم ولن يتكرر الأمر، كل الظروف فى جانبها، فهى عائدة بعد غيبة، بعد غربة سنوات من العمل المضنى، هذا واضح بين، ما من أثر لها، أو حاضر، لا مكتوب، أو شفاهى صفحتها بيضاء تماما، لا أحد يعرفها، إنها خارج الدائرة تماما، المهم . . أن كل خطوة ستكون محسوبة، معدةً، تحوطها الترتيبات، سيكون هناك من يُعنى بها، ليساعدها عند أى مأزق ربما تتعرض له، أما لو أخطأت . . أى خطأ ولو تافها، عندئذ تتحمل هى العاقبة كلها.

صمتت فجأة.

لم تكف عن النظر إليها، تتحدث كأنها تلقى تعليمات ولا تفصل عرضا، شربها الشاى أنيق، ترشفه بدقة، أما ما يحيطها من عز وأبهة، فلم تر مثله ولا فى الأفلام . .

. . خططها تتغير، مسارها يتبدل، لن تسافر إلى القاهرة مباشرة، تركب الطائرة، تسافر إلى كراتشى، بطاقة الطائرة منفصلة، لديها عدة بطاقات، أخرى من كراتشى إلى أثينا، ثم . . إلى القاهرة، لماذا هى قادمة من أوروبا؟ لأنها كانت تشترى ملابس وحاجات لها، نادرا ما تراجع الأختام التى تحملها الجوازات، إلا عند الشك، مع ذلك لكل موقف طارئ تدبير، المهم . . ألا تنسى، ألا تهفو، إن أعصابها قوية، متينة، وفى الأغلب الأعم، لا يفضح المرء إلا نفسه . .

فى كراتشى ينتظرها أحدهم فى المطار بصحبة زوجته، تركب سيارتهما، تنزل ضيفة عليهما، لها أن تأمن، ألا تخشى، كل خطوة معدّة، دُرست بعناية.

لماذا كراتشى؟

إذا كان ولابد أن تجيب على مثل هذا السؤال، فالمبرر واضح، إحدى تلميذاتها واسمها «طفلة» دعتها إلى رحلة مكافأة على ما بذلته من جهد لإنجاحها فى المدرسة، أيضا بمناسبة انتهاء عملها، «طفلة» والدها تاجر سجاد، له مصالح، وتجارة، وبيت هناك، ثلاثة أيام مدة إقامتها، فى كل يوم تصحبها زوجة الرجل إلى مكان مغاير للنزهة، للفرجة، لشراء الحرير الطبيعى إذا شاءت، عند دنو الإقامة من نهايتها تسلمها الزوجة العروس، نفس العروس التى تلهو بها.

لكن يجب الوعى أن عروسها تلك لم تعد قيمتها خمسة وعشرين دولارا، إنما . . ثلاثة أرباع المليون. نعم . . اعتادت عند سفرها ألا تفارقها، تحملها معها، تصعد بها إلى الطائرة، إذا تصادف خلو المقعد المجاور تقعدها، إذا جاورها أحد تضمها، تسندها إلى حجرها، عادى هذا . . مألوف، ربما أثار هذا فضول البعض، لكنها لن تأبه، العروس بالنسبة لها نبوءة بطفلة جميلة، تصحبها فى سفرها، فى حلها وترحالها بعد زواجها.

من كراتشى إلى أثينا، الطيران مباشر . .

الانتظار فى أثينا لمدة أربع ساعات، حتى موعد إقلاع الطائرة المصرية، كل التفاصيل معدة، من كان مثلها يفضل طبعا السفر على الطيران المصرى، مع أن مصريين كثيرين يفضلون الشركات الأجنبية، لكن هى . . تكره الطيران الأجنبى، حيث تتعامل مع مضيفات لا تعرف لغتهن، إنها لا تتقن الإنجليزية أو غيرها.

فى مطار أثينا ينتظرها أحدهم، يعمل فى المطار، يدلها على المخارج، والقاعات. . وصالة السوق الحرة إن شاءت، لن تخرج من مبنى المطار، من قاعة العابرين، تبقى محتضنة العروسة، ممسكة أيضا حقيبة يدها، لا تبدى قلقا، أو توترا. حقيبة أخرى ستنضم إلى حقائبها، تحمل اسمها، تحوى ما ستقول عند الضرورة إنها اشترته من ثياب، وتحف صغيرة، وعطور، وأشياء أنثوية.

تجيل البصر حولها، تنظر أمامها، يجب أن تكون طبيعية، لتعلم أن ثمة من يراقبها عن كثب، يتبعها، إما لتقديم العون عند الضرورة، وإما حرصا وتحوطا، حتى لا تفلت، ثلاثة أرباع المليون دولار، من يصدق؟ هكذا أكدت التركية، بل إنها فاجأتها أثناء جلوسهما بإسماعها صوتها وهى تجيب عن استفساراتها، فكأنها لم تسألها عن أحوالها، وأقاربها وخططها بعد العودة إلا بقصد تسجيل نبراتها، حتى تعلمها أن دليل الاتهام بين يديها إن هى راوغت أو حاولت.

أبواب كثيرة وعديدة أمامها يجب اجتيازها، أبواب تفتح تلقائيا، أخرى تفتح بعد تلقى علامة، وأبواب ينبعث منها صوت إذا كانت تحمل سلاحا، أو جسما معدنيا.

ضباط وجنود يجب أن تمر أمامهم، بعضهم يرتدى ملابس رسمية، آخرون لا تلحظهم إلا العيون المدربة.

أحقا. . يراقبها أحدهم، أحقا يصحبها طوال الرحيل من لا تعرفه، لو صح هذا، فمن هو؟ فى أى مقعد يجلس؟ عربى هو أو أجنبى؟

هل تعنى التركية ما قالت؟ أم أنه إيحاء حتى لا تجرؤ على التفكير والتصرف بمفردها، أو الاختفاء بهذا الكيلو من البودرة؟ بالمبلغ المهول؟ ليس لديها القدرة على تخيله، ستة أرقام، خمسة أصفار، كم يبلغ عائده السنوى؟ أرقام لا تصدق، لا تقدر على استيعابها، أو تخيل مجرد التصرف فيها. .

لكن. .

لكنها ليست مشبوهة، إنها مدرسة عائدة بعد غياب سنوات فى الغربة، ليس فى ماضيها ما يريب، والأهم. . يجب ألا يكون فى مشيتها، فى خطوها ما يبعث ذرة شك فى العيون الخفية المترصدة.

أما إذا اكتشف الأمر ونبشوا داخل الدمية. .

«إحدى صديقاتى أعطتها لى، طلبت توصيلها إلى شخص سيجيئنى ويتسلمه. .».

ستذكر اسم التركية. . اسم هذه الشركة المشهورة فى القاهرة والتى لمحت التركية إليها، بل صرحت باسمها مرة واحدة لا غير، لكنها أدركت.

يتطلع إليها ضابط شاب، يفصلها عنه حاجز زجاجى تتخلله فتحة مستديرة، يختم استمارة الوصول، يقدم إليها الجواز مبتسما:

«حمدا لله على السلامة، غيبة طويلة. .».

تومئ مبتسمة . .

«والله ما فى أحسن من بلادنا» .

تردد عبارة سمعتها منذ ثلاثة أعوام، قالتها امرأة بدينة، قصيرة كانت تحمل طفلة ويتبعها صبى، لفظتها بنفس الإيقاع .

تعبر الحاجز الحديدى إلى صالة وصول الحقائب، تنتبه إلى ضغطها العروسة أكثر مما يجب، خطأ، خطأ، لتكن خطواتها متمهلة، عندما دفعت العربة الصغيرة وأوشكت على التعثر، تقدم أحدهم، ساعدها، نصح بوضع العروسة فوق الأمتعة حتى تدفعها بكلتا يديها .

شكرا . .

تبدو العروسة كطفلة صغيرة ترفع يدا، وتخفض الأخرى . .

ـ هل معك فيديو؟

ـ لا . .

ـ أى أجهزة كهربائية؟

ـ تفضل شوف . .

بيد مدربة، خبيرة، يجس الحقيبة الكبرى، الحمد لله، لم يلمس العروسة، يتطلع إلى جواز السفر . .

ـ حمدا لله على السلامة . .

ـ الله يسلمك .

يرفع الجندى يده محييا، كأنها لم تنتبه .

اجتازات آخر الأبواب، تقف في الساحة الفسيحة، تفكر بسرعة، لا . . لن تتجه إلى هذا الفندق الذى أشارت التركية عليها بالنزول فيه، كيف أطاعتها؟ كيف وافقتها عندما اقترحت عليها ذلك؟ هل المعتاد هنا نزول فتاة بمفردها في مثل هذا الفندق؟ ستتجه إلى البلدة مباشرة، مفاجأة لأمها التى لا تتوقع وصولها، لكل الأقارب، هناك ستخفى العروسة بما تحوى.

زاد عمرها مقدارا ليس بالهين خلال هذه الرحلة الطويلة، لو أنها ضبطت في كراتشى، أو في أثينا هذه، كم من السنوات كانت ستمضيها في سجن غريب، بأرض غريبة، كم. . مجرد تخيلها ذلك يلحق بها الرعب، هذه المخاطر كلها. . ألا تجعلها تعيد النظر؟

طرح التساؤلات

فاتنى القول يا كرام، أننى حرصت على جمع كل ما قدرت من صحف الفترة، كما دونت ما عنّ لى، وما لفت نظرى عند المطالعة، خاصة تلك السطور البعيدة عن العناوين الرئيسية والصفحة الأولى وما فيها، رب خبر من سطرين يثير مخيلتى، وتساؤلاتى، ويأتى إلى بتداعيات شتى، أو يدفعنى إلى تقصى أسباب أو جلاء أمر.

ربما سمعت من متحدث، صاحب لى، أو غريب عنى، إشارة عابرة، أو رواية مفصلة، تقض مضجعى، فلا أهدأ إلا إذا عرفت أبعادهاولا أنثنى إلا إذا وقفت على تفاصيلها، والعنصر الذى لا أوفق فى الوصول إليه، أخمنه وأحدثه، وأستند فى ذلك إلى ما كان قبله وماجرى بعده، ربما أوفق، وربما لا، غير أن هذا طبع جبلت عليه.

حدث أن قرأت يوما، ثلاثة سطور لا غير، خمس عشرة كلمة، تخبر أن مصريا لقى حتفه، فى حريق شب والتهم سجن مدينة ميسينا الإيطالية، لم يذكر اسما. ولم يرد أكثر

من ذلك، ومثل هذا باعث للحيرة، يجتاحني التساؤل تلو الآخر. .

من هو؟ أي ظروف أودت به إلى البلدة النائية التي لم أسمع عنها من قبل، متى ترك الديار؟ متى ودع وسلم؟ وماذا تبقى له من صلات ومودة؟ كيف وصل إلى ميسينا هذه؟ وأين كان يعمل؟ ولم سجنوه؟

حدث أن نزلت يوما بلدا قريبا من المحيط، جلت بها، وزرت مدنا مختلفة حتى وصلت إلى مدينة نائية، لم يكن فيها إلا فندق قديم مرتفعة جدرانه، تحيطه شرفات فسيحة تظلها سقوف من خُشب متكئة على أعمدة مستديرة، وإلى جانبه يمتد مدرج مطار صغير تستخدمه إحدى شركات النفط تقريبا. . الفندق والمطار مبنى واحد، برج المراقبة الصغيرة يقوم عند الركن الأيمن للبناء، بارز منه. نزلت إحدى غرفه الفسيحة، السرير من طراز قديم، يمت إلى القرن التاسع عشر، عريض، فسيح، فراش تمددت فوقه ـ قبلي ـ أجساد شتى، أرق من أجهلهن، وقلق من لم ألتق بهم، وملذات تلاشت.

ترى من هم؟ . . من عبر هذا الفراش المشاع؟ إلى أي جهات ولوا؟ من بقي ومن رحل، ومن يذكره مازال؟ ومن رحل إلى الأبد؟ للغرفة رائحة القِدم والاندثار.

في الليل نزلت صالة الطعام، قعدت بمفردي، أتأمل المحيطين بي، كلهم لا أعرفهم، كلهم ذكور، لم أر امرأة واحدة، وعندما

وضع أمامي طبق الطعام تطلعت إليه مؤتنسا، لا يمكن أن أخطئ ملامح أبناء دياري. . سألت مباشرة. .

ـ أنت من أين؟

قال على الفور:

ـ من العباسية. .

بعد تكرار سفري، كنت أردد دائما، أنني لو لمحت مصريا يمشي. في زحام لعرفته، حتى لو في بلد عربي، حيث تتشابه السمات. .

هو في العشرينيات، وسيم، غزير الشعر، يثير عندي مشاعر البنوة، في عينيه حزن غريب، لم يكن يخاطبني إلا أثناء وقوفه، لايمكنه الجلوس معي، هذا عمله، وعليه تلبية طلب هذا وذاك، ثم يرجع إليَّ، يتظاهر أنه يبدل طبقا، أو يأتي بملعقة وشوكة، أو ينظف المفرش.

قال إنه خرج قاصدا أوروبا، لكنه جاء إلى هذا البلد لادخار بعض المال يمكنه من مواجهة أيامه الأولى عندما يتجه غربا.

لم يكن السفر قد بدأ على نطاق واسع خلال تلك الأيام، كانت السبعينيات ماتزال في بدايتها، والحرب لم يمض على انتهائها إلا شهور قليلة، وفيما بعد جئت هذه المدينة مرة ثانية، ولقيت فيها عددا كبيرا من المصريين ولكن لهذا حديث آخر، يكفي القول إن هذا الفندق الذي قابلت فيه هذا الشاب بمفرده، وجدت فيه عددا من المصريين، تقريبا يديرون مجمل العمل فيه،

كما قابلت عددا من العمال فى الساحة الرئيسية، حيث اعتاد المقاولون، طلاّب العمالة المجيء بحثا عمن يحتاجون إليه، فى أعمال البناء، أو النقل، أو ما شابه ذلك.

فى زيارتى الثانية كانت المدينة قد اتسعت، قامت فيها مبان عديدة، ومهدت إليها طرق فسيحة، ونزلها غرباء كثيرون، مع أن الفاصل الزمنى لايتجاوز الأعوام الستة.

لن أطيل.

أعود إلى هذا الشاب فأقول إنه مال علىَّ..

- إننى خائف!

- لماذا؟

قال إن معظم الجالسين هنا فى المطعم إنما قدموا من أجله هو.

تعجبت.. انتبهت. بدأت أرصد نظراتهم.

إنهم يغازلونه!

قال إن الحظ العاثر أوقعه فى مدية لوطية! لم يدرك ذلك إلا بعد انقضاء الأسابيع الأولى، ومما حكاه له طباخ هندى عجوز يعمل باستراحة شركة النفط المحلية التى تبعد كيلو مترا واحدا، ثم بدء النظرات، والغمزات، وترديد العبارات على مسمع منه، بعد أن يقدم طبق الطعام، وإذ يولى ظهره يسمع قائلا منهم..

قوام جميل والله.

قال إن بعضهم جاء خصيصا ليراه، يقدم إليه بقشيشا سخيا، وعندما يستدير ليمضى هنا أو هناك يسمع همسهم، وغزلهم الفاضح الصريح، إنه يخشى الخروج من الفندق، بل يخاف عند نومه فى القسم المخصص للعاملين أن يقتحم بعضهم حجرته، سمع عن حكايات جرت لغرباء نزلوا المدينة، وجرى لهم ما جرى، بعضهم ردد على مسمعه تفاصيل.

المدينة أمرها معروف، شائع، حتى لترى نساءها مكتئبات، يطل من عيونهن التى لا يبرز ماعداها من وجوههن، جوع فادح، هذا أمر شائع، معروف، وللأسف لم يكتشف هذا إلا بعد إقامته، إنه حائر لا يدرى ما يفعل؟

قلت محتدا:

ـ اخرج منها، ارحل، كيف تقول إنك لا تدرى ماذا تفعل؟

قال إن ذلك مستحيل قبل ثلاثة شهور، هكذا يقضى العقد.

ـ أى عقد؟ هل تفسخ العقد أم تخسر نفسك؟

قال إن فسخ العقد، أو الإخلال به، خاصة من جانبه هو يؤدى إلى السجن، والسجن هنا هلاك مبين، من سيحميه هناك؟ هنا ربما استطاع المراوغة، أو الإفلات، لكن بين أربعة جدران وخلف باب مغلق، أين المفر؟

كنت فى حيرة، غير قادر على تقديم عون، أستعيد وقت كتابتى هذا تحديق القوم فى الشاب، وتغامزهم، ونظراتهم، لم أقض إلا ليلتين، بعدهما أقلعت عائدا من حيث أتيت، وعندما

حلقت الطائرة، وتداغمت البيوت، وتقاربت المعالم، ودنت الفواصل، كنت أفكر فى الشاب، وأنه موجود عند نقطة مما أجرى، لم أعرف ماجرى له، ولم يصلنى منه شىء، مع أننى قدمت إليه عنوانى.

برغم تعاقب المدد وطول المدى، فإن حيرته تعاودنى، وما آل إليه أمره يقلقنى. . هل اغتالت المدينة فتوته؟ هل أفلت؟ عندما زرتها مرة ثانية لم أجد له أثرا، ولم يذكره مخلوق، ولا أدرى لماذا انبعثت ملامحه من عدم ذاكرتى ومجهولها عندما طالعنى نبأ احتراق هذا الشاب فى سجن ميسينا الإيطالى البعيد؟

أم أنه صاحب الرسالة التى أتيح لى الاطلاع عليها؟ كان يعيش فى ميلانو، هل انتقل إلى ميسينا؟ هل المدينة قريبة أوبعيدة من عنوانه الذى حدده تفصيلا؟

والله لا أدرى ، لا أجزم، مثلى كهؤلاء الذين لا يعرفون ما جرى للمدرسة التى أتمت المدة، عندما طالعوا خبرا صغيرا يقول إنه قبض على مدرسة عائدة من الخليج بناحية القناطر الخيرية، أثناء محاولتها بيع كيلو من الهيروين الخام.

أى تفاصيل كان ممكنا لى الوقوف عليها، لو أحطت بظروف هذا الشاب المصرى الذى لم تذكر الأنباء حتى اسمه، فالاحتراق هو الأهم، أما صاحب الكينونة ذاتها، فلا محل له، ولا مقام!

عندى اختلف الأمر، إذ أقضنى أمره مع أنى لا أعرف شيئا، وحتى لا أطيل أو أفصل ، فإننى مطلعكم على ما جرى لواحد ممن

عـرفتـهـم ، ومن الذين رحلوا سـعـيا وراء بسطة من العيش ، وقـد هالنى مـا انتـهى إليـه أمره ، لكننى لن أتعـجل الرواية ، ولن أقـحم ذاتى عند مواضع كـان لابد أن أدلى فيـها بأمور ، إذا ينبغى القول ياكرام ، إن هذا الإنسـان كان قريبا منى ، عرفته منذ زمن بعيد ، كنا نقترب أحيانا ، وتباعد مابيننا الأحوال والظروف فترات ، ولكن إن فى قرب أو فى بعد لم تغب أخباره عنى حتى كان منها ما كان .

وإنى مخبركم بما جرى من كفيله..

وأبدأ عند يوم أعتبره فاصلا بين حدين . .

هو قبله ، غير ما هو عليه الآن ، إنها لحظة مغايرة لكل ما مر به ، ما أدبر من زمنه زوى واندثر ، إنه موغل بعده فى الاغتراب ، وما سيقبل بعد هذا النهار ، تلك الساعة ، هذه اللحظة التى أصغى فيها إلى ما أصغى ، إنه غموض ، محير ، مضبب ، مبهم .

لو أنه بمفرده لهان الأمر ، لكن ثلاثة كيانات متعلقة به ، ثلاثة مصائر : امرأته ، ابنته ، ولده ، أولئك هم الأقربون ، المحيطون به ، أما الأقاصى عنه . . المنتظرون زيارته السنوية إلى القاهرة فما أكثرهم .

أولهم والده الذى ولد ونشأ فى هذه الديار ثم هج منها منذ ستين عاما أو أكثر ، تلطم فى البلاد ، نزل الشام ، قضى زمنا فى فلسطين ، ثم عبر سيناء ممتطيا ظهر هجين ، استقر مقامه فى بر مصر ، أصبح واحدا من أبنائها ، له مالهم وعليه ما عليهم ، ولهذا شرح قد يحيد بالخطة .

هناك ـ أيضا ـ خالته التى تعهدته طفلا، رضيعا بعد وفاة أمه إثر ولادته، حمى نفاس لم تمهلها، لا يعى من أمرها شيئا، لم تخلف صورة واحدة تمكنه من التعرف إلى ملامحها، خالته عجوز، وحيدة، قال والده إن شبها قويا يجمعها بالمرحومة، مع أن عشر سنوات تفصل بينهما على الأقل، أما شقيقاته فكل منهن تنتظر هداياه، خاصة صغراهن، زوجها المبيض يعمل يوما ويتوقف عشرة، يدمن تدخين الحشيش، ويتباهى بقدرته على شرب عشر زجاجات بيرة دفعة واحدة، عندما تتوافر لديه النقود تنفلت يده، إذا جلس بمقهى ينفق على من يعرفه، ومن يجهله، إذا دخل سينما دعا من يجاوره إلى مشروب، كذا من يجلس أمامه وخلفه، يغضب إذا رد أحدهم دعوته، خاصة إذا كان يجاوره فى الصف، ثم يخرج إلى الطريق خاويا، ما من قرش معه وأمره بين الخلق مستقر عادى، لمح له بقدر ما تسمح مداركه، بدءا من دفع تذكرة الترام.

هؤلاء أهله، أما أسرة امرأته فينتظرونه فى المطار.. حماته وشقيقات امرأته السبع، أحيانا بعض الجيران، وشاب أو شابان غريبان، يعرف فيما بعد أنهما ينويان الخطبة، وقد يتم الأمر أو لا يتم.

مابينه وبينهم الآن يباب.

لا أحد منهم يدرى ما حل به، ولو نمى إلى علمهم فأى عون يمكن تقديمه، أى مساعدة أى؟

لم يلق نفسه بعيدا، سحيق النأى كما هو الآن، منقطعا عن

زمنه، عن موطنه، عن مألوفاته، عن ديار يمكنه أن يجوس خلالها بدون صد أو رد، أينما ولى وجهه فيها يمكنه طلب العون، أو تلمس المدد.

هناك بعض معه يستند إليهم ونفر عليه يمكنه القصاص منهم، لكنه هنا منقطع عن أى مساعد، فمن يؤازره من؟

المؤكد، المقطوع به، أنه لم تكن ثمة بوادر، أو نُذر. مضى عليه سنوات ست منذ استقرار أمره فى هذه الشركة، ثابر، تفانى، بذل المجهود الأتم، نال رضاء مديرها، حتى إنه كفله بنفسه عند السلطات، وكان القوم يداعبونه قائلين:

«يا بخت من كان المدير كفيله وضامنه..».

وثق الرجل به، كان يستدعيه، يملى مضمون مايريد إبلاغه إلى الشركات البعيدة، لم يقتصر الأمر على ما أسند إليه من صياغة خطابات الدعاية، والكتيبات الصغيرة، بل ومتابعة تنفيذها وإرسالها.

بعد عام واحد أرسل إلى امرأته، إلى ابنته وولده، عندما جاءوا أول مرة كانت الكبرى فى السادسة، والصغير فى الثالثة، الآن، اجتاز الولد التاسعة، وقتها سمع من البعض، لماذا لاتبقيهم فى مصر؟ مجيئهم مكلف، لو بقيت مفردك يمكنك أن تدخر أكثر، غير أنه أبى، قال إنه عاهد نفسه، إذا ما اعتدلت الأحوال لايبقى هو فى ناحية وهم فى ناحية، أسكنهم بيتا فسيحا زوده، وأثثه بما يحتاجون إليه، كأنهم باقون فى تلك الديار أبدا.

صباح كل يوم يصحب البنت إلى المدرسة والولد، مدرسة ابنه مجاورة للبيت إلا أنه يخشى عليه، يحتاط لأمره حوطة عظيمة، الولد مليح، أبيض البشرة ناعم الشعر، أخذ من أمه رقة التقاسيم، واتساع العينين، أشد ما يشغله الحفاظ على ولده هذا، اللواط هنا شائع، شرح له أن الخلق من ذكر وأنثى، وأن الأنثى تكمل الذكر، والذكر متمم لها وإن اختلفا، حتى التأكيد عليه ألا يركع عند اللعب، وألا يسمح لصحبه أو زملائه بالركوب فوق ظهره، أو القفز أثناء اللعب، وألا يخلع ملابسه أمام مخلوق البتة، بل كان يعلن غضبه عندما يلمح باب دورة المياه غير محكم الإغلاق بعد دخوله، طلب من أمه أن يعتاد الاستحمام بمفرده، وشدد عليه ألا يقبل هدايا أيا كانت من شخص يكبره سنا، أو صديق أى إنسان غريب إذا ما اقترب منه يوما وطلب صحبته ليوصله إلى أبيه.

قالت امرأته: إنه ينبه الولد إلى مالا يجب التنبيه إليه.

قال: اسكتى، أنت لا تعرفين هذه البلاد وأهلها.

قالت: لا.. أعرفها مثلك وخوفك على البنت يجب ألا يقل عن الولد.

قال: عليك بالبنت وعلى أنا الولد.

عند خروجه من مقر الشركة ظهر هذا اليوم، رأى القوم يسعون، لايدرون مالحقه، مانزل به، عند ناصية الطريق هفا قلبه، لم يتبق على خروج الولد إلا ساعة، عليه أن يقضيها فى السيارة، طوال الشهور المنقضية كان يضبط موعد انصرافه من

الشركة بحيث لا يفصله عن المدرسة إلا قطعه مسافة الطريق، عليه أن يقطع الشوارع مرات، إنه مازال مبهوتا، مكتظا بما لقيه، عليه خمدة فى السيارة، يتحرك بحذر، يتمهل عند النواصى، الحرص الشديد عند الإشارات الضوئية، إفساح الطريق للعربات الفارهة الفاخرة بغض النظر عمن فيها، إذا نهره سائق من أهل البلاد لايرد ولا يجادل، مصيبا كان أو مخطئا، يجب عليه تفادى المجادلة، مازال يذكر هذا النحيل، مفرط الطول، نزل من السيارة غاضبا، راح يضرب العربة الأخرى بقبضته، مرددا: أرنى أوراقك. . أرنى أوراقك! سائقها يبدو غريبا، تداخل فى بعضه مرددا، مبهوتا، وانتابته رجفة، عندما نزل مصر أول مرة بعد بدء اغترابه. . ود لو قال لسائق عربة الأجرة إنه يحسده على تلويحات يده، وذلك الحوار المبتور، الذى يتبادله مع السائقين الآخرين، وحتى ما يتفوه به من شتائم. وما يظهره من لا مبالاة، هل يقدر هنا على إيماءة غاضبة حتى؟ لايمكنه ذلك أبدا. إنه يقترب بحرص من الرصيف، ماينوء بحمله اليوم يجب ألا يلهيه عن الطريق ومخاطره، غير أنه عندما لمح ولده واقفا وراء الباب حاملا حقيبته، كان ينوح، وهوى داخله ثقل بغيض خلف عنده فراغا أجوف يشع وهنا وبرودة، نزل ليصحبه، ضغط يده الصغيرة، وعندما جاوره ضمه إليه ومال ملامسا رأس صغيرة حتى دهش الولد، وتساءل: فيه حاجة يا بابا؟ هز رأسه، حاش ماعنده قسرا، فى وهج الظهيرة عظمت وحدته، وثقلت غربته، واشتدت وجيعته، وعندما خطا داخل البيت، تساءلت امرأته: «فيه حاجة؟».

مرتجف صوتها، يحاول تخمين ماجعله يبدو غامقا، قاتما، كأن ما جرى في عروقه قار وليس دما، قعد عند حافة السرير منحنيا، كررت. . «فيه حاجة. . خير. . ».

عندها فضول، وتساؤل، أن يخيب ظنها، أن تحيد أفكارها، قال بصوت محايد، غريب، تصغى إليه أول مرة:

«اقفلي الباب».

وعندما عادت يلفها شؤم، وينهكها ضنى، بدا كلاهما منفردين، والعالم كله ناء، تطلع إليها، كأنها تراه أول مرة، وعلى غير ما تعهده، على غير ماتعرفه، فوجئت به ينشج، يبكي، يجاهد كي يكظم جعيرا يحوى هزيمة رجولية مروعة. .

ـ «فيه حاجة في مصر؟».

يهز رأسه نافيا.

ـ إذن. . ماذا جرى؟

أشار بأصبعه إلى بعيد، إلى حيث لا جهة بادية، وعندما أوشك استفسارها أن ينقلب نواحا، قال متحشرجا:

« يجب أن نخرج من البلد خلال ثمان وأربعين ساعة!».

لماذا؟ ماذا جرى؟ غير أن كل الأصوات تنأى، تطوف بكيان رجلها المتداعي، لم تعهده هكذا قط، هو الصامت دائما في مواجهة أعتى الظروف وقد عرف منها الكثير، حتى وصفته يوما، بينها وبين نفسها بالبرود.

ماذا وقع؟

حدة بكائه لم تقدر على اللفظ أو بذل المحاولة لتهدئته، يجب مفارقة البلد، لكن. . لماذا؟ أى جرم؟ أى؟ خطأ، إنهم فى حالهم. . بعيدون تماما عن الكدورات، معتصم كل منهم بالآخر، فماذا حدث؟ تمد يديها، تلامس كتفيه كأنها على وشك احتضانه، كأنها تحتمى به من انهيار، فى وقت يتداعى هو فيه، برغم الباب المغلق، فإن ما يجرى نفذ إلى البنت، إلى الولد، يجيء صوتها حذرا، قلقا، على مشارف البكاء:

- «بابا جرى له حاجة ياماما؟».

تجيب بصوت مرتفع. .

- «روحى وسأجيء. . روحى الآن».

يصلهما صوت الولد:

« أنا خائف يا ماما. . ».

ترجوه أن يهدأ، أن يكف من أجل الأولاد، فى هذه اللحظة يتوقف، تحاول مسح دموعه، غير أنه حاش يدها، يستمر محملقا إلى البعيد، إلى نقطة غير مرئية، تتجاوزها بكثير، تبدو رقبته المائلة رخوة، الآن يتجسد المعنى الذى لم تكن قادرة على تحديده، إن زوجها، والد طفليها، رجلها، انكسر، إن قاصمة حلت به!

لحظتان لم يفارقاها فيما تلا ذلك من مدة، عندما حط وبدأ جعيره المكتوم، ولحظة أن كف وبدء نظره إلى بعيد، إلى

اللاشىء، تهمس محاذرة، ترجوه أن ينبئها، أن يفضى إليها، أن يفكر فى الولدين المروعين، ماذا جرى؟ فى اللحظات التالية طرقت الابنة الكبرى مرتين، غير أنها ردتها، المرة الأولى برقة، والمرة الثانية بخشونة، زعقت مستنكرة.. «يعنى لا أعرف أقعد مع أبوكم؟!».

فى صوت محايد، غريب، لا أثر فيه لانفعال، كأنه بمفرده، عليهم المغادرة خلال ثمان وأربعين ساعة، بعدها يصبح موقفهم حرجا، يقبض عليهم رجال الشرطة، يتولون ترحيلهم عنوة، لماذا؟ لأن صاحب الشركة سحب كفالته له، بين لحظة وأخرى سيجىء من ينذرهم بضرورة المغادرة، تم الأمر بغتة، بلا مقدمات، بلا نذر حتى يبلغ الأذى مداه، ويكون الوقع أثقل وأفظع..

لكن.. لماذا؟ ما جرى، ماذا بدل الأحوال وغيرها؟

يقول لامرأته المصغية، إن للشركة مديرين، أو شريكين فى إدارتها، الأول عجوز من أهالى المدينة القدامى، من معارف الوالد قبل نزوحه إلى مصر، وهذا رجل طيب، أتاح له الفرصة وثبت أقدامه، وثق به، وأوصى معارفه، عندما لاقاه أول مرة قال له: أنت ابن الحاج حمودى؟ أجابه مومئا: نعم. قال: الخالق الناطق أبوك، سبحان الله، كأنه أمامى، انقطع عهدى به وهو فى سنك.. أهلا، أهلا بابن الحبيب الغائب، سأل عن أحواله، دقق فى معرفة أموره، كيف يعيش، كم أنجب غيره؟ لماذا لا يبدأ السعى محاولا العودة؟

حكى له ما كان من أمر والده، ما رواه له، عن هجاجه فى البلدان، إلى الشام، إلى فلسطين، نزوله مصر و تقلبه فى أعمال شتى، زواجه المرة الأولى إنه ثمرة هذه الزيجة، و ثلاث شقيقات أخريات. و عن زواجه الثانى بعد رحيل أمه، امرأته الأولى، حدثه عن استقراره هناك، و حنينه إلى أيام صباه، و لكنه لم يخبره بكراهيته لمن تولوا تدبير الأمور هنا، و تفضيله البعاد، حتى بعد ظهور الخير فى البلاد التى كانت مسقط رأسه، بعد أن أصبح مقصدا لكل راغب فى الثراء.

لم يفكر فى العودة، أو بدء المسعى، لم يقل للرجل إن أباه لا يطيق سيرة من تولوا الزمام، وأنه لم يسترح قط لسفر ابنه، لم يهدأ، ولم يبد الرضا إلا بعد سماعه التأكيد تلو الآخر، بأن الغيبة لن تطول، وأن الرحيل لغرض، و إنما هى سنوات معدودات يتيسر فيها الأمر مع الراتب الكبير ثم يعود.

مما أدهشه بغض أبيه لقومه، وتحذيره إياه منهم، والتنبيه عليه ألا يفكر فى الاستقرار هناك أبدا، ألا يسعى إلى استرداد جنسية والده، إذ ينصرف عن أبيه يفكر، لابد أنه لاقى مالا يمكن وصفه. ألحقه الشيخ بشركته وكفله بنفسه، كان زملاؤه يحسدونه على تعدد مرات لقائه بالشيخ، صاحب المال، من تحمل اللافتات اسمه، كانوا يتطلعون إليه بعد انقضاء الأوقات الطويلة التى يمضيها بصحبته، اعتاد تلقى بعض المطالب منهم، يحملها إلى الشيخ ليقضى فيها وينهى، والحقيقة أنه لم يقصر، لم يبخل قط فى قضاء الحوائج، كان عالما وعنده دراية باللحظات التى يقدم

فيها إليه، كان زملاؤه بعضهم من مصر، وآخرون من أقطار شتى يداعبونه مبتسمين، يابخت من كان الشيخ كفيله يصغى مبتسما، لايبدون ما يشى أنه يحاول الحصول على وضع أفضل لانفراده بتلك الحظوة.

كان هادئا يمضى ليؤدى ما يوكل إليه فى صمت، وفى البيت يسهر مدبجا كتيبات الدعاية، كان الشيخ يقول له: أنت فصيح، تعرف لماذا؟ لأن فى عروقك دماء، بدوية، أبوك بدوى أصيل، على الله ألا تكون المدينة الكبيرة قد أفسدته، عندئذ يسارع بالرد: ياطويل العمر.. إن والدى لم يغير لهجته حتى الآن، يقول الشيخ: مصر كبيرة.. مصر أم الدنيا. ثم يقول إنه نظم الشعر فى مطلع شبابه، كان ممكنا لو تفرغ أن يصير شاعرا مرموقا، لكنه امتهن التجارة بدلا من الأدب، ثم يقول إنه بدوى ابن بدوى، لا يرتاح إلا فى البادية، أسعد لحظاته عندما يمضى إليها، ينام فى الخيمة ويشرب حليب النوق فائرا، ثم يشير إلى المكتب الفسيح، والأثاث الفاخر، والستائر المسدلة، وأجهزة التكييف، يقول ملوحا بأصبعه: والله مجبور يا أخى على هذا، والله مجبور!.

الشيخ ذو هيبة وافرة، وحضور صارم، له حرمة وتنفذ عند الحكام، إنه الخل الوفى لأمير مسن تجاوز المائة، ممن شهدوا المعارك الأولى التى سبقت قيام الدولة، كثيرا ما يصحبه إلى البادية، ينقطعان أياما، يتحدث الشيخ كثيرا عما جرى فى الزمن القديم. عما لاقاه من فقر وضنك، يردد أنه عندما جاء من الصحراء كان يرتدى ثوبا مرقعا، بلا حذاء أو مداس، نحيف لقلة

الأكل وشح الزاد، وعندما صحب هذا الأمير المسن، قال له: أريدك معى.. لكن لا تكذب، ولا تسرق. أجابه: أما عن الكذب فلن أكذب أبدا عليك أو معك، أما السرقة فإن لم تكفنى ـ وكفايتى فى القليل الميسور ـ فلا تحاسبنى إن سرقت، صار موثوقا به، وعندما بدأ ظهور النفط والثروة يسر له الأمير سبل قيام هذه الشركة، فجاء بشقيقه، وأقاربه، وأصهاره، شقيقه هو المدير الفعلى والمدير لشئون الإدارة، إنه شريك أيضا، منه بدأت الواقعة، وعنده لب ماجرى! أما الأقارب فيتولون الفروع المنتشرة هنا وهناك، شركة ضخمة، يشمل نشاطها أمورا شتى، التجارة فى العربات، وأجهزة الراديو، ومستحضرات التجميل، والمجوهرات، ولعب الأطفال، وقطع غيار ماكينات الرى، والأقمشة بأنواعها، وعسل النحل، والجبن، والأسماك المحفوظة، واستصلاح الأراضى وتعبئة التمور، وعلاج آفات النخل، كما تدير عدة فنادق متوسطة، يشير الشيخ دائما إلى معرض يتباهى به، متخصص فى الخضراوات الطازجة والفاكهة، يمكن لمن يرغب أن يجد فيه حبة أناناس قطفت بالأمس من شجرة آسيوية، وثمرة موز طازجة مستوردة بالطائرة من كولومبيا، وطماطم طازجة لم توضع فى ثلاجة جىء بها من إستراليا، وتفاح فرنسى، وكمثرى سويسرية، يبسط يديه قائلا: كذا خير، والله خير.

كان الشيخ إذا بدأ الحديث لا يتوقف، إنما يمضى من درب إلى آخر، من حاضر إلى ماض، ومن ماض إلى ماض أبعد، كان

يجيد الإصغاء إليه، عند جلوسه إلى الشيخ تتوجه كل ملامحه إليه. تتركز نظراته، يبدى الانفعال، التعجب، الحسرة.

يمضى الوقت وتعدد الجلسات، كان يصغى إلى تفاصيل مكرورة، معادة، إلا أنه يحرص على إبداء دهشة بكر، خالصة، أن تبدو ملامحه وردود أفعاله وكأنه يتعرف على كل تفصيلة لأول مرة، وعندما يتعلق الأمر بفعل أتاه الشيخ. أو موقف له فيه خبرة على من لايمكن الوقوف بوجهه، أو براعة حققها أثناء صفقة، أو نبوءة أبداها، وتحققت، كان يبدى الدهشة ويستفسر مستوثقا، عندئذ يعيد الشيخ ما بدأ روايته، يتمهل، يلوح بيده، بكثير من القسم بالمقدسات، عندئذ يمد يده ملامسا أطراف عباءته، يرجوه ألا يحلف، إنه مصدقه.

إذ يكف عن الحديث، تكتسى ملامحه قسوة مفاجئة، وتحل فى عينيه نظرات غير محددة الهدف، يدرك أن انصرافه وجب، وأن صمت الرجل سيطول، و إنه نسى وجوده على مقربة.

على مهل يخرج، يتراجع، لا يولى ظهره للرجل إلا عند الباب، بمجرد خطوه إلى الخارج، يومئ لمدير المكتب، السكرتيرة الإنجليزية، لكل من يلقاه أمامه، بينما يخف عنه عبء ثقيل، غير أنه لا يفرغ من دور إلا ليتقمص دورا، إنه يبدى التودد فى التواضع الجم للمسئولين من أقارب الشيخ، يومئ لهذا، و يحيى ذاك بدون مناسبة، يعى ضرورة محو أى مشاعر معادية كامنة، أو حسد، أو تنافس خفى بسبب انفراده هذا الوقت كله بالشيخ، و مما أعد له العدة، و خشى جانبه.. الرجل الثانى، الشقيق الأصغر من بيده الحل و العقد.

إنه الشقيق الذكر الوحيد للشيخ، يصغره باثنين و عشرين عاما، و ما بينهما سبع إناث، لكل منهن مخصصات ثابتة، تصلها في وقت معلوم، و هدايا، و سفرة في شهور الصيف إلى بلد بعيد.

الشيخ دائم الاطلاع على أحوالهن، في نهاية كل أسبوع، ظهر الجمعة يلتقين في قصره يصحبهن أزواجهن وصغارهن، كثيرا ما يتغيب الشقيق الأصغر عن هذا اللقاء، إنه في حركة دائمة، واجتماعات، حتى في أيام عطلته، عابس دائما هو، لا يبتسم إلا نادرا، هو من يلتقي بالعملاء والخبراء، خاصة الأجانب، لايمكن صرف أي مبلغ قليلا كان أو كثيرا إلا بصك إذن ممهور بتوقيعه، إنه كثير الأسفار، خاصة إلى فرنسا، وهولنده، وإيطاليا، ومصر، وتايلاند، أما فسحته فيمضيها في النمسا، له في كل عاصمة مسكن، وأشخاص على أهبة لتلبية ما يرغب، والسعي من أجله، وفي المطار الخاص بطائرات علية القوم تقف طائرة معدة لتنقله حيثما شاء.

كان بينه وبين العاملين كلهم فاصلة، لا يقرب أحد، ولا يدنو منه شخص إلا بعد إذن، يكثر من إبداء الملاحظات القاسية، دائم المفاجأة لأقسام الشركة وإداراتها؛ لهذا خشيه دائما، وحرص على إبداء الاحترام الزائد في حضوره، وخلال السنوات الخمس الماضية أسمعه الكلام القاسي، وكثيرا ما رد إليه بعض ما صاغه من مواد دعاية طالبا إعادة كتابتها من جديد، مرة بحجة غلظة الأسلوب، ومرة لضرورة الاختصار، أو مراعاة الجهة الموجه إليها

الخطاب، وفى كل الأحوال لم يجادله قط، كان يمتثل، ويجتهد فى تلمس المطلوب منه بالضبط حتى ينفذه تماما، بل كثيرا ما يجاهر انتقاد نفسه ويؤكد أن ملاحظات سعادته نبهته إلى ما كان غائبا عنه، وأطلعته على ما جهل، وأن لمساته أضافت إلى النصوص عمقا وجمالا، لم يكتف بالتصريح على مسمع منه، وإنما أيضا عند حضوره مجلسا يضم بعضا ممن ينقلون إليه ويحصون الكلمات والأنفاس.

خمس سنوات أتقن فيها مداراة مشاعره، وإقصاء ما يتردد داخله عن ملامحه، أو معالم وجهه، وإذ ينتهى يومه، يخرج إلى الطريق، يولج مفتاح عربته، ويصغى إلى المحرك، يدركه انحناء كأنه يتقيأ، تعب غامض، كربه يعتريه، وإذا يلمح ولده قادما نحوه يود لو طرح كل مامر به، ألا يستعيده حتى، يتطلع إلى ابنه، قبل أن يصعد إلى المقعد الخلفى يقبل رأسه، غير مسموح له بالجلوس إلى جواره، يشم شعره. قالت أمه منذ شهور إن رائحة ابنه هى رائحته، وأنها عندما تستند برأسها إلى وسادته الصغيرة فكأنها تستنشق رائحته هو الذى تعرفها جيدا، تردد دهشة، ما أعجب الخلقة! لا يشعر بالراحة، إلا عند لمة الغداء، عندما يغلق باب البيت، ويصفو تماما إلى أسرته، إلى عالمه هذا الآمن، دائما إذ يعيد هناك، يعى أن مدته هنا محدودة، ومهما توالت السنون، فحتما وقته المنقضى فى الشركة يدركه إنهاك، نزف ما لا يمكن استعادته مغادرها يوما.

عند نزوله أول مـــرة ظن أنه لو أثبت أن والده من أهالى تلك

الديار فسوف يكتسب حقوقا تنأى به كغريب، تكون له الحرية المتاحة لناس البلد، يمكنه افتتاح مشروع صغير، أو يمارس تجارة، لكم حز في نفسه أول زمنه هنا أن كفيله كان رجلا أصله من سنغافورة، لم يحصل على الجنسية إلا منذ سنوات قريبة، غير أن فتح الحديث عن ماضى والده وأصله قد يثير متاعب جمة، أبسط ما سيواجه به، لماذا غاب أبوه هذه المدة؟ لماذا لم يعد؟ وقد يثير هذا أمورا بليت، وطال عمرها، كان مقتنعا أن المدة منقضية حتما، وأنه عند حد معين يتم فيه ادخار ما يؤمن أيام البنت والولد سيعود إلى مصر، إلى أيامه التى تبدو له أحيانا واعدة إن تخيلها قادمة، ومعزية إن استعادها، ألم يفض في غياهب الليل إلى امرأته بضيقه أن يكون له كفيل؟ حنقه ألا يمكنه مغادرة المدينة إلا بإذنه، حرصه ألا يرتكب أقل خطأ، أن يتحمل أى افتراء يتعرض له من الصغير أو الكبير هنا، يقول لها إنه يعذر الحلبى، تحيطه عندئذ تهدهده كأنه وليدها، تقول له: فات الكثير، لم يتبق إلا القليل، عندئذ يرحل إلى هذه اللحظات المرتقبة، عندما يدخل على الشيخ الكبير، سيرتدى حلة جديدة، سيبدو فى هيئة مختلفة، سيجلس أمامه، يصغى إليه، سيلحظ الشيخ بفطرته، بفراسته أن ثمة شيئا يخفيه عنه، يسأل، مالك اليوم؟ لن يخبره مباشرة، إنما سيبدأ يشكره، إذ أتاح له الرجل الكريم فرصة العمل، وأسبغ عليه من فيضه، وقربه منه حتى ليشعر تجاهه وكأنه ابن يواجه أباه، لكن . . هنا سيتغير صوته، يتبدل إيقاعه . . الزمن له ضرورات وأحكام، ابنته الكبرى حصلت على الإعدادية، لابد أن تلتحق بإحدى مدارس مصر الثانوية، تمهيدا للجامعة، طال عمره، كما أن والده

بلغ من العمر عتيا، ولابد أن يكون بجواره، رتب أموره فى مصر، إذ ادخر مبلغا مناسبا، سيفتتح مشروعا صغيرا، مكتبا لنسخ الرسائل والخطابات، وتصوير المستندات بالطبع، هذا المبلغ المدخر نتيجة لفيضه، لكرمه. . .

سيتوقف عند هذا الحد، لأول مرة سينظر إلى الشيخ من خلال حدقتين مفتوحتين، غير هيابتين، ربما صمت الرجل، ربما حاول إقناعه بالبقاء، ربما طلب منه السعى لإقناع والده بالعودة، عندئذ يحصل على الجنسية، يمكنه العيش مع أولاده، ستكون لهم كافة الحقوق، السفر دون مساءلة، الانتقال من مدينة إلى مدينة، يمكنه أن يبدأ أى نشاط تجارى لحسابه، والخروج بما يريده من نقود، ولن يمشى فى الطريق حريصاعلى ألا يثير مشكلة أو يتحرش به أحد، أو ينأى عن الشرطة.

سيقول للشيخ إنه بذل المحاولة مع أبيه، لكنه أبى العودة، طبعا لن يفصح عن الأسباب الكامنة عند والده، سيقتنع الشيخ، سيقربه منه يصافحه، وربما قبّل جبينه، يستدعى مدير مكتبه، يطلب تسليم جواز السفر إليه، ربما يأمر له بمكافأة شخصية، وتسهيل إجراءات سفره. . .

كثيرا ما تخيل هذا الموقف النهائى، رتب لحظاته فى مخيلته، وثبت بعض تفاصيله، فى لحظات ما قبل النوم، أو عند جلوسه، وحيدا إلى مكتبه إثر ملاحظة قاسية وجهها إليه الشقيق الأصغر، أو تصرف بدأ منه فيه إقلال من شأنه، وحط منه، أو إهانة مباشرة أو غير علنية له، يعدل فى الحوار أو يغير من طريقة دخوله على

الشيخ، أو نبرة صوته إذ يصرح بعزمه، ومرارا تخيل الطائرة إذ تولى مقدمتها تجاه ممر الإقلاع، لحظة مفارقة العجلات تلك اليابسة بالذات، تتوالى المرئيات تباعا، توغل الطائرة، ينظر من النافذة المستديرة إلى الأرض التى تنأى، أقصى ما رغبه أن يحدد بنفسه ساعة المغادرة، أوانها، لا أن يرغم عليها كما جرى!

طوال العام الأخير كان يردد، أن ما فات أطول مما تبقى، ما سيأتى قريب، وما مضى بعيد، يكفى أن ما انقضى ذهب على خير، بعد شهور سيتسلم شقته التى دفع مقدمها منذ عامين، سيكون لهم بيت، بدلا من نزوله عند أم زوجته، اضطراره إلى مسايرة زوجها الذى لا يطاق، غتت، فضولى، لا يكف عن التلصص والنظر خفية، قالت امرأته إنها كانت تسد ثقب الباب خشية منه، وعندما تخرج من الحمام مبلولة تجده واقفا بمفرده فى الممر، وعيناه تفحان رغبة، كانت تخشاه! دائما صوته مرتفع، يمكن للماشى فى الطريق أن يسمعه، يتحدث عن مهاراته وتصرفاته المعيبة دائما، يخوض أحيانا فى السياسة يتوقف بين جملة وأخرى يستفسر عن ثمن قميص، أو نظارة، إذ يراه متأهبا للخروج، يهز رأسه مبروك يا عم! يؤكد له أن القميص قديم، عندئذ يضحك غامزا بعينيه، فيه حاجة قديمة هناك؟

عندما يأوى إلى الغرفة التى تفردها لهم حماته، لا يكف عن الذهاب والمجىء فى الممر، والحديث بصوت أجش، فى الصباح يقترح الذهاب ليلا إلى أحد الفنادق للعشاء، ثم يشير إلى صدره، أنا الداعى!

لم يتبق زمن طويل على تسلمه الشقة، سيكون بيتهم، بابه مغلق عليهم، أما الأولاد فسينتقلون إلى المدارس المصرية، فى نهاية العام القادم تنهى ابنته المرحلة الإعدادية، فى السنة ذاتها سيتم ابنه الدراسة الابتدائية، هذا مما ييسر الأمر، انتقالهما معا إلى المدارس المصرية، هذا ما خطط له، ما عمل على تحقيقه، مراعيا امرأته، البنت والولد. . . لكن ما يدبره المرء شىء، وما يخفيه القدر شىء، وما يعمل له الإنسان قد تأتى بعكسه الأيام. .

اليوم، فوجئ بالشقيق الأصغر يستدعيه، كثيرا ما استدعاه لمقابلته، وفى كل مرة يتوجس، يتأهل لسماع ملاحظة قاسية، الرجل لا يقربه، يضيق بتلك الدرجة من الخصوصية بينه وبين معالى الشيخ، دائما يبدى الجفوة، فى المصعد فكر، إنها المرة الأولى التى يستدعيه صباحا، اللهم اجعله خيرا!

عندما دخل المكتب رآه واقفا، على مقربة منه مدير مكتبه الأمريكى، أو مستشاره، صفاته عديدة هنا، أيقن أن شرا يلوح، وأن أمرا كريها يوشك على الوقوع، بادره مستنكرا:

«إيش ما فعلته؟».

لهجة باترة، متوعدة، لفظ ضامر، لم يتح له فرصة التلقى، للنطق. «ترسل مطبوعاتنا إلى دول كافرة؟».

اضطراب جلل بدا. . .

«أنا».

لم ير إلا الإصبع النحيلة متوعدا، منذرا.

«لا تكذب».

تابع..

«أمران حذرك منهما معالى الشيخ عند مجيئك، الكذب والسرقة»..

قال إن ما فعله يعرض الشركة للخطر، والأدهى إذا تكشف وجود جهة أجنبية، أو منظمة تخريبية، على أية حال التحقيق سيتم، كل شىء سيتضح.

يضغط زرا مستديرا، يدخل اثنان من رجال أمن الشركة، يتطلعان ناحيته مباشرة، كل شىء معد، مرتب، يفتح فمه ليتكلم، لكن الشقيق الأصغر يمد يده...

«ما عندك قله للشركة...».

يتطلع الأمريكى صامتا، ملامحه صارمة، دون شيئا ما فى الدفتر الذى يحمله، أحاطه الحارسان، يعرفهما، أحدهما تونسى، الآخر تايلاندى، بادلهما التحية مرارا، لكن أصابعهما قاسية حول ذراعيه، كأنهما لم يطالعا وجهه من قبل.

عند اقترابه من الباب صاح:

«والله العظيم لم أرسل».

يلكزه أحد الحارسين..

«هيا... هيا».

حجرة ضيقة، بدون نافذة، مليئة بصناديق من الورق المقوى، لم يستطع معرفة محتوياتها، تطبق عليه، لا تتيح إلا فراغا يسيرا يتحرك فيه، غير أن هذه مظلمة داخله تتسع شيئا فشيئا، بوغت، وما من فرصة للحوار، للإيضاح، للتوسل حتى.

فى تلك الغرفة بدأ أصعب زمنه، وأمر وقته، ماذا جرى؟ لم يشغله هذا بقدر ما أوجعه، وهمه أمر قد يبدو غريبا، يتعلق باللحظات القريبة باليوم نفسه. . من سيذهب إلى الولد ليرجع به إلى البيت؟ منذ سنوات لم يختل النظام، لم يتخلف عنه يوما، لم يطل عبر أسوار المدرسة إلا رآه فى انتظاره، من سيصحبه اليوم، من ؟ سيقف الولد، سينظر عبر السور، لن يرى أباه، لن يلمحه قادما، سينصرف الأولاد، كلٌ إلى العربة التى جىء بها إليه، إلى عربات المدرسة، لكنه غير مشترك فيها، لا يعرف الطريق إلى البيت مع أنه قريب، سينصرف الأولاد كلهم، سيصبح فناء المدرسة خاويا، لن يتبقى إلا هو!.

إلى من سيلجأ؟ إلى البواب الهندى؟ مسكين، سيهدئه البواب، سيربت عليه، ربما رق له، عندئذ. . . إن قشعريرة تجتاحه، تزداد الهوة اتساعا، يستعيد سطورا قرأها عن اعتداء عمال أجانب على صبية صغار، القبض عليهم، اعترافاتهم، إذا كان الطفل من أهل البلاد تقطع عنق المغتصب، وإذا كان من أبناء الوافدين، أو الأجانب مثله، فربما لا تقبل الشرطة مجرد الإبلاغ عن الواقعة، يجز على أسنانه، يتخيل الإمساك بالولد عنوة، التغييرات الفزعة، ما سيتركه ذلك من آثار لا تمحى إذا بقى حيا

يسعى إذا تركه البواب ولم يخفه إلى الأبد، إن حالة من الرثاء تنتابه، كأن النبأ بلغه فعلا، كأن ما يتخيله تحقق.

وهنا وقع أمر غريب، لم يسمع به، ولم يسبق له، إذ غزر عرقه مع تعاظم خوفه، وتتابع دقات قلبه، ازداد تداخله فى بعضه، كأن قوة غامضة تدك مابداخله دكا، مويجات غريبة تسرى عبر ظهره على حوافها قشعريرة، وفى البؤرة منها ألم ولذة مرغم عليها، لم يسع إليها، لا إلى استثارتها أو بعثها، قذف كما يقذف عند الجماع، بقى مذهولا منهكا، مرتبكا مدركا أن خللا عنده وقع، وأن شيئا مستعصيا على التلف خسر!

إنه وحيد، منقطع، لسبب ما فكر فى صديقى دراسته، من بقى على صحبتهما فى مصر، كأنه يستغيث بهما، إذ يستدعيهما بالمخيلة، كأنه يناديهما، الأول ضابط خاض الحروب حتى وصل إلى رتبة العقيد، وآخر ما عرفه عنه أنه تقاعد، سيرته حسنة، أستاذ فى فنه، أما الثانى فطبيب لا يرد اسمه إلا بالخير، والثناء الجميل من أهالى الجمالية، والباطنية وكفر الطماعين والزغارى، ذلك أنه نشأ فى أسرة فقيرة، أتم دراسته بكلية الطب بعد جهد جهيد، باعت أمه ما ورثته من مصاغ قليل، ونحاس البيت، وأثاثه، وعملت فى البيوت غاسلة للثياب، وقضت الحوائج، وضنت باللقمة على نفسها، كانت تغسل جلبابها وتنتظره حتى يجف لترتديه، ذاقت المر إلا أنها لم تقصر فى حاجة ابنها حتى أنهى تعليمه وتخرج طبيبا، كان من أوائل زملائه، وعندما التحق بعمله فى مستشفى القصر العينى طلب من أمه أن تبقى فى البيت،

ألا تخرج إلى الأسواق، آن الأوان لتستريح، وعندما تسلم أول راتب مضى إلى سوق القماش فاشترى لأمه ما يسترها، هذا نذر قطعه على نفسه خلال ليالى الضنك والكد.

بعد سنة من تخرجه افتتح عيادة فى إحدى الحوارى القديمة، حدد الكشف أجرا زهيدا وكثيرا ما رده عند اتضاح أحوال المريض العسرة، بل يقدم الدواء مجانا مما يصله من عينات مجانية ترسلها إليه شركات الأدوية.

تيسر أمره، وراجت أحواله، واشترى أثاثا جديدا، وغسالة كهربائية وفرنا يعمل بالغاز بدلا من الموقد العتيق، لم يفارق الحى، إنما انتقل مع أمه للسكنى فى بيت فسيح مجاور، عن الحى القديم، واعتذر عن السفر، وكثر الثناء عليه، وطابت سيرته، لم ينقطع عن كتابة الخطابات إليه، وإرسال البطاقات فى الأعياد، إنهما أقرب صحبه فى هذا العالم، لكن ما أقصاهما، ما أبعدهما عنه، لا يقدر حتى على إسماعهما شكواه، على أن يخبرهما بما جرى وكان! حتى إذا لقى الطبيب صاحبه، إذا تجسد أمامه واقفا، كيف سيفضى إليه بما حيره، كيف سيقول له إنه ساب على نفسه؟ تساءل بصوت مرتفع . .

ماذا جرى لى؟

وبرغم غرابة مامر به، ما سمعه، ما عبره، فلم يشغله ذلك عن ولده، عن أسرته التى سيختل نظامها، كيف سيدبرون الأمر وما من مساعد أو معين؟ حتى الحساب فى المصرف باسمه، تابعين له فى جواز السفر، لا يمكنهم الرحيل إلا بصحبته، إلى من سلتجأ

امرأته، ربما إلى هذه المرأة زوجها مسئول فى مقر الإدارة، متزوج من ثلاث، إحداهن مصرية، ثرى، عنده مصنع لتعبئة الألبان، وآخر لأكياس البلاستيك، وثيق الصلة بالأمراء، بالنبلاء، بأصحاب المعالى من شيوخ الناحية، لم يره، لم يلتق به، لكنه سمع عنه من امرأته بعد زيارتها لزوجته المصرية، أخبرته بما عندها من مصاغ، من مجوهرات، من أزياء بلا حصر، تصور.. تشترى فساتين ولا تلبسها تصور!

إنها ذات صلة بامرأتيه الأخريين، هل يمكن لهذا الرجل التدخل، هل يقبل؟ لكن.. مقابل ماذا؟ ما الذى يدفعه إلى خصومة محتملة، هل يكفى ضغط زوجته عليه.

وإذا رضى، وتحدى، وأصبح كفيلا له ولأسرته، ماذا سيجرى بعد ذلك، يخشى أن يجرى له ما جرى للحلبى!

قام واقفا، إن خدرا لا يمكنه من فرد قدميه، يضطر إلى الوقوف منحنيا، بقعة البلل لم تجف فى سرواله بعد.

إلى متى سيبقى هنا؟ أى أمر سيحل به؟ فى أى مكان سيقضى ليلته؟ هنا.. أم فى دار التحقيق؟ أم فى السجن؟ السجون هنا تضم من لاحصر لهم، يلقون بهم بدون محاكمة فى انتظار عفو محتمل، ربما يصدر أو لا.

كم مضى حتى فتح الباب؟ لم يدر بالضبط، نظر فى الساعة، دهش، أهذا الوقت كله ساعتان ونصف لا غير؟ باق ساعة على انصراف الولد، لو يتركونه ليمضى إليه، ولو برفقة حرس، إنه فى

قرار سحيق، متأهب للارتماء أمام الشقيق الأصغر، فقط ليصطحب ابنه من المدرسة إلى البيت، ثم يمضون به إلى أى جهة، إلى أين المفر؟ مثله لا يمكنه الانتقال من مكان إلى مكان إلا بإذن من كفيله، بتصريح . .

اقتاده الحارسان، اتجها به إلى غرفة الشقيق الأصغر مباشرة، رآه يقرأ أوراقا، مرتديا نظارة طبية للقراءة، بدا مستغرقا، أو هكذا حاول أن يبدو، دقائق جهمة، ولسانه معقود فى فمه . .

«آه . . جئتم به؟» .

تراجع إلى الوراء قليلا، لمس أطراف أنامله بفتاحة خطابات، أومأ، مدركا، متوعدا، فى هذه اللحظة، فى خضم ضيقه، وخوفه، وارتباكه، فاض قلبه بكره، وحنين معا، رنا من مشارف البكاء عندما تذكر الناحية المؤدية إلى بيت صاحبه الطبيب فى تلك الحارة النائية، التى لا يدرى، هل سيراها أم لا؟ لكم بدت بعيدة، عزيزة المنال، فى هذا المكتب الفسيح العبق بعطور خفية، هبت عليه كل الروائح التى يمكن أن يستنشقها عندمروره المؤدى، تذكر العجوز المتقدم فى العمر، المتكئ على عصاه أثناء قعاده أمام دكانه الصغير الذى لا يبيع فيه إلا السجائر والحلوى، تذكر أقراصها الصغيرة وسنواته المولية فكاد ينوح . .

ـ «تعرف ما فعلت؟» .

ـ «يا . . . » .

ـ «اسكت، جرمك كبير، خطير . . » .

قال : إن ما أقدم عليه عقابه الوحيد الردع، السجن. . هذا يمس أمن البلاد ومقدساتها، يعرض الرجل الذى أحسن إليه للخطر، لابد أنه مدفوع من أحد الحاقدين، لكن ليفهم جيدا هو ومن يقف وراءه أن المؤسسة أقوى، وأقوى. . هل يذكر ما قاله معالى الشيخ عند مجيئك لترتزق؟ ألم يقل، لا تسرق ولا تكذب، وأنت بما فعلت ارتكبت ما هو أشنع، الخيانة.

تعال هنا. .

خطا إلى الأمام، يحيطه رجلا الأمن، لوح بفتاحة الورق، ابتعدا عنه، قال إنه من الممكن إرساله الآن إلى حيث لا يمكن لقوة فى الدنيا أن تعرف مكانه، ولكن. .

مع لكن هذه استنفرت حواسه، عند ولوجه الغرفة يتساءل عما ينتظره، وعندما بدأ يتكلم خيل إليه أن هذه التهديدات لن تتوقف، إنه لم يتوقع قط هذه الكلمة «لكن»، إن دقات قلبه تهرع كل منها فى إثر الأخرى، كله مستنفر، باله يقظ، متهيىء لما سيقال، لن ينسى أبدا اللهجة التى قيلت بها «لكن» هذه، إنها حد، فاصلة. . نهاية وبداية.

قال إن معالى الشيخ عندما علم بالأمر غضب، أشد ما يثيره خيانة الأمانة وتبديد الوديعة، فما البال وقد أولاه أكثر من غيره ثقة، ومجالسة كادت أن تكون صحبة، لولا لطف الله.

قال إنه طالما حذر معالى الشيخ من الغرباء، لكن الرجل طيب القلب. هذا القلب الكبير، الطيب، تدخل منذ لحظات، قال: اطردوه فقط.

قال مختتما كلامه:

معالى الشيخ أنقذك من السجن، ربما مما هو أخطر، لكن كفالتك انتهت.

تعال..

وقع كافة ما قدم إليه من أوراق، لم يتح له التأنى للقراءة، لمح بسرعة سطورا تفيد أنه تسلم كافة مستحقاته، لم يدر ماذا تحوى الأوراق الأخرى؟

مضى به رجلا الأمن ليتسلما ما فى مكتبه من أوراق، قلبا جيوب سترته، تحسسا جسده، وعندما تركاه بمفرده أمام مدخل المبنى تلفت حوله غير مصدق غير واثق، إلا أنه هرع إلى عربته موزعا، متفرقا، به فرح غريب لم يعهد مثله، لأنه أفلت، لأن ذروة الغمة لم تمتد، لأنه ماض إلى ابنه، لم يتأخر عن موعده اليومى، عنده أيضا مهانة بالغة لم يتعرض لها من قبل، لا يقدر على ردها، خجل لتخيله ابنته الكبرى واقفة على ما مر به، خوف غامض مما ينتظره، حيرة، اضطراب..

كيف سيرتب أمور أولاده؟ والمدارس، يتضاءل فرحه، الوضع المحدق انتهى ليواجه المتاعب الممتدة، يستقر به انكسار بغيض، وشعور بقلة الحيلة، وضعف القدرة.

إذ يستعيد ما جرى له عندما ساب على نفسه، وكأنه فقد عنصرا من صميم تكوينه، انفرط شىء من عقده، عكارة ثقيلة عنده حتى إنه لم يدر كيف وصل إلى المدرسة، عندما رأى البواب

اجتاحه كره، كأنه أتى بالفعل الذى تخيله، إنه فى حاجة إلى أعوام لكى يفهم، حتى يستوعب ما جرى له، لا يدرى ماذا يجب أن يقوم به، أى إجراءات ستطبق عليه غدا؟ الغد فقط متاح أمامه، بعده يمكن رميه فى السجن، والسجن هنا رهيب مفزع.

هو بعد هذا اليوم غير قبله . .

تقوم امرأته، إنه وحيد، خرجت لتهدئ الأولاد، إن فزعا يدركهما، يطبق عليه صمت ما قبل المغيب، أصوات باهتة قادمة من بعيد، إنه غريب، فى سجن وإن تباعدت جدرانه، بمنأى عن أى مساعدة، مقطوع، مجتث، إنه مظلوم، ربما تدارك معالى الشيخ الأمر، ربما يرق قلبه، يرسل إليه، يفاجأ بمن يجهله، يطرق باب بيته، يطلب منه أن يصحبه، يمضى معه بعد تردد، تقطع العربة طريقا طويلا، تتوقف أمام بيت فى أقصى الضاحية محاط بسور، لأول مرة يدخله، يبقى مدة منتظرا، وعندما يجيئه الإذن يعبر الباب إلى غرفة فسيحة رصت الحشايا بمحاذاة الجدران فى المواجهة يجلس معالى الشيخ، يبدو أقل حجما بدون عباءة يشير إليه، يطلب منه أن يقعد، يتردد، إلا معاليه يقول مباشرة بدون لف، بصراحة بدوية: يا بنى نحن غلطنا فى حقك، ثم يقول، فى الأمر دسيسة، يصيح مناديا شقيقه الأصغر، يجىء متباطئا . . يأمره بالاعتذار، إذ يلمح تردده ينهره، لكنه يقوم واقفا، يتقدم من الأخ الأصغر، لا يريده أن يصل إلى لحظة الاعتذار، حتى لا يتسرب إليه أى شعور بالمهانة، حتى لا ينقلب عليه عند أول سانحة، يصافحه، بينما تذرف عيناه دموعا ذات معنى، أخيرا،

تثبت براءته، ومعالى الشيخ يعتذر له، بل يدعوه ليتناول لقمة معه.

غير أنه يفاجأ بامرأته تقف أمامه، متأهبة، ترتدى ثوبا حريريا اشتراه عندما حصل على إذن ورحل إلى العاصمة منذ ستة شهور، ملامحها صارمة، تتناول العباءة السوداء، فى هذه اللحظة لم يفته رغم إنهاكه وحزنه ملاحظة أمرين وإن تباعدا، ذلك أنه فوجئ بتألق جمالها، فكأنه يراها بعد غيبة. أما الثانى فبداية أمر لم يبد مضمونه بعد، يعنى أن المبادرة تنتقل بدرجة ما إليها، استوثق ذلك عندما أصغى إلى إيقاع صوتها شبه الآمر..

«قم معى...».

تقترب، تقعد عند حافة السرير محاذرة أن يتكرمش ثوبها، تقول إنها فكرت فيما جرى، مهلة أربع وعشرين ساعة ظلم، يجب ألا يستسلما، ألا يعنى هذا تقصيرهما فى حق البنت والولد.. وإذا وجد من يمكن اللجوء إليه ويتقاعسان عن ذلك فذنبهما هنا أعظم، لاحظ يديها المبسوطتين، تشيران فى هيئة محددة، تعرف ما تقول قولها فصل، هنا أيقن بما انتابه عند ظهورها المفاجئ، تقدمها لتمسك بالزمام، حام داخله خوف لم يعهده غير أنه تساءل عما يمكن عمله؟

قالت إنها ستذهب إلى امرأة هذا الرجل، إنه موظف كبير فى الهيئة التى تدير شئون المدينة، لكن المقصود ليس هو، إنه وثيق الصلة، بل إنه النديم الحقيقى لأمير الناحية، وينوب عنه فى تدبير عديدمن المصارف والشركات، تقول:

لحسن الحظ لم أقطع معها، أودها من حين إلى حين . .

ثم تقول :

لا تنس أننا قفلنا على أنفسنا، لم نسع إلى معرفة أحد . .

لم يصحبها عندما مضت بمفردها إلى داخل البيت مرتفع السور، قبع خلف مقود العربة، ليل ثقيل، تباعد البيوت وترامى الخلاء الصحراوى الممتد ما وراء المدينة يزيده وحشة، هل لاح فى صوت امرأته احتجاج خفى، أو نقد ما؟ لا يدرى ماتقوله الآن، لكنه قلق عليها، نسيت أنه نصحها بالابتعاد عن زوجة الرجل خشية وحذرا .

منذ عام أسرت إليه أمرا، إحداهن شابة من هنا تعرفت بها، زارتها مرارا فى البيت، فى كل مرة تجيئها بهدية منتقاة، حقيبة جلدية، عطر باريسى، خاتم من ماس، لم تدخل عليها خالية اليدين قط، حتى حارت، كيف ترد على هداياها تلك .

فى أحد الأيام فوجئت بها تحمل صندوقا يحوى ملابس داخلية حريرية، راحت تستعرض ما فيه على مهل، تقلب القطع متمهلة، لمحت فى عينيها لعابا من نظرات أرجفتها، أما شفتاها فانفرجتا، قالت بصوت تتحفز فيه الرغبة، إنها عندما رأت هذا الطقم فى السوق أدركت أنه صنع من أجلها، تخيلته على جسدها، فأصرت أن تهديه لها، ثم قالت : ممكن أشوفه عليك؟

تطلعت إليها صامتة، لا تدرى أى رد يمكنها النطق به؟ سمعت عن ذلك، عن انتشار مثل هذه العلاقات، لكن لم تتخيل دنو

الأمر منها يوما، كررت المرأة:

ممكن أتفرج؟

قامت واقفة، على شفتيها المتباعدتين المتمددتين ابتسامة تشجيع، توسطت الحجرة، اقتربت منها، فجأة شلحت ثوبها إلى أعلى، بان فخذها، كانا نحيلين، سمراوين، قالت إنها ترتدى مثله، ثم قالت بلهجة مصرية، أتقنتها من فرجتها على الأفلام.

«قومى ورينى.. بتتقلى على حبيبتك؟».

خافت، لم يمر بها مثل ذلك، قالت يومها إن ما تدعوها إليه حرام، ثم قامت، خرجت من الغرفة، مضت إلى صوان حاجاتها، ردت إليها هداياها، وقعدت صامتة لا تنظر إليها، لا تلفظ كلمة، حتى بدا ارتباكها.

قبل اجتيازها الباب، قالت كلمة واحدة، أودعتها حنقها ورغبتها المحبطة:

«غبية!».

أهى تلك التى تجلس إليها امرأته الآن؟ مثلها؟ على أية حال هن نساء، تلك امرأة وهذه امرأة، يتوقف لحظة، أليس فيما خطر له لا مبالاة، لا يعرف إلى من تجلس امرأته الآن، بأى لهجة تقص ما جرى، وبأى لهجة سترجو؟

الليل يوغل، والفراغ حوله سحيق، هل سترجع لتخبره بكفيل جديد؟هل ستأتى وتجلس بجواره صامتة شأنها عندما تنجز أمراً

ما، تؤجل الإخبار به دقائق.

هل سيأتى الأسبوع القادم وهم هنا، أم مبعدون، أم هو فى ناحية وأهله فى ناحية؟

هل تنجح، ويكفله سيد جديد، رجل لا يعرفه، يحيط به وبأموره؟ عندئذ، ربما يجرى له ما جرى للحلبى! الحلبى الذى لن ينسى نظرة عينيه أبدا.

وفيما يلى ما جرى للحلبى

. . وأمره ذائع، معروف فى تلك المدينة، جاء من حلب، وكان هادئا، لا يختلط بالخلق، فى حاله، منطو على أمره، عرف بمهارته الفائقة فى صنع صنفين: البقلاوة، والكنافة بالجبن.

عمل عند رجل من أهل البلاد، موظف فى دائرة الأوقاف، إلا أنه يستثمر ماله فى أمور شتى، فمن ذلك مصنع لتعليب التمر وحشوه باللوز، ومتجر لبيع الأدوات الكهربائية، ودكان لبيع الحقائب بكافة أنواعها، وآخر لبيع الملابس النسائية، ومصنع صغير يتبعه معرض للحلوى، وفى هذا عمل الحلبى، ومنه خرجت الحلوى التى راج أمرها، حتى قيل إن الرجل إذا أراد التقرب من امرأته حمل إليها صينية كنافة أو بقلاوة من صنع الحلبى!

وذات عصر أرسل أمير الناحية فى طلبه، ليعد الصنفين، يومها أظهر الحلبى مكنون براعته، وخلاصة قدرته، حتى تساءل الضيوف عن مصدر الحلويات الشهية، طبيعة الرائحة وصانعها،

وقيل إنهم مسحوا ما تبقى فى الصوانى، ولحسوا أصابعهم حتى لم تعد بحاجة إلى تجفيف أو غسيل، فلما علم صاحب المصنع ذلك قلق واضطرب أمره، إذ خشى أن يرسل الأمير فى طلب الحلبى بمطبخه، أو يقدم أحد المقربين منه على افتتاح مصنع يتولى إدارته فينافسه ويطغى عليه، ويقال إنه كره اقتراب عامل عنده، تابع له، من الأمير.

المهم . . استدعاه، وطلب منه تسليم ما عنده، وإرجاع ما فى أمانته، طلب منه مغادرة البلاد كلها خلال ثلاثة أيام، لا تزيد بساعة واحدة، وإلا تعرض للمطاردة والملاحقة والسجن، أبلغ الشرطة بإنهاء كفالته له.

فوجئ الحلبى، وكان قد رتب أموره، إذ استأجر بيتا من ثلاث حجرات، واشترى بالدين فرشا وأدوات مطبخ، وجهاز تليفزيون ملون بعد قدوم عائلته، كانت امرأته حلبية، بيضاء، جميلة، ساهمة الحضور، عذبة الصوت، فى عينيها ألق ومعنى، أما ابنته فتنبئ ملامحها بسعى أنثى مكتملة على الرغم من عمرها الذى لم يتجاوز عشرة أعوام، العجيب أن شقيقها الذى يصغرها بعامين كان ينافسها فى جمال ملامحها، ونعومة شعرها، كذا غزارته، وأنس القسمات، كان رشيقا، أطول ممن يماثلونه عمرا، وقاد البديهة، سريع الحفظ، طويل التأمل، مشهود له بالفطانة، والتفوق على أقرانه فى المدرسة، ومعظمهم من أهل هذه البلاد.

كان الحلبى يردد دائما أن روحه فى هذا الولد، كان يحمله بين يديه عندما كان طفلا، يغير لفائفه، ويطعمه، ويصبر عليه حتى يتم رضاعته من زجاجة اللبن.

كان يقول إنه عاش هجاجا، ينتقل من موضع إلى موضع، ، ومن ديار إلى ديار، وإنه لم يخل بنفسه إلا بعد مجيء ابنه، حتى كف عن السهر في المقاهي، صار أحلى زمنه عندما يغلق باب بيته ويخلو إلى أهله، حتى إنه كان يحبو على أربع ويحملهم أوقاتا فوق ظهره، يداديهم ويناغيهم.

كان أشد ما يعول همه، ويقض طمأنينته، أن يموت فجأة. . كان يصلي ويردد دائما إنه يرجو خالقه إطالة عمره حتى اليوم الذي يدخل جيب ولده أول قرش من عرقه، عندئذ يمكنه إغماض عينيه مطمئنا، لكن صغر البنت والولد، وطول السنوات المرتقبة، وبعد المسافة، وعسر الأحوال، واعتماده واتكاله على مهارة يديه وحسن صنعته، مع انعدام الضمان، وانتفاء الأمان، لو أصابه وهن ، لو كف يوما واحدا عن العمل لما تقاضى أجرا، هذا كله جعله يفكر في تكوين حاجة للزمن. مبلغ يقي عائلته شر الحاجة إذا قضى نحبه فجأة، يمكنه من افتتاح محل ولو صغير، دكان يقف فيه ليبيع الكنافة المحشوة بالجبن، تخصصه الأول، يمكن لامرأته أو ابنه الوقوف فيه بعده، مثل هذا يحتاج قدرا من المال. عمله باليومية لا يمكنه من ادخاره، لهذا بذل الجهد والسعاية حتى جاء هذه الديار.

هنا كف عن بعض عاداته التي لزمها في بر الشام، من ذلك صحبه ابنه في أوقات فراغه، عرف عنه ذلك، لم يكن يرى شوارع الشام إلا ويده ممسكة بيد ولده.

كف عن ذلك هنا بعد أن سمع ما يتردد إن همسا أو علنا خاصة بعد صلاة الجمعة عندما يبث المذياع أنباء تنفيذ أحكام الإعدام،

فى رجال اغتصبوا فتيانا أو سرقوا، كان يتحاشى المرور أمام الحجر المستطيل عند الركن الأيمن خارج المسجد الكبير، هنا كان يتم تنفيذ أحكام الإعدام جهارا، علنا، وبالسيف، كان معظم المتهمين من الغرباء، آسيويين، أو عربا من أقطار أخرى، وقلة نادرة من أهل البلد.

كان إذ يكتشف أن الضرورة قادته إلى هذا الموضع يولى مسرعا، أو يفسح الخطى، مرة لمح الحجر الذى تسقط فوقه رأس الضحية، وخيل له أنه رأى آثار دماء، فهل حال عنده أو خطر له أنه يوما سيمثل هنا؟

لا أدرى، ولا يمكننى الجزم، ولكنه تجنب الكافة، ولم يخالط الخلق، وحرص على مصاحبة ابنه حتى باب المدرسة، وخلال مشيهما معا بصّره وصرح له بما يمكن أن يلقاه ويتعرض له، كان لا يهدأ إلا بعد عودته فى نهاية يوم عمله، وإغلاقه الباب وانفراده بأسرته، كان لا يجد إنسانيته إلا عند اجتماعه بهم، وأنسهم به.

وعندما فوجئ بصاحب المصنع يرفع عنه كفالته له، ويطلب منه تسليم أمره، وإنهاء حاله، والرحيل، أصابته مسغبة، أوشك أن يلطم، أن ينوح كالنساء.

جرى هنا، وهرع إلى هناك، سعى إلى دار الإمارة، قابله عجوز ممن يدبرون شئون الأمير، ويصحبونه فى روحاته أو غدواته، ويقفون صامتين عندما يتناول طعامه، ويشخصون إليه عندما يبدأ اللقاء بضيوفه، تذكره الرجل برغم تقدمه فى السن، أشار بأصبعه مقطبا عينيه:

«أنت الحلبى «حق» الكنافة؟».

أومأ مجيبا، هو . . نعم، هو بعينه.

أشار العجوز بيده، هذا يعنى الأمر بالكف، مع أنه فى حاجة إلى النطق، إلى الشرح بعد أن لحقه حال صعب، إلا أن العجوز قال ما طمأنه، لم يخاطبه مباشرة، إنما صاح مناديا أحد الحراس:

«اذهب مع هذا، منذ الآن هو فى كفالتى . . . .».

صحبه من له شأن عند الناس هنا، وعندما وقف صاحب المصنع على الأمر، بدا اضطرابه، مع أنه منيع الرتبة، رفيع الوظيفة، إلا أنه ليس مقربا، ورسول الإمارة لا يمثل نفسه، إنما ينوب عمن يمشى فى ركابه، ويتقدم صفوفه، الأمير نفسه، لهذا بدا صوته آمرا، عندما طلب تسليمه جواز السفر، وأوراق الكفالة، والتوقيع على ما يفيد ويوضح . .

منذ هذه اللحظة صار الحلبى إلى كفالة العجوز، كان رجلا نحيلا ذا لحية مدببة، متوسط الطول، يقول إنه تجاوز الثمانين، لكنه قادر على إشباع امرأة شابة مجربة . . والسر فى البصل . . إنه يفطر يوميا على الريق رطلا من البصل المشوى فقط لا غير . . كان المقربون منه يؤكدون ذلك مع أن علامات الشيخوخة جلية فى ملامحه، إذ يمسك فنجان القهوة المرة ترتعش يده فى الطريق إلى فمه حتى تكاد القهوة تنسكب لكنه إذا يمشى يدب ساعيا، وإذا غضب يسمع صوته من بعيد . .

غير أنه لم يكن مثل الكفيل الأول، بدا أشد صرامة، شديد

الفضول، ثقيل الوطأة، طلب من الحلبي ألا يلبي أي طلب ـ ولو خاصا ـ لصنع الكنافة أو البقلاوة، وأن يخبره مقدما بأي منطقة يتوجه إليها للمكث أطول من ست ساعات حتى لو داخل المدينة، وأن يوضح له الأماكن التي يرتادها، وتلك التي اعتاد المضي إليها، وألا يغادر المكان المخصص له داخل مطبخ القصر، وأن يسلمه هو شخصيا صواني الكنافة والبقلاوة، ليس إلى أي إنسان غيره، مفهوم؟ لو نمى إليه أنه أهدى مجرد قطعة صغيرة إلى أي شخص ولو كان الأمير نفسه سيلحق به أذى لا يمكن لمخلوق تصوره..

اضطر الحلبي أن يقسم مرات مؤكدا أنه لا يسهر إلا مع أسرته، ولا ينادم إلا ابنه وابنته وامرأته.

أبدى العجوز اهتماما، متى تزوج؟ هنا أو في حلب؟ من أكبر؟ الابن أو البنت؟ في أي مدرسة؟ هل أمهما شامية أو من بلد آخر؟ إذن.. لابد أن الأولاد في جمال القمر! الحق أن الحلبي تحرك في نفسه كره للرجل، وقلق ليس بالهين، خاصة بعد تكرار الأسئلة عن الأهل، إلى أن حل يوم قال فيه العجوز أنه سيجيء إلى البيت للتأكد بنفسه من كل كلمة قالها، سيمر عليه في الغد ليشرب عنده قهوة.

وجد الحلبي وجدا شديدا، وصار لا يدري ما يفعل، فهو لا يقدر على رد طلب الرجل الذي يبسط عليه حمايته، ويمسك بمقدراته، كما أنه لم يسمع بمثل ذلك، فكلمات العجوز بقدر ما تبدو حاسمة، موجزة، آمرة، بقدر ما تخفي معاني لم يستطع الوقوف عليها، وجلاء غموضها.

على أية حال . . كظم ولم يظهر، وبذل الجهد فى الإعداد لاستقبال العجوز، لم يخبر إنسانا بالزيارة، لا من زملائه ولا من الجيران، وعندما حانت اللحظة التى أعد لها العدة، تمنى لو ولت وانتهت بسرعة، دخلت امرأته حيية، خجوله، سافرة، تغطى رأسها طرحة بيضاء لا غير، تطلع إليها العجوز متفحصا، وعندما توارت الابنة الصغيرة وراء أمها، مد يده بجنيه ذهبى، ولما لم تلح بادرة تطلع إلى الأب، فأمر بدوره ابنته :

ـ «خذى . . خذى من سيدك» .

فأخذت البنت الجنيه وعضته بين شفتيها، وعندما دخل الولد وتقدم مادا يده، مصافحا، مبديا الجرأة، وكأنه يؤكد تقدمه فى العمر، وتجاوزه طور الطفولة، ردد العجوز :

ـ «ما شاء الله . . ما شاء الله . . كم عمره . . ؟» .

فقال الحلبى :

ـ « . . عشر سنوات . . » .

ردد الرجل :

ـ «ما شاء الله، ما شاء الله . . » .

أعطاه جنيها آخر من الذهب، وعندما انصرف بعد مقدار ساعة، قعد الحلبى ورأسه بين يديه، لم يكن طوال الزيارة مطمئنا، من طرف خفى كان يرصد نظرات العجوز، كلماته الثقيلة، البغيضة، إلا أن الزيارة لم تكن الأخيرة، إذ قال الرجل إنه آنس راحة عنده، وإنه منذ سنوات لم يرتح كما ارتاح فى هذا

البيت، لأن الناس لم تعد أحوالها كما كانت فى الزمن القديم.

صار يتردد بدون أن يخبر الحلبى مقدما، يدخل ويقعد، ويطلب قهوة مرة، ضغط الحلبى أموره، ثم أتى الرجل بهدية إلى امرأته، علبة قطيفة زرقاء على هيئة قلب، تحوى قلادة من الذهب المطعم بالفيروز، والمرجان، وقرطا وخاتما وسوارا، قال العجوز:

- «يا ابنتى أنا مثل والدك.. زوجك رجل طيب..».

وبرغم ضيق الحلبى وكتمانه الغيظ خوف الأذى، إلا أنه ارتاح لكلمات الرجل، وعلل النفس أنه يلقى فى بيته راحة، ربما لروح الأسرة، وحسن سمعتهم، وبعدهم عن المشاكل، ونقاء صفحته، بل إنه تغاضى عن مجىء امرأته وقعادها سافرة بدون غطاء للرأس حتى، مرتدية الروب الحريرى الخفيف، الذى كان يكشف بوضوح قاطع حواف سروالها، واستدارات ردفيها الممتلئين عند القيام، وعند القعود، لم يعد يتعجل انصرافها، خاصة أن العجوز لم يبد منه تجاهها ما يشين، كان يتصدر الحجرة متكئا على الحشية، بعد أن يخلع عباءته، وغترته.

ويبدو أن الحلبى استكان إلى حد ما، إذا كانت تلك هى الحدود فلا ضير ولا بأس.. وإن كانت مكروهة.

هل لاحظ الحلبى شيئا غير عادى فى تلك الآونة؟

لا يمكننى الجزم، ولكن تذكر امرأته أن توترا مضاعفا حط عليه عندما صافح العجوز ابنه أول مرة، واحتفاظه بعض الوقت بيد الغلام، بين يديه، النحيلتين، بارزتى العروق، المقدودتين،

كذلك عندما أصر العجوز على إلقاء بعض الأسئلة عليه لاختبار ذكاء الولد، وطلبه سماع بعض الآيات القرآنية التى يحفظها عن ظهر قلبه، واستحسانه للنطق والتلاوة، حتى إنه لم يكتف بالطبطبة على كتف الغلام، إنما قبله ودعا له . .

صحيح أن الحلبى كان يخشى على امرأته . . ولكن خوفه على الولد بدا أكثر. والحق أننى لا أقدر على جلاء هذه النقطة، فربما شعر من أول لحظة لكنه أضمر . . وكتم، ولم يسفر إلى أن حل هذا اليوم وكان فيه ما كان . .

إذ رجع الحلبى من السوق، ليجد العجوز . . سأل:

كم مضى عليه وهو قاعد مع الولد؟

قالت امرأته: ساعة أو أكثر. عندما دخل وجده يسلم على ابنه وابتسامة تقطر رغبة ولزوجة، بينما يطرق الصغير مضطربا، محاولا الابتعاد بجسده عن الملامسة.

قال العجوز للحلبى إنه لم ير تلميذا فى مثل ذكائه، من الخسارة ألا يتلقى قدرا من التعليم الراقى المخصوص، فى داره فرصة، لماذا لا يجىء ويقيم عنده، سيكفل أموره تماما، لن يعول هما له، سيعيش مع أحفاده لا ينقصه شىء سيرعاه بنفسه . .

لم يكن العجوز يقترح، إنما بدا كمن قرر أمرا، أو يقضى بحسم وضع، مد يده مداعبا الغلام الذى نفر فجأة متواريا وراء أبيه، خرجا معا، بكى ، وتحت إلحاح أبيه أفضى إليه بما جرى وكان، أخبر عن يد الرجل التى ملست عليه، واندست بين

فخذيه، عن الذعر الذى انتابه عندما طلب منه أن يبرز كل منهما عضوه، حتى يرى أيهما أطول؟ أصغى الحلبى مذعورا، ومن داخله طلع إلى دماغه غلب زمن طويل، حتى إنه أعتم فجأة.

لم يدم الأمر طويلا، من المطبخ جاء بالسكين الحامية، إلى الغرفة دخل، ثم تقلبت الحكاية فى البلاد، برغم أن تفاصيلها لم تنشر قط، وقيل بين ما قيل إنهم نوعوا العذاب للحلبى، وأن شرطيا أسود اغتصب الغلام على مرأى من أبيه، وأنه سمع بأذنيه ابنه، يصرخ من ألم اللواط به، وهذا أصعب عليه من اقتياده موثقا إلى الميدان الكبير عقب صلاة الجمعة، وتمزيق ياقته، وبسط عنقه قبل أن ينخسه الجلاد بالسيف فى ضلوعه.

فى هذه اللحظة بالذات التقت عيناه بعينى الشاب الذى قصصنا جانبا مما جرى له فى الحكاية السابقة.

عينا الحلبى فى آخر لحظاته ألحتا عليه أثناء انتظاره لامرأته فى السيارة وعيشة المساء تغمره، عينان مزرورتان، شاخصتان، جامدتان أو مرعوبتان.. لا يدرى، ما شغله يومها، وحتى ما تردد أثناء وقفته هذه، كيف رآه الحلبى؟ وبقدر ما خشى هذه النظرة، بقدر محاولته استرجاعها.

على أية حال، الأمر يطول شرحه، ولكن المؤكد، المقطوع به، أن الحلبى لم يعد قط إلى بلده، قضى غريبا، أما الشاب هذا فلم أقف على أحواله فيما تلا ذلك. كان ممكنا أن تمضى أحوالها بخلاف ما جرى لو أن حادثا تقدم عن موعده، لو أن ترتيبا بسيطا أخلف، وقبل ذلك.. لو أن الظروف لم تكن تلك الظروف.

ولكن . . ما وقع . . وقع، وما سيجرى، سيجرى، وما شاء الله كان، وقد كان ممكنا لى أن أمضى فى ذكر ما جرى لكثيرين، عرفتهم . . إما قبل وإما أثناء وإما بعد هذا العقد الغريب، المضطرب، أقصد زمن السبعينيات، لكننى أخاف الإطالة، وأخشى الإملال.

لهذا رأيت الوقوف عند هذا الحد، والاكتفاء بذلك القدر من رسالتى التى أوجهها إلى من أجهل، إلى من لن ألتقى به، إلى من لم يعش زمنى، إلى من لم يلقه حظه الطيب فى وقتى.

ولكن فى البدء ليس لنا خيار، كذا فى الانتهاء.

فما شاء الله كان، منه نستمد العون، فسبحان من لا يدركه التبديل، العليم بأحوال العباد، هو حسبنا ونعم الوكيل . .

كان الفراغ من التحرير ليلة الثلاثاء أول أيام شوال، عيد الفطر المبارك، عام ألف وأربعمائة وثمانية للهجرة. الموافق ألفا وتسعمائة وثمانية وثمانين للميلاد . . .

والسلام

تمت

«رب تَمِّمْ بخير»

صدر للكاتب

١ ـ أوراق شاب عاش منذ ألف عام		مجموعة قصصية
الطبعة الأولى	١٩٦٩	
الطبعة الخامسة	١٩٨٧	(صدر في بغداد ـ بيروت ـ القدس المحتلة عن دار صلاح الدين)
الطبعة السادسة	١٩٩١	القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢ ـ أرض.. أرض		مجموعة قصصية
الطبعة الأولى	١٩٧٢	القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب
الطبعة الثانية	١٩٨٠	بيروت ـ دار المسيرة
الطبعة الثالثة	١٩٩١	القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب
٣ ـ الزويل		قصة طويلة
الطبعة الأولى	١٩٧٤	بغداد ـ وزارة الإعلام
الطبعة الثانية	١٩٨٠	بيروت ـ دار المسيرة
الطبعة الثالثة	١٩٨٧	القاهرة ـ مكتبة مدبولى
الطبعة الرابعة	٢٠٠٦	دار الشروق
الطبعة الخامسة	٢٠٠٧	دار الشروق
٤ ـ الزينى بركات		رواية طويلة
الطبعة الأولى	١٩٧٤	دمشق ـ وزارة الثقافة
الطبعة الثانية	١٩٧٥	القاهرة ـ مكتبة مدبولى
الطبعة الثالثة	١٩٨٥	القاهرة ـ دار المستقبل العربى
الطبعة الرابعة	١٩٨٨	القاهرة ـ كتاب اليوم ـ مؤسسة أخبار اليوم
الطبعة الخامسة	١٩٨٩	القاهرة ـ دار الشروق
الطبعة السادسة	١٩٩١	تونس ـ دار الجنوب
الطبعة السابعة	١٩٩١	بغداد ـ دار الشئون الثقافية
الطبعة الثامنة	٢٠٠٥	دار الشروق
٥ ـ وقائع حارة الزعفرانى		رواية طويلة
الطبعة الأولى	١٩٧٦	القاهرة ـ دار الثقافية الجديدة

الطبعة الثانية	١٩٨٦	القاهرة ـ مكتبة مدبولى
الطبعة الثالثة	١٩٨٧	بغداد ـ دائرة الشئون الثقافية
الطبعة الرابعة	١٩٩١	القاهرة ـ مكتبة مدبولى
الطبعة الخامسة	٢٠٠٦	دار الحوار اللاذقية
الطبعة السادسة	٢٠٠٨	دار الشروق
٦ ـ الحصار من ثلاث جهات		مجموعة قصصية
الطبعة الأولى	١٩٧٥	دمشق ـ اتحاد الكتاب العرب
الطبعة الثانية	١٩٨٠	بيروت ـ دار المسيرة
الطبعة الثالثة	١٩٩١	القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب
٧ ـ حكايات الغريب		مجموعة قصصية
الطبعة الأولى	١٩٧٦	القاهرة ـ كتاب مجلة الإذاعة
الطبعة الثانية	١٩٨٠	بيروت ـ دار المسيرة
الطبعة الثالثة	١٩٩١	القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب
٨ ـ ذكر ماجرى		مجموعة قصصية
الطبعة الأولى	١٩٧٨	القاهرة ـ مكتبة مدبولى
الطبعة الثانية	١٩٨٠	بيروت ـ دار المسيرة
الطبعة الثالثة	١٩٩١	القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب
٩ ـ الرفـــــاعى		روايـــة
الطبعة الأولى	١٩٧٨	القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب
الطبعة الثانية	١٩٨٠	بيروت ـ دار المسيرة
الطبعة الثالثة	١٩٩١	القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب
١٠ ـ خطط الغيطانى		روايـــة
الطبعة الأولى	١٩٨٠	بيروت ـ دار المسيرة
الطبعة الثانية	١٩٩١	القاهرة ـ مكتبة مدبولى
١١ ـ كتاب التجليات (السفر الأول)		روايـــة
	١٩٨٣	القاهرة ـ دار المستقبل العربى
		بيروت ـ دار الوحدة العربية
		روايـــة

١٢ ـ كتاب التجليات (السفر الثانى)	١٩٨٥ القاهرة ـ دار المستقبل العربى
	روايـــة
١٣ ـ كتاب التجليات (السفر الثالث)	١٩٨٧ القاهرة ـ دار المستقبل العربى
كتاب التجليات: الأسفار الثلاثة (مجلد)	١٩٩٠ القاهرة ـ دار الشروق
	٢٠٠٦ دار الشروق
١٤ ـ إتحاف الزمان بحكاية جلبى السلطان	مجموعة قصصية
الطبعة الأولى	١٩٨٥ القاهرة ـ دار المستقبل العربى
الطبعة الثانية	١٩٩٠ القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب
١٥ ـ رسالة فى الصبابة والوجد	روايـة
الطبعة الأولى	١٩٨٧ القاهرة ـ روايات الهلال
الطبعة الثانية	١٩٩٠ القاهرة ـ دار الشروق
١٦ ـ رسالة البصائر فى المصائر	روايـة
الطبعة الأولى	١٩٨٨ القاهرة ـ روايات الهلال
الطبعة الثانية	١٩٩٠ القاهرة ـ مكتبة مدبولى
الطبعة الثالثة	٢٠٠٨ دار الشروق
١٧ ـ شطح المدينة	روايـة
الطبعة الأولى	١٩٩٠ القاهرة ـ روايات الهلال
الطبعة الثانية	١٩٩١ القاهرة ـ دار الشروق
١٨ ـ هاتف المغيب	روايـة
الطبعة الأولى	١٩٩٢ القاهرة ـ روايات الهلال
١٩ ـ ثمار الوقت	مجموعة قصصية
الطبعة الأولى	١٩٨٩ القاهرة ـ كتاب اليوم
الطبعة الثانية	١٩٩٠ القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب
٢٠ ـ أسفار المشتاق	أدب رحلات
	١٩٩٢ القاهرة ـ دار سعاد الصباح
٢١ ـ متصف ليل الغربة	مختارات قصصية
مختارات فصول	١٩٨٤ القاهرة ـ الهيئة المصرية للكتاب

٢٢ ـ أحراش المدينة		مختارات قصصية
كتاب اليوم	١٩٨٠	القاهرة ـ مؤسسة أخبار اليوم
٢٣ ـ المصريون والحرب من صدمة يونيو إلى يقظة أكتوبر		دراسات ومشاهدات
كتاب روز اليوسف	١٩٧٤	القاهرة ـ مؤسسة روز اليوسف
٢٤ ـ حراس البوابة الشرقية (الجيش العراقى فى حرب أكتوبر)		دراسات ومشاهدات
الطبعة الأولى	١٩٧٥	القاهرة ـ مكتبة مدبولى
الطبعة الثانية	١٩٧٥	بيروت ـ دار الطليعة
٢٥ ـ نجيب محفوظ يتذكر		
الطبعة الأولى	١٩٨٠	بيروت ـ دار المسيرة
الطبعة الثانية	١٩٨٧	القاهرة ـ مؤسسة أخبار اليوم
٢٦ ـ مصطفى أمين يتذكر		
	١٩٨٠	القاهرة ـ مكتبة مدبولى
٢٧ ـ ملامح القاهرة فى ألف عام		
الطبعة الأولى	١٩٨٣	القاهرة ـ كتاب الهلال
الطبعة الثانية	١٩٨٤	القاهرة ـ مكتبة مدبولى
٢٨ ـ أسبلة القاهرة		
٢٩ ـ مقامات بديع الزمان الهمذانى (تحقيق الإمام الشيخ محمد عبده)		دراسة ومراجعة
	١٩٨٨	القاهرة ـ مؤسسة أخبار اليوم
٣٠ ـ شطف النار		مجموعة قصصية
	١٩٩٦	القاهرة ـ هيئة قصور الثقافة
٣١ ـ مختارات أبى حيان التوحيدى		
	١٩٩٣	القاهرة ـ المجلس الأعلى للثقافة
٣٢ ـ توفيق الحكيم يتذكر		
	١٩٩٤	القاهرة ـ المجلس الأعلى للثقافة
٣٣ ـ مطربة الغروب		مجموعة قصصية
	١٩٩٦	القاهرة ـ دار الحضارة العربية
٣٤ ـ سفر البُنيان		رواية
	١٩٩٧	القاهرة ـ روايات الهلال

٣٥ ـ حكايات المؤسسة	روايــة
	١٩٩٧ القاهرة ـ دار الشروق
٣٦ ـ الخطوط الفاصلة	ترجمة ذاتية
	١٩٩٧ القاهرة ـ الدار المصرية اللبنانية
٣٧ ـ خلسات الكرى (دفتر التدوين الأول)	
الطبعة الأولى	١٩٩٨ القاهرة ـ دار شرقيات
الطبعة الثانية	٢٠٠٠ القاهرة ـ دار الشروق
٣٨ ـ دنا فتدلى (دفتر التدوين الثاني)	
الطبعة الأولى	١٩٩٩ القاهرة ـ دار الحضارة العربية
الطبعة الثانية	٢٠٠٣ القاهرة ـ دار الشروق
٣٩ ـ متـــون الأهــــرام	٢٠٠٢ القاهرة ـ دار الشروق
٤٠ ـ حـــكاية الخبيئـــــة	٢٠٠٢ القاهرة ـ دار الشروق
٤١ ـ رشحات الحمراء (دفتر التدوين الثالث)	٢٠٠٣ القاهرة ـ دار الشروق
٤٢ ـ نوافذ النوافذ (دفتر التدوين الرابع)	٢٠٠٤ القاهرة ـ دار الهلال
٤٣ ـ نثار المحو (دفتر التدوين الخامس)	٢٠٠٥ القاهرة ـ دار الشروق

أعمال ترجمت إلى لغات أجنبية

١ ـ الزيني بركات

الطبعة الفرنسية	Edition Du Seuil
الطبعة السويدية	Norestad & Soners
الطبعة الإنجليزية	Penguin
الطبعة الهولندية	Unieboek
الطبعة النرويجية	Ascheoug
الطبعة الألمانية	Lenos
الطبعة الروسية	رادوجا
الطبعة البولندية	الدولة

كما ترجمت إلى العديد من اللغات الأخرى

٢ ـ وقائع حارة الزعفراني

ـ صدرت ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية، في سلسلة الأدب المعاصر عن الهيئة العامة للكتاب في القاهرة.

ـ صدرت باللغة الألمانية عن دار فولك ـ إندلخت.

ـ قصص قصيرة ترجمت متفرقة إلى اللغات: الفرنسية، الإنجليزية، الإيطالية، الإسبانية، العبرية، الألمانية.

ـ ترجمت الروايات التالية إلى عدد من اللغات:

١ ـ شطح المدينة
٢ ـ هاتف المغيب
٣ ـ متون الأهرام
٤ ـ رسالة البصائر في المصائر
٥ ـ كتاب التجليات
٦ ـ مقاربة الأبد

جــوائز:

ـ جائزة الدولة التشجيعية للرواية عام ١٩٨٠
ـ وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى
ـ وسام الاستحقاق الفرنسي من طبقة فارس ١٩٨٧
ـ جائزة سلطان العويس ١٩٩٧
ـ جائزة لورباتايون الفرنسية ٢٠٠٥
ـ جائزة جرزياتا كافور ٢٠٠٦
ـ جائزة الدولة التقديرية ٢٠٠٧

أعدت دراسات عن أعماله، في جامعات:

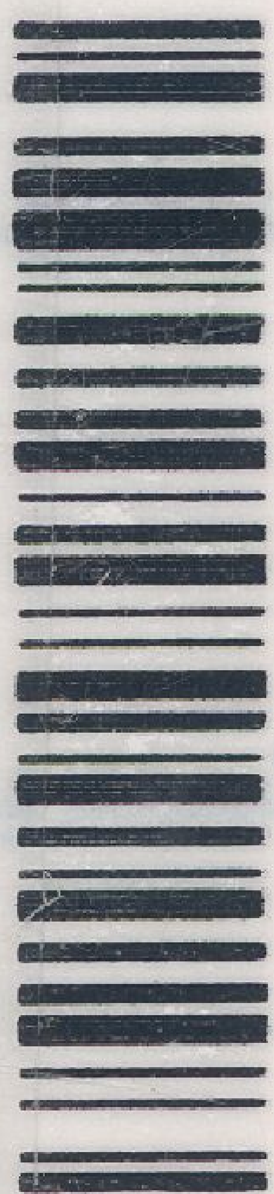
القاهرة، السوربون (باريس) ـ بيركلي (أمريكا)
محمد الخامس (الرباط) ـ جامعة لندن ـ جامعة مارتن لوثر
هاله (ألمانيا الديمقراطية) ـ جامعة ليبزج ـ جامعة أرلنجن (ألمانيا الغربية).
جامعة القاهرة، جامعة المنيا، أكاديمية الفنون، جامعة كولومبيا.

تمثل المغامرة الإبداعية لجمال الغيطانى واحدة من أخصب المحاولات الأدبية التى قام بها عضو بارز من جيل الستينيات، وقد قام بها أديب جسور لم يقنع بتبنى الأشكال الأدبية التى ورثها عن أسلافه. ولكنه بعد بداية تقليدية - وإن كانت لفتت الأنظار منذ وقت مبكر إلى موهبته، ونعنى مجموعته القصصية، «أوراق شاب عاش منذ ألف عام» - ألقى بنفسه فى محيط التجريب، الزاخر بالأخطار والتيارات العاصفة.

ستظل «رسالة البصائر فى المصائر» من أبرز الأعمال الأدبية فى الثمانينيات، التى أبرزت التحولات الكبرى فى المجتمع المصرى نتيجة الانفتاح الاقتصادى المشوه، وفى قطاع من المجتمع العربى نتيجة الثروة النفطية، بدأ الغيطانى الرواية بهذه العبارة الدالة «ما شاء الله كان»، ولكن تبقى «حاشية» لو قلدنا أسلوب المؤلف تتضمن سؤالا واحدا:

ترى كيف الخروج مما نحن فيه؟

يؤكد الغيطانى بهذه الرواية أن الأدب العظيم، هو الذى ... الأسئلة أكثر مما يقدم من الأجوبة.







دار الشروق
www.shorouk.com